

إرفين د. يالوم

مشكلة سبينوزا

ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

رواية

إرفين د. يالوم

مشكلة سبينوزا

رواية

ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

إرفين د. يالوم: **مشكلة سبينوزا**، رواية

إرفين د. يالوم، أستاذ فخري يدرّس علم النفس والتحليل النفسي في جامعة ستانفورد، ويمارس التحليل النفسي في عيادته الخاصة في سان فرنسيسكو وبالو ألتو، الولايات المتحدة الأمريكية. صدر له عن منشورات الجمل: **عندما بكى نيتشه**، رواية، ٢٠١٥؛ **علاج شوبنهاور**، رواية، ٢٠١٨.

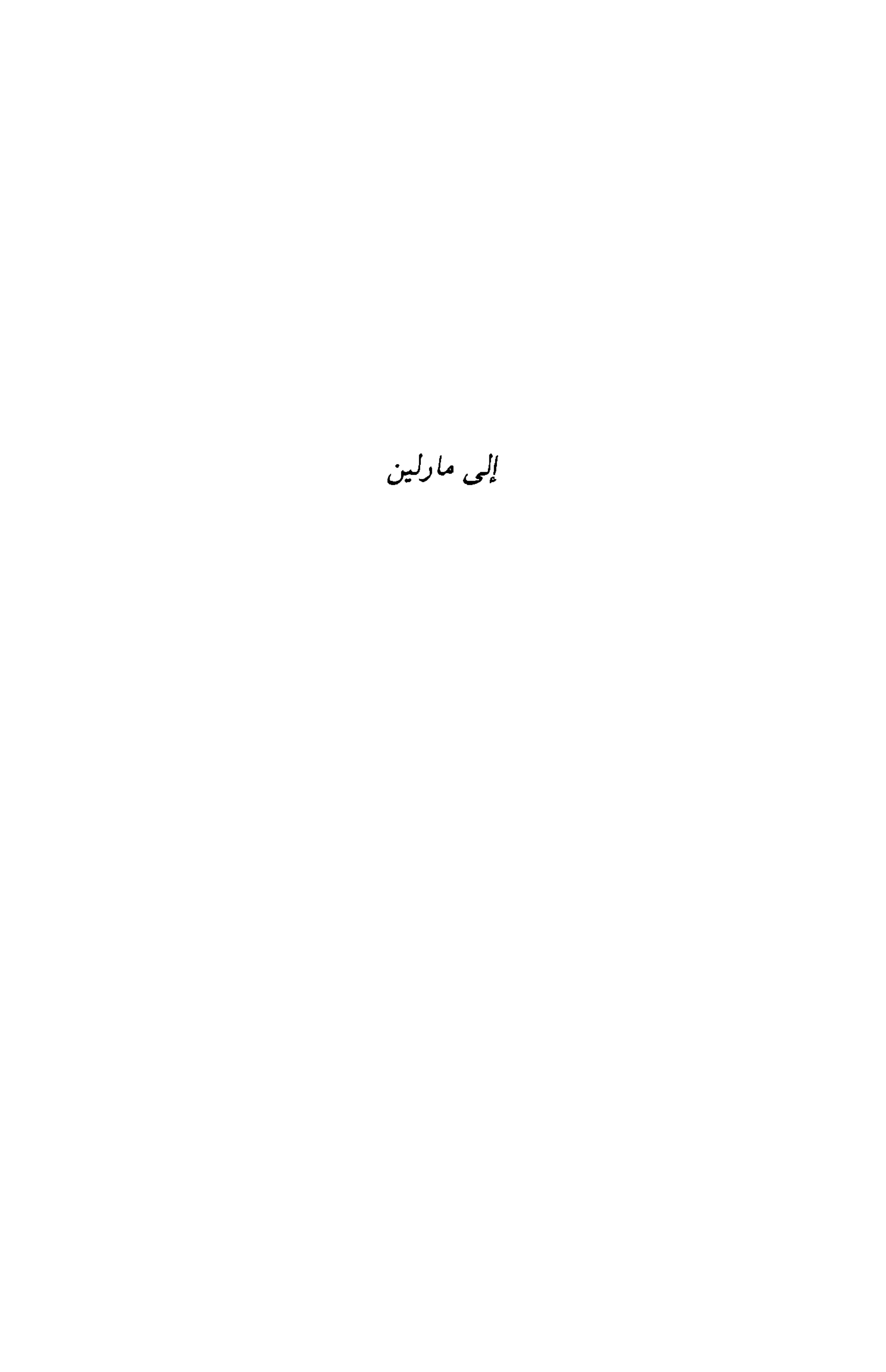
خالد الجبيلي، حائز على الإجازة باللغة الإنكليزية وآدابها من جامعة حلب، سورية. عمل مترجماً ومراجعاً في دائرة اللغة العربية، قسم المؤتمرات في الأمم المتحدة بنيويورك. في جعبته أكثر من ستين عملاً مترجماً.

إرفين د. يالوم: **مشكلة سبينوزا**، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: خالد الجبيلي

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Irvin D. Yalom: *The Spinoza Problem*, roman

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com



إلى مارلين

مقدّمة

طالما كنت مفتوناً ومعجباً بسبينوزا. وكنت أريد، منذ سنوات، أن أكتب عن هذا المفكّر الجريء الذي عاش في القرن السابع عشر وحيداً في هذا العالم - من دون عائلة، ومن دون مجتمع - وألّف كتباً غيّرت العالم. فقد توقّع العَلْمَنَة، الدولة السياسية الديمقراطية الليبرالية، وظهور علم الطبيعة، ومهّد الطريق إلى التنوير. وطالما سحرني موضوع نبذه من الطائفة اليهودية من قبل اليهود أنفسهم وهو في الرابعة والعشرين من عمره، وتعرضه للرقابة طوال حياته من قبل المسيحيين، وربما يعزى ذلك إلى ميولي المتطرّفة، المتمردة. وقد تعزز لديّ هذا الشعور الغريب بقربي الشديد من سبينوزا عندما علمت أن آينشتاين، أحد الأبطال الأوائل في حياتي، كان من أتباع سبينوزا. فعندما تكلّم آينشتاين عن الإله، فقد تحدّث عن إله سبينوزا - إله يوازي الطبيعة، إله يجمع العناصر كلها، إله «لا يلعب بالنرد مع الكون» - ويعني بذلك أنّ كلّ ما يحدث، من دون استثناء، يتبع قوانين الطبيعة المنظّمة.

وأعتقد أيضاً أن سبينوزا، شأنه شأن نيتشه وشوبنهاور اللذين كتبتُ عنهما روايتين تستندان إلى حياتهما وفلسفتهما، كتب أشياء كثيرة لها علاقة وثيقة بمجال تخصصي في طبّ الأمراض النفسية والتحليل النفسي - إذ إن الأفكار والآراء والمشاعر، مثلاً، ما هي

إلا ثمرة خبرات سابقة، وأنه يمكن دراسة العواطف بحيادية، وأن الفهم يفضي إلى التفوّق والتسامي - وقد أردت أن أحتفي بالإسهامات التي قدّمها بكتابة رواية فكرية عنه.

لكن كيف يمكنني أن أكتب رواية عن رجل عاش تلك الحياة التأمّلية من دون أحداث خارجية مميّزة؟ فقد كان شخصاً انطوائياً، منكفئاً على ذاته إلى حدّ كبير، وأخفى شخصيته في ثنايا كتاباته. ولم تتوفر لديّ مواد ومعلومات كافية تمكنني من كتابة رواية عنه - فلا توجد لديه أحداث مأساوية عائلية، ولا علاقات حبّ، ولا مشاعر غيرة، ولا حكايات غريبة مثيرة للاهتمام والفضول، ولا ضغائن، ولا مشاحنات، ولا لقاءات عائلية مهمة. ومع أنه كانت لديه رسائل متبادلة كثيرة، فقد نفّذ زملاؤه وصيّته وأزالوا كلّ جميع التعليقات الشخصية الواردة في تلك الرسائل تقريباً بعد موته. لا، لم تكن هناك أحداث كثيرة في حياته: ويرى عدد كبير من الباحثين أن سبينوزا كان روحاً هادئة ولطيفة - ويشبّه بعضهم الآخر حياته بحياة القديسين المسيحيين، بل حتى أن آخرين يشبّهون حياته بحياة المسيح.

لذلك عزمت على أن أكتب رواية تتناول حياته الداخلية، لأن خبرتي الشخصية تساعدني في رواية قصّة سبينوزا. فقبل كلّ شيء هو إنسان ولا بدّ أنه واجه الصراعات الإنسانية الأساسية التي تثير قلقي وقلق عدد كبير من المرضى الذين عالجتهم طوال عقود. ولا بدّ أنه عانى كثيراً من صدمة عاطفية شديدة بعد نبذه وطرده من الطائفة اليهودية في أمستردام وهو لا يزال في الرابعة والعشرين من العمر - قرار لا رجعة فيه يحتّم على كلّ يهودي، حتى أفراد عائلته، نبذه والإعراض عنه طوال حياته، ولا يكلّمه أي يهودي طوال حياته، أو أن يقيم علاقة تجارية معه، أو يقرأ أي كلمة يكتبها، أو يقترب من

وجوده الجسدي حتى خمسة عشر قدماً. وبطبيعة الحال، لا يستطيع أحد أن يعيش من دون حياة داخلية من التخيّلات والأحلام والعواطف والرغبة في الحبّ. ويخصص سبينوزا قرابة ربع عمله الهام كتاب *الأخلاق* لمسألة «التغلّب على عبودية العواطف». وبما أنني طبيب ومحلل نفساني، فإني على قناعة تامة بأنّه لم يكن باستطاعته أن يكتب هذا الفصل من الكتاب إن لم يكن قد عانى صراعاً واعياً في المشاعر الداخلية التي كانت تنتابه.

ومع ذلك فلم أشرع في كتابة هذا العمل لسنوات عديدة لأنني لم أعثر على القصّة التي تتطلبها الرواية - إلى أن غيّرت زيارة قمت بها إلى هولندا منذ خمس سنوات كلّ شيء. فقد دعيت لإلقاء محاضرة هناك، وكجزء من المكافأة التي سأحصل عليها، طلبت أن يخصص لي القائمون على الدعوة «يوماً من أجل سبينوزا»، واستجابوا لطلبي هذا. فقد وافق أمين سر جمعية سبينوزا الهولندية والفيلسوف البارز المتخصص في فلسفة سبينوزا على أن يمضي معي يوماً لزيارة جميع مواقع سبينوزا الهامة - الأماكن التي أقام فيها، المكان الذي دُفن فيه، والمكان الرئيسي، «متحف سبينوزا» في رنسبرخ، حيث تجلت لي فكرة الرواية.

دخلت متحف سبينوزا في رنسبرخ الذي يبعد عن أمستردام حوالي أربعين دقيقة بالسيارة، تملأني توقعات كثيرة، بحثاً عن - ماذا؟ ربما لقاء مع روح سبينوزا. ربّما قصّة. لكن ما إن دخلت المتحف، حتى أصبت على الفور بخيبة أمل. فقد ساورتني الشكوك في أنّ هذا المتحف الصغير المتناثر يمكن أن يقربّني من سبينوزا كثيراً. فقد كانت المجلدات الـ ١٥١ من مكتبة سبينوزا الخاصّة هي المقتنيات الشخصية الوحيدة الموجودة في هذا المتحف الصغير، وتوجهت إليها في الحال. وسمح لي مضيفي أن أتجوّل في المتحف

بحرية تامة، ورحت أرفع كتاباً تلو الآخر من تلك الكتب التي تعود إلى القرن السابع عشر، أشمّه وأضمّه إليّ، وقد غمرتني السعادة لأنني ألمس الكتب التي كان سبينوزا نفسه قد لمسها بيديه.

لكن مضيفي سرعان ما قطع أحلام يقظتي عندما قال: «طبعاً، يا دكتور يالوم، فإن مقتنياته الشخصية - السرير والثياب والأحذية والأقلام والكتب - كانت قد بيعت بالمزاد بعد وفاته لتسديد نفقات دفنه. فقد بيعت الكتب وتناثرت في كلّ مكان، لكن لحسن الحظ، فقد سجّل المحامي قبل المزاد قائمة كاملة بتلك الكتب، وبعد مئتي سنة قام فاعل خير يهودي بإعادة تجميع معظم العناوين والطبعات التي تعود إلى نفس السنوات والمدن التي نشرت فيها. ومع أننا نسميها «مكتبة سبينوزا»، لكنها في واقع الأمر نسخة عنها. فلم تلمس أصابع سبينوزا هذه الكتب».

أوليت المكتبة ظهري ورحت أحدّق في صورة سبينوزا المعلّقة على الحائط، وسرعان ما شعرت بأنني أذوب في هاتين العينين الحزينتين الواسعتين البيضاوين بحاجبيهما الكثيفين. كانت تجربة روحية - إحساس نادر غمرني. لكن مضيفي قال: «لعلك لا تعرف أن هذا لا يشبه سبينوزا تماماً. فهي لوحة رسمها فنان من مخيلته، استلهمها من بضعة سطور من وصف مكتوب عنه. وإذا كانت هناك لوحات عن سبينوزا في أثناء حياته، فلم يبق منها شيء الآن».

لعلها قصّة حول مراوغة مطلقة، تساءلت.

بينما كنت أتفحّص جهاز طحن العدسات في الغرفة المجاورة - تبين أيضاً أنه ليس نفس الجهاز الذي كان يستخدمه، كما أوضحت اللافتة المعلقة في المتحف، بل جهاز شبيه به - سمعت أحد المضيفين في غرفة المكتبة يذكر كلمة «النازيين».

عدت إلى المكتبة وسألت: «ماذا؟ هل كان النازيون هنا؟ في هذا المتحف؟»

«نعم - فبعد الهجوم الخاطف الذي شنّه النازيون على هولندا بعدّة أشهر، جاء أفراد من قوّات ERR في سيارات ليموزين كبيرة ونهبوا كلّ محتوياته - الكتب، التمثال النصفي، لوحة لسبينوزا - لم يتركوا شيئاً، ونقلوها كلها إلى مكان بعيد، ثمّ أغلقوا المتحف وصادروه».

«ERR؟ إلى أي شيء ترمز هذه الحروف؟»

«*Einsatzstab Reichsleiter Rosenberg*. القوّة الضاربة لزعيم الرايخ روزنبرغ - ألفريد روزنبرغ، النازي، المنظّر المعادي للساميّة - المسؤولة عن أعمال النهب في الرايخ الثالث. وبناء على أوامر من روزنبرغ، نهبت تلك القوات أوروبا برمّتها - في البداية، الأشياء التي تخص اليهود فقط، ثمّ، خلال الحرب، كل ما له قيمة».

فقلت: «إذاً نُقلت هذه الكتب من بيت سبينوزا مرّتين؟ هل تقصد أنه تم شراء الكتب وجمعها في المكتبة مرة ثانية؟»

«لا - بقيت هذه الكتب بأعجوبة، وأعيدت إلى هذا المكان بعد الحرب مع فقدان بضع نسخ فقط».

«رائع!» ها هي قصّة، قلت لنفسي. «لكن لماذا اهتم روزنبرغ بهذه الكتب في المقام الأول؟ فأنا أعرف أنها ليست ذات قيمة كبيرة - لأنها تعود إلى القرن السابع عشر وقبله - لكن لماذا لم يهتموا بالمتحف الهولندي في أمستردام ويأخذوا إحدى لوحات ريمبراند التي تزيد قيمتها خمسين ضعفاً على قيمة هذه المجموعة كلها؟»

«لا، ليست هذه هي الفكرة. فلا علاقة للمال بذلك. فقد أبدت القوة بقيادة روزنبرغ اهتماماً غامضاً بسبينوزا. ففي تقريره الرسمي، أضاف الضابط النازي الذي أشرف شخصياً على عملية نهب المكتبة،

التابع لقوة روزنبرغ، جملة هامة. فقد قال: إنها تضم أعمالاً مبكرة ثمينة ذات أهمية كبيرة لاستكشاف مشكلة سبينوزا. بإمكانك أن تقرأ التقرير على الإنترنت إذا أردت - فهو مدرج في وثائق نورمبرغ الرسمية».

اعتراني الذهول. «استكشاف مشكلة سبينوزا النازية؟ لم أفهم. ماذا يقصد؟ ما هي مشكلة سبينوزا النازية؟»

تعجبني حركات التمثيل الصامتة، فقد أحنى مرافقي كتفيه ورفع راحة يديه إلى الأعلى.

ألححت عليه. «تقول إنهم حموا هذه الكتب ولم يحرقوها كما حرقوا أجزاء كبيرة من أوروبا بسبب مشكلة سبينوزا؟»

هزّ رأسه.

«وأين حُفظت المكتبة خلال الحرب؟»

«لا أحد يعرف. فقد اختفت الكتب لمدة خمس سنوات ثم عادت وظهرت عام ١٩٤٦ في أحد مناجم الملح الألمانية».

«منجم ملح؟ شيء مدهش». التقطتُ أحد الكتب - نسخة الإلياذة من القرن السادس عشر - وقلت وأنا أداعبها بأصابعي، «إذاً لكتاب القصص القديم هذا قصّته الخاصة التي يحكيها».

أخذني مرافقي لنلقي نظرة على باقي البيت. كنت قد جئت في وقت مناسب - فلم ير النصف الآخر من البيت إلّا بضعة زوّار، لأن أسرة من الطبقة العاملة كانت تقيم فيه منذ قرون. وعندما مات آخر فرد من تلك الأسرة مؤخراً، اشترت جمعية سبينوزا البيت فوراً وبدأت عملية ترميمه لتلحقه بالمتحف. تجوّلت في البيت عبر المطبخ وغرفة الجلوس البسيطتين، ثمّ صعدتُ الدرج الضيّق المنحدر بشدة المفضي إلى غرفة نوم صغيرة عادية. ألقيت نظرة سريعة على الغرفة

البسيطة، وعندما بدأت أهبط الدرج، لمحت ثنية رقيقة بطول قدمين وعرض قدمين في زاوية السقف.

«ما هذه؟»

صعد المشرف العجوز بضع درجات لينظر إليها وقال لي إنه باب سرّي يؤدي إلى غرفة علوية صغيرة جداً كانت تختبئ فيها يهوديتان، أمّ عجوز وابنتها، بعيداً عن عيون النازيين خلال فترة الحرب. «كنا نقدّم لهما الطعام وقدمنا لهما رعاية جيّدة».

عاصفة في الخارج! فقد قتل النازيون أربعة يهود هولنديين من بين كلّ خمسة! وبالرغم من ذلك، كانت تختبئ في السقيفة في الطابق العلوي في بيت سبينوزا، امرأتان يهوديتان قدمت لهما العناية طوال فترة الحرب. أما الطابق السفلي، متحف سبينوزا الصغير، فقد قام ضابط من قوّة تابعة لروزنبرغ بسلبه وصادره وأغلقه، لأن النازيين اعتقدوا أن الكتب الموجودة فيه قد تساعدهم في حلّ «مشكلة سبينوزا». وما هي مشكلة سبينوزا؟ تساءلت عمّا إذا كان هذا النازي، ألفريد روزنبرغ، كان يبحث كذلك، بطريقته الخاصة، ولأسبابه الخاصة، عن سبينوزا.

لقد دخلت إلى المتحف بغموض واحد وغادرته الآن بغموضين اثنين.

بعد فترة وجيزة، بدأت بالكتابة.

الفصل الأول

أمستردام - نيسان (أبريل) ١٦٥٦

عندما يختفي آخر شعاع من الشمس وراء مياه قناة زوانينبيرغوال، تغلق أمستردام أبوابها. فيجمع الصباغون أقمشتهم القرمزية التي ينشرونها لتجفّ على ضفاف القناة الحجرية. ويطوي التجار مظلاتهم ويغلقون أبواب أكشاكهم في السوق المكشوف. ويتوقف عدد من العمّال العائدين إلى بيوتهم لتناول وجبة سريعة واحتساء كأس من شراب الجنّ الهولندي عند أكشاك بيع سمك الرنغة على جانبي القناة ثمّ يواصلون سيرهم. أمستردام تتحرّك ببطء: المدينة حزينة، لا تزال تتعافى من الطاعون الذي أودى، منذ أشهر قليلة فقط، بحياة شخص من بين تسعة أشخاص في المدينة.

وعلى مسافة بضعة أمتار من القناة، في بريسترات رقم ٤، يضع رامبرانت فان راين المفلس والثمل بعض الشيء آخر ضربة بريشته على لوحته «يعقوب يبارك *أبناء جوزيف*»، ويوقّع عليها اسمه في الزاوية اليمنى السفلى، ويرمي لوحة ألوانه على الأرض، ويلتفت ليهبط الدرج الضيّق الملتوي. كان البيت الذي تحوّل بعد ثلاثة قرون إلى متحف لإحياء ذكراه، في هذا اليوم شاهداً على العار الذي لحق به. فها هو يعجّ بالأشخاص الذين سيشاركون في شراء مقتنيات

الفنان بالمزاد العلني. فأخذ يشقّ طريقه بين المتجمهرين على الدرج وراح يدفعهم بمنكبيه بقوة، ثم خرج من باب البيت، ليتنشق الهواء المالح، ثم سار نحو الحانة عند ناصية الشارع.

وفي دلفت التي تبعد سبعين كيلومتراً جنوباً، يبدأ فنان آخر صعوده. إذ يلقي يوهانس فيرمير البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً نظرة أخيرة على لوحته الجديدة، القوّادة (*The Procuress*) وراح يمسحها بعينيه من اليمين إلى اليسار. أولاً، المومس في سترتها الصفراء البراقة. جيد. جيد. اللون الأصفر يلمع مثل نور شمس متوهجة، والرجال الذين يتحلقون حولها. ممتاز - بإمكان كلّ واحد منهم أن يخرج من اللوحة ويفتح حديثاً مع الآخر. ينحني أكثر ليلتقط تلك النظرة الصغيرة جداً لكن الثاقبة للشابّ الشبق ذي القبعة الأنيقة. يهزّ فيرمير رأسه أمام نفسه المصغرة. كان في غاية السعادة، ويوقّع اسمه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة في الزاوية اليمنى السفلى.

بالعودة إلى أمستردام إلى بريسترات رقم ٥٧، وعلى مسافة شارعين فقط من البيت الذي تجري فيه الاستعدادات للقيام بالمزاد في بيت رامبرانت، هناك تاجر في الثالثة والعشرين من عمره (ولد قبل أيام قليلة من ولادة فيرمير، الذي يبدي به إعجاباً كبيراً لكن لم يلتق به قط) يستعدّ لإغلاق متجره للاستيراد والتصدير. يبدو مرهفاً جداً وجميلاً لا يصلح لأن يكون صاحب متجر. قسمات وجهه كاملة، بشرته الزيتونية نقية، صافية، عيناه السوداوان كبيرتان، مفعمتان بالعاطفة.

يتطلع حوله للمرة الأخيرة: رفوف عديدة خاوية كما هي جيوبه. فقد اعترض القراصنة آخر شحنة له قادمة من باهيا، لذلك لا يوجد بن، ولا سكّر، ولا كاكاو. فعلى مدى جيل كامل، كانت عائلة

سبينوزا تدير تجارة ناجحة في الاستيراد والتصدير بالجملة، أما الآن فقد تدهورت الأوضاع وأصبح الأخوان سبينوزا - غابرييل وبنتو - يديران محلاً صغيراً يبيعان فيه بالمفرق. عندما يتنشّق بنتو سبينوزا الهواء المشبّع بالتراب، يشمّ أيضاً ذرق الجرذ النتن الذي تمتزج رائحته برائحة التين المجفّف والزبيب والزنجبيل المُحَلّى واللوز والحمص وأبخرة النبيذ الإسباني اللاذعة. يخرج من الدكان ويبدأ عراكه اليومي مع القفل الصدئ المعلق على باب المحل. يباغته صوت غريب يتكلّم بلغة برتغالية منمقّة.

«هل أنت بنتو سبينوزا؟»

يلتفت سبينوزا ليرى شابين غريبين مرهقين يبدو أنهما قطعا مسافة بعيدة. أحدهما شاب طويل، له رأس ضخم يميل إلى الأمام كما لو أنه كان ثقيلاً لا يستطيع أن يبقيه منتصباً إلى الأعلى. كان يرتدي ثياباً جيدة لكنها ملوّثة ومجعّدة، أما الشاب الآخر الواقف وراء مرافقه، فيرتدي ثياب فلاح رثّة، ذو شعر طويل أشعث، له عيناه داكنتان، وذقن قوية وأنف كبير، يقف متشنجاً. عيناه فقط تتحرّكان، تتقافزان مثل فرخي ضفدعين مذعورين.

يومئ سبينوزا إيماءة حذرة.

«أنا جاكوب ميندوزا»، قال الشاب الأطول قامة، «يجب أن نراك. يجب أن نكلّمك. هذا ابن عمي، فرانكو بنيتيز الذي اصطحبته معي الآن من البرتغال»، ثم أضاف ووضع يده على كتف فرانكو، «إن ابن عمي يمرّ في أزمة».

«نعم»، أجابه سبينوزا. «و؟»

«في أزمة خطيرة».

«نعم. ولماذا يزيدني؟»

«قالوا لنا إنك الشخص المناسب الذي يستطيع مساعدتنا. لعلك الشخص الوحيد».

«مساعدتكما؟»

«لم يعد فرانكو يؤمن. أصبح يشكّ في كلّ شيء: أصبح يشكّ في جميع الطقوس الدينية، في الصلاة، بل حتى في وجود الله. وتراه خائفاً طوال الوقت. فلم يعد يغمض له جفن، ويتحدّث كثيراً عن الانتحار».

«ومن هو الذي ضلّلك وأرسلك إليّ؟ فأنا لست سوى تاجر يدير متجراً صغيراً. وهو عمل غير مربح، كما ترى». وأشار سبينوزا إلى النافذة المكسوة بالتراب التي يمكن رؤيتها من وراء الرفوف شبه الخاوية، «الحاخام مورتيرا هو زعيمنا الروحي. يجب أن تذهب إليه».

«لقد وصلنا البارحة، وانطلقنا هذا الصباح لزيارته. لكن صاحب البيت الذي نقيم فيه، أحد أبناء عمومتنا البعيدين، نصحنا بألّا نفعل ذلك، وقال إن 'فرانكو بحاجة إلى أحد يساعده، وأنه ليس بحاجة إلى قاض'. وقال لنا إن الحاخام مورتيرا رجل متشدّد جداً مع المتشككين، ويؤمن بأن جميع اليهود في البرتغال الذين اعتنقوا المسيحية ستحلّ عليهم اللعنة الأبدية، حتى لو كانوا قد أُرغموا على الاختيار بين اعتناق المسيحية أو الحكم عليهم بالموت. وقال إن الحاخام مورتيرا سيزيد حالة فرانكو سوءاً. اذهب وقابل بنتو سبينوزا. إنه حكيم في أمور كهذه».

«ما هذا الكلام؟ أنا لست سوى تاجر . . .»

«يقول إنه لولا أنك أُرغمت على مزاولة التجارة بعد وفاة والدك وشقيقك الأكبر، لأصبحت الحاخام الأكبر بعده في أمستردام».

«يجب أن أذهب. فلديّ اجتماع يجب أن أحضره».

«هل أنت ذاهب إلى صلاة السبت في الكنيس؟ نعم؟ ونحن

أيضاً. سآخذ فرانكو، لأنه يجب أن يعود إلى دينه. هل يمكننا مرافقتك؟»

«لا، سأذهب إلى اجتماع من نوع آخر».

«أيّ نوع آخر؟» قال جاكوب، لكنه تراجع على الفور، وقال: «أنا آسف. فهذا ليس من شأني. هل نستطيع أن نلتقي غداً؟ هل أنت مستعد لمساعدتنا يوم السبت؟ فالميتزفة تبيح ذلك. إننا بحاجة إليك. فابن عمي في خطر».

«غريب» هزّ سبينوزا رأسه، «لم أسمع في حياتي طلباً كهذا. أنا آسف، لكنّك مخطئ. فأنا لا أستطيع أن أقدّم له شيئاً».

رفع فرانكو الذي كان يحدّق في الأرض عندما كان جاكوب يتكلّم، عينيه الآن ونطق كلماته الأولى: «لا أطلب كثيراً، فقط بضع كلمات معك. أترفض شخصاً يهودياً؟ هذا واجبك تجاه شخص مسافر. كان عليّ أن أهرب من البرتغال كما اضطر والدك وعائلتك إلى الهرب، للهرب من محاكم التفتيش».

«لكن ماذا أستطيع...»

«لقد أُحرق أبي منذ سنة فقط. ما هي جريمته؟ لقد عثروا على صفحات من التوراة مدفونة في التراب خلف بيتنا. وشقيق أبي، وقُتل والد جاكوب بعد ذلك مباشرة. لديّ سؤال. انظر إلى هذا العالم الذي يشمّ فيه ابن رائحة لحم أبيه المحترق. أين هو اللّه الذي خلق هذا العالم؟ لماذا يسمح بارتكاب أشياء كهذه؟ هل تلومني لأنني أطرح هذا السؤال؟» ونظر فرانكو بعمق في عيني سبينوزا للحظات عديدة، ثمّ واصل كلامه، «من المؤكد أن رجلاً اسمه 'مبارك' - بنتو بالبرتغالية وباروخ بالعبرية - لن يرفض أن يتحدّث إليّ؟»

هزّ سبينوزا رأسه بجديّة وقال: «سأكلّمك يا فرانكو. غداً في منتصف النهار؟»

«في الكنيس؟» سأل فرانكو.

«لا، هنا. قابلني هنا في المحل. سيكون مفتوحاً».

«المحل؟ هل سيكون مفتوحاً؟» قال جاكوب مقاطعاً، «لكن أليس هو يوم السبت؟»

«إن أخي الأصغر غابرييل هو الذي يمثّل عائلة سبينوزا في الكنيس».

«لكن التوراة المقدّسة» قال جاكوب مصرّاً، متجاهلاً فرانكو الذي كان يشدّه من كمّه، «تقول إن مشيئة اللّه تمنعنا من العمل يوم السبت، وإننا يجب أن نمضي هذا اليوم المقدّس في عبادته وتأدية شعائر الميتزفة».

التفت سبينوزا وتحدّث بهدوء، مثل معلّم يكلّم تلميذاً صغيراً، «قل لي، يا جاكوب، هل تؤمن بأنّ اللّه هو القدير؟»

هز جاكوب رأسه.

«وأن اللّه تام؟ كامل في ذاته».

مرة أخرى هزّ جاكوب رأسه موافقاً.

«إذاً، لا بد أنك توافق على أنه، بالتعريف، لا توجد لدى الكائن التام والكامل احتياجات، لا ينقصه شيء، رغبات، أمنيات. أليس كذلك؟»

فكّر جاكوب، تردّد، ثمّ أومأ بحذر. لاحظ سبينوزا بدايات ابتسامة ترتسم على شفتي فرانكو.

«إذن» واصل سبينوزا، «أنا أسلّم بأنه لا توجد لدى اللّه رغبات أو أمنيات حول كيف، أو حتى إذا مجّدناه. اسمح لي إذاً، يا جاكوب، أن أحبّ اللّه بطريقتي الخاصّة».

اتسعت عينا فرانكو. التفت نحو جاكوب كما لو كان يريد أن يقول له، «أترى، أترى؟ هذا هو الرجل الذي أبحث عنه».

الفصل الثاني

ريفال، إستونيا - ٣ أيار (مايو) ١٩١٠

الوقت: الساعة الرابعة بعد الظهر

المكان: مقعد في الممر الرئيسيّ خارج مكتب المدير إبشتاين في بيتري ريلشول

يجلس ألفريد روزنبرغ ذو الستة عشر ربيعاً في المقعد متململاً لا يعرف لماذا استُدعي إلى مكتب المدير. كان جذع ألفريد رفيعاً كالسلك، وعيناه رماديتين - زرقاوين، قسمات وجهه التيوتوني متناسقة، وخصلة شعر كستنائية تتدلّى في الزاوية على جبينه. لا توجد حول عينيه هالتان داكنتان - ستأتيان لاحقاً. ذقنه عالية. قد يكون مقداماً، لكن قبضتيه اللتين يشدهما ويرخيهما، دليل على إحساسه بالتوجس.

إنه يشبه الجميع ولا يشبه أحداً. على وشك أن يبلغ مبلغ الرجال، وحياة كاملة ماثلة أمامه. بعد ثماني سنوات سيسافر من ريفال إلى ميونيخ حيث سيصبح صحفياً غزير الإنتاج مناهضاً للبلشفيّة ومعادياً للساميّة بقوة. وبعد تسع سنوات سيسمع خطاباً حماسياً في اجتماع يعقده حزب العمّال الألماني يلقيه أحد المشاركين في الحرب العالمية الأولى اسمه أدولف هتلر، وسينضم ألفريد إلى الحزب بعد

فترة قصيرة من انضمام هتلر إليه. وبعد عشرين سنة سيضع قلمه وسترتسم على شفتيه ابتسامة عريضة تشي بالانتصار وهو يضع اللمسات الأخيرة على آخر صفحة في كتابه، «*أسطورة القرن العشرين*» الذي سيباع منه أكثر من مليون نسخة، سيعرض فيه الكثير من الأسس الأيديولوجية للحزب النازي وسيبرر مسألة القضاء على اليهود الأوروبيين. وبعد ثلاثين سنة، ستقتحم قوّاته متحفاً هولندياً صغيراً في رنسبرخ ويصادر مكتبة سبينوزا الشخصية التي تضم مئة وواحداً وخمسين مجلداً. وبعد ستّ وثلاثين سنة، ستبدو عيناه المحاطتان بهالتين داكنتين في حيرة وسيهزّ رأسه بالنفي عندما يسأله الجلاد الأمريكي في نورمبرغ «هل لديك كلمات أخيرة تريد أن تقولها؟»

يتناهى إلى ألفريد الشابّ صوت صدى خطوات تقترب في الممر، ثم يرى هير شافر، موجهه وأستاذه في اللغة الألمانية، فينهض واقفاً باستعداد ليحييه. لكن هير شافر يقطّب حاجبيه ويهزّ رأسه قليلاً ويواصل سيره ثم يفتح باب غرفة المدير. لكن قبل أن يدخل إلى الغرفة، يتردّد ويلتفت نحو ألفريد، وبهمسات غير قاسية يقول: «روزنبرغ، لقد خيبت أملي، أملنا جميعاً، بحكمتك الهزيلة في الكلمة التي ألقيتها مساء البارحة. ولم يمح انتخابك ممثلاً للصف هذه الحكمة الهزيلة. وبالرغم من ذلك، فإني لا أزال أرى فيك شخصاً واعداً. ولم يبق على تخرجك سوى بضعة أسابيع فلا تكن أحمق الآن».

الكلمة التي ألقاها ليلة البارحة في حملة انتخابه رئيساً للصفّ! أوه، هكذا إذاً. وضرب ألفريد جانب رأسه براحة يده. طبعاً - *لهذا السبب استُدعيت إلى هنا*. وعلى الرغم من أن جميع أفراد صفّه الأربعين كانوا موجودين أيضاً - معظمهم ألمان من البلطيق بالإضافة

إلى حفنة من الطلاب الروس والأستونيين والبولنديين واليهود - فمن الواضح أن ألفريد كان يوجّه كلامه في حملته الانتخابية إلى الأغلبية الألمانية وقد أثار حماستهم عندما قال إن مهمّة الحفاظ على روح الثقافة الألمانيّة النبيلة تقع على عاتقهم، فقد قال مخاطباً إياهم: «حافظوا على نقاء عرقنا، ولا تجعلوه ضعيفاً بنسيان تقاليدنا النبيلة، بقبول أفكار منحطة، بالاختلاط مع الأجناس الأدنى». ربما كان عليه أن يتوقّف عند هذه النقطة، لكنّه استرسل في كلامه. لعله تجاوز حدوده.

فُتح الباب الضخم الذي يزيد ارتفاعه على عشرة أقدام وانتشله صوت المدير إبشتاين الجهوري من أحلام يقظته "*Herr Rosenberg, bitte, herein*"

عندما دخل ألفريد إلى الغرفة، رأى مديره وأستاذ اللغة الألمانية جالسين إلى أحد طرفي طاولة طويلة مصنوعة من الخشب الثقيل الداكن. ينتاب ألفريد دائماً شعور بأنه ضئيل عندما يكون في حضرة المدير إبشتاين الذي يزيد طوله على ستّة أقدام والذي تجسّد هيئته المهيبة، وعيناه الثاقبتان، ولحيته الكثة المشذبة، سلطته.

أشار المدير إبشتاين إلى ألفريد بأن يجلس على الكرسي في الجانب الآخر من الطاولة. إنه أصغر بكثير من الكرسيين ذوي المسندين في الطرف الآخر من الطاولة. لم يضع المدير وقتاً فدخل إلى صلب الموضوع مباشرة، «إذاً، يا روزنبرغ، تقول إن أسلافي هم يهود، أليس كذلك؟ وزوجتي يهودية أيضاً، أليس كذلك؟ واليهود جنس متدن ويجب عدم تعليمهم اللغة الألمانية، أليس كذلك؟ وأفهم من كلّ ذلك، بالتأكيد، أنني يجب ألّا أرتقي إلى منصب المدير؟»

لم يحر جواباً. تنفس ألفريد بعمق، محاولاً أن ينكمش في كرسيه أكثر، وأطرق برأسه.

«روزنبرغ، هل عليّ أن أوضح موقفك بدقة أكبر؟»

«يا سيدي... آه... يا سيدي، لقد تسرّعت عندما قلت ذلك. أقصد أنني قلت هذه التعليقات بصورة عامة فقط. إنه خطاب انتخابي، وقلت ما قلته بهذه الطريقة لأن هذا ما يريدون سماعه». من طرف عينه، رأى ألفريد هير شافر يغوص في كرسيه، يخلع نظّارته، ويفرك عينيه.

«أوه، فهمت. قلت ذلك بصورة عامة؟ لكن ها أنا الآن أمامك، لا بصورة عامة وإنما بصورة خاصة».

«يا سيدي، أنا أردد فقط ما يراه جميع الألمان. بأنّنا يجب أن نحافظ على عرقنا وعلى ثقافتنا».

«وماذا عني وعن اليهود؟»

أطرق ألفريد رأسه ثم صمت. أراد أن ينظر خارج النافذة من وسط الطاولة، لكنه نظر إلى المدير بوجل.

«نعم، طبعاً لا تستطيع أن تجيب. ربما سيُحلّ لسانك لو قلت لك إنّ سلالتي وسلالة زوجتي ألمانية صرفة، وإن أسلافنا جاؤوا إلى بلدان البلطيق في القرن الرابع عشر، والأكثر من ذلك، فإننا لوثيريون مؤمنون».

أومأ ألفريد ببطء.

«ومع ذلك فإنك تدعوني أنا وزوجتي يهوداً»، تابع المدير.

«لم أقل ذلك. قلت فقط إن هناك إشاعات...»

«إشاعات كنت سعيداً بنشرها، لمصلحتك الشخصية حتى ينتخبوك. قل لي يا روزنبرغ، ما هو الأساس الذي بنيت عليه تلك الحقائق؟ أم أنها حقائق معلّقة في السراب؟»

«حقائق؟» يهزّ ألفريد رأسه، «أوه. ربما اسمك؟»

«إذاً، هل إبشتاين اسم يهودي؟ هل كلّ من يحمل اسم إبشتاين

يهودي؟ أو ٥٠ بالمئة منهم؟ أو بعضهم فقط؟ أو ربما واحد في الألف فقط؟ ماذا أظهرت لك تحقيقاتك العلمية؟»

لم يحر جواباً. هزّ ألفريد رأسه.

«أتقصد مع أنك درست العلوم والفلسفة في مدرستنا فإنك لا تعرف كيف عرفت ما تعرفه. ألم يكن هذا أحد الدروس الرئيسية عن عصر التنوير؟ هل خذلناك؟ أم أنت الذي خذلتنا؟»

بدا ألفريد مشدوهاً. نقر هير إبشتاين بأصابعه على الطاولة الطويلة، ثمّ تابع:

«واسمك، روزنبرغ؟ هل اسمك اسم يهودي أيضاً؟»

«أنا متأكّد من أنه ليس كذلك».

«لستُ متأكّداً تماماً. دعني أقدم لك بعض الحقائق عن الأسماء. ففي درس عصر التنوير في ألمانيا. . .» يصمت المدير إبشتاين قليلاً، ثمّ يصرخ، «روزنبرغ، هل تعرف متى وماذا كان عصر التنوير؟»

نظر إلى هير شافر وبصوت مرتعش، أجاب ألفريد بخنوع، «القرن الثامن عشر و. . .كان عصر. . . العقل والعلم؟»

«نعم، صحيح. جيد. فلم يذهب تعليم هير شافر كلّه سدى. ففي أواخر ذلك القرن، اتُّخذت إجراءات في ألمانيا لتحويل اليهود إلى مواطنين ألمان، وأُرغموا على اختيار أسماء ألمانية وكان عليهم أن يدفعوا مبالغ لقاء ذلك. وفي حال رفضهم دفع تلك المبالغ، فقد كانوا يسمونهم أسماء مضحكة مثل شموزفينغير أو دريكليكير. لذلك وافق معظم اليهود على دفع ثمن للحصول على اسم أجمل أو أكثر أناقة، ربما زهرة - مثل روزنبلوم - أو أسماءٍ ارتبطت بالطبيعة بشكل ما، مثل غرينباوم. حتى أن أسماء قلاع النبلاء كانت أكثر شعبية. فعلى سبيل المثال، تحمل قلعة إبشتاين دلالات نبيلة وهي تعود إلى

أسرة عظيمة في الإمبراطورية الرومانية المقدّسة، وكان اليهود الذين يعيشون في المنطقة المجاورة لها في القرن الثامن عشر يختارون اسمها في كثير من الأحيان. أما بعض اليهود فقد دفعوا مبالغ أقل لقاء الأسماء اليهودية التقليدية مثل ليفي أو كوهين.

«الآن اسمك، روزنبرغ، اسم قديم جداً أيضاً. لكن منذ أكثر من مئة سنة دبّت فيه حياة جديدة. فأصبح اسماً يهودياً شائعاً في أرض الأجداد، وأؤكد لك أنك إذا قمت، أو عندما تقوم برحلة إلى أرض الأجداد، فإنك سترى نظرات وابتسامات، وستسمع إشاعات عن وجود أسلاف يهود في سلالتك. قل لي يا روزنبرغ، لو حدث ذلك، فكيف سيكون ردّك؟»

«سأحذو حذوك يا سيدي، وسأتحدّث عن أسلافي».

«لقد بحثت شخصياً عن نسب عائلتي منذ عدّة قرون. هل فعلت ذلك أيضاً؟»

هزّ ألفريد رأسه.

«هل تعرف كيف تجري بحثاً كهذا؟»

هزّ رأسه مرة أخرى.

«إذاً سيكون أحد مشاريع البحث قبل تخرّجك أن تتعلّم كيف تبحث عن الأنساب ثمّ تبحث عن أسلافك أنت».

«أحد مشاريعي، يا سيدي؟»

«نعم، سيُطلب منك أن تجري بحثين اثنين لتزيل أيّ شكوك تساورني حول جدارتك بالتخرّج والدخول إلى معهد البوليتكنيك. بعد مناقشتنا اليوم، سنقرر أنا وهير شافر تكليفك بمشروع تنويري آخر».

«نعم يا سيدي». بدأ ألفريد الآن يدرك خطورة الوضع الذي وجد نفسه فيه.

«قل لي، يا روزنبرغ»، واصل المدير إبشتاين كلامه، «هل كنت تعرف أنه كان يوجد طلاب يهود في الاجتماع مساء البارحة؟»

إيماءة خفيفة من ألفريد.

ثم سأله المدير إبشتاين، «وهل رأيت مشاعرهم وردّة فعلهم إزاء الكلمات التي قلتها بأن اليهود غير مؤهلين للدراسة في هذه المدرسة؟»

«أعتقد أن أول واجب لي تجاه أرض أجدادي هو أن أحمي نقاء عرقنا الآري العظيم، القوة المبدعة في الحضارات كلها».

«روزنبرغ ، لقد انتهت الانتخابات. وفّر خطاباتك لنفسك. أجب عن سؤالي. سألتك عن مشاعر اليهود الذين كان يستمعون إليك».

«أرى أننا إذا لم نكن حذرين، فإن العرق اليهودي سيهوي بنا إلى الحضيض. إنهم ضعفاء. إنهم طفيليون. إنهم العدو الأبدي. العرق الذي يناهض القيم والثقافة الآرية».

متفاجئين من حماسة ألفريد وعنفه، تبادل المدير إبشتاين وهير شافر نظرات قلقة. أراد المدير إبشتاين أن يسبر الأمر بعمق أكثر.

«يبدو أنك تريد أن تتهرب من السؤال الذي طرحته عليك. دعني أحاول أن أسلك خطّاً آخر في المناقشة. هل اليهود عرق متدن، طفيلي، ضعيف؟»

هزّ ألفريد رأسه.

«إذاً قل لي يا روزنبرغ ، كيف يستطيع عرق ضعيف أن يحطّم عرقنا الآري الشديد البأس؟»

بينما كان ألفريد يحاول أن يصوغ جواباً، تابع هير إبشتاين، «قل لي يا روزنبرغ، هل درست داروين في الدروس التي يعطيها هير شافر؟»

«نعم»، أجاب ألفريد، «في فصل التاريخ الذي يعطيه لنا هير شافر وكذلك في فصل علم الأحياء الذي يدرّسه لنا هير فيرنر».

«وماذا تعرف عن داروين؟»

«أعرف عن تطور الأنواع وبقاء الأصلح».

«آه، نعم، الأصلح هو الذي يبقى. الآن لا بد أنك قرأت الكتاب المقدس كلّه في دروس الديانة، أليس كذلك؟»

«نعم، في فصل هير موللر».

«إذاً يا روزنبرغ، دعنا نبحث في الواقع بأنّ جميع الشعوب والثقافات تقريباً - العشرات منها - التي ورد ذكرها في الكتاب المقدّس قد بادت. صحيح؟»

هزّ ألفريد رأسه.

«هل تستطيع أن تسمّي بعض تلك الشعوب التي بادت؟»

ابتلع ألفريد ريقه وقال: «الفنيقيون، الموآبيون... والإدوميون»، نظر ألفريد إلى هير شافر الذي كان يهزّ رأسه.

«ممتاز. لكنهم ماتوا جميعاً وذهبوا. ما عدا اليهود. لقد بقي اليهود. ألن يدّعي داروين إذاً أنّ اليهود كانوا الأصلح من بين هؤلاء؟ هل كلامي مفهوم؟»

فردّ ألفريد بسرعة خاطفة، «لكنهم لم يستمروا بفضل قوّتهم. كانوا طفيليات ومنعوا العرق الآري من أن يزداد قوة. لقد بقوا أحياء لأنهم امتصّوا قوتنا ونهبونا ذهبنا وثروتنا».

«آه، لم يلعبوا بنزاهة»، قال المدير إبشتاين، «إنك توحي بأن هناك مكاناً للنزاهة والإنصاف في خطّة الطبيعة الكبيرة. بعبارة أخرى، يجب على الحيوان النبيل ألّا يستخدم في صراعه على البقاء التمويه أو الترصد والصيد خلسة؟ غريب، لا أذكر شيئاً في عمل داروين يتناول الإنصاف».

جلس ألفريد صامتاً بحيرة.

«حسناً، لا عليك»، قال المدير، «لنبحث في أمر آخر. لا بد أنك توافق يا روزنبرغ على أنه نجم عن العرق اليهودي بعض الرجال العظام. انظر في ابن اللّه يسوع، فقد ولد يهودياً».

فردّ ألفريد بسرعة وقال: «قرأت أن المسيح ولد في الجليل، ولم يولد في يهودا حيث كان يعيش اليهود، ومع أنّ بعض سكان الجليل كانوا قد اعتنقوا الديانة اليهودية في النهاية، فلم تكن فيهم نقطة دم حقيقية واحدة من دم الإسرائيليين».

«ماذا؟» رفع المدير إبشتاين يديه والتفت إلى هير شافر، وسأله، «من أين يأتي بهذه الأفكار، هير شافر؟ لو كان رجلاً بالغاً، لسألت ماذا كان يشرب. أهذا ما تعلّمهم في دروس التاريخ التي تدرّسها؟»

هزّ هير شافر رأسه والتفت إلى ألفريد. «من أين أتيت بهذه الأفكار؟ تقول إنّك قرأتها لكن لم تدرسها في صفي. ماذا تقرأ يا روزنبرغ؟»

«إنه كتاب نبيل يا سيدي، *أسس القرن التاسع عشر*».

صفق هير شافر بيده على جبهته وغاص في كرسيه.

«ما هذا؟» سأل المدير إبشتاين.

«كتاب هيوستن ستيوارت تشامبرلن»، قال هير شافر، وأضاف، «إنه رجل إنكليزي، صهر فاغنر الآن. إنه يكتب تاريخاً متخيّلاً: أي تاريخ لفقه من بنات أفكاره»، ثم التفت إلى ألفريد وسأله، «كيف حصلت على كتاب تشامبرلن؟»

«قرأت بعضاً منه في بيت عمّي ثمّ ذهبت لشرائه من المكتبة قبالة الشارع. لم يكن متوفراً لديهم فطلبوه لي. قرأته خلال الشهر الماضي».

«ما هذه الحماسة! كنت أتمنى أن تكون على هذا القدر من الحماسة عندما تقرأ النصوص المفروضة في صفّك» قال هير شافر، مشيراً بحركة من ذراعه إلى رفوف الكتب المجلّدة التي تغطّي جدار مكتب المدير، «ولو كتاب مدرسي واحد!»

«هير شافر؟» سأله المدير، «هل تعرف هذا الكتاب، تشامبرلن هذا؟»

«إنه مؤرخ مزيّف. وهو يروّج لأفكار آرثر غوبنيو، العنصري الفرنسي الذي أثّرت كتاباته حول تفوق العرق الآري على فاغنر. ويعرض غوبنيو وتشامبرلن ادعاءات متشددة حول القيادة الآرية في الحضارتين اليونانية والرومانية العظيمتين».

«كانتا عظيمتين»، قاطعه ألفريد فجأة، «إلى أن اختلطتا بالأجناس الأدنى - اليهود الذين ينضحون سمّاً، السود، الآسيويين. عندها انحدرت كلا الحضارتين».

صُعق المدير إبشتاين وهير شافر من طالب يجرؤ على مقاطعة حديثهما. رمق المدير هير شافر كما لو كان المسؤول عن ذلك.

حوّل هير شافر اللوم إلى تلميذه: «فقط لو كانت لديه هذه الحماسة في الصفّ»، ثم التفت إلى ألفريد وسأله، «كم مرّة قلت لك ذلك يا روزنبرغ؟ أنك لم تعد تبدي اهتماماً كبيراً بدروسك. كم مرّة حاولت أن أشجعك على أن تشاركنا في القراءة؟ ومع ذلك، فإننا نراك اليوم فجأة تتقد حماسة لأنك قرأت كتاباً. كيف نفهم هذا؟»

«ربما لأنني لم أقرأ كتاباً كهذا من قبل - كتاباً يقول الحقيقة عن عراقة عرقنا، وكيف كتب الباحثون عن التاريخ خطأً بأنه تقدّم الإنسانية، بينما الحقيقة هي أنّ عرقنا هو الذي خلق الحضارة في جميع الإمبراطوريات العظيمة! لا في اليونان وروما فحسب، وإنما كذلك في مصر، وبلاد فارس، وحتى في الهند. لكن جميع هذه

الإمبراطوريات انهارت عندما تلوّث عرقنا عندما أحاطت به أجناس متدنية».

نظر ألفريد إلى المدير إبشتاين، وقال بأقصى درجات الاحترام، «لو سمحت لي يا سيدي، فإن هذا هو ردّي على سؤالك السابق. لذلك فإني لا أشعر بالقلق إن كنت قد جرحت مشاعر بعض الطلاب اليهود أو السلافيين الذين هم في مستوى متدنٍّ أيضاً، لكنهم ليسوا منظّمين كاليهود».

تبادل المدير إبشتاين وهير شافر النظرات مرة أخرى، وأصبحا يقدرّان كلاهما الآن، أخيراً، خطورة المشكلة. فهذا ليس مجرّد فتى مراهق يمكن الاستهانة به.

فقال المدير إبشتاين: «روزنبرغ، أرجو أن تنتظر خارج المكتب. سنتشاور معاً على حدة».

الفصل الثالث

أمستردام - ١٦٥٦

عندما خيّم الظلام في يوم السبت، كان شارع يودنبريستسرات يعجّ باليهود، الذين يحمل كلّ واحد منهم كتاب الصلاة وحقيبة مخملية صغيرة فيها شال الصلاة. كان جميع اليهود السيفارديم في أمستردام في طريقهم إلى الكنيس، ما عدا يهودياً واحداً. فبعد أن أغلق بنتو متجره، وقف قليلاً ورمق طويلاً السيل المتدفق من اليهود، ثم أخذ نفساً عميقاً واختفى في وسط الحشد، لكنه أخذ يسير في الاتجاه المعاكس. وقد بذل جهده لكي تلتقي عيناه بعيون الآخرين، وبدأ يهمس في نفسه ليخفف من شعوره بالحرج. *لا أحد يلاحظ، لا أحد يبالي. ضمير مرتاح، لا سمعة سيّئة، هذا هو المهم.* لقد فعلت ذلك مرات عديدة. لكن قلبه الذي كان يخفق بقوة لم يتأثّر بأسلحة العقل الضعيفة. ثمّ حاول أن يغلق باب العالم الخارجي دونه، ويغوص إلى داخله، ويستمتع بهذه المبارزة الغريبة الدائرة بين العقل والمشاعر، المبارزة التي يتفوق فيها العقل باستمرار.

عندما بدأت الجموع تتلاشى، بدأ يمشي بارتياح أكثر، ثم انعطف يساراً إلى الشارع المحاذي لقناة كونين خراخت متجهاً إلى

بيت فرانسيسكوس فان إندن، أستاذ اللغة اللاتينية والأدب الكلاسيكي القديم.

ومع أن لقاءه مع جاكوب وفرانكو كان جيداً، فإن لقاء لا يمكن أن يغيب عن ذاكرته كان قد جرى في محل سبينوزا منذ بضعة أشهر، عندما دخل فرانسيسكوس فان إندن إلى محله لأول مرة. وبينما كان بنتو يغذّ الخطى، بدأ يتذكر ذلك اللقاء الذي لم تبرح تفاصيله ذاكرته.

ففي عشية أحد أيام السبت، دخل رجل لطيف، مهيب، متوسط العمر، يرتدي ثياباً رسمية، محله وأخذ يستعرض المواد الموجودة في المحل. كان بنتو منهمكاً في تدوين شيء في دفتره فلم يلاحظ دخول الزبون. ثم سعل فان إندن بتهذيب ليشير إلى وجوده، ثمّ قال، بطريقة قوية لكنها لا تخلو من التهذيب، «أيها الشاب، لا يمكن أن نكون منهمكين هكذا إلى درجة ألّا ننتبه إلى أن زبوناً قد دخل المحل، أليس كذلك؟»

فألقى بنتو قلمه في وسط الكلمة التي كان يكتبها، ونهض واقفاً على الفور. «مشغول جداً؟ ليس كثيراً يا سيدي. فأنت أول زبون يدخل هنا اليوم. أرجو أن تعذرني على سهوي وعدم انتباهي. كيف يمكنني أن أساعدك؟»

«أريد لتراً من النبيذ وربّما، إذا كان السعر مناسباً، كيلوغراماً من ذلك الزبيب الصغير في الصندوق في الأسفل».

عندما وضع بنتو وزنة رصاصية في إحدى كفتي الميزان واستخدم مغرفة خشبية مهترئة ليضع الزبيب في الكفة الأخرى حتى تتوازنا، قال فان إندن، «لكن يبدو أنني أزعج كتابتك. يا لها من تجربة منعشة ونادرة - لا، بل إن ذلك شيء غير شائع كثيراً، اسمح لي أن أقول إنها المرة الأولى -التي أدخل فيها إلى متجر وأصادف كاتباً شابّاً منهمكاً في الكتابة إلى درجة أنه لا ينتبه إلى دخول الزبائن. وبما أنني

أستاذ، فإني أرى تجارب عكس ذلك، إذ أرى طلابي لا يكتبون ولا يفكّرون عندما يتعين عليهم القيام بذلك».

«حركة البيع ضعيفة» أجاب بنتو، «لذلك فإني أجلس هنا ساعة تلو ساعة لا أفعل شيئاً سوى أن أفكّر وأكتب».

أشار الزبون إلى دفتر سبينوزا الذي كان لا يزال مفتوحاً على الصفحة التي يكتب فيها. «دعني أجازف وأحزر ماذا تكتب. بما أن حركة البيع ضعيفة، فلا شكّ أنك قلق على ما سيحلّ ببضاعتك. تسجّل الصادر والوارد في دفترك، تضع ميزانية، وتدوّن قائمة بالحلول الممكنة؟ هل هذا صحيح؟»

قلب بنتو، الذي احمرّ وجهه، الدفتر الذي يكتب فيه.

«لا تخفي عني شيئاً أيها الشاب. فأنا جاسوس ماهر، وأكتم الأسرار. وتراودني أيضاً أفكار محرّمة. كما أنني أعلّم الخطابة والبلاغة، ومن المؤكد أنني أستطيع أن أحسّن قدرتك على الكتابة».

رفع سبينوزا دفتره لكي يرى الزبون جيداً وسأله وقد ارتسمت على وجهه أثر ابتسامة عريضة، «كيف هي اللغة البرتغالية يا سيدي؟»

«اللغة البرتغالية! هيا عدّ أيها الشابّ. نعم للهولندية. نعم للإنكليزية والفرنسية والألمانية. نعم للغة اللاتينية واليونانية. نعم حتى لقليل من الإسبانية، ومعرفة سطحيّة باللغتين العبرية والآرامية، لكن لا للغة البرتغالية. إنك تتكلم الهولندية بطلاقة. لماذا لا تكتب بالهولندية؟ لا بد أنك مواطن هنا؟»

«نعم. فقد هاجر أبي من البرتغال عندما كان طفلاً. ومع أنني أستخدم الهولندية في معاملاتي التجارية، فإني لا أرتاح كثيراً بالكتابة بالهولندية، وأكتب أحياناً أيضاً بالإسبانية، وأتعمق في الدراسات العبرية».

«تحدوني رغبة قوية على الدوام بقراءة الكتاب المقدّس في لغته

الأصلية. من المحزن أن القساوسة اليسوعيين لم يعلّموني إلّا القليل من اللغة العبرية. لكنّك لم تجبني بعد ماذا تكتب».

«أظن أن استنتاجك أنني أسجّل حركة البيع والشراء يستند إلى قولي إن حركة البيع بطيئة. استدلال معقول، لكن في هذه الحالة بالذات، فإنها خاطئة تماماً. فعقلي نادراً ما يركّز على العمل التجاري ولم أكتب عنها في حياتي».

«أعترف بأنني أخطأت. لكن قبل أن نواصل حديثنا حول ما تكتبه، أرجو أن تسمح لي بأن أستطرد قليلاً - تعليق تربويّ، وهي عادة يصعب عليَّ أن أتخلّى عنها. فاستخدامك عبارة 'استدلال' غير صحيح. فعملية البناء على ملاحظات بعينها لبناء استنتاج عقلاني، بمعنى آخر، البناء صعوداً للتوصل إلى نظرية من مجموعة ملاحظات غير مترابطة، هي استقراء، أما الاستدلال فيبدأ من نظرية بديهية وتبدأ تفكّر منطقياً حتى تتشكل لديك مجموعة من الاستنتاجات».

ملاحظاً إيماءة سبينوزا التأملية، وربّما الممتنّة، واصل فان دن إندن كلامه، «إن لم تكن تكتب عن التجارة أيها الشابّ، فماذا تكتب؟»

«ببساطة، أكتب ما أرى يجري خارج نافذة متجري».

التفت فان دن إندن ليتتبع نظرة بنتو نحو الشارع.

«انظر. الجميع في حركة دائبة. ذهاباً وإياباً، طوال اليوم، طوال حياتهم. إلى أيّ غاية؟ الثروة؟ الشهرة؟ متع الشهوات؟ من المؤكد أن هذه الغايات تمثّل انعطافات خاطئة».

«لماذا؟»

قال بنتو كلّ ما يريد أن يقوله، إلّا أن سؤال زبونه شجّعه على أن يواصل، «إن هذه الأهداف تتوالد. فكلما تحقّق هدف، تتولد احتياجات أخرى. وكلما ازداد اندفاع المرء، ازدادت رغبته في

تحقيق هدف آخر، وهكذا إلى ما لا نهاية. لا بدّ أن الطريق الحقيقي لتحقيق السعادة الخالدة يكمن في مكان آخر. هذا ما أفكّر فيه وأكتبه». احمرّ وجه بنتو خجلاً، لأنه لم يفض لأحد قط بالأفكار التي تراوده.

ارتسم على وجه الزبون اهتمام كبير. فوضع حقيبة تسوّقه على الأرض، واقترب من بنتو وحدّق في وجهه.

كانت تلك هي اللحظة - لحظة اللحظات. لقد أحبّ بنتو تلك اللحظة، نظرة الدهشة تلك، ذلك الاهتمام الجديد والأعظم والاحترام الذي بدا على وجه هذا الشخص الغريب. يا له من شخص غريب! قادم من العالم العظيم، الخارجي، العالم غير اليهودي. رجل مهم للغاية. لذلك، وجد بنتو أنه لا يمكن أن يستعرض تلك اللحظة مرة واحدة فقط، فراح يتخيّل ذلك المشهد مرّة ثانية، وأحياناً، مرّة ثالثة ورابعة. وكلما تذكرها، كانت عيناه تدمعان. أستاذ، مؤدب محنك أبدى اهتماماً كبيراً به، كلّمه بجدية، وربما قال لنفسه، «إن هذا الشابّ غير عادي».

بذل بنتو جهداً ليبعد نفسه عن لحظة اللحظات هذه، لكنه ظل يتذكّر أول لقاء جرى بينهما.

قال الزبون بإلحاح، «إنك تقول إن السعادة الخالدة تقبع في مكان آخر. حدّثني عن ذلك المكان الآخر».

«أعرف فقط أنّها لا تقبع في الأجسام الفانية. إنها لا تقبع في الخارج وإنما في الداخل. فالعقل هو الذي يقرّر الأشياء المخيفة، أو عديمة القيمة، أو المرغوبة، أو الثمينة، لذلك فإن العقل، والعقل وحده، هو الذي يجب تعديله».

«ما اسمك أيها الشابّ؟»

«بنتو سبينوزا. وبالعبرية باروخ».

«وباللاتينية اسمك بنيديكتوس. اسم جميل مبارك. أنا فرانسيسكوس فان دن إندن. أدير أكاديمية لتدريس الأعمال الكلاسيكية. سبينوزا، تقول... من اللاتينية «سبينا» و «سبينوسس»، وهما تعنيان على التوالي 'شوكة' و 'مليء بالأشواك'».

«ديسبينوسا بالبرتغالية»، قال بنتو، مومئاً، «من مكان شائك».

«قد يتبين أن نوع الأسئلة التي تطرحها تعتبر شائكة بالنسبة للأرثوذكس وللمعلمين الدينيين». لوى فان دن إندن شفتيه بابتسامة خبيثة وأضاف، «قل لي أيها الشاب، هل كنت شوكة في خاصرة معلميك؟»

لاحت على وجه بنتو ابتسامة عريضة أيضاً. «نعم، كان ذلك في الماضي. لكني ابتعدت الآن عن معلّمي، وأصبحت أبثّ أشواكي في دفتري. لأن الأسئلة التي أطرحها لا تجد ترحيباً في مجتمع يؤمن بالخرافات».

«لم تكن الخرافة والعقل رفيقين وثيقين قط. لكن يمكنني أن أعرّفك على رفاق لهم نفس الميول والأفكار. فهنا مثلاً رجل يجب أن تتعرف عليه». دسّ فان دن إندن يده في حقيبته واستلّ منها مجلداً قديماً، وقدمه إلى بنتو، وقال: «الرجل هو أرسطو، ويضم هذا الكتاب بحثه في نفس نوع الأسئلة التي تطرحها. وهو يعتبر أيضاً العقل والسعي إلى جعل قوى العقل والمنطق المشروع الإنساني الأسمى والوحيد. يجب أن يكون كتاب الأخلاق النيقوماخية لأرسطو واحداً من دروسك القادمة».

رفع بنتو الكتاب إلى أنفه واستنشق رائحته قبل أن يفتح صفحاته، ثم قال: «أعرف هذا الرجل وكم أرغب في أن ألتقي به. لكنني لم أستطع أن أحدّثه قط لأني لا أعرف اللغة اليونانية».

«إذاً يجب أن تكون اللغة اليونانية جزءاً من تعليمك أيضاً. طبعاً

بعد أن تتقن اللاتينية. للأسف فإن حاخاماتك لا يعرفون إلّا النزر اليسير عن الأعمال الكلاسيكية لأن أفقهم ضيّق جداً وغالباً ما ينسون أنّ العلماء غير اليهود يبحثون عن الحكمة أيضاً».

فردّ بنتو في الحال، عائداً كعادته إلى يهوديته عندما يهاجم أحد اليهود. «هذا غير صحيح. فقد قرأ الحاخام ميناساخ والحاخام مورتيرا أرسطو بالترجمة اللاتينية، وقال موسى بن ميمون إن أرسطو من أعظم الفلاسفة».

استجمع فان دن إندن نفسه، وقال: «أحسنت القول أيها الشابّ، أحسنت القول. بهذا الرد نجحت في امتحان القبول لديّ الآن. فهذا الولاء تجاه المعلمين القدامى يحفّزني الآن على أن أوجّه لك دعوة رسمية لتدرس في أكاديميتي. لقد آن الأوان لكي لا تتعرف على أرسطو فحسب وإنما أن تعرفه بنفسك. أستطيع أن أجعلك تفهمه بالإضافة إلى عالم الفلاسفة رفاقه، مثل سقراط وأفلاطون وآخرين عديدين».

«آه، لكن هناك مشكلة رسوم التعليم؟ فكما قلت لك فإن عملي التجاري يمرّ في مرحلة سيئة الآن».

«سنتوصل إلى حل وسط. أولاً، سنرى أي نوع من معلّمي اللغة العبرية أنت. فأنا وابنتي نرغب في تحسين لغتنا العبرية. وقد نكتشف أشكالاً أخرى من المقايضة. حالياً، أقترح أن تضيف كيلوغراماً من اللوز إلى نبيذي وزبيبي - وليس الزبيب الصغير جداً - لنجرب ذلك النوع الكبير من الزبيب في الرفّ العلوي».

* * *

كان تأثير تذكّره كيف تشكلّت حياته الجديدة قوياً إلى حدّ أن بنتو غرق في أحلام يقظته فلم ينتبه إلى أنه تجاوز المكان الذي يقصده. لكنه أفاق من حلمه مجفلاً، وعاد أدراجه بسرعة إلى بيت فان دن

إندن، إلى ذلك البيت الضيّق المؤلف من أربعة طوابق أمام سينغيل. عندما صعد بنتو إلى أعلى طابق في البيت حيث تُعطى الدروس، كان يتوقّف، كعادته، عند بئر درج كلّ طابق ويلقي نظرة على الأشياء الحية، ولم يُبدِ أي اهتمام بالأرضيّة المبلّطة المتشابكة المحاطة بصفّ من بلاط الديلفت الأبيض والأزرق عند بئر درج الطابق الأول.

في الطابق الثاني، ذكّرته رائحة مخلل الملفوف والكاري اللاذعة بأنّه نسي، مرة أخرى، أن يتناول طعام الغداء أو العشاء.

وفي الطابق الثالث لم يتبق له الكثير من الوقت حتى يبدي إعجابه بالقيثارة البراقة والأقمشة المطرّزة المعلّقة لكنه، كالعادة، أبدى إعجابه باللوحات الزيتية العديدة التي تملأ الجدران الأربعة. ولبضع دقائق، أخذ بنتو يحدّق في لوحة صغيرة تصوّر قارباً سُحب إلى الشاطئ، وراح يدقق في المنظور الذي تبرزه الأشكال الضخمة على الشاطئ وفي الهيئتين الأصغر حجماً في القارب - إحداهما تقف في مقدمة القارب، وتجلس الأخرى، الأصغر حجماً، في قوس القارب - وطبعها في ذاكرته ليصنع منها نسخة من الفحم عندما يعود إلى البيت في المساء.

في الطابق الرابع استقبله فان دن إندن وستّة طلاب يدرسون في الأكاديمية، أحدهم يتعلّم اللغة اللاتينية بينما انتقل الطلاب الخمسة الآخرون لدراسة اللغة اليونانية. وكدأبه بدأ فان دن إندن درسه بإعطاء الطلاب تمرين إملاء باللاتينية وترجمته إلى اللغة الهولندية أو إلى اليونانية. ولتشجيع الطلاب على إتقان لغات جديدة، كان فان دن إندن يعطيهم نصوصاً مثيرة للاهتمام ومسلية في آن واحد. وخلال الأسابيع الثلاثة الماضية، كان فان دن إندن يقرأ عليهم نصّ أوفيد، وفي هذه الليلة، راح يقرأ لهم جزءاً من قصّة نرسيس (نرجس).

وبخلاف الطلاب الآخرين، لم يكن سبينوزا يبدي اهتماماً كبيراً

بالقصص الخيالية. وسرعان ما أدرك أنّه ليس بحاجة إلى الاستماع إلى قصص مسلية، بل كان شغوفاً بالتعلّم، وقد أبدى قدرة عجيبة في تعلّم اللغات. ومع أن فان دن إندن سرعان ما أدرك أنّ بنتو سيكون تلميذاً متميّزاً، فقد دُهش من قدرة الشابّ على فهم كلّ مفهوم، كلّ فكرة، وكلّ قاعدة نحوية، وتعلّمها حتى قبل أن يغادر التفسير شفتيْ أستاذه.

وكانت ابنة فان دن إندن، كلارا ماريا، ذات الثلاثة عشر ربيعاً، وذات العنق الطويل والابتسامة المخادعة والظهر المحني قليلاً، تبدي قدرة عجيبة في تعلّم اللغات وكانت تتفاخر بقدرتها هذه على الطلاب الآخرين، فقد كانت تنتقل من لغة إلى أخرى عندما تتناقش مع أبيها دروس كل طالب. في البداية، صُعق بنتو من قدرتها وذكائها: فقد كانت دونية المرأة واحدة من العقائد اليهودية التي لم يعترض عليها - دونيتها من حيث الحقوق والذكاء. ومع أنه كان مذهولاً من قدرة كلارا ماريا، فقد اعتبرها حالة خاصة، نزوة، استثناء للقاعدة التي تقول إن عقول النساء أدنى مرتبة من عقول الرجال.

وعندما كان فان دن إندن يغادر الغرفة مع الطلاب الخمسة الذين يدرسون اللغة اليونانية، تبدأ كلارا ماريا بجدية تكاد تكون مضحكة، بالنسبة لفتاة لا تتجاوز الثالثة عشرة من العمر، تعليم بنتو وطالب ألماني يدعى ديرك كيركرينك بعض الكلمات وقواعد الإعراب. وكان ديرك يدرس اللغة اللاتينية تمهيداً لدخوله إلى كليّة الطب في هامبورغ. ثم طلبت كلارا ماريا من بنتو وديرك أن يترجما إلى اللاتينية قصيدة هولندية شعبية للشاعر جاكوب كاتس تتناول السلوك اللائق للشابّات العازبات، التي قرأتها بصوت رخيم جذاب، وشعّ وجهها بابتسامة، ثم نهضت وانحنت احتراما عندما بدأ ديرك يصفق، ثم تبعه بنتو، على أدائها الرائع.

كان الجزء الأخير من المساء هو الجزء الهام بالنسبة لبنتو. عندما يلتقي جميع الطلاب في أكبر قاعة للدروس، الغرفة الوحيدة التي فيها نوافذ، للاستماع إلى محاضرة فان دن إندن عن العالم القديم. وكان موضوع محاضرة هذا المساء حول نظرة الإغريق إلى الديمقراطية، التي يرى أنها أكثر أشكال الحكم كمالاً، مع أنه - وهنا ألقى نظرة على ابنته التي تحضر جميع دروسه - اعترف بأن «الديمقراطية اليونانية كانت تستثني أكثر من ٥٠ في المئة من السكان، أي النساء والعبيد»، وتابع قائلاً: «انظروا إلى مكانة المرأة المتناقضة في الدراما اليونانية. فمن ناحية، كان يحظر على المرأة اليونانية حضور الأعمال المسرحية، لكن في القرون الأكثر تنويراً التالية، أصبح يُسمح للمرأة أن تجلس في المدرجات لكن فقط في الأماكن التي لا تكون فيها الرؤية واضحة، لكن انظروا إلى النساء اللاتي كن يأخذن دور البطولة في المسرحيات - فقد كانت بطلات أعظم تراجيديات سوفوكليس ويوربيدس نساء من فولاذ. ودعوني أذكر باختصار ثلاثاً من أعظم الشخصيات في الأدب كله: أنتيغون وفيدرا وميديا».

بعد محاضرته التي طلب فيها من كلارا ماريا أن تقرأ بضع أجمل فقرات أنتيغون باللغتين اليونانية والهولندية، طلب من بنتو أن يمكث لبضع دقائق بعد أن يغادر الطلاب الآخرون.

«أريد أن أبحث معك مسألتين يا بنتو. الأولى، هل تذكر العرض الذي قدمته لك في أول لقاء لنا في متجرك؟ وهو أن أعرّفك على المفكّرين المقربين؟» أومأ بنتو، وواصل فان دن إندن كلامه، «لم أنس، وسأفي بهذا الوعد. إنك تتقدّم في اللغة اللاتينية بشكل رائع، وسندرس الآن لغة سوفوكليس وهوميروس. وفي الأسبوع القادم، ستبدأ كلارا ماريا بتدريسك الأبجديّة اليونانية. وقد اخترت

نصوصاً ستكون ذات اهتمام كبير بالنسبة لك. وسنبدأ بدراسة فقرات من أرسطو وأبيقور تتناول نفس المواضيع التي أبديت اهتمامك بها في أول لقاء لنا».

«إنك تشير إلى ما كنت أكتبه في دفتري عن الأهداف الفانية والأهداف التي لا تزول؟»

«تماماً. كخطوة لإتقان لغتك اللاتينية، فإني أقترح أن تبدأ منذ الآن بالكتابة بهذه اللغة».

هزّ بنتو رأسه.

«وثمة شيء آخر»، أضاف فان دن إندن، «سنكون أنا وكلارا ماريا مستعدين لكي تدرّسنا اللغة العبرية. هل توافق على أن نبدأ في الأسبوع القادم؟»

«بكل سرور»، أجاب بنتو، «فهذا سيمنحني متعة كبيرة وسيتيح لي ذلك الفرصة لأن أسدد لكما ديني العظيم».

«إذاً ربما حان الوقت للتفكير في أساليب التعليم. هل لديك خبرة في التعليم؟»

«منذ ثلاث سنوات طلب مني الحاخام مورتيرا أن أساعده في تعليم التلاميذ الصغار اللغة العبرية. وقد دوّنت أفكاراً كثيرة عن تعقيدات اللغة العبرية وآمل أن أكتب ذات يوم كتاباً يتناول قواعد اللغة العبرية».

«ممتاز. كن مطمئناً بأنه سيكون لديك تلاميذ في غاية الحماسة والانتباه».

«بالمصادفة»، أضاف بنتو، «بعد ظهر اليوم جاءني طلب غريب. فقد جاء إليّ منذ بضع ساعات شخصان وطلبا استشارتي»، وحكى له بنتو بالتفصيل عن اللقاء الذي جرى بينه وبين جاكوب وفرانكو.

استمع فان دن إندن باهتمام شديد، وعندما أنهى بنتو كلامه،

قال، «سأضيف كلمة أخرى حول الوظيفة التي سأكلّفك بها حول مفردات اللغة اللاتينية هذه الليلة. أرجو أن تكتب *caute*. يمكنك أن تخمن معناها من كلمة *cautela* الإسبانية».

«نعم، 'حذر' - *cuidado* باللغة البرتغالية. لكن لماذا *caute*؟»

«باللاتينية من فضلك»

« *Quad cur caute?* »

«عندي جاسوس يخبرني بأن أصدقاءك اليهود غير مسرورين لأنني أعلّمك. إنهم غير سعيدين على الإطلاق. وهم كذلك ليسوا مسرورين لأنك تبتعد أكثر وأكثر عن طائفتك، كن *caute* يا بني. احرص على ألّا تقدم لهم ذرائع أخرى للاستياء منك. لا تثق بأي غريب ولا تعرب له عن الأفكار والشكوك التي تراودك. سنرى في الأسبوع القادم إن كان بوسع أبيقور أن يقدم لك نصيحة مفيدة».

الفصل الرابع

إستونيا - ١٠ أيار (مايو) ١٩١٠

عندما غادر ألفريد الغرفة، وقف الصديقان القديمان وتمطيا، بينما وضعت سكرتيرة المدير إبشتاين طبق فطيرة التفاح والجوز على الطاولة. ثم جلسا وراحا يتناولان الفطيرة بصمت، بينما أخذت تعدّ لهما الشاي.

«إذاً، أخبرني يا هيرمان، هل هذا هو وجه المستقبل؟» سأل المدير إبشتاين.

«ليس المستقبل الذي أريد أن أراه. إني سعيد بهذا الشاي الحار - إنه لشيء مفزع أن تكون معه».

«إلى أي مدى يجب أن نشعر بالقلق بشأن هذا الفتى، وعن مدى تأثيره في زملائه في الصف؟»

مرّ ظلّ - طالب مرّ في الممر - ووقف هير شافر ليغلق الباب الذي كان منفرجاً.

«كنت موجّهه منذ أن بدأ الدراسة هنا، وهو يحضر عدداً من الدروس في صفّي. من الغريب أنني لا أعرفه جيداً. كما ترى، فإنه انطوائي ويتصرف بآلية. فأرى الصبية الآخرين منهمكين في أحاديث

حيوية بعضهم مع بعض، أما ألفريد فلا يشاركهم أبداً. بل يظل متوارياً دائماً».

«لكنه لم يكن يبدو متوارياً في الدقائق القليلة الماضية، يا هيرمان».

«هذا شيء جديد عليّ تماماً. لقد هزّني ذلك. إني أرى الآن ألفريد روزنبرغ مختلفاً. إن قراءة تشامبرلن جعلته جريئاً».

«قد يكون هذا هو الجانب الظاهر. فقد يصادف كتباً أخرى تزيده تأججاً، لكن ربما بطريقة مختلفة. لكنك قلت لي إنّه لا يحب الكتب بشكل عام؟»

«تصعب الإجابة عن ذلك. ففي بعض الأحيان يخيّل إليّ أنه يحبّ فكرة الكتب أو هالتها، أو ربّما أغلفة الكتب فقط. وفي أحيان كثيرة أراه يتجوّل في المدرسة حاملاً كومة من الكتب: هوبتمان، هاينه، نيتشه، هيغل، غوته. وفي أحيان أخرى، تكاد طريقة وقفته تبدو مضحكة. طريقة لإبراز أفكاره المتعالية، ويتباهى بأنه يفضّل الكتب على الاختلاط بزملائه. كنت أشكّ في أنه يقرأ هذه الكتب، أما اليوم، فإني لا أعرف كيف أفكّر».

فقال المدير: «كلّ هذا الشغف بتشامبرلن، هل أبدى شغفاً بأشياء أخرى؟»

«هنا يكمن السؤال. كان يخفي مشاعره باستمرار، لكنّي أتذكّر تلك الحماسة التي كان يبديها في دروس التاريخ المحلي القديم. فقد أخذت مجموعات صغيرة من الطلاب، عدة مرات، للمشاركة في الحفريات الأثرية شمال كنيسة سانت أولاي، وكان روزنبرغ يشارك في هذه الرحلات وقد ساعد في إحدى تلك الرحلات في اكتشاف أدوات تعود إلى العصر الحجري وموقد يعود إلى حقبة ما قبل التاريخ. كان يبدي حماسة شديدة فيها».

«غريب»، قال المدير وهو يتصفح ملف ألفريد أمامه، «فقد اختار أن يأتي إلى مدرستنا بدلاً من أن يذهب إلى الجمنازيوم حيث يمكنه دراسة الأعمال الكلاسيكية ليلتحق بالجامعة ليدرس الأدب أو الفلسفة اللتين يبدو أن اهتماماته تتركز عليهما. لماذا سيذهب إلى البوليتيكنيوم؟»

«أظن أن هناك أسباباً مالية. فقد ماتت أمّه بعد ولادته، وأبوه مصاب بالسلّ، ويعمل أحياناً كاتباً في أحد المصارف. ويرى هير بورفيت، الأستاذ الجديد لمادة الفنون أنه رسام جيّد ويشجّعه على دراسة الهندسة المعمارية».

«إذاً فهو ينأى بنفسه عن الطلاب الآخرين»، قال المدير وهو يغلق ملف ألفريد، ثم أضاف، «ومع ذلك، فقد فاز في الانتخابات. ألم يكن رئيس الصفّ منذ سنتين أيضاً؟»

«لا أرى أن لفوزه في الانتخابات علاقة كبيرة بالشعبية. فالطلاب الآخرون لا ينظرون إلى رئيس الصفّ باحترام كبير، والطلاب الذين يتمتعون بشعبية لا يفضلون عادة استلام هذه المسؤولية بسبب الأعمال الروتينية التي يجب أن يقوموا بها وتحضير كلمة التخرّج. ولا أظن أن الطلاب يأخذون روزنبرغ بجدية، فلم أره بينهم أو أنه يتبادل النكات مع طلاب آخرين قط. وهو في كثير من الأحيان شخص انطوائي، يتجوّل وحيداً في شوارع ريفال حاملاً دفتر الرسم. لذلك، فإني لست قلقاً من أنه يستطيع أن ينشر هذه الأفكار المتطرّفة هنا».

وقف المدير إبشتاين واتّجه نحو النافذة. في الخارج كانت تنتصب أشجار امتلأت أغصانها أوراق ربيعية عريضة نضرة، وعلى مسافة بعيدة، ارتفعت بنايات مهيبة بيضاء ذات أسطح من الآجر الأحمر.

«حدّثني أكثر عن تشامبرلن هذا، فاهتماماتي في القراءة تتركز في مجال آخر. ما مدى تأثيره في ألمانيا؟»

«إن تأثيره آخذ في الازدياد بسرعة. بسرعة مخيفة. فقد نُشر كتابه منذ عشر سنوات، ولا تزال شعبيته آخذة في التصاعد. سمعت أن أكثر من مئة ألف نسخة بيعت منه».

«هل قرأته أنت؟»

«كنت قد بدأت بقراءته، لكني لم أستطع أن أكمله فرحت أقلّب ما تبقى من صفحاته. لكن بعض أصدقائي قرأوا الكتاب. ويشاطرني المؤرخون الضليعون الرأي - وكذلك الكنيسة، وطبعاً الصحف اليهودية. لكن على الرغم من ذلك، فقد امتدحه عدد كبير من الشخصيات البارزة - الإمبراطور ويلهيلم، والأمريكي ثيودور روزفلت - ونشرت صحف أجنبيّة بارزة عديدة مراجعات إيجابية عنه، وتحدّث بعضها عنه بنشوة كبيرة. لأن تشامبرلن يستخدم لغة راقية ويدّعي أنه يخاطب دوافعنا الأكثر نبلاً، أما أنا فإني أرى أنّه يشجّع على إبراز دوافعنا الأكثر انحطاطاً».

«كيف تفسّر شعبيته إذاً؟»

«إنه يكتب بأسلوب مقنع، ويثير إعجاب الجهلة. ففي كلّ صفحة في كتابه يبث اقتباسات قد تبدو عميقة: من ترتوليان أو القديس أوغسطين، أو ربما اقتباسات وأقوال لأفلاطون أو لأحد الصوفيين الهنود من القرن الثامن. لكن لا يعدو كونه ادعاء بسعة الاطلاع والمعرفة. في الواقع، فإنه يختار اقتباسات خارجة عن السياق من عصور مختلفة ليدعم أفكاره. ولا شكّ أن زواجه الأخير من ابنة فاغنر أسهم في تصاعد شعبيته. إذ يرى الكثيرون أنه خليفة إرث فاغنر العنصري».

«وهل أثنى عليه فاغنر؟»

«لا، فهما لم يلتقيا قط. فقد مات فاغنر قبل أن يتعرف تشامبرلن على ابنته كوسيما التي منحته مباركتها».

صبّ المدير مزيداً من الشاي. «حسناً، يبدو أن روزنبرغ الشابّ قد أُخذ كثيراً بتشامبرلن العنصري إلى درجة أنه لم يعد سهلاً إبعاده عنها. لكن عندما تفكّر في الأمر، فمن هو المراهق، الوحيد، المكروه، الأحمق، الذي لن يتفاخر بسعادة عندما يعرف أنه ينتمي إلى عرق متفوّق؟ وأن أسلافه هم الذين أسّسوا الحضارات العظيمة؟ لاسيما فتى عاش من دون أمّ تحيطه برعايتها وتبدي إعجابها به، وأبوه على فراش الموت، وأخوه الأكبر مريض، الذي...»

«آه يا كارل، إني أسمع أصداء رؤيتك، بأن الدكتور الفْيَنّي، فرويد الذي يكتب أيضاً بأسلوب مقنع ويتعمق أيضاً في الأعمال الكلاسيكية، لا يظهر من بين الاقتباسات عنده».

« *Mea culp* (*لقد أخطأت*). أعترف بأن أفكاره تبدو لي معقولة أكثر. فقد قلتَ مثلاً إن مئة ألف نسخة قد بيعت من كتاب تشامبرلن المعادي للساميّة. ومن بين القرّاء جميعاً، كم عدد الذين يرفضونه مثلك؟ وكم عدد الذين يتأثرون به مثل روزنبرغ؟ لماذا يحظى هذا الكتاب بهذه الدرجة من الشعبية؟ لا بد أن هناك شيئاً في القارئ الذي يعتنق أفكار كتاب بذاته: حياته، نفسيته، صورته عن نفسه. لا بد أن هناك شيئاً يقبع في تلافيف دماغه - أو كما يقول فرويد ذاك، *العقل الباطن* - يجعل قارئاً ما يُغرم بكاتب ما».

«موضوع مهم يمكن أن نناقشه على العشاء في مناسبة أخرى! أما الآن، فأظن أن تلميذي الشاب روزنبرغ، قلق وينضح عرقاً وهو ينتظر هناك. ماذا سنفعل معه؟»

«نعم، إننا نتفادى ذلك. فقد وعدنا بأنه نكلّفه بإجراء بحث ويجب أن نفكّر في شيء. لعلنا نغالي في هذه المسألة. فهل نستطيع

أن نكلّفه بإجراء بحث قد يحدث تأثيراً إيجابياً عليه خلال الأسابيع القليلة المتبقية؟ إني أرى مرارة شديدة في داخله، كراهية شديدة لا يمكن أن يشعر بها أحد إذا لم يكن يؤمن بوهم 'الألماني الحقيقي'. يجب أن نبعده عن هذه الأفكار ونجعله يفكر في أشياء ملموسة، أشياء يمكنه أن يلمسها في الواقع».

«أتفق معك. من الأصعب أن تكره فرداً على أن تكره عرقاً»، قال هير شافر، ثم أضاف، «عندي فكرة. أعرف يهودياً يجب أن يهتمّ به. دعنا نستدعيه الآن، وسأبدأ أنا بذلك».

رفعت سكرتيرة المدير إبشتاين أطباق الشاي وطلبت من ألفريد أن يدخل. جلس في كرسيه في الطرف المقابل من الطاولة.

ملأ هير شافر غليونه ببطء، أشعله، ثم أخذ نفساً عميقاً ونفث سحابة من الدخان، وقال: «روزنبرغ، أريد أن أسألك بضعة أسئلة أخرى. فأنا أدرك مشاعرك تجاه اليهود كعرق بصورة عامة، لكن لا بد أنك صادفت يهوداً جيدين. وعلمت أن لدينا أنا وأنت نفس الطبيب الذي يعالجنا. إنه هير أبفيلباوم، وقد عرفت أنه أنقذ حياتك».

فقال ألفريد: «نعم، فهو طبيبي منذ ولادتي».

«وهو كذلك من أعزّ أصدقائي طوال هذه السنوات. قل لي، هل هو شخص سامّ؟ هل هو طفيلي؟ لا يوجد أحد في ريفال يعمل بجد ودأب مثله. عندما كنتَ رضيعاً، رأيتُ بأمّ عينيّ كيف أنه كان يعمل ليل نهار ليشفي أمّك من مرض السلّ، وسمعت أنه بكى كثيراً في جنازتها».

«الدكتور أبفيلباوم رجل طيب. يقدّم لنا دائماً رعاية جيّدة. وبالمناسبة فإننا ندفع له لقاء عمله هذا باستمرار. لكن قد يكون هناك يهود طيبون. أعرف ذلك، وأنا لا أتحدث بالسوء عنه كشخص،

وإنما أتحدّث عن البذرة اليهودية، ولا يمكن إنكار أنّ جميع اليهود يحملون بذور عرق بغيض، وذلك . . . »

«آه، هذه الكلمة مرة أخرى، 'بغيض'» قاطعه المدير إبشتاين، باذلاً كل ما بوسعه جهده ليتمالك نفسه. «إني أسمع منك الكثير عن الكراهية يا روزنبرغ، لكنّي لا أسمع شيئاً عن الحبّ. لا تنس أنّ الحبّ هو محور رسالة المسيح. لا أن تحبّ اللّه فقط، وإنما أن تحبّ جارك أيضاً كما تحبّ نفسك. ألا ترى شيئاً من التناقض بين ما قرأته في تشامبرلن وبين ما تسمعه عن الحبّ المسيحي في الكنيسة كلّ أسبوع؟»

«سيدي، أنا لا أذهب إلى الكنيسة كلّ أسبوع. لقد توقّفت عن ارتياد الكنيسة».

«ما رأي والدك بذلك؟ ما رأيه بتشامبرلن؟»

«يقول أبي إنه لم يطأ الكنيسة طوال حياته، وقرأت أن تشامبرلن وفاغنر يقولان بأنّ تعاليم الكنيسة تضعفنا، كثيراً من الأحيان، أكثر من أن تقوّينا».

«ألا تحبّ المسيح؟»

صمت ألفريد قليلاً لأنه شعر بأن فخاخاً تنصب من حوله. إنها أرض مفخخة: فقد كان المدير أشار إلى نفسه بأنه لوثري مؤمن. السلامة تكمن في البقاء مع تشامبرلن، وبذل ألفريد جهده ليتذكّر الكلمات التي وردت في كتابه. «مثل تشامبرلن، فأنا معجب كثيراً بالمسيح. وتشامبرلن يقول إنه رجل عبقري من الناحية الأخلاقية. ويتمتع بقدر كبير من القوة والشجاعة، لكن للأسف، قام بولص بتهويد تعاليم المسيح وحوّله إلى رجل وديع متألم. فجميع الكنائس المسيحية تعرض لوحات أو تماثيل أو رسوماً على الزجاج تصوّر يسوع وهو مصلوب. ولا يوجد أيّ شيء منها تصوّر المسيح القوي

والشجاع - المسيح الذي تجرأ وتحدّى الحاخامات الفاسدين، المسيح الذي طرد صرافي العملة من المعبد!»

«إذاً فإن تشامبرلن يرى المسيح الأسد، لا المسيح الحمل؟»

«نعم»، قال روزنبرغ، متشجّعاً، «يقول تشامبرلن إنها لمأساة أن يظهر يسوع في المكان والوقت اللذين ظهر فيهما. فلو ظهر ليعظ الشعب الألماني، أو لنقل، الشعب الهندي، لكان لكلماته تأثير مختلف تماماً».

«لنعد إلى سؤالي السابق»، قال المدير الذي أدرك أنّه سلك المسار الخطأ، «عندي سؤال بسيط: من تحبّ؟ من هو قدوتك؟ من هو الشخص الذي تُعجب به أكثر من أي شخص آخر؟ أقصد بالإضافة إلى تشامبرلن هذا».

لم يكن لدى ألفريد ردّ فوري. فقد فكّر طويلاً قبل أن يجيب. «غوته».

اعتدل المدير إبشتاين وهير شافر في جلستيهما قليلاً. وقال المدير: «إنه اختيار مهم يا روزنبرغ. اختيارك هذا أم تشامبرلن؟»

«كلاهما. وأفكّر أيضاً في اختيار هير شافر. فقد امتدح غوته في الصفّ أكثر مما امتدحه أي شخص آخر». ونظر ألفريد إلى هير شافر للتأكيد على كلامه وتلقى إيماءة تأكيد.

«وقل لي، لماذا غوته؟» سأله المدير.

«إنه العبقري الألماني الخالد. أعظم الألمان قاطبة. عبقري في الكتابة، وعبقري في العلم والفنّ والفلسفة. إنه أكثر عبقرية من أي شخص آخر».

«ردّ ممتاز»، قال المدير إبشتاين الذي دبّت فيه الحيوية فجأة، «وأظن أنني عرفت الآن مشروع التخرّج المناسب لك».

تشاور المعلّمان على انفراد، وراح أحدهما يهمس للآخر. غادر

المدير إبشتاين الغرفة ثم عاد بعد قليل وبيده كتاب ضخم. انحنى هو وشافر فوق الكتاب وراحا يقلّبان صفحاته لدقائق، يمسحان النصّ بعينيهما. بعد أن دوّن المدير بضعة أرقام صفحات، التفت نحو ألفريد.

«هذا هو مشروعك. يجب أن تقرأ، بعناية كبيرة، فصلين - الرابع عشر والسادس عشر - من سيرة غوته الذاتية، وعليك أن تنسخ كلّ سطر كتبه عن بطله الشخصي، الرجل الذي عاش منذ فترة طويلة يدعى سبينوزا. لا بد أنك سترحّب بهذه الوظيفة. فمن الممتع أن تقرأ سيرة الشخص الذي تعتبره قدوة لك. فغوته هو الرجل الذي تحبّه، وأظن أن من المهم أن تعرف ما يقوله عن الرجل الذي يحبّه ويكنّ له احتراماً كبيراً. هل هذا صحيح؟»

أومأ ألفريد بحذر. مندهشاً من ارتفاع معنويات المدير. أحسّ بفخّ نصب له.

«إذاً»، تابع المدير قائلاً، «لنكن واضحين حول هذه الوظيفة يا روزنبرغ. عليك أن تقرأ الفصلين الرابع عشر والسادس عشر من السيرة الذاتية لغوته، وعليك أن تنسخ كلّ جملة يذكر فيها بنيديكت سبينوزا. عليك أن تنسخ ثلاث نسخ، واحدة لك، وواحدة لكلّ منّا. وإذا وجدنا أنك لم تدوّن أيّ تعليق من تعليقاته المتعلقة بسبينوزا في الوظيفة التي سنكلّفك بها، فإننا سنطلب منك أن تعيد كتابتها ثانية حتى تكتبها بالشكل المناسب. سنراك بعد أسبوعين لنقرأ ما كتبته ونناقشها. هل هذا واضح؟»

إيماءة أخرى. «سيدي، هل يمكنني أن أسأل سؤالاً؟ قلت قبل الآن إنّ عليّ أن أكتب وظيفتين: أن أجري بحثاً عن النسب، وأن أقرأ فصلين، وأن أدوّن ثلاث نسخ مما كتبه غوته عن بنيديكت سبينوزا».

«صحيح»، قال المدير، «وما هو سؤالك؟»

«سيدي، أليست هذه ثلاث وظائف وليست وظيفتين؟»

«روزنبرغ» قاطعه هير شافر، «إن عشرين وظيفة ستكون عقاباً مخفّفاً. فقولك إن مدير مدرستك لا يصلح لأن يشغل منصب المدير لأنه يهودي سبب كاف لطردك من جميع المدارس في إستونيا أو في أرض الأجداد».

«نعم يا سيدي».

«انتظر يا هير شافر، فربما كان الفتى على حق. فالوظيفة حول غوته مهمة جداً، لذلك أريد أن يقوم بها بإتقان شديد»، والتفت المدير إبشتاين إلى ألفريد، وقال: «لقد أعفيتك من مشروع البحث في النسب. ركّز بالكامل على كلمات غوته. انتهى الاجتماع. سنراك هنا بعد أسبوعين بالتمام والكمال. في نفس الوقت. واحرص على أن تسلمني الوظيفة قبل اجتماعنا بيوم».

الفصل الخامس

أمستردام - ١٦٥٦

«صباح الخير يا غابرييل»، قال بنتو عندما سمع شقيقه يغتسل استعداداً لصلاة يوم السبت. ردّ عليه غابرييل بهمهمة، لكنه دخل إلى غرفة نومهما وجلس بتثاقل على السرير الكبير ذي الأربعة الأعمدة الذي ينامان عليه معاً. كان هذا السرير الذي يشغل معظم مساحة الغرفة، الشيء الوحيد المتبقي من ماضيهما.

كان والدهما، ميكائيل، قد ورّث ممتلكات الأسرة كلّها إلى بنتو، الابن البكر، لكن شقيقتَي بنتو اعترضتا على وصية أبيهم لأن بنتو لم يشأ أن يكون فرداً مخلصاً في الطائفة اليهودية. وعلى الرغم من أن المحكمة اليهودية قد أصدرت قراراً لمصلحة بنتو، فقد فاجأ الجميع بأن أعاد جميع ممتلكات الأسرة على الفور إلى شقيقه وشقيقتيه، ولم يُبقِ لنفسه إلّا شيئاً واحداً، وهو سرير والديه ذو الأعمدة الأربعة. فبعد أن تزوجت شقيقتاه، عاش مع أخيه غابرييل في ذلك البيت الجميل ذي الطوابق الثلاثة المطلي باللون الأبيض الذي استأجرته عائلة سبينوزا منذ عقود. كان البيت يقع قبالة هوتغراخت، بالقرب من أكثر التقاطعات ازدحاماً في الحي اليهودي في أمستردام، على مسافة شارع واحد عن كنيس بيث جاكوب والصفوف الملحقة به.

لكن بنتو وغابرييل قرّرا بحزن شديد أن يتركا هذا البيت. فبعد انتقال شقيقتيهما، أصبح البيت القديم كبيراً عليهما وتسكنه أرواح الموتى، فضلاً عن ارتفاع إيجار البيت - فقد شكّلت الحرب الهولندية - الإنكليزية في عام ١٦٥٢ وهجمات القراصنة على السفن القادمة من البرازيل كارثة على تجارة الاستيراد والتصدير التي تزاولها عائلة سبينوزا، فاضطر الأخوان إلى استئجار بيت صغير يبعد خمس دقائق عن متجرهما.

رمق بنتو شقيقه طويلاً. عندما كان غابرييل طفلاً، كان الآخرون يطلقون عليه غالباً اسم «بنتو الصغير»، لأنهما كانا يتشاركان في نفس الوجه البيضوي الطويل والعينين اللتين تشبهان عينَي البومة الثاقبتين والأنف القوي. لكن وزن غابرييل ازداد أربعين باونداً على وزن أخيه بنتو، وأصبح أطول منه بخمس بوصات، وبنيته أقوى. وبدا أن عينيه لم تعودا قادرتين على الرؤية لمسافة بعيدة.

جلس الأخوان بجانب بعضهما على حافة السرير صامتين. كان بنتو يؤثر الصمت، وكان يشعر بالارتياح عندما يتناول الطعام أو يعمل في المحل مع غابرييل من دون أن يتبادلا كلمة واحدة. أما الصمت اليوم فقد كان ثقيلاً ويولّد أفكاراً كئيبة. تذكّر بنتو شقيقته ريبيكا الثرثارة المفعمة بالحركة والنشاط، أما الآن فقد أصبحت صامتة أيضاً وتشيح بعينيها عنه عندما ينظر إليها.

كان الأموات جميعاً صامتين أيضاً، فقد ضم هذا السرير جميع الذين رحلوا عن هذه الدنيا: أمّه حنّة التي ماتت منذ سبع عشرة سنة، عندما لم يكن يتجاوز السادسة من العمر، وإسحاق، شقيقه الأكبر الذي مات منذ ستّ سنوات، وزوجة أبيه إستر التي رحلت منذ ثلاث سنوات، ومات أبوه وشقيقته ميريام قبل سنتين. ومن بين أشقّائه - تلك المجموعة الصاخبة المفعمة بالحيوية الذين طالما لعبوا

وتشاجروا وابتهجوا وحزنوا على أمّهم، ثم بدأ حبّهم يزداد شيئاً فشيئاً لزوجة أبيهم - لم يبق سوى ريبيكا وغابرييل اللذين أخذا يبتعدان عنه بسرعة.

حدّق بنتو في وجه غابرييل المتورم الشاحب، وقال ليكسر الصمت: «لم تنم جيداً هذه المرة أيضاً يا غابرييل؟ شعرت أنك كنت تتقلّب في الفراش كثيراً».

«نعم، مرة أخرى يا بنتو، كيف لي أن أنام؟ فلم يعد في حياتنا شيء جيّد. ما العمل؟ ماذا يمكننا أن نفعل؟ أنا لا أحب أن تنشأ مشكلة بيننا. فها أنا أرتدي ثيابي هذا الصباح لأذهب إلى الكنيس لصلاة يوم السبت. مع أن الشمس تشرق لأول مرة هذا الأسبوع، والسماء زرقاء صافية فوقنا، كان من المفترض أن أشعر بالبهجة كالجميع، مثل جيراننا المحيطين بنا من جميع الجهات. لكني بدلاً من ذلك، وبسبب أخي - سامحني يا بنتو، فأنا أشعر بأنني سأنفجر إذا لم أتكلّم. بسببك أصبحت حياتي بائسة، ولم أعد أبتهج عندما أرتاد الكنيس لأشارك بني قومي الصلاة إلى ربي».

«أشعر بالحزن عندما أسمع ذلك يا غابرييل، فأنا أتمنى أن تكون سعيداً على الدوام».

«الكلمات شيء والأفعال شيء آخر».

«أيّ أفعال؟»

«أيّ أفعال؟» صاح غابرييل، «وأنا الذي كنت أظن منذ زمن بعيد، طوال حياتي، أنك تعرف كلّ شيء. ولو سأل شخص آخر هذا السؤال، لقلت له: 'لا بد أنك تمزح'، لكنّي أعرف أنك لا تمزح أبداً. ومع ذلك فإني على يقين بأنك تعرف ما هي الأفعال التي أقصدها».

أطلق بنتو تنهيدة.

«حسناً، لنبدأ بسلوكك تجاه رفض العادات اليهودية، بل حتى رفض الطائفة برمّتها. ثمّ عدم تقيدك بواجبات يوم السبت، وعدم ارتيادك الكنيس، وعدم التبرّع بأي مبلغ للكنيس هذه السنة - أقصد هذه الأفعال».

نظر غابرييل إلى بنتو الذي لبث صامتاً.

«سأذكر لك أفعال أخرى يا بنتو. فقد رفضت ليلة البارحة حضور عشاء يوم السبت في بيت سارة. ومع أنك تعرف أنني سأتزوّج سارة، فقد رفضت أن تعقد صلة بين الأسرتين بعدم زيارتك يوم السبت. هل تتصوّر ماذا يعني هذا بالنسبة لي؟ لشقيقتنا ريبيكا؟ أيّ عذر يمكننا أن نقدمه لهم؟ هل يمكننا أن نقول إن شقيقنا يفضّل أن يأخذ دروساً باللغة اللاتينية على يد ذلك الرجل اليسوعيّ؟»

«غابرييل، إن عدم حضوري هو لمصلحة الجميع. وأنت تعرف ذلك. فأنت تعرف جيداً أن والد سارة رجل متدين يؤمن بالخرافات».

«يؤمن بالخرافات؟»

«أقصد أنه أرثوذكسي متشدّد. فقد رأيتَ كيف أن وجودي يحرضه على فتح أحاديث دينية معي. ورأيت كيف أن كلّ ما أقوله يثير مزيداً من الخلاف ومزيداً من الألم، لك ولريبيكا. لذلك فإن عدم حضوري يساعد على بقاء الجلسة هادئة - ولا يوجد عندي أدنى شكّ في ذلك. إن عدم حضوري يساوي الهدوء والسلام لك ولريبيكا. بدأت أقتنع بهذه المعادلة أكثر وأكثر».

هزّ غابرييل رأسه، وقال: «بنتو، هل تذكر عندما كان الخوف يتملكني أحياناً عندما كنتُ طفلاً لأنني كنت أتخيّل أن العالم يتلاشى عندما أغمضُ عيني؟ وقد صحّحت أنت أفكاري وحدثتني عن الواقع وعن قوانين الطبيعة الأبديّة، وها أنت ترتكب الآن الخطأ نفسه. إذ

يخيّل إليك أنّ الخلاف المثار حول بنتو سبينوزا سيتلاشى عندما لا يكون حاضراً ليشهد ذلك؟»

وأضاف غابرييل، «كانت ليلة البارحة مؤلمة، فقد بدأ والد سارة الطعام بالتحدّث عنك. وكان غاضباً لأنّك تجاوزت محكمتنا اليهودية المحليّة وأحلت الدعوى القضائية إلى المحكمة المدنية الهولندية. وقال إنه لم يمرّ في تاريخ الكنيس أحد أهان المحكمة الربّانية بهذا الشكل. وقال إن ذلك يمكن أن يتخذ أساساً قوياً للحرمان الكنسي. أهذا ما تريده؟ *الحرمان*؟ بنتو، لقد مات أبونا ومات شقيقنا الأكبر، وأصبحت ربّ الأسرة، وبالرغم من ذلك، فقد أهنتنا جميعاً عندما لجأت إلى المحكمة الهولندية. وفي هذا التوقيت! ألم يكن بوسعك أن تنتظر على الأقل حتى انتهاء الزفاف؟»

«غابرييل، لقد أوضحت لك ذلك مراراً وتكراراً، لكنك لم تستمع إليّ. اسمعني مرة أخرى لكي تعرف الحقائق كلّها. وقبل كل شيء، أرجو أن تفهم أنّني أتحمل مسؤوليتي تجاهك وتجاه ريبيكا بجدية كبيرة. انظر جيداً في محنتي. فقد كان أبونا رحمه اللّه كريماً. لكنّه أخطأ في حكمته عندما كفل وثيقة يحتفظ بها ذلك المرابي الجشع، دويرت رودريغز، لمصلحة الأرملة المكلومة هينركيس التي كان زوجها، بيدرو، أحد معارف والدنا، حتى أنه لم تكن له صلة قرابة بنا، حتى أنه لم يكن، على حد علمي، من أصدقائه المقربين، ولم يلتق أحد منّا به أو بها قط، ولا يزال لا يعرف أحد لماذا كفل والدنا هذه الوثيقة. لكنّك تعرف والدنا - فعندما يرى أناساً في محنة فإنه يهرع إلى تقديم كلّ مساعدة ممكنة لهم حتى من دون أن يفكّر في العواقب. وعندما ماتت الأرملة وطفلها الوحيد السنة الماضية بالطاعون ولم تتمكن من سداد الدين، حاول دويرت رودريغز - ذلك اليهودي الورع الذي يتربع دائماً فوق منبر الكنيس، ويملك نصف

البيوت في شارع جودينبريسترات - أن ينقل خسارته إلينا ومارس ضغوطاً على المحكمة الربّانية حتى تطلب من أسرة سبينوزا الفقيرة أن تسدد دين شخص لا يعرفه أحد منّا».

صمت بنتو قليلاً، ثم أضاف، «ألا تعرف كلّ ذلك يا غابرييل؟»

«نعم، لكن . . .»

«دعني أنهي كلامي يا غابرييل. فمن المهم أن تعرف كلّ ذلك لأنك ستصبح ذات يوم ربّ الأسرة. إذ رفع رودريغز المسألة إلى المحكمة اليهودية، المحكمة التي يريد الكثير من أعضائها محاباة رودريغز لأنه المتبرع الرئيسي للكنيس. قل لي يا غابرييل: هل يريدون أن يغضبوه؟ فقد حكمت المحكمة على الفور بأن على أسرة سبينوزا أن تسدد الدين بكامله، الدين الذي سيستهلك كلّ موارد أسرتنا طوال حياتنا. والأسوأ من كلّ ذلك أنها حكمت أيضاً بأنّ الميراث الذي ورثناه عن أمّنا يجب أن يذهب أيضاً لتسديد الدين إلى رودريغز. هل تفهم كلّ هذا يا غابرييل؟»

بعد إيماءة تشي بالمعارضة من أخيه، واصل سبينوزا كلامه، «لهذا السبب لجأت منذ ثلاثة أشهر إلى القانون الهولندي لأنه عقلاني أكثر. لسبب رئيسي وهو أنه ليس لاسم دويرت رودريغز سيطرة أو تأثير على المحكمة الهولندية. فالقانون الهولندي ينصّ على أنّ ربّ الأسرة يجب أن يكون قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره حتى يتحمّل مسؤولية تسديد دين كهذا، وبما أنني لم أبلغ الخامسة والعشرين بعد، فقد ينقذ أسرتنا. فلا يتعين علينا أن نقبل ديون عقار والدنا، كما يمكننا أن نستعيد النقود التي ورثناها من أمّنا، وأقصد بعبارة ورثناها، أنت وريبيكا - لأنني أنوي أن أحوّل لكما حصّتي كلّها، لأنه لا توجد لديّ أسرة ولست بحاجة إلى النقود».

وأضاف، «وهناك شيء أخير، وهو التوقيت. فبما أن عيد

ميلادي الخامس والعشرين يصادف قبل زفافك، فيجب أن أتصرّف الآن. قل لي الآن، ألا ترى أنّني أتصرّف بمسؤولية تجاه العائلة؟ ألا تثمّن الحرّية؟ فإذا لم أتصرّف هكذا فإننا سنرزح في العبوديّة طوال حياتنا. هل تريد ذلك؟»

«أفضّل أن أترك الأمر بين يدي الرب. فلا يحقّ لك أن تطعن في شريعة طائفتنا. أما بالنسبة إلى العبوديّة، فأنا أفضّلها على أن أنبذ من الطائفة. كما أن والد سارة تحدّث عن أمور أخرى غير الدعوى القضائية. هل تريد أن تسمع ما قاله أيضاً؟»

«أظن أنّك تريد أن تقول لي».

«قال إنّ 'مشكلة سبينوزا' كما سمّاها، ربما تعود إلى سنوات عديدة، تعود إلى صلافتك أثناء التحضير للاحتفال بعيد بلوغك (*بار متسفا*). وقال إن الحاخام مورتيرا كان يفضّلك على جميع الطلاب الآخرين. وكان يرى أنك قد تخلفه في منصبه. ثمّ قلت إن قصّة آدم وحواء التوراتية 'قصة خرافية'، وقال والد سارة إنه عندما وبّخك الحاخام لأنك أنكرت كلمة الرب، أجبت بأن 'التوراة متناقضة، فإذا كان آدم أول رجل، فمن تزوّج ابنه قابيل؟' هل قلت ذلك حقاً يا بنتو؟ هل صحيح أنك قلت إن التوراة 'متناقضة'؟»

«صحيح أنّ التوراة تقول إن آدم هو أول رجل في هذه الدنيا، وصحيح أنها تقول إن ابنه قابيل تزوّج، فمن المؤكد أنه يحقّ لنا أن نسأل السؤال الواضح: إذا كان آدم هو أول رجل، فكيف يمكن أن يكون هناك أحد لكي يتزوجه قابيل؟ هذه النقطة - تدعى فرضية قبل الآدميين - قد نوقشت في الدراسات التوراتية منذ أكثر من ألف سنة. لذلك إن سألتني ما إذا كانت هذه خرافة فإن جوابي هو نعم - من الواضح أن هذه القصّة مجاز».

«إنك تقول ذلك لأنك لم تفهمها. هل حكمتك تفوق حكمة

الرب؟ ألا تعرف أنّ هناك أسباباً تجعلنا لا نعرف وأننا يجب أن نثق بحاخاماتنا في تفسير التوراة؟»

«هذا الاستنتاج يلائم تماماً الحاخامات يا غابرييل. فقد سعى رجال الدين على مدى العصور لأن يكونوا المفسرين الوحيدين لهذه الألغاز. وهذا يلائمهم تماماً».

«وقال والد سارة إنّ هذه الصفاقة في التشكيك في التوراة وفي كبار رجال ديننا شيء هجوميّ وخطير لا على اليهود فحسب وإنما على المسيحيين أيضاً. فالكتاب المقدّس مقدّس لهم أيضاً».

«غابرييل، أتعتقد أننا يجب أن نتخلّى عن المنطق، أن نتخلّى عن حقنا في السؤال؟»

«أنا لا أجادل في حقك الشخصي في المنطق وحقك بالتشكيك في القانون الرباني، ولا أجادل في حقك بالتشكيك في قدسية الكتاب المقدّس. في الحقيقة، فإني لا أجادلك حتى في حقك في إغضاب الرب. فهذه مشكلتك أنت، وقد تكون علتك أنت. لكنّك تجرح مشاعري ومشاعر أختك عندما ترفض أن تحتفظ بآرائك لنفسك».

«غابرييل، لقد مضى على هذا الحديث حول آدم وحواء مع الحاخام مورتيرا أكثر من عشر سنوات، ثم قررت أن أحتفظ بآرائي لنفسي. لكن منذ سنتين، أقسمت أن أعيش حياتي بطريقة مقدّسة، وهذا يعني ألّا أكذب في حياتي أبداً. فإذا سألني أحد عن رأيي، فإني سأقوله بصدق - لهذا السبب لم أذهب معك لتناول الطعام مع والد سارة. والأهمّ من كلّ ذلك يا غابرييل، تذكّر أنّنا روحان منفصلتان، لذلك يجب ألّا يخلط الآخرون بيني وبينك. يجب ألّا يحمّلوك مسؤولية انحرافات شقيقك الأكبر سناً».

خرج غابرييل من الغرفة وهو يهزّ رأسه ويتمتم، «أخي الأكبر يتكلّم كالأطفال».

الفصل السادس

إستونيا - ١٩١٠

بعد ثلاثة أيام، طلب ألفريد الشاحب والمضطرب لقاء مع هير شافر.

«عندي مشكلة يا سيدي»، بدأ ألفريد كلامه وهو يفتح حقيبته المدرسية التي أخرج منها السيرة الذاتية لغوته التي يصل عدد صفحاتها إلى سبعمئة صفحة فيها عدد من الصفحات المهترئة والممزّقة من أطرافها. فتح ألفريد أول صفحة وأشار إلى الفقرة التي وضع تحتها خطاً.

«سيدي، هنا في هذا السطر يذكر غوته سبينوزا، وهنا، بعد سطرين، ثم تأتي عدة فقرات لا يرد فيها الاسم، ولا أستطيع أن أعرف ما إذا كان يتحدّث عنه أم عن شخص آخر. وفي الواقع، فإني لم أفهم معظم المكتوب في هذا النصّ. إنه صعب للغاية». ثم قلب عدة صفحات وأشار إلى فصل آخر، «وهنا، نفس الشيء. فهو يذكر سبينوزا مرتين أو ثلاث مرات، ثمّ تمرّ أربع صفحات من دون أن يذكره على الإطلاق. لا أعرف إن كان يتكلّم عن سبينوزا أم لا، لأنه يتحدّث أيضاً عن شخص آخر يدعى جاكوبي. وهذا يتكرر في أربعة أماكن أخرى. لقد فهمت فاوست عندما قرأناه في صفّك، وفهمت

«*آلام الشاب فرتر*»، أما هنا، في هذا الكتاب، فلم أفهم صفحة وراء صفحة».

«إن قراءة تشامبرلن أسهل بكثير، أليس كذلك؟» لكن هير شافر ندم على الفور لإبدائه تلك الملاحظة التهكّمية، فاستدرك قائلاً، بصوت أكثر لطفاً، «أعرف أنّك قد لا تفهم كلّ كلمات غوته يا روزنبرغ لكن يجب أن تدرك أن هذا ليس عملاً منظّماً بإحكام وإنما هو سلسلة من الآراء والخواطر سجّلها عن حياته. هل سبق أن كتبت مذكرات يومية أو شيئاً عن حياتك الخاصّة؟»

أومأ ألفريد وقال: «نعم، منذ سنتين، لكنّي كتبتها لبضعة أشهر فقط».

«حسناً، اعتبر هذا الكتاب بمثابة مفكرة. فقد كتبها غوته بشكل رئيسي لنفسه ولم يكتبها ليقرأها آخرون. ثق بي، عندما تكبر وتزداد معرفتك بأفكار غوته، فإنك ستفهم كلماته وتقدّرها أكثر. دعني أرى الكتاب».

بعد أن قرأ الصفحات التي وضع عليها ألفريد إشارات، قال هير شافر، «عرفت المشكلة الآن. فأنت محق عندما أثرت هذا السؤال. يجب أن أعدّل لك الوظيفة. لنقرأ هذين الفصلين معاً». دقق هير شافر وألفريد طويلاً في النصّ، ثم دوّن هير شافر في دفتر ملاحظات سلسلة من أرقام الأسطر والصفحات.

أعاد هير شافر دفتر الملاحظات إلى ألفريد وقال: «يجب أن تنسخ هذه. تذكّر، ثلاث نسخ مكتوبة بخط واضح. لكن توجد هنا مشكلة. فهذه لا تتجاوز عشرين أو خمسة وعشرين سطراً، وهي أقلّ بكثير من الوظيفة التي كلّفك بها المدير في الأصل، وأظن أنه لن يرضى بذلك، لذلك عليك أن تقوم بشيء إضافي وهو أن تحفظ هذه

النسخة الموجزة عن ظهر قلب، وأن تُسمعنا إياها في اجتماعنا مع المدير إبشتاين. أظن أنه سيقبل ذلك».

بعد بضع ثوان، عندما لاحظ هير شافر تعابير تجهم على وجه ألفريد، أضاف: «ألفريد، مع أن هذا التغيير الذي طرأ عليك لا يعجبني - هذا الهراء الذي قلته عن تفوق العرق - فإني لا أزال أدعمك. فقد كنت خلال السنوات الأربع الماضية طالباً مجداً ومطيعاً - وكما قلت لك في أحيان كثيرة، فقد تكون طالباً متفوقاً، وليس من الجيد أن تدمّر فرصك بأن لا تتخرّج في المستقبل». صمت قليلاً لكي يستوعب ألفريد ما قاله له، ثم أضاف، «ضع كلّ إمكانياتك في هذه الوظيفة، لأن المدير إبشتاين يريد شيئاً أكثر من النسخ والقراءة فقط. إنه يتوقّع أن تفهم ما تقرأه، فابذل قصارى جهدك يا روزنبرغ، لأنني أريدك أن تتخرّج».

«هل يتعين عليّ أن أسلّمك نسختي قبل أن أنسخ النسختين الأخريين؟»

فوجئ هير شافر من ردّ ألفريد الفوري، لكنّه قال، «إذا تتبّعت التعليمات التي دوّنتها لك في دفتر الملاحظات، فلن يكون ذلك ضرورياً».

عندما ابتعد ألفريد قليلاً، ناداه هير شافر، وقال: «روزنبرغ، منذ قليل قلت لك إنك كنت طالباً مُجدّاً وأريد أن أراك تتخرّج. ألا يوجد لديك ردّ؟ فأنا معلّمك منذ أربع سنوات».

«نعم يا سيدي».

«نعم يا سيدي؟»

«لا أعرف ماذا أقول».

«حسناً، يا ألفريد، يمكنك أن تذهب».

حشر هير شافر أوراق الطلاب في حقيبته، ونسي على الفور

ألفريد وراح يفكّر في طفليه وفي زوجته وفي السبايتزلي الذي وعدت بأن تعدّه له على العشاء في تلك الليلة.

غادر ألفريد مشوشاً حول الوظيفة الجديدة التي كُلِّف بها. فهل فاقم الأمر؟ أم أنها أسهل؟ فالحفظ عن ظهر قلب سهل بالنسبة له، فهو يحبّ أن يحفظ فقرات لتقديم عروض مسرحية وإلقاء خطابات.

* * *

بعد أسبوعين وقف ألفريد عند أحد طرفي طاولة هير إبشتاين الطويلة بانتظار سماع ما سيقوله المدير الذي بدت هيئته اليوم أضخم من ذي قبل وأشدّ ضراوة، بينما كان هير شافر ضئيل الجسم، متجهماً، وأشار إلى ألفريد بأن يبدأ. ألقى ألفريد نظرة أخيرة على النسخة التي دوّن فيها كلمات غوته، ثم نهض واقفاً، وبدأ، من سيرة غوته *الذاتية*:

«إن العقل الذي كان له تأثير قوي عليّ وعلى طريقة تفكيري هو سبينوزا. فبعد أن بحثت طويلاً، لكن عبثاً، في كلّ مكان عن وسيلة أصقل فيها طبيعتي الغريبة، عثرت أخيراً على كتاب *الأخلاق* الذي كتبه هذا الرجل. فهو الكتاب الذي هدّأ عواطفي المتأججة، وفتح أمامي مشهداً فسيحاً وحراً على الجوهر والعالم الفاني».

«إذاً، يا روزنبرغ»، قاطعه المدير، «ما الشيء الذي استمدّه غوته من سبينوزا؟»

«أخلاقه؟»

«لا، لا يا إلهي، ألم تفهم أنّ الأخلاق هو اسم كتاب سبينوزا؟ ما الذي يقوله غوته بأنّه حصل عليه من كتاب سبينوزا؟ ماذا كان يقصد بقوله 'هدّأ عواطفي'؟»

«هناك شيء هدّأه؟»

«نعم، هذا جزء من ذلك. لكن تابع الآن - ستبرز هذه الفكرة مرة أخرى بعد قليل».

كرر ألبرت لنفسه للحظة ما كان قد حفظه ليصل إلى النقطة التي توقف عندها، وتابع:

«لكن الشيء الذي جعلني أتعلّق بسبينوزا بقوة هو الاهتمام اللامحدود الذي ينبعث من...»

«اللااهتمام - لا الاهتمام»، صاح المدير إبشتاين الذي كان يدقق في كلّ كلمة يقرأها من دفتر الملاحظات. «'اللااهتمام' يعني عدم الارتباط عاطفياً».

هزّ ألفريد رأسه وتابع:

«أما الشيء الذي جعلني أتعلّق بسبينوزا كثيراً فهو الاهتمام اللامحدود الذي ينبثق من كلّ جملة. هذا التعبير الرائع: 'فالذي يحبّ اللّه فعلاً لا يطلب أن يحبّه اللّه لقاء ذلك'، مع جميع الأسس المنطقية التي تقوم عليها وكلّ النتائج التي تنجم عنها، ملأت قواي الفكرية كلّها'».

«إنها فقرة صعبة»، قال المدير، «اسمح لي أن أفسرها. يقول غوته إنه تعلّم من سبينوزا كيف يحرر عقله من تأثير الآخرين. علّمه أن يعثر على مشاعره الخاصة والاستنتاجات التي يتوصل إليها بنفسه، ثمّ يعمل عليها. بمعنى آخر، دع حبّك يتدفّق، ولا تدعه يتأثّر بفكرة الحبّ الذي قد تحصل عليه لقاء ذلك. يمكننا أن نطبّق هذه الفكرة بالذات على خطابات الانتخاب. هل سيلقي غوته خطاباً بناء على الإعجاب الذي سيناله من الآخرين؟ طبعاً لا! ولن يقول أيضاً ما يريد الآخرون أن يقوله. أتفهم؟ هل فهمت هذه النقطة؟»

هزّ ألفريد رأسه، فإن ما فهمه حقاً هو أن المدير إبشتاين يكنّ له مشاعر عميقة بالاستياء. انتظر حتى أشار المدير إليه بأن يتابع:

«بالإضافة إلى ذلك، يجب ألّا ننكر أنّ أوثق العلاقات تأتي من الأضداد. فالهدوء الشديد الذي يتسم به سبينوزا يتناقض مع طبيعتي الحماسية المزعجة أحياناً. وطريقته الرياضية هي على نقيض أحاسيسي الشاعرية. فقد جعلني أسلوب تفكيره المنضبط والمنظم واحداً من أكثر تلامذته تعلقاً به، وأشدّ عابديه تعبّداً. العقل والقلب، الفهم والشعور، يسعى أحدهما إلى الآخر برابطة ضرورية، ومن هنا جاء اتّحاد وتوافق أكثر الطبائع اختلافاً».

«أتعرف ماذا يعني هنا بالطبائع المختلفة يا روزنبرغ؟» سأله المدير إبشتاين.

«أظن أنّه يعني العقل والقلب؟»

«تماماً. وأيّها غوته وأيّها سبينوزا؟»

بدا ألفريد محتاراً.

«ليس هذا تمريناً للذاكرة يا روزنبرغ! فأنا أريدك أن تفهم هذه الكلمات جيداً. إن غوته شاعر. لذلك أيّهما هو، العقل أم القلب؟»

«إنه القلب. لكن لديه عقل عظيم أيضاً».

«آه، نعم. أفهم اضطرابك الآن. لكنه يقول هنا إن سبينوزا يمنحه التوازن الذي جعله يوفق بين عاطفته وخياله الجامح بالهدوء والتعقل الضروريين، لذلك يقول غوته عن سبينوزا إنه من 'أشدّ عابديه تعبّداً'، هل تفهم؟»

«نعم يا سيدي».

«تابع الآن».

تردّد ألفريد، وقد بدت علائم الفزع في عينيه، «لم أعد أعرف إلى أين وصلت. لستُ متأكداً أين كنّا».

«كلّ شيء على ما يرام»، قال هير شافر، محاولاً أن يهدئ من

روعه، «إننا نعرف مدى صعوبة أن تقرأ من الذاكرة مع الكثير من المقاطعة. يمكنك أن تدقق في دفتر ملاحظاتك لتعرف أين وصلت».

أخذ ألفريد نفسا عميقاً، ومسح بعينيه دفتر ملاحظاته بسرعة، ثم واصل:

«رأى البعض أنه رجل ملحد يستحقّ الشجب والإدانة، لكنهم اعترفوا أيضاً، بعد ذلك، بأنّه رجل مفكّر، هادئ، مواطن صالح، محبّ. لذلك، يبدو أن الذين انتقدوا سبينوزا نسوا كلمات الإنجيل، 'من *ثمارهم تعرفونهم*' لأنه كيف يمكن أن تنبعث حياة تفرح الإنسان واللّه من تربة ومبادئ فاسدة؟ ولا أزال أذكر مشاعر السكينة والوضوح التي غمرتني عندما بدأت أتصفّح كتاب *الأخلاق* الذي كتبه هذا الرجل العظيم. وأسرعت لقراءته مرة أخرى، وإني أدين له بالكثير، وتملكتني، مرة أخرى، مشاعر السلام والطمأنينة نفسها. وهكذا انهمكت في قراءته، وعندما أمعنت النظر في داخلي، قلت لنفسي 'إنني لم أر قط العالم بهذا الوضوح والجلاء'».

عندما أنهى السطر الأخير تنفس ألفريد الصعداء. أشار إليه المدير بأن يجلس، وعلّق قائلاً: «قراءتك مقنعة، ولديك ذاكرة جيّدة. الآن لنر إلى أي حدّ فهمت هذه الفقرة الأخيرة. قل لي، هل سبينوزا ملحد برأي غوته؟»

هزّ ألفريد رأسه.

«لم أسمع جوابك».

«لا يا سيدي»، قال ألفريد بصوت مرتفع، «لم يكن غوته يرى أنه ملحد، لكن آخرين كانوا يرونه كذلك».

«ولماذا خالفهم غوته في الرأي؟»

«بسبب أخلاقه؟»

«لا، لا. هل نسيت أن الأخلاق هو اسم كتاب سبينوزا؟ مرة أخرى، لماذا اختلف غوته مع الذين انتقدوا سبينوزا؟»

ارتجف ألفريد ولبث صامتاً.

«يا إلهي، روزنبرغ انظر إلى ملاحظاتك»، قال المدير.

مسح ألفريد الفقرة النهائية بعينيه وجازف قائلاً، «لأنه كان رجلاً طيباً وعاش حياة تبهج الرب؟»

«تماماً. بعبارة أخرى إنها ليست ما يخيّل إليك أو تقول إنه يخيّل إليك، بل كيف تعيش هذه الأشياء. الآن، روزنبرغ، سؤال أخير حول هذه الفقرة. قل لنا مرة أخرى، ما الذي استمده غوته من سبينوزا؟»

«قال إنّ مشاعر السكينة والطمأنينة غمرته، وقال أيضاً إنّه بدأ يرى العالم بوضوح وجلاء. هذان هما الأمران الرئيسيان».

«تماماً. نعرف أنّ غوته العظيم ظل يحمل في جيبه نسخة من كتاب *الأخلاق* لسبينوزا طوال سنة. تخيّل ذلك - سنة كاملة! ولم يكن غوته وحده يفعل ذلك، وإنما عدد كبير من عظماء الألمان الآخرين. فقد ذكر ليسينغ وهاينه إن قراءة هذا الكتاب تجلب الهدوء والسكينة. من يعرف، فقد يأتي وقت في حياتك تصبح فيه أنت أيضاً بحاجة إلى الهدوء والصفاء اللذين يجلبهما كتاب *الأخلاق* لسبينوزا. لن أطلب منك أن تقرأ هذا الكتاب الآن، فلا تزال صغيراً على فهم معناه. لكن أريد أن تعدني أن تقرأه قبل عيد ميلادك الحادي والعشرين. أو لعلّي يجب أن أقول اقرأه عندما تصبح بالغاً. هل تعدني بذلك باعتبارك ألمانياً مخلصاً؟»

«نعم يا سيدي، أعدك بذلك». كان ألفريد مستعداً لأنه يعده بقراءة الموسوعة كلها باللغة الصينية فقط لينتهي من هذا الامتحان.

«الآن، لننتقل إلى جوهر هذه الوظيفة. هل اتضح لك تماماً لماذا كلّفناك بوظيفة القراءة هذه؟»

«لا يا سيدي. ظننت أنها لأنني معجب بغوته أكثر من الآخرين».

«بالتأكيد هذا جزء منها، لكنك بالتأكيد فهمت ما هو سؤالي الحقيقي؟»

لم يفهم ألفريد.

«أسألك، ماذا يعني لك أن الرجل الذي تحترمه وتُعجب به أكثر من الآخرين يحبّ ويُعجب بيهودي أكثر من الآخرين؟»

«يهودي؟»

«ألم تعرف أنّ سبينوزا يهودي؟»

صمت.

«ألم تعرف عنه شيئاً خلال الأسبوعين الماضيين؟»

«سيدي، لا أعرف شيئاً عن سبينوزا هذا. لم يكن ذلك جزءاً من وظيفتي».

«إذاً اشكر ربك لأنك نجوت من الخطوة المخيفة لأن يطلب منك أن تتعلّم شيئاً إضافياً؟ أليس كذلك يا روزنبرغ؟»

«دعني أصوغها بهذا الشكل»، قال هير شافر مقاطعاً، «فكّر في غوته. ماذا كان يمكن أن يفعل في هذه الحالة؟ لو طُلب من غوته أن يقرأ سيرة ذاتية لشخص لا يعرفه، ماذا كان سيفعل؟»

«كان سيقرأ عن هذا الشخص».

«تماماً. هذا مهم. إذا أُعجبت بأحد، فإنك تحاكيه. تتخذه مرشداً لك».

«شكراً».

«دعنا نتابع سؤالي»، قال المدير إبشتاين، «كيف يمكنك أن تفسّر إعجاب وامتنان غوته اللامحدودين لشخص يهودي؟»

«هل كان غوته يعرف أنّه يهودي؟»

« يا إلهي. طبعاً كان يعرف».

«لكن، روزنبرغ»، قال هير شافر الذي بدأ صبره ينفد أيضاً، «فكّر في سؤالك. ماذا يهمّ لو عرف أن سبينوزا يهودي؟ حتى لماذا تسأل هذا السؤال؟ هل تظن أن رجلاً في مكانة غوته - لقد قلت أنت نفسك إنه الرجل العبقري الكوني - يرفض أن يتقبل أفكاراً عظيمة بسبب مصدرها؟»

بدا ألفريد مشدوهاً، فلم يتعرّض لسيل من الأفكار هكذا من قبل. لكن المدير إبشتاين الذي وضع يده على ذراع هير شافر ليسكته، أضاف:

«لم تجب على سؤالي الرئيسي الذي سألتك إياه بعد: كيف تفسّر أنّ أفكار شخص من جنس منحط ساعدت ذلك العبقري الألماني الكوني كثيراً؟»

«قد يكون نفس ردّي حول الدكتور أبفيلباوم. ربما بسبب طفرة قد يظهر يهودي جيد، مع أنّ الجنس كله فاسد ومنحط».

فقال المدير: «هذا ليس جواباً مقبولاً، فالتحدّث عن طبيب لطيف متفان في عمله شيء والتكلّم بهذه الطريقة عن عبقري قد يكون قد غيّر مسار التاريخ، شيء آخر. وهناك عدد من اليهود الآخرين الذين يُشهد لهم بعبقريتهم. فكّر فيهم. دعني أذكّرك بالذين تعرفهم أنت، لكن ربما لا تعرف أنهم يهود. قال لي هير شافر إنك قرأت في الصف أشعار هاينريش هاينه، وقال لي أيضاً إنك تحبّ الموسيقى، ويمكنني أن أتصوّر أنّك استمعت إلى موسيقى غوستاف ماهلر وفيليكس مينديلسون. هل هذا صحيح؟»

«هل هم يهود يا سيدي؟»

«نعم، ويجب أن تعرف أنّ دزائيلي، رئيس وزراء إنكلترا، هل كان يهودياً؟»

«لم أكن أعرف ذلك، يا سيدي».

«نعم. والآن في ريغا يعرضون أوبرا حكايات هوفمان للموسيقار جاكوب أوفينباخ، شخص آخر مولود من الجنس اليهودي. عناك عدد من العباقرة. ما تفسيرك؟»

«لا أستطيع أن أجيب عن السؤال. عليّ أن أفكّر فيه. أرجوك، هل لي أن أذهب يا سيدي؟ فأنا لست على ما يرام. أعدك بأني سأفكّر في الأمر».

«نعم، يمكنك أن تذهب»، قال المدير، «وأريدك أن تفكّر. فالتفكير شيء جيد. فكّر في حديثنا اليوم. فكّر في غوته وفي اليهودي سبينوزا».

* * *

بعد أن غادر ألفريد الغرفة، رمق المدير إبشتاين وهير شافر أحدهما الآخر للحظات قبل أن يتكلّم المدير.

«قال إنّه سيفكّر، يا هيرمان. ما هي برأيك نسبة الفرصة بأن يفكّر؟»

«صفر، على ما أظن»، قال هير شافر، «دعنا نخرّجه ونتخلص منه. إنه يفتقر إلى حب المعرفة، وفي الغالب، لا يوجد هناك أمل لعلاجه. فإذا حفرنا في أي بقعة في دماغه، فإننا سنجد صخرة من القناعات الراسخة غير الصحيحة».

«أتفق معك. وليس لديّ أدنى شكّ في أن غوته وسبينوزا أخذا

ينحسران بسرعة في هذه اللحظة من تفكيره ولن يزعجاه مرة أخرى. وعلى الرغم من ذلك، فإني أشعر بالارتياح لما حدث الآن. لقد هدأت مخاوفي. فليس لدى هذا الشابّ الذكاء أو القوة ليتمكن من إقناع آخرين بطريقة تفكيره الضارة».

الفصل السابع

أمستردام - ١٦٥٦

حدّق بنتو خارج النافذة، وراح يراقب شقيقه يسير باتجاه الكنيس. إن غابرييل على حقّ. فقد جرحت مشاعر أقرب الأشخاص إليّ. إن خياراتي مروِّعة - فإذا لم أتمالك نفسي وأتخلّى عن طبيعتي الدفينة وأكبح جماح فضولي، فإني سألحق الضرر بأقرب الناس إليّ. ذكّرته القصة التي حكاها لي غابرييل عن الغضب تجاهه أثناء عشاء يوم السبت بتحذير فان دن إندن الأبوي بالأخطار المتزايدة التي يمكن أن يتعرض لها بنتو على أيدي أبناء الطائفة اليهودية. وبدأ يفكّر بإمعان في الأساليب التي تمكّنه من الإفلات من الفخّ الذي وقع فيه. نهض من الفراش وارتدى ثيابه وأعدّ كوباً من القهوة لنفسه، وخرج من الباب الخلفي، حاملاً بيده كوب القهوة واتجه إلى محل سبينوزا للاستيراد والتصدير.

عندما وصل بنتو إلى المحل، أزال الغبار وكنس الفضلات وأخرجها إلى الشارع، ثم أفرغ كيساً كبيراً من التين المجفّف المعطّر الذي وصل مؤخراً من إسبانيا، في صندوق خشبي. وجلس في كرسيه الذي اعتاد الجلوس عليه بجانب النافذة، وراح يرشف قهوته ويقضم حبات من التين، واستسلم لأحلام اليقظة التي كانت تراوده.

فقد بدأ مؤخراً يمارس التأمل وأصبح بوسعه أن يفصل نفسه عن سير تدفق أفكاره ويرى عقله مثل خشبة مسرح وهو أحد المشاهدين يرى العرض أمام عينيه. وفي الحال، ظهر على المسرح وجه غابرييل بكلّ حزنه واضطرابه، لكن بنتو تعلّم كيف يسدل الستارة وينتقل إلى الفصل التالي. وسرعان ما ظهر له فان دن إندن الذي وهو يثني على تقدّمه في تعلّم اللغة اللاتينية ويضع يده على كتفه برقّة بطريقة أبوية. تلك اللمسة - كما كان يحبّ ملمس يده على كتفه. قال لنفسه، بنتو، بعد أن ابتعدت عنك ريبيكا وغابرييل فمن سيضع يده على كتفك ويلمسك مرة أخرى؟

ثمّ انجرف عقل بنتو ليرى نفسه وهو يعلّم اللغة العبرية لأستاذه وابنته كلارا ماريا. ابتسم وهو يعلّم تلميذيه، كأنهما طفلان، أحرف الأبجدية: *ألف*، بيت، *غيميل*، بل ارتسمت على شفتيه ابتسامة عندما رأى كلارا ماريا الصغيرة وهي تعلّمه الأبجدية اليونانية، ألفا، بيتا، غاما. لاحظ صورة كلارا ماريا البراقة - طيف كلارا ماريا ذات الثلاثة عشر ربيعاً بظهرها المحني قليلاً، تلك المرأة - الطفلة التي تشي ابتسامتها الشيطانية بأنها معلّمة بالغة حادّة الطباع. جالت في رأسه فكرة غاوية: كم كان يتمنى لو أنها كانت أكبر سنّاً.

عند منتصف النهار، انقطع تأمله الطويل عندما سمع صوت حركة خارج النافذة، ورأى جاكوب وفرانكو من بعيد يتحدّثان وهما في طريقهما إلى محله. أقسم بنتو لنفسه أن يتصرّف بعقلانية وقال إنه من غير اللائق أن يختلس النظر إلى الآخرين، خاصة الذين يرغبون في مناقشته. لكن بالرغم من ذلك، لم يستطع أن يبعد انتباهه عن المشهد الغريب الذي يجري أمام عينيه.

تباطأ فرانكو وراء جاكوب مسافة ثلاث أو أربع خطوات، لكن جاكوب التفت إليه وأمسك يده، وحاول أن يجرّه إلى الأمام، لكن

فرانكو ابتعد وراح يهزّ رأسه بقوة. وبعد أن نظر حوله ليتأكد من أن أحداً لا يراهما، وضع يديه الضخمتين على كتفي فرانكو، وهزّه بفظاظة، ثم دفعه أمامه حتى وصلا إلى باب المحل.

مال بنتو للحظة إلى الأمام، وعاد إلى تأمله وراح يفكّر في لغز سلوك فرانكو وجاكوب الغريب. وبعد بضع دقائق استيقظ من أحلام يقظته عندما سمع صوت باب محله يُفتح ثم صوت وقع خطوات في داخله.

استوى واقفاً على قدميه، وحيّا زائريه، ثم سحب لهما كرسيين وجلس هو على صندوق كبير من التين المجفّف. «هل عدتما من صلاة السبت؟»

«نعم»، قال جاكوب، «أحدنا مبتهج والآخر أكثر اضطراباً من ذي قبل».

«هذا أمر مثير للاهتمام. حدثٌ متشابهٌ يسبب ردة فعلين مختلفين. وما تفسير هذه الظاهرة الغريبة؟» سأل بنتو.

فأسرع جاكوب للردّ، وقال: «ليست المسألة مثيرة للاهتمام كثيراً، والتفسير واضح. فأنا على عكس فرانكو الذي لم يحصل على أي تعليم يهودي، أعرف التقاليد اليهودية وأجيد العبرية و...»

فقال بنتو: «اسمح لي أن أقاطعك هنا، ففي البداية يحتاج تفسيرك إلى تفسير. فلم يتعلم جميع الأطفال الذين نشأوا في أسرة مارانو في البرتغال العبرية والشعائر والطقوس اليهودية، بمن فيهم أبي الذي لم يتعلّم العبرية إلّا بعد أن غادر البرتغال. وقد خبرني أنه عندما كان صبياً في البرتغال، كانت أيّ عائلة تعلّم أطفالها العبرية أو التقاليد والعادات اليهودية تتعرض لعقاب شديد»، ثم التفت سبينوزا إلى فرانكو وأضاف، «ألم أسمع البارحة عن أب محبوب قُتل لأن محاكم التفتيش عثرت على توراة مدفونة في فناء بيته؟»

لم يقل فرانكو، الذي راح يمرر أصابعه بتوتر في شعره الطويل، شيئاً، وهزّ رأسه هزة طفيفة.

التفت بنتو إلى جاكوب، وقال: «إن سؤالي يا جاكوب هو من أين أتت معرفتك باللغة العبرية؟»

فقال جاكوب بسرعة، «لقد أصبحت عائلتي من المسيحيين الجدد منذ ثلاثة أجيال، لكنهم ظلوا يهوداً في السرّ، وصمّموا على البقاء على دينهم. وعندما بلغتُ الحادية عشرة من العمر، أرسلني أبي إلى روتردام لمساعدته في أعماله التجارية، وطوال السنوات الثماني التالية، كان عمّي الحاخام يعلّمني اللغة العبرية كلّ ليلة، وأقام لي عيد البلوغ في كنيس روتردام، ثم واستمر يدرّسني التعاليم اليهودية حتى مات. وأمضيت معظم السنوات الاثنتي عشرة الأخيرة في روتردام، ثم عدت مؤخراً إلى البرتغال لأنقذ فرانكو».

«وأنت»، التفت بنتو نحو فرانكو الذي كانت عيناه مركزتين على أرضية مخزن سبينوزا التي لم تُنظف جيداً، «ألا تعرف العبرية؟»

لكن جاكوب أجاب، «طبعاً لا يعرفها. فكما قلت لك الآن، بما أنهم لا يسمحون بتعلم اللغة العبرية في البرتغال، فقد تعلّمنا كلنا قراءة الكتاب المقدّس باللاتينية».

«إذاً، فرانكو، فأنت لا تعرف اللغة العبرية؟»

فقاطعهما جاكوب مرة أخرى وقال: «لا يجرؤ أحد في البرتغال على تعليم اللغة العبرية وإلّا فإنه لا يتعرض لعقوبة القتل فوراً فحسب، وإنما يُعاقب جميع أفراد عائلته. لذلك، توارت أمّ فرانكو وشقيقتاه عن الأنظار».

«فرانكو»، انحنى بنتو لينظر مباشرة إلى عينيه، «جاكوب يجيب عنك دائماً. لماذا لا تجيب أنت نفسك؟»

فردّ فرانكو همساً، «إنه يحاول أن يساعدني».

«وهل يساعدك أن تبقى صامتاً؟»

فقال فرانكو، بصوت أعلى هذه المرة، «أنا مضطرب جداً، لذلك فإني لا أثق بكلماتي، وجاكوب صادق في ما يقول، فجميع أفراد أسرتي معرّضين للخطر، وكما قال فإني لا أعرف شيئاً عن التعاليم اليهودية أكثر من معرفتي بالأحرف الأبجدية *ألف*، بيت، *غيمل* التي علّمني إياها على الرمل، وكان عليه أن يمحوها بقدميه».

استدار بنتو بجسمه كله نحو فرانكو، مولياً ظهره لجاكوب، وقال: «هل ترى أيضاً أن الصلاة أنعشته لكنها أزعجتك؟»

هزّ فرانكو رأسه.

«وما سبب انزعاجك...»

فقال فرانكو الذي نظر خلسة إلى جاكوب، «من الشكّ. تتملكني مشاعر قوية أخشى أن أصفها، حتى لك».

«ثق بي حتى أفهم مشاعرك وثق أني لن أطلق عليك أية أحكام».

أطرق فرانكو برأسه وأخذ يرتجف.

«إنك خائف كثيراً»، واصل بنتو، «دعني أحاول أن أهدئ من روعك. أولاً، أرجو أن نبحث فيما إذا كانت أسباب مخاوفك عقلانية».

تجهّم وجه فرانكو وحدّق في سبينوزا، مرتبكاً.

«لنر إن كان هناك سبب معقول لخوفك. فكّر في هاتين الحقيقتين: الأولى، هي أنني لا أشكل أي تهديد. أعدك بأنني لن أكرّر كلماتك أبداً. بالإضافة إلى أنني أنا أيضاً، أشكّ في أشياء كثيرة. حتى أنني قد أشاطرك بعض المشاعر التي تنتابك، والثانية، لا يوجد أي خطر يهددك في هولندا، لأنه لا توجد محاكم تفتيش هنا. لا في هذا المحل ولا في هذه الطائفة، ولا في هذه المدينة،

ولا حتى في هذا البلد. ألا تعرف أن أمستردام استقلّت عن أيبيريا منذ سنوات عديدة؟»

«نعم»، أجاب فرانكو بصوت منخفض.

«وعلى الرغم من ذلك فإنك لا تسيطر على جزء من عقلك، فهو لا يزال يعمل كما لو أنك ستتعرض لخطر عظيم. ألا ترى كيف أن عقولنا مقسّمة؟ كيف أن عقلنا، الجزء العلوي من عقلنا، يخضع لعواطفنا ومشاعرنا؟»

لم يُبدِ فرانكو أي اهتمام بما يقوله.

تردّد بنتو. شعر بالضيق لكنه كان يعرف أن لديه رسالة، بل ربما واجباً يجب أن يؤديه. لكن كيف يمكنه أن يواصل معه؟ هل يتوقّع أن يطرأ على فرانكو تغير كبير في وقت مبكر جداً؟ فقد تذكّر أن العقل فشل في عدة حالات في قمع مخاوفه وهواجسه. فقد حدث ذلك معه مساء البارحة عندما كان يمشي عكس تيار الحشد المتوجّه إلى الكنيس لأداء صلاة يوم السبت.

ثم قرّر أخيراً أن يلجأ إلى استخدام تأثيره الوحيد، فقال بصوته الأكثر رقة، «لقد رجوتني أن أساعدك، وقد وافقت على ذلك، لكنك إذا أردت أن أساعدك، عليك أن تثق بي اليوم. يجب أن تساعدني حتى أتمكن من مساعدتك. أتفهم؟»

«نعم»، قال فرانكو، متنهّداً.

«حسناً، يجب أن تهدف خطوتك التالية إلى التخلّص من مخاوفك».

فهزّ فرانكو رأسه وقال: «لا أستطيع. إنها مرعبة. إنها خطيرة».

«إنها ليست مخيفة إلى درجة أن تقف في وجه نور العقل. لقد أثبتّ لك الآن أنها ليست خطيرة إذا لم يكن هناك شيء يُخشى منها. الشجاعة! لقد آن الأوان حتى تواجهها. وإذا لم تفعل ذلك، فإني

أكرر قولي لك» - قالها بنتو بحزم - «لا يوجد مبرر لمواصلة لقائنا».

أخذ فرانكو نفساً عميقاً وقال، «سمعت اليوم الكتاب المقدّس يرتّل في الكنيس بلغة غريبة، لم أفهم منه شيئاً».

فقاطعه جاكوب، «لكن، فرانكو طبعاً لم تفهم شيئاً. فقد قلت لك مراراً وتكراراً إن هذه المشكلة مؤقتة. فالحاخام يدير صفوفاً لتعليم العبرية. تحلّ بالصبر. اصبر».

«ومراراً وتكراراً»، ردّ فرانكو بحدّة، الغضب يملأ صوته الآن، «أقول لك إن الأمر يتعدى اللغة. اسمعني قليلاً! إنه المشهد برمّته. فعندما كنت في الكنيس هذا الصباح، تطلعت حولي ورأيت الجميع يعتمرون طاقيّاتهم المطرّزة، ويضعون شالاتهم الزرقاء والبيضاء ذات الشراشيب والأهداب، ورؤوسهم تتمايل إلى الأمام والوراء مثل ببغاوات تنقر طعامها من الحوض، وعيونهم مرفوعة إلى السماء. لقد سمعتها، رأيتها، وقلت في نفسي، لا، لا يمكنني أن أعبّر عمّا يجول في رأسي».

«قلها يا فرانكو»، قال جاكوب، «قلت لي البارحة إن هذا هو المعلّم الذي تبحث عنه».

أغمض فرانكو عينيه. «فكّرت في الفرق بين هذا وبين المشهد - لا، اتركني أعبّر عن رأيي بصراحة - الهراء الذي يجري في صلاة القداس الكاثوليكية التي كنا نحضرها نحن المسيحيين الجدد؟ بعد القداس، عندما كنّا أطفالاً، يا جاكوب، هل تتذكّر كيف كنا أنا وأنت نسخر من الكاثوليك؟ كنا نسخر من الأردية الغريبة التي يرتديها الكهنة، الصور الدموية اللانهائية للصلب، والجثو أمام قطع عظام القديسين، والرقائق والنبيذ الذي يتناولونه باعتباره لحم المسيح ودمه»، ارتفع صوت فرانكو، «يهودي أو كاثوليكي... لا يوجد فرق... إنه جنون. كلّ ذلك جنون».

وضع جاكوب طاقيّته على رأسه، ثم وضع يده فوقها وأخذ يدمدم دعوات وصلوات باللغة العبرية. فوجئ بنتو أيضاً وبدأ يبحث عن كلمات مناسبة بهدوء أكبر. «أن تراودك هذه الأفكار وتعتقد بأنّك الشخص الوحيد الذي تراوده هذه الأفكار. أن تشعر بأنك الوحيد الذي تساوره هذه الشكوك، لا بد أن هذا شيء مرعب».

وتابع فرانكو بسرعة، «وثمة شيء آخر، فكرة أخرى أفظع، فأنا لا أزال أرى أن أبي ضحّى بحياته من أجل هذا الجنون، ومن أجل هذا الجنون عرّض حياتنا جميعاً للخطر: والداه وأمّي وشقيقي وشقيقتاي».

لم يتمالك جاكوب نفسه، فاقترب من فرانكو وهمس في أذنه بتهذيب «لعل الأب يعرف أكثر مما يعرفه الابن».

هزّ فرانكو رأسه، وفغر فاه، لكنه لم ينبس بكلمة.

وتابع جاكوب قائلاً، «وفكّر أيضاً كيف أن كلماتك تجعل موت والدك يضيع سدى. إنك تهدر موته بمثل هذه الأفكار. فقد مات ليحافظ على الدين مقدّساً من أجلك».

بدا فرانكو مهزوماً وأطرق برأسه.

عرف بنتو أن عليه أن يتدخّل الآن. فالتفت أولاً إلى جاكوب، وقال بصوت هادئ، «منذ لحظة طلبت من فرانكو أن يعبّر عن رأيه بصراحة، وقد فعل ذلك أخيراً، أليس من الأفضل أن تشجعه بدلاً من أن تحاول إسكاته؟»

خطا جاكوب نصف خطوة إلى الوراء. ظل بنتو يخاطب فرانكو بنفس الصوت الهادئ، «يا لها من معضلة بالنسبة لك يا فرانكو: يزعم جاكوب أنك إذا لم تصدّق الأمور التي ترى أنه يصعب تصديقها، فإنك تجعل استشهاد أبيك يضيع سدى. ومن يريد أن يلحق الأذى بأبيه؟ توجد عقبات كثيرة يجب تجاوزها كي تستطيع أن

تفكّر في نفسك، هناك عقبات كثيرة تعترضنا لكي نتمكن من أن نجعل أنفسنا كاملين ونستخدم قدرتنا على التفكير التي وهبنا إياها اللّه».

هزّ جاكوب رأسه، وقال: «انتظر، انتظر - ذلك الجزء الأخير عن قدرتنا على التفكير التي وهبنا إياها اللّه؟ لم أقل ذلك. إنك تلوي عنق الأشياء. إنك تتحدّث عن العقل؟ سأريك ما هو العقل، إنه اتباع فطرتك السليمة. افتح عينيك. أريدك أن تقارن! انظر إلى فرانكو. إنه يعاني، يبكي، يتذلّل، يشعر باليأس. ألا تراه؟»

هزّ بنتو رأسه.

«انظر إليّ الآن. أنا قوي. أحبّ الحياة. أعتني به. لقد أنقذته من محاكم التفتيش. أنا متشبث بديني وبإخواني اليهود. وأشعر بالارتياح عندما أعرف أن بني قومنا وتقاليدنا لم تنقرض. قارن بيننا نحن الاثنين بعقلك الثمين وقل لي، أيها الرجل الحكيم، ما الذي يستنتجه العقل».

الأفكار الخاطئة تمنح راحة خاطئة وهشّة، قال بنتو لنفسه، لكنّه أمسك لسانه.

مارس جاكوب مزيداً من الضغط وقال: «وطبّق ذلك على نفسك أيضاً، أيها المتعلّم. من نحن، من أنت، من دون طائفتنا، من دون تقاليدنا؟ هل يمكنك أن تعيش وأنت تطوف في أرجاء الأرض وحدك؟ لقد سمعت أنّك لم تتخذ زوجة. ما هذه الحياة التي يمكنك أن تعيشها من دون ناس؟ من دون أسرة؟ من دون الرب؟»

أحسّ بنتو الذي حرص على تفادي الخلافات بأن إهانة جاكوب قد هزّته.

التفت جاكوب نحو فرانكو ورقق صوته، وقال: «ستشعر بالثبات كما أشعر أنا عندما تعرف الكلمات والصلوات، عندما تفهم ماذا تعني هذه الأشياء».

فقال بنتو «أتفق معك»، محاولاً استرضاء جاكوب الذي كان يحدّق به، ثم أضاف، «إن الشعور بالحيرة يفاقم من إحساسك بالصدمة يا فرانكو. فجميع أفراد عائلة مارانو الذين غادروا البرتغال كانوا يشعرون بالاضطراب، وكان عليهم أن يتعلّموا من جديد ليعودوا يهوداً، كان عليهم أن يبدأوا كالأطفال ويتعلّموا الأبجدية: *ألف*، بيت، *غيميل*. وقد ساعدتُ الحاخام طوال ثلاث سنوات على تعليم اللغة العبرية للمارانوس(*)، وأؤكد لك أنّك ستتعلّمها بسرعة».

«لا»، أصرّ فرانكو الذي بدا الآن مثل فرانكو المقاوم الذي رآه بنتو من وراء النافذة. «لا أنت يا جاكوب ميندوزا، ولا أنت يا بنتو سبينوزا، تسمعانني جيداً. مرة أخرى أقول لكما إن اللغة ليست هي المشكلة. فأنا لا أعرف شيئاً من اللغة العبرية، لكن في الكنيس، في هذا الصباح، أثناء الصلاة، قرأت الترجمة الإسبانية للتوراة المقدّسة. ورأيت أنها مليئة بالمعجزات. فالرب يشطر البحر الأحمر إلى شطرين، وينزل المصائب والمآسي على رؤوس المصريين، ويتكلّم وهو متنكّر وراء أجمة محترقة. لماذا حدثت كلّ هذه المعجزات في ذلك الوقت، في عصر التوراة؟ أخبراني، كلاكما، لماذا انتهى عصر المعجزات؟ هل أخلد اللّه القدير، الكامل القدرة إلى النوم؟ أين كان ذلك الرب عندما أحرقوا أبي على الملأ؟ ولماذا؟ من أجل حماية كتاب ذلك الرب؟ ألم تكن لدى الرب القوة الكافية لينقذ أبي الذي كان يبجّله ويكرّمه؟ وإذا كان الأمر كذلك، فمن بحاجة إلى رب ضعيف كهذا؟ أو ألم يكن الرب يعرف أن أبي يعبده؟ وإذا كان الأمر كذلك، فمن بحاجة إلى رب جاهل كهذا؟ هل

(*) مصطلح يطلق على يهود شبه جزيرة إيبيريا الذين اعتنقوا المسيحية طوعاً أو قسراً والذين ظل بعضهم يمارسون دينهم اليهودي سرّاً.

كان الرب قوياً بما يكفي ليحميه لكنه قرر ألّا يحميه؟ وإذا كان الأمر كذلك، فمن بحاجة إلى رب غير محبّ كهذا؟ أنت، يا بنتو سبينوزا، الذي يدعونك 'مبارك'، تعرف أشياء كثيرة عن اللّه، فأنت متبحر في هذه الأمور. فسّر لي ذلك».

فسأله بنتو «لماذا كنت تخشى أن تتكلّم؟ إنك تطرح أسئلة هامة، أسئلة حيّرت الأتقياء طوال القرون. أعتقد أن جذور المشكلة تكمن في خطأ أساسي وهائل، وهو خطأ الافتراض أن اللّه حيّ، كائن مفكر، كائن على صورتنا، كائن يفكّر مثلنا، كائن يفكّر فينا.

«وقد فهم الإغريق القدماء هذا الخطأ. فمنذ ألفي سنة، كتب رجل حكيم يدعى كزينوفانيس أنه لو كانت للثيران والأسود والخيول أيدٍ تستطيع أن تنحت بها تماثيل وترسم صوراً، لكانت قد صوّرت اللّه على أشكالها ومنحته أجساداً تشبه أجسادها. وأظن أنه لو كان باستطاعة المثلثات أن تفكّر لكانت قد خلقت إلهاً له نفس شكل المثلث وخصائصه، والدوائر كانت ستخلق دوائر...».

قاطع جاكوب بنتو وقال له غاضباً: «إنك تتكلّم كما لو كنّا نحن اليهود لا نعرف شيئاً عن طبيعة الرب. لا تنس أن لدينا التوراة التي أُنزلت فيه كلماته. وأنت يا فرانكو، لا تظن أن اللّه ضعيف، ولا تنس أنّ اليهود لم ينقرضوا، وأنّه مهما فعلوا بنا، فإننا سنستمرّ. أين هي تلك الشعوب التي اختفت - الفينيقيون، الموآبيون، الأدوميون، وشعوب عديدة أخرى لا أعرف أسماءها؟ لا تنس أنّنا يجب أن نسير على هدي القانون الذي أعطاه الرب لليهود، أعطاه لنا، نحن شعبه المختار».

نظر فرانكو إلى سبينوزا نظرة كما لو أنه يريد أن يقول، ترى كيف يمكن مواجهته؟ ثم التفت إلى جاكوب وقال: «كل دين يؤمن شعبه بأن اللّه اختارهم هم فقط - المسيحيون، المسلمون -»

«لا! ماذا يهمّنا بماذا يؤمن الآخرون؟ إن ما يهمنا هو المكتوب في التوراة»، والتفت جاكوب إلى سبينوزا وقال: «اعترف بذلك يا باروخ، اعترف أيها المتعلّم: ألا تقول كلمة الرب بأنّ اليهود هم الشعب المختار؟ هل يمكنك إنكار ذلك؟»

«لقد أمضيت سنوات في دراسة هذا السؤال يا جاكوب، وإذا أردت، فإني سأشاركك نتائج بحثي». تحدّث بنتو برقّة، مثل معلّم يخاطب تلميذاً فضولياً، «وللإجابة عن أسئلتك حول الخاصية التي تميّز اليهود يجب أن نعود إلى المصدر. هل يمكنكما مرافقتي لاستكشاف كنه كلمات التوراة؟ إن نسختي موجودة على مسافة بضع دقائق من هنا».

هزّا رأسيهما، تبادلا النظرات، ونهضا ليتبعا بنتو الذي أعاد الكراسي بعناية إلى أماكنها، ثم قفل باب المخزن وقادهما إلى بيته.

الفصل الثامن

ريفال، إستونيا - ١٩١٧-١٩١٨

ثبت أن توقُّع المدير إبشتاين بأن حبّ الاطلاع لدى روزنبرغ وذكاءه محدودان وأنه لن يكون لهما أدنى تأثير على الآخرين لم يكن صائباً. ولم يكن تنبؤ المدير بأن غوته وسبينوزا سيختفيان من عقل ألفريد صحيحاً أيضاً. فلم يحدث أي شيء من كلّ هذا: فلم يستطع ألفريد أن يزيل من عقله صورة غوته العظيم وهو يجثو أمام اليهودي سبينوزا. وعندما كانت تطفو أفكار غوته وسبينوزا (التي اختلطت معاً الآن بالنسبة له) إلى السطح، لم يكن يفكر في ها طويلاً، وسرعان ما كان يكنسها من عقله بكلّ مكنسة يمكنه تخيّلها. وفي بعض الأحيان، كان يقتنع بما قاله هيوستن ستيوارت تشامبرلن بأن سبينوزا، مثل المسيح، كان ينتمي إلى الثقافة اليهودية، لكن لم تكن تسري قطرة واحدة من الدم اليهودي في عروقه، أو أن سبينوزا يهودي لكنه انتحل أفكاره من مفكّرين من العرق الآري، أو ربما كان غوته يقبع تحت تأثير تعويذة، مسحوراً بواسطة المؤامرة اليهودية. وكثيراً ما كان يخطر ببال ألفريد أن يتابع هذه الأفكار بعمق أكثر أثناء بحثه في رفوف المكتبة لكنه لم يكن يفعل ذلك. فالتفكير، التفكير بعمق عمل شاقّ، أشبه بتحريك صناديق ثقيلة من أماكنها في غرفة البيت العلوية.

وهكذا برع ألفريد في كتم مشاعره وإخفائها. فحوّل اهتماماته، وانغمس في نشاطات عديدة أخرى. والأهمّ من كل ذلك، فقد أقنع نفسه بأن قوّة القناعات تنفي الحاجة إلى إجراء مزيد من البحث والتقصي.

يحترم الألماني الحقيقي والنبيل وعده ويفي به. فمع اقتراب عيد ميلاده الحادي والعشرين، تذكّر ألفريد الوعد الذي كان قد قطعه للمدير بأن يقرأ كتاب سبينوزا «الأخلاق»، وقرر أن يفي بوعده، فاشترى نسخة مستعملة من الكتاب، وعندما شرع في قراءته، وجد في الصفحة الأولى قائمة طويلة من التعاريف الغامضة، غير المفهومة:

أولاً- بعلة ذاته أعني ما تنطوي ماهيته على وجوده، أو بعبارة أخرى، ما لا يمكن لطبيعته أن تُتصور إلّا موجودة.

ثانياً - يُقال عن شيء إنه متناهٍ في ذاته عندما يمكن أن يحدّه شيء آخر من نفس طبيعته؛ فيدعى مثلاً جسم بأنه متناه لأننا نتصور دائماً جسماً آخر أعظم منه. لذلك، أيضاً، فإن الفكر يحدّه فكر الآخر، أما الجسم فلا يحدّه الفكر، ولا يحدّ الفكر الجسم.

ثالثاً - بالجوهر، أعني ما يوجد في ذاته، ويُتصوّر لاهوتياً من خلال ذاته؛ بعبارة أخرى، ما لا يتوقف إنشاء تصوّره على تصور شيء آخر.

رابعاً - بالصفة، أعني ما يدركه الذهن في الجوهر بأنه يشكل جوهر المادة.

خامساً - بالحال، أعني ما يطرأ على الجوهر من تغييرات [المشاعر]، أو ما يكون قائماً في شيء غير ذاته، ويُتصوّر بشيء غير ذاته.

سادساً - بالإله، أعني كائناً لامتناهياً إطلاقاً، أي جوهر يتألف

من عدد لامحدود من الصفات تعبّر كل واحدة منها عن ماهية أزلية لامتناهية.

من يستطيع أن يفهم كلام هذا اليهودي؟ رمى ألفريد الكتاب جانباً. وبعد أسبوع حاول أن يقرأ ثانية، فترك التعاريف وانتقل إلى الجزء التالي «*البديهيات*»:

أولاً - كلّ ما هو موجود إنما يوجد في ذاته أو في شيء آخر.

ثانياً - إن ما يتعذر تصوّره بشيء آخر، يجب تصوّره بذاته.

ثالثاً - إذا وجدت علّة معينة نتج عنها بالضرورة معلول ما، ومن الناحية الأخرى، إذا لم توجد أي علّة معينة، فمن المستحيل أن ينتج عنها أي معلول.

رابعاً - تتوقف معرفة المعلول على معرفة العلّة وتنطوي عليها.

خامساً - الأشياء التي لا تتوافق بعضها مع بعض لا يمكن فهم الواحدة منها بواسطة الأخرى؛ ولا ينطوي مفهوم إحداها على مفهوم الأخرى.

كان هذا عصياً على الفهم أيضاً، ومرة أخرى ألقى بالكتاب جانباً، ثم بدأ يتصفّح الجزء التالي، *المقترحات*، التي كانت صعبة الفهم أيضاً. وأخيراً خطر له أن كلّ جزء متعاقب يعتمد منطقياً على التعاريف والبديهيات السابقة، ولن يأتي شيء من أخذ عينات أخرى. وكان بين الحين والآخر يأخذ الكتاب الصغير، يقلب الصفحات إلى صورة سبينوزا أمام صفحة العنوان، ويُدهش من ذلك الوجه البيضوي الطويل وهاتين العينين اليهوديتين الواسعتين بحاجبيهما الكثيفين (اللتين كانتا تحدّقان بعينيه مباشرة مهما أدار الكتاب). تخلّص من هذا الكتاب اللعين، قال لنفسه - بعه (لكنه لن

يجلب أي شيء، خاصة بعد أن اهترأت أطرافه من كثرة ما رماه في الهواء) أو تبرع به، أو تخلص منه. كان يعرف أن عليه أن يفعل ذلك، لكن، بشكل غريب، لم يستطع ألفريد أن يتخلّى عن كتاب *الأخلاق*.

لماذا؟ بالطبع، كان الوعد الذي ضربه للمدير أحد العوامل التي جعلته يحتفظ بالكتاب، لكنه لم يكن العامل الرئيسي. ألم يقل المدير إن على المرء أن يكون ناضجاً تماماً حتى يفهم كتاب *الأخلاق* جيداً؟ وإنه لا تزال أمامه عدة سنوات من الدراسة قبل أن يبلغ مرحلة النضوج التام؟

لا، لا، لم يكن الوعد هو الذي حفّزه على قراءته: وإنما مشكلة غوته. فهو يحبّ غوته كثيراً، وغوته يحبّ سبينوزا كثيراً. لم يستطع ألفريد أن يتخلّص من هذا الكتاب اللعين لأن غوته أحبّه إلى درجة أنه حمله في جيبه طوال سنة كاملة. وقد ساعد هذا الهراء اليهودي الغامض في تهدئة مشاعر غوته الجياشة وجعله يرى العالم بوضوح أكثر من ذي قبل. كيف يمكن ذلك؟ لا بد أن غوته رأى فيه شيئاً لم يستطع أن يراه هو. لعله يعثر ذات يوم على معلّم يستطيع أن يفسّره له.

لكن أحداث الحرب العالمية الأولى الصاخبة سرعان ما اقتلعت هذا اللغز من وعيه. فبعد أن تخرّج من مدرسة ريفال أوبيرشول وودّع المدير إبشتاين، وهير شافر، وأستاذ الفنون، هير بورفيت، بدأ ألفريد دراسته في معهد البوليتكنيك في ريغا، في لاتفيا، الذي يبعد عن بيته في ريفال حوالي مئتي ميل. وعندما هدّدت القوّات الألمانية إستونيا ولاتفيا في سنة ١٩١٥، انتقلت جميع أقسام معهد البوليتكنيك إلى موسكو، وانتقل معه ألفريد إليها وعاش فيها حتى سنة ١٩١٨، عندما سلّم مشروعه النهائي - *تصميم معماري لمحرقة* - ونال شهادته في الهندسة المعمارية.

وعلى الرغم من تفوقه في دراسته الأكاديمية، لم يحبّ ألفريد دراسة الهندسة، وفضّل أن يمضي وقته، عوضاً عن ذلك، في قراءة الأساطير والروايات. فقد فُتن بحكايات الأساطير النرويجية في «إدا» بالإضافة إلى الروايات ذات الحبكات المعقّدة في روايات ديكينز وأعمال تولستوي الرائعة (التي قرأها باللغة الروسية). وانغمس في قراءة الفلسفة، فدرس أفكار كانط وشوبنهاور وفيخته ونيتشه وهيغل الرئيسية، وكما في السابق، كان يجد متعة كبيرة بقراءة تلك الأعمال الفلسفية في أماكن عامة بارزة.

وفي خضم الفوضى التي حدثت أثناء الثورة الروسية سنة ١٩١٧، أصيب ألفريد بالهلع عندما رأى مئات آلاف المحتجّين المسعورين يجوبون الشوارع، مطالبين بالإطاحة بالنظام الراسخ. وبدأ يدخل في روعه، متأثراً بكتاب تشامبرلن، بأن روسيا تدين بوجودها إلى التأثير الآري من خلال الفايكنغ والرابطة الهانزية والمهاجرين الألمان مثله. ولم يكن انهيار الحضارة الروسية يعني إلّا شيئاً واحداً: أن أسس البلدان الشمالية تسقطها الشعوب والعروق المتدنية - المغول، اليهود، السلاف، الصينيون - وأن روح روسيا الحقيقية ستضيع قريباً. هل سيكون هذا أيضاً مصير أرض الأجداد؟ هل ستصل الفوضى والانحطاط العرقي إلى ألمانيا نفسها أيضاً؟

أثار مشهد الحشود المتدفقة في الشوارع مشاعر النفور والكراهية لديه. فالبلاشفة ليسوا سوى حيوانات تنحصر وظيفتهم في تحطيم الحضارة. ودرس بدقة زعماءهم وازداد قناعة بأن ما لا يقل عن ٩٠ في المئة منهم هم من اليهود. ومنذ عام ١٩١٨، لم يعد ألفريد يذكر شيئاً عن البلاشفة: فهم دائماً «بلاشفة يهود»، وقُدِّر لهذه الصفة المزدوجة أن تجد طريقها إلى الدعاية النازية. وبعد أن تخرّج ألفريد في عام ١٩١٨، غمرته السعادة عندما استقلّ القطار الذي نقله عبر

روسيا إلى بيته في ريفال. وبينما كان القطار يشقّ طريقه غرباً، كان ألفريد يجلس يوماً بعد يوم يحدّق في امتداد روسيا على امتداد البصر. كان مأخوذاً بالفضاء الواسع الممتد أمامه - آه، الفضاء - تذكّر رغبة هيوستن سميث تشامبرلن المتمثلة في الحصول على قدر أكبر من المجال الحيوي وضمها إلى أرض الأجداد. وهنا، خارج نافذة القطار في الدرجة الثانية، كان يقبع المجال الحيوي الذي تحتاج إليه ألمانيا، هذا الامتداد الشاسع والمطلق لروسيا الذي يجعلها لا تقهر إلا إذا. . . إلا إذا حارب جيش من المتعاونين الروس جنباً إلى جنب مع جيش أرض الأجداد. جرثومة أخرى هيمنت على فكره: هذا الفضاء المفتوح الموحش - ما الذي يمكن عمله بكل هذه الأراضي الشاسعة؟ لماذا لا يوضع اليهود هنا، جميع يهود أوروبا؟

كانت صافرة القطار وصرير الكوابح الدليل على وصوله إلى مدينته. كانت ريفال باردة مثل روسيا، فارتدى جميع الكنزات الصوفية التي لديه، وأحكم ربط الوشاح حول رقبته، وراح يسير عبر الشوارع المألوفة لديه، حاملاً حقيبته التي فيها شهادته، ينفث سحباً من البخار، حتى بلغ باب البيت الذي أمضى فيه طفولته، بيت العمّة كاشيلي - شقيقة والده. وعندما قرع الباب استُقبل بصرخات ترحيب «ألفريد»، وابتسامات عريضة، ومصافحة الذكور، ومعانقة الإناث، وسرعان ما أُدخل إلى المطبخ المعطّر الدافئ ليحتسي كوباً من القهوة ويتناول فطيرة ستروسيل، بينما أُرسل أحد أبناء عمته ليحضر العمّة ليديا التي تسكن بعد بضعة بيوت أسفل الشارع بسرعة. وسرعان ما وصلت العمّة مُحمّلة بأنواع الطعام وأقيمت مأدبة عشاء احتفاء به. كان معظم أثاث البيت على حاله، لم يتغيّر كما يتذكّره، ومنحه إصرار الماضي إحساساً نادراً بالارتياح لشعوره المعذّب بانعدام الجذور. وعندما رأى غرفته التي لم يطرأ عليها أي تغيير بعد كلّ تلك

السنوات، ارتسمت على وجهه تعابير مليئة بالبهجة الطفولية. وغاص في ذلك الكرسي القديم الذي كان يقرأ فيه مستمتعاً برؤية عمّته، ذلك المشهد المألوف، وهي تضرب الوسادة بقوة، وتنفش صوف مفرش السرير ثم تعيده إلى مكانه على سريره. جالت عينا ألفريد في أرجاء الغرفة: فرأى سجادة الصلاة القرمزية بحجم المنديل التي كان يردد عليها صلاته منذ سنوات عديدة (عندما يكون أبوه اللاديني مسافراً)، قبل النوم: «بارك أمّي في السماء، بارك أبي واجعله يتمتع بصحة جيدة مرة أخرى، واشف أخي يوجين، وبارك العمّة إريكا والعمّة مارلين، وبارك كلّ أفراد عائلتنا».

ورأى على الحائط الملصق الضخم لقيصر ويلهايلم الذي كان لا يزال ساطعاً وقويّاً غير مدرك أن ثروات الجيش الألماني قد تبددت، وكانت تنتصب على الرفّ تحت الملصق أشكال من محاربي الفايكنغ والجنود الرومان المصنوعة من الرصاص، فالتقطها بأصابعه برقّة وتأملها. ثم انحنى ليتفحص المكتبة الصغيرة التي تتكدس فيها كتبه المفضّلة، فابتسم ألفريد عندما رآها مرتبة بنفس الترتيب الذي تركه فيه منذ سنوات طويلة - كتبه المفضّلة، *آلام الشاب فرتر*، أولاً، ثمّ *ديفيد كوبرفيلد*، ثمّ تليها كلّ الكتب الأخرى في ترتيب تنازلي بحسب الأهمية.

غمر ألفريد شعور بالراحة وبأنه في بيته عندما تناول طعام العشاء مع عمّاته وأعمامه وأبناء أعمامه وبنات أعمامه. لكن عندما غادر الجميع البيت وخيّم الصمت، واستلقى تحت غطاء سريره المصنوع من الوبر، بدأت تعود إليه أحاسيسه السابقة. فقد أخذ البيت يبهت شيئاً فشيئاً. حتى صورة عمّتيه وهما تبتسمان تلك الابتسامة العريضة، تلوّحان، وتومئان، بدأت تنحسر شيئاً فشيئاً، ولم تبق سوى العتمة الشديدة البرودة. أين هو البيت؟ إلى أين ينتمي؟

في اليوم التالي، جاب شوارع ريفال لعله يعثر على وجوه مألوفة على الرغم من أنّ جميع رفاق اللعب في الطفولة كبروا الآن وغادروا إلى أماكن عديدة، وكان يعرف في أعماق قلبه أنه يبحث عن أشباح - الأصدقاء الذين كان يتمنى أن يكونوا أصدقاءه. وسار باتجاه مدرسته الثانوية التي بدت الممرات والصفوف المفتوحة فيها مألوفة ومنفرة. انتظر خارج قاعة صفّ أستاذ الفنون، هير بورفيت، الذي كان يعامله برقّة. لكن عندما قُرع الجرس ودخل ليتكلّم مع أستاذه القديم خلال فترة الاستراحة، حدّق هير بورفيت في وجه ألفريد، وقال إنه عرفه وبدأ يسأله عن أحواله بشكل عام، وعندما بدأ طلاب الصفّ التالي يهرعون إلى مقاعدهم، ساور ألفريد الشكّ في أن يكون هير بورفيت قد عرفه حقاً. ثم بحث عبثاً عن غرفة هير شافر، لكنه لاحظ غرفة هير إبشتاين الذي لم يعد مدير المدرسة، بل أصبح يدرّس مادة التاريخ، لكنه انسلّ بسرعة وأشاح بوجهه، فلم يشأ أن يسأله إن كان قد أوفى بوعده بشأن سبينوزا أو يعرف أن الوعد الذي قطعه ألفريد روزنبرغ قد تبخّر منذ زمن بعيد من عقل هير إبشتاين.

عندما خرج من المدرسة توجّه إلى ساحة البلدة حيث رأى مقر قيادة الجيش الألماني، فاتخذ قراراً طائشاً كان من الممكن أن يغيّر مسار حياته كلها. فقال للحارس باللغة الألمانية، أنه يرغب في أن يتطوّع في الجيش الألماني، فأرسله إلى السرجنت غولدبيرغ، الضخم الجثة ذي الأنف الكبير والشارب الكث، الذي كانت كلمة «يهودي» مكتوبة بخط عريض على وجهه. أنصت السرجنت دون أن يرفع عينيه عن الأوراق التي كان يكتب فيها، إلى ألفريد بسرعة، ورفض طلبه بفظاظة وقال: «إننا في حالة حرب، والجيش الألماني للألمان، لا للمواطنين من البلدان المحاربة المحتلّة».

مكتئباً ومنزعجاً من الطريقة التي كلّمه فيها السرجنت، توجّه

ألفريد إلى حانة قريبة وطلب كأساً كبيرة من البيرة، وجلس عند طرف طاولة طويلة. عندما رفع كأسه ليرشف منها، لاحظ رجلاً في ثياب مدنية ينظر إليه. التقت عيناهما لفترة قصيرة، ورفع الغريب كأسه وأومأ إلى ألفريد. بادله ألفريد ذلك بتردد، ثمّ عاد وغاص إلى داخل نفسه. وبعد بضع دقائق، عندما رفع عينيه ثانية، رأى الرجل الغريب، الطويل، النحيف، الجذّاب، ذا الجمجمة الألمانية الطويلة، والعينين الزرقاوين الداكنتين، لا يزال يحدّق فيه. نهض الرجل أخيراً وكأسه في يده، وسار نحو ألفريد وعرّفه على نفسه.

الفصل التاسع

أمستردام - ١٦٥٦

قاد بنتو جاكوب وفرانكو إلى البيت الذي يعيش فيه مع شقيقه غابرييل وأخذهما إلى غرفته. عبروا أولاً غرفة جلوس صغيرة فيها أثاث متناثر مرتبة بيد امرأة - مقعد وكرسي خشبي خشن، ومكنسة قشّ في الزاوية، وموقد ذو منفاخ، ثم دخلوا إلى غرفة بنتو التي توجد فيها طاولة كتابة منحوتة، ومقعد مرتفع قليلاً، وكرسي خشبي متقلقل، وثلاث لوحات مرسومة بالفحم تصوّر قناة أمستردام مثبتة على الحائط فوق رفين منحنيين تحت ثقل اثني عشر كتاباً مجلداً. توجّه جاكوب مباشرة إلى الرفوف ليلقي نظرة على عناوين الكتب، لكن بنتو أشار له ولفرانكو بأن يجلسا، وأحضر بسرعة كرسياً آخر له من الغرفة المجاورة.

«لنبدأ عملنا»، قال بنتو والتقط نسخته المهترئة من التوراة باللغة العبرية، ورماها في وسط الطاولة، ثم فتحها ليري شيئاً لجاكوب وفرانكو، لكنه توقّف بغتة، وفكّر قليلاً، وترك الصفحات تعود إلى مكانها.

«سأفي بوعدي وسأريكما ما تقوله لنا التوراة بالتحديد أو ما لا تقوله بأن اليهود شعب اللّه المختار، لكنّي أفضّل أن أبدأ أولاً

بالاستنتاجات الرئيسية التي توصلت إليها بعد عدة سنوات من قراءة التوراة ودراسته».

عندما أبدى جاكوب وفرانكو موافقتهما، قال بنتو: «إن الرسالة المحورية للتوراة تدور حول اللّه، وفي رأيي، فهو مثالي، كامل، وحكمته مطلقة، وأرى أن اللّه هو كلّ شيء، ومن ذاته خلق العالم وكلّ شيء يحتويه. ألا توافقان على ذلك؟»

هزّ فرانكو رأسه بسرعة، بينما فكّر جاكوب في الأمر قليلاً، ولوى شفته السفلى وبسط قبضته اليمنى وفتح راحة يده، ثم هزّ رأسه بحذر وببطء.

«بما أن اللّه، بحسب التعريف، مثالي وكامل ولا يحتاج إلى شيء، فإن هذا يعني أنه لم يخلق العالم لذاته، وإنما خلقه من أجلنا».

تلقى إيماءة من فرانكو، ونظرة مليئة بالحيرة وراحة يد مبسوطة من جاكوب تعني «وما علاقة هذا بأيّ شيء؟»

واصل بنتو كلامه بهدوء، «وبما أنه خلقنا من جوهره، فإن هدفه لنا كلّنا - نحن، مرة أخرى، الذين نُعتبر جزءاً من جوهر اللّه - أن نجد السعادة والنعيم».

أومأ جاكوب بمودة كما لو أنه سمع أخيراً شيئاً يمكن أن يوافق عليه، وقال: «نعم، لقد سمعت عمّي يتحدّث عن وجود شرارة اللّه في كلّ فرد منّا».

«تماماً. إذن أنا وعمّك على اتفاق تام»، قال سبينوزا، ملاحظاً شيئاً من التجهم على وجه جاكوب، فقرر ألّا يبدي ملاحظات كهذه بعد الآن - كان جاكوب ذكياً وشكوكاً. فتح بنتو التوراة وراح يقلّب في صفحاتها ثمّ قال: «هنا، لنبدأ ببعض الفقرات من *المزامير*»، وبدأ بنتو يقرأ ببطء باللغة العبرية ويشير بإصبعه إلى كلّ كلمة يترجمها

لفرانكو إلى البرتغالية. وبعد دقيقتين، قاطعه جاكوب وقال وهو يهزّ رأسه: «لا، لا، لا».

«لا، ماذا؟» سأله بنتو، «ألا تعجبك ترجمتي؟ أؤكد لك. . .»

فقاطعه جاكوب، «ليست الكلمات التي تقولها، وإنما طريقتك. فأنا، كيهودي أشعر بالإهانة من الطريقة التي تعامل فيها كتابنا المقدّس: فلم تقبّله أو تحترمه. فقد ألقيت به على الطاولة، وتؤشّر عليه بإصبعك الذي لم تغسله وتطهّره، وتقرأ بصوت عادي من دون تجويد، ولا تغيّر في طبقات صوتك. إنك تقرأه كما لو أنك تقرأ اتفاقية شراء بضاعة من الزبيب. هذه الطريقة في القراءة مسيئة إلى اللّه».

«مسيئة إلى اللّه؟ جاكوب، أرجو أن تفكر بعقلانية. ألم نتفق الآن على أنّ اللّه كامل وأنه لا يحتاج منّا إلى شيء، وأنه كائن لا يشبهنا؟ هل يمكن أن يشعر اللّه بالإساءة لمثل هذه التوافه، كالطريقة التي أقرأ بها؟»

هزّ جاكوب رأسه بصمت، بينما أومأ فرانكو موافقاً، وقرّب كرسيه أكثر من بنتو.

واصل بنتو قراءة المزمور بصوت مسموع بالعبرية وترجم لفرانكو ما قرأه إلى اللغة البرتغالية، «ربنا رحيم بالجميع، وتشمل رحمته كلّ خليقته»، تجاوز بنتو بعض الفقرات في المزمور نفسه وقرأ: «ربنا قريب من كلّ الذين يدعونه» ثم قال: «صدّقني، أستطيع أن أجد فقرات كثيرة تبين بوضوح أن اللّه منح جميع البشر ذات العقل وجعل قلوبهم متشابهة».

نقل بنتو انتباهه إلى جاكوب الذي هزّ رأسه مرة أخرى، وقال: «ألا تعجبك ترجمتي يا جاكوب؟ أستطيع أن أؤكد لك أنها تقول 'جميع البشر' ولا تقول 'جميع اليهود'».

«لا يمكنني أن أختلف معك: فالكلمات هي الكلمات. وما تقوله التوراة تقوله التوراة. لكن توجد في التوراة كلمات كثيرة، وتوجد قراءات متعددة، وتفسيرات كثيرة كتبها الكثير من الفقهاء. هل تتجاهل ذلك أم أنك لا تعرف تعليقات وتفاسير راشي وأباربانيل العظيمة؟»

فقال بنتو بهدوء شديد، «لقد فُطمت على التفاسير والتفاسير الأعلى. كنت أقرأها منذ طلوع الشمس حتى غروبها. لقد أمضيت سنوات كثيرة في دراسة الكتاب المقدّس، وكما قلت لي أنت نفسك، فإن الكثير من أبناء طائفتنا يكنون لي الاحترام لأنهم يعتبرونني فقيهاً. فقد شرعت في دراسته من تلقاء نفسي منذ عدّة سنوات، وأتقنت اللغتين العبرية والآرامية القديمتين، ونحّيت جانباً التفاسير التي كتبها الآخرون، ودرست كلمات الكتاب المقدّس الحقيقية مرة أخرى. ولكي نفهم الكلمات الواردة في التوراة جيداً، يجب أن نجيد اللغة العبرية القديمة، ونقرأه بروح جديدة من دون قيود. أريد أن نقرأ ونفهم الكلمات ذاتها من التوراة، لا كما يقول لنا بعض الأحبار ماذا تعني، ولا استعارات مجازات متخيّلة يدّعي الأحبار أنهم يرونها ولا يراها غيرهم، ولا أنها تنطوي على رسائل سرية كما يراها الكباليون في أشكال كلمات وقيم أحرف عددية معينة. أريد أن أعود إلى قراءة ما تقوله التوراة فعلاً. هذا هو أسلوبي. هل تريدان أن أواصل؟»

فقال فرانكو، «نعم، أرجوك تابع»، أما جاكوب فقد تردّد. كان انزعاجه واضحاً، لأنه عندما سمع بنتو يشدّد على عبارة «كلّ البشر»، عرف بأي طريق ستتجه إليه مناقشة بنتو - كان بإمكانه أن يدرك الفخّ الذي ينتظره، فحاول طريقة وقائية، وقال: «لم تجب عن سؤالي البسيط والملح بعد 'هل تنكر أنّ اليهود هم شعب اللّه المختار؟'»

«جاكوب، إنك تطرح أسئلتك بطريقة خاطئة. لا بد أنني لم أكن

واضحاً بما يكفي. ما أريد أن أفعله هو أن أطعن في موقفك كلّه في طريقة مناقشتك. فالمسألة لا تكمن في أنني أنكر ذلك، أم أن حَبراً أو فقيهاً آخر يدّعيها. دعنا لا ننظر إلى تلك العبارات الكبيرة بل دعنا ننظر في كلمات كتابنا المقدّس نفسه الذي يقول لنا إن سعادتنا ونعيمنا الحقيقيين يكمنان فقط في التمتع بما هو خير وصالح. فلا تقول لنا التوراة بأن نتفاخر بأننا نحن اليهود، الشعب المبارك فقط، أو أنّنا نستمتع أكثر لأن الآخرين يجهلون السعادة الحقيقية».

لم تظهر على وجه جاكوب أي دلائل بالاقتناع، فجرّب بنتو طريقة أخرى، «سأعطيكما مثالاً من تجربتنا اليوم. فعندما كنّا في المخزن، علمت أنّ فرانكو لا يعرف شيئاً من اللغة العبرية. صحيح؟»

«نعم».

«إذاً قل لي هذا: هل عليّ أن أبتهج لأنّني أعرف اللغة العبرية أكثر مما يعرفها هو؟ فهل عدم معرفته باللغة العبرية تجعلني أعرف أكثر مما كنت أعرفه منذ ساعة؟ إن شعورنا بالبهجة بأننا نتفوق على الآخرين ليس جيداً ومباركاً. إنه أمر طفولي أو خبيث. أليس كذلك؟»

أعرب جاكوب عن شكوكه عندما قوّس كتفيه، فازداد بنتو حيوية. فقد أرهقت بنتو سنوات الصمت التي فرضها على نفسه، لكنه وجد الآن الفرصة سانحة ليعبّر فيها بصراحة عن الأفكار التي طالما كانت تعتمل في نفسه، فقال مخاطباً جاكوب، «لا بد أنك تقبل بأن النعيم يقبع في الحبّ. إنها الرسالة الجوهرية التي يتمحور حولها الكتاب المقدّس كلّه - وإنجيل المسيحيين أيضاً. يجب أن نميّز بين ما تقوله التوراة بالفعل وما يقوله الأحبار ورجال الدين المحترفون. ففي معظم الأحيان، يروّج الأحبار والقساوسة لمصالحهم الشخصيّة بوضع تفاسير متحيّزة، تفاسير تدّعي أنهم هم الذين يملكون مفتاح الحقيقة فقط».

من طرف عينه، رأى بنتو جاكوب وفرانكو يتبادلان نظرات مليئة بالدهشة، لكن على الرغم من ذلك، تابع يقول: «هنا، انظرا، إلى هذا المقطع من كتاب الملوك (٣:١٢)» وفتح سبينوزا التوراة إلى مكان مؤشر عليه بخيط أحمر «اسمعا الكلمات التي يقولها اللّه لسليمان: '*وأعطيك قلباً حكيماً*، ولا يكون *لك مثيل لا قبلك ولا بعدك*'. فكّرا الآن، كلاكما، للحظة في هذه العبارة التي قالها اللّه لأكثر الرجال حكمة في العالم. إنه دليل قوي على أنه لا يمكن أخذ كلمات التوراة حرفياً، وإنما يجب فهمها من خلال سياق ذلك الزمن...»

«سياق؟» قاطعه فرانكو.

«أقصد اللغة والأحداث التاريخية التي جرت في ذلك الزمان. فلا يمكننا أن نفهم التوراة بلغة اليوم: يجب أن نقرأه بمعرفة دلالات لغة الزمن الذي كُتبت فيه وجمعت أثناءه، وقد مضى على ذلك حوالي ألفي سنة».

«ماذا؟» صاح جاكوب، «لقد كتب موسى التوراة، الكتب الخمسة الأولى، قبل ألفي سنة بكثير».

«هذا موضوع كبير، سأعود إليه بعد قليل. أما الآن، فاتركاني أتابع مع قصة سليمان. إن النقطة التي أريد توضيحها هي أنّ عبارة قال اللّه لسليمان ليست سوى تعبير يستخدم لنقل حكمة عظيمة، هائلة، وتهدف إلى جعل سليمان أكثر سعادة. هل من الممكن أن تعتقد بأن اللّه كان يتوقّع أن يشعر سليمان بالبهجة، وهو أكثر الرجال حكمة، لأن الآخرين سيظلون دائماً أقلّ ذكاء منه؟ من المؤكد أن اللّه، في حكمته، يريد أن يهب جميع البشر ذات الملكات العقلية بالقدر نفسه».

فاحتجّ جاكوب وقال: «لا أفهم عن أي شيء تتحدّث. إنك

تختار بضع كلمات أو جمل، لكنّك تتجاهل الحقيقة الجليّة بأن اللّه اختارنا نحن، والكتاب المقدّس يذكر ذلك في أماكن كثيرة».

«هنا، انظرا إلى أيوب»، قال بنتو. وقلب الصفحات إلى سِفْر أيوب ٢٨، وراح يقرأ: «'ثم قال للإنسان: مخافة اللّه هي الحكمة، والابتعاد عن الشر هو الفهم'»، وتابع بنتو، «من الواضح أن اللّه يقصد في هذه الفقرات الجنس البشري برمّته. ويجب أن تتذكّرا أيضاً أنّ أيوب لم يكن يهودياً، ومع ذلك، فقد قبله اللّه من بين كلّ البشر. هذه هي الفقرة - اقرآها بنفسيكما».

رفض جاكوب أن ينظر، وقال: «قد ترد في التوراة كلمات كهذه. لكن توجد آلاف الكلمات المناقضة لها. نحن اليهود شعب مختلف، وأنت تعرف ذلك. لقد نجا فرانكو للتو من محاكم التفتيش. قل لي يا بنتو، متى أقام اليهود محاكم تفتيش؟ الآخرون هم الذين قتلوا وذبحوا اليهود. هل سبق أن ذبحنا أي شعب آخر؟»

قلب بنتو الصفحات بهدوء، هذه المرة إلى سِفْر يشوع ٣٧:١٠ وراح يقرأ: «'*وتقدّم يشوع وكل بني إسرائيل معه، من عجلون إلى حبرون وحاربوها. واستولوا عليها وقتلوا شعبها وملكها بالسيف وقراها وكلّ من فيها، ولم يُبقوا أحداً، كما فعلوا بعجلون، فأهلكوها وكلّ من فيها*'. أو يشوع ١١:١١ عن مدينة حاصور»، تابع بنتو، «'*وقتل العبرانيون كلّ من فيها بالسيف، وأهلكوهم حتى لم يبق حيّ فيها، وأحرق حاصور بالنار*'».

«أو هذه مرة أخرى، صموئيل ١٨/٦-٧ 'ولما كان الجيش راجعاً، بعدما قتل داوود الفلسطيني، خرجت النساء من كلّ مدن إسرائيل، بالغناء والرقص والفرح لاستقبال الملك شاول، بالدفوف، ببهجة، وبآلات الموسيقى... وأنشدن وهن يرقصن وقلن: قتل شاول ألوفاً، وداوود عشرات ألوف'.

«الشيء المحزن هو أنه توجد دلائل عديدة في التوراة تشير إلى أنه عندما كان الإسرائيليون يمتلكون القوّة، كانوا قساة وعديمي الرحمة مثل أيّ شعب آخر، ولم يكونوا متفوّقين أخلاقياً، ولم يكونوا أكثر تقى وورعاً، أو أكثر ذكاء من الأمم القديمة الأخرى. بل الشيء الوحيد الذي كانوا متفوّقين فيه فقط آنذاك هو أنه كان لديهم مجتمع منظّم وحكومة متفوّقة مكنتهم من الاستمرار إلى أمد بعيد. أما الأمة العبرية القديمة تلك فقد انقرضت منذ زمن بعيد، وأصبحت منذ ذلك الحين مثل الشعوب الأخرى، ولا أرى في التوراة شيئاً يوحي بأنّ اليهود هم أرقى من الأمم الأخرى. فاللّه رؤوف ورحيم بالبشر كلهم».

فقال جاكوب وقد ارتسمت على وجهه نظرة تشي بعدم التصديق: «هل تقول إنه لا يوجد شيء يميّز اليهود عن الكفار؟»

«تماماً، لكن لست أنا من يقول ذلك، بل التوراة نفسه».

«كيف يمكن أن تُدعى 'باروخ' وتتكلّم بهذه الطريقة؟ أهل تنكر حقاً أنّ اللّه اختار اليهود، فضّلهم، وساعد اليهود، وتوقّع منهم الكثير؟»

«مرة أخرى يا جاكوب، فكّر في ما تقوله. مرة أخرى أذكّرك: إن البشر هم الذين يختارون، يفضّلون، يساعدون، يقيّمون، يتوقّعون. لكن اللّه؟ هل يمتلك اللّه صفات إنسانية؟ تذكّر ما قلته عن الفكرة الخاطئة بتصوّر اللّه بأنه على صورتنا. تذكّر ما قلته عن المثلثات وعن اللّه الثلاثي الزوايا».

«لقد خُلقنا على صورته»، قال جاكوب، «افتح سِفر التكوين. دعني أريك تلك الكلمات . . .»

راح بنتو يتلو من ذاكرته، «'ثمّ قال اللّه: لنصنع الإنسان ليعبّر

عنا وعن صفاتنا، فيسلّط على سمك البحر وعلى طيور السماء، وعلى البهائم، وعلى كلّ الأرض، وعلى كلّ الزواحف التي عليها'. وهكذا فقد خلق اللّه الإنسان على صورته، في صورة اللّه فخلقهم ذكراً وأنثى».

«تماماً يا باروخ، هذه هي الكلمات»، قال جاكوب. «كم أتمنى لو أن ورعك كان بعظمة ذاكرتك. لو كانت هذه كلمات اللّه، فمن أنت حتى تشكك في أنّنا خُلقنا على صورته؟»

«جاكوب، استخدم العقل الذي وهبك اللّه إياه. لا يمكننا أن نفهم هذه الكلمات بشكل حرفي. إنها مجرد استعارة. هل تؤمن حقاً بأنّنا نحن البشر، بعضنا أصمّ أو مقوس الظهر أو مصاب بالإمساك أو مكتئب، خُلقنا على صورة اللّه؟ فكّر في هؤلاء الأشخاص، مثل أمّي الذين ماتوا وهم في العشرينات من عمرهم، والذين يولدون عمياناً أو مشوّهين أو مختلين عقلياً والذين لهم رؤوس مائية مجوّفة ضخمة، أو المصابين بسلّ الغدد الليمفاوية أو بفشل في الرئة، والذين يبصقون دماً، والجشعين أو القتلة - هل خُلقوا هم أيضاً على صورة اللّه؟ هل تعتقد أن لدى اللّه عقلية تشبه عقليتنا وله رغبات يريد أن يمتدحها البشر ويثنون عليها، ويشعر بالغيرة وبالحقد إذا خالفنا أوامره؟ هل يعقل أن تكون أساليب التفكير الخاطئة هذه موجودة في كائن مثالي كامل؟ هذا كلام الذين كتبوا التوراة فقط».

«الذين كتبوا التوراة؟ إنك تستخف في حديثك عن موسى ويشوع والأنبياء والقضاة؟ هل تنكر أن التوراة هي كلام اللّه؟» كان صوت جاكوب يرتفع مع كلّ جملة، ووضع فرانكو الذي كان يستمع باهتمام شديد إلى كلّ كلمة ينطقها بنتو، يده على ذراع جاكوب لتهدئته.

«أنا لا أستخف بأحد»، قال بنتو، «إنك تستنتج ذلك من عقلك، لكنني أقول إنّ كلمات وأفكار التوراة تأتي من العقل البشري، من

الرجال الذين كتبوا هذه المقاطع وتخيّلوها - لا، ينبغي أن أقول إنهم كانوا يتمنّونها - بأنّهم يشبهون اللّه، بأنّهم صُنعوا على صورة اللّه».

«إذاً فأنت تنكر أنّ اللّه يتكلّم من خلال أصوات الأنبياء؟»

«من الواضح أن أيّ كلمات ترد في التوراة يشار إليها 'بكلمات اللّه' لم تنشأ إلّا من مخيّلة الأنبياء المختلفين».

«مخيّلة! تقول 'مخيّلة'؟» وضع جاكوب يده أمام فمه الفاغر مرعوباً، بينما حاول فرانكو أن يكتم ابتسامة.

كان بنتو يعرف أن كلّ كلمة تخرج من شفتيه تصدم جاكوب، لكنه بالرغم من ذلك، لم يتوقف، بل غمره شعور بالبهجة الآن لأنه فجّر قيود صمته وراح يعبّر علناً عن جميع الأفكار التي كانت تراوده والتي كان يكتمها في سريرته، أو التي كان يعبّر عنها للحاخام لكن بأشكال مقنّعة وغير مباشرة. وتذكّر تحذير فان دن إندن، *caute, caute*، لكنه تجاهل العقل هذه المرة وواصل كلامه.

«نعم، من الواضح أنها مخيلة يا جاكوب، ولا تُصدم كثيراً: إننا نعرف ذلك من كلمات التوراة نفسها». من طرف عينه، لاحظ بنتو ابتسامة فرانكو. ثم تابع بنتو، «هنا، يا جاكوب، اقرأ هذه معي في سفر التثنية ٣٤ : ١٠ : '*ومنذ ذلك الوقت، لم يظهر نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه اللّه وجهاً لوجه*' الآن، جاكوب، فكّر جيداً في ما تعينه هذه العبارة. وبالطبع فإنك تعرف أنّ التوراة لا تقول لنا حتى إن موسى رأى وجه اللّه، أليس هذا صحيحاً؟»

هزّ جاكوب رأسه، وقال: «نعم، التوراة تقول ذلك».

«إذاً يا جاكوب، فقد أزلنا الرؤية، ويجب أن يعني ذلك أن موسى سمع صوت اللّه الحقيقي، وأنه لم يسمع نبي بعد موسى صوت اللّه الحقيقي».

لم يحر جاكوب جواباً.

«اشرح لي»، قال فرانكو الذي كان يستمع بعناية لكلّ كلمة يقولها بنتو، «إذا لم يكن أحد من الأنبياء الآخرين قد سمع صوت اللّه، فما هو مصدر النبوءات؟»

مرحّباً بمشاركة فرانكو، أجاب بنتو على الفور: «أظن أنّ الأنبياء كانوا رجالاً موهوبين بمخيّلة واسعة غير اعتيادية، لكن ليس من الضروري أن تكون لديهم قوّة متطورة تمكنهم من التفكير والتأمل».

فقال فرانكو، «إذاً، بنتو، إنك ترى أنّ النبوءات الإعجازية ليست أكثر من أفكار متخيّلة للأنبياء؟»

«تماماً».

واصل فرانكو كلامه، «يبدو كأنه لا يوجد شيء يُسمّى عالم ما وراء الطبيعة. إنك تجعل الأمور تبدو وكأن كلّ شيء يمكن تفسيره».

«هذا تماماً ما أراه. فلكلّ شيء، وأنا أعني أن لكلّ شيء سبباً طبيعياً».

«بالنسبة لي»، قال جاكوب الذي كان يحدق في بنتو وهو يتكلّم عن الأنبياء، «توجد أشياء لا يعلمها إلّا اللّه، أشياء لا تصدر إلّا من إرادة اللّه».

«أعتقد أننا كلما استطعنا أن نعرف أكثر، أصبحت الأشياء التي ننسبها إلى اللّه أقل. بعبارة أخرى، كلما ازداد جهلنا، فإننا ننسبه إلى اللّه أكثر».

«كيف تجرؤ على . . .»

فقاطعه بنتو، «جاكوب، لنتذكر سبب لقائنا نحن الثلاثة. لقد جئت إليّ لأن فرانكو يعاني من أزمة روحية ويحتاج إلى مساعدة. ولم آت أنا إليكما - وقد نصحتك بأن ترى الحاخام بدلاً مني لكنك

قلت إنهم قالوا لك إن الحاخام سيزيد حالة فرانكو سوءاً، أتذكر ذلك؟»

«نعم، هذا صحيح»، قال جاكوب.

«إذن ما الفائدة من الدخول في سجال كهذا؟ بدلاً من ذلك، هناك سؤال حقيقي واحد»، والتفت بنتو نحو فرانكو، وقال: «قل هل إني أساعدك؟ هل يوجد شيء مما قلته مفيد لك؟»

«لقد منحني كلّ ما قلته شعوراً بالارتياح»، قال فرانكو، «إنك تساعدني في الحفاظ على سلامة عقلي. كدت أفقد أعصابي، وأفكارك الواضحة، أسلوبك بأنك لا تأخذ شيئاً على أنه منزّل - شيء لم أسمع مثله من قبل. أسمع غضب جاكوب، وأنا أعتذر لك بالنيابة عنه، أما أنا - نعم، فقد ساعدتني».

«في هذه الحالة»، قال جاكوب ونهض فجأة على قدميه، «لقد حصلنا على ما جئنا من أجله، وانتهى عملنا هنا». بدا فرانكو مصدوماً وظل جالساً، لكن جاكوب أمسك بمرفقه وسار به نحو الباب.

«شكراً لك يا بنتو»، قال فرانكو، عندما وقف عند مدخل الباب، «أرجوك قل لي، هل أنت مستعد لأن نجري لقاءات أخرى؟»

«نعم، أنا مستعد دائماً للدخول في مناقشات عقلية - فقط تعال إلى المخزن، لكنني»، التفت بنتو نحو جاكوب وقال: «لست مستعداً للدخول في مناقشات منافية للمنطق والعقل».

ما إن ابتعدا عن بيت بنتو، حتى ابتسم جاكوب ابتسامة عريضة، ووضع ذراعه حول فرانكو، وأمسك كتفه وقال: «لقد حصلنا على كلّ ما نحتاج إليه الآن. لقد قمنا بعمل جيد. لقد أدّيت دورك بشكل رائع، إذا سألتني - لكني لن أناقش ذلك لأننا أنهينا الآن ما كان

علينا أن نفعله. انظر إلى ما حصلنا عليه. اللّه لم يختر اليهود؛ ولا يختلف اليهود بأي شيء شكل من الأشكال عن الشعوب الأخرى؛ ولا توجد لدى اللّه مشاعر خاصة إزاء اليهود؛ والأنبياء ليسوا إلّا شخصيات متخيّلة؛ والكتاب المقدس ليس مقدّساً وإنما من عمل البشر؛ ولا وجود لكلمة اللّه وإرادة اللّه؛ وما سِفر التكوين والعهد القديم كله سوى خرافات أو استعارة في الكلام. ولا توجد لدى الأحبار، حتى أعظمهم، معارف خاصّة، وإنما يتصرّفون وفقاً لمصالحهم الشخصيّة».

هزّ فرانكو رأسه وقال: «لم نحصل على كلّ ما نحتاج إليه، لا ليس بعد. أريد أن أراه مرة أخرى».

«لقد عدّدت الآن كلّ الفواحش التي قالها: إن كلماته محض هرطقة. هذا ما طلبه منّا العمّ دوارت، ونفذّنا ما يريده. أصبح بحوزتنا دليل ساحق: إن بنتو سبينوزا ليس يهودياً، إنه معاد لليهود».

«لا»، كرّر فرانكو كلامه، «لا يوجد لدينا ما يكفي. أريد أن أسمع منه المزيد. لن أشهد حتى أسمع المزيد».

«لدينا أكثر مما يلزم. عائلتك في خطر. لقد عقدنا صفقة مع العمّ دوارت - ولا ينجو أحد من صفقة معه. هذا تماماً ما حاول أن يفعله هذا الأحمق سبينوزا - خداعه بتجاوز المحكمة اليهودية. فلولا اتصالات العمّ، ورشاوى العمّ، وسفينة العمّ، لكنت لا تزال مختبئاً في أحد الكهوف في البرتغال. وستعود سفينته بعد أسبوعين لتجلب أمّك وأختك وأختي. هل تريدهن أن يُقتلن كما قتل والدانا؟ وإذا لم ترافقني إلى الكنيس وتشهد معي أمام مجلس المجمع اليهودي، فستكون أنت من يضرم النار في محرقتهن».

«أنا لست أحمق، ولن أقبل بأن أُقاد مثل خروف»، قال فرانكو، «فلدينا وقت، وأحتاج إلى مزيد من المعلومات قبل أن أشهد أمام

المجلس. يوم آخر لن يحدث فرقاً، وأنت تعرف ذلك. والأهم من ذلك، فإن عمّنا ملزم بالاعتناء بعائلته حتى لو لم نفعل شيئاً».

«عمّنا يفعل ما يريده عمّنا. أنا أعرفه أكثر مما تعرفه أنت. إنه لا يتقيد بأي قواعد إلا قواعده هو، وهو ليس كريماً بطبعه. بل إني لا أريد أن أزور سبينوزا هذا مرة أخرى. إنه يفتري على شعبنا كله».

«لدى هذا الرجل ذكاء يفوق ذكاء الطائفة مجتمعة، وإذا لم تشأ أن تذهب، فإني سأذهب وأكلّمه وحدي».

«لا، إذا ذهبت، فسأذهب. لن أتركك تذهب وحدك. الرجل مقنع جداً. إني أشعر بعدم الاستقرار أنا نفسي. إذا ذهبت وحدك، فإن الشيء التالي الذي سأراه هو أنهم سيفرضون عليك *الحرم* مثله»، وعندما لاحظ نظرة فرانكو المرتبكة، أضاف جاكوب، «*الحرم* تعني الحرمان والنبذ من الطائفة ومن الكنيس - كلمة عبرية أخرى من الأفضل أن تتعلّمها».

الفصل العاشر

ريفال، إستونيا - تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨

«غوتين تاغ» قال الغريب، ومدّ يده، «أنا فريدريش بفيستر. هل أعرفك؟ يبدو وجهك مألوفاً».

«روزنبرغ، ألفريد روزنبرغ. لقد ولدت ونشأت هنا. عدتُ للتو من موسكو. تخرجتُ من معهد البوليتكنيك الأسبوع الماضي».

«روزنبرغ؟ آه، نعم، نعم - هذا هو. أنت شقيق يوجين الأصغر. أرى عينيه فيك. هل لي أن أنضم إليك؟»

«طبعاً».

وضع فريدريش كأس البيرة على الطاولة وجلس أمام ألفريد. «كنت أنا وشقيقك أعزّ صديقين، ولا نزال على تواصل. رأيتك عدة مرات في بيتكم - حتى أنك كنت تجلس على ظهري وأسير بك - أنت أصغر من يوجين بست أو سبع سنوات، أليس كذلك؟»

«ست سنوات. يبدو وجهك مألوفاً، لكنّي لا أتذكّرك تماماً. لا أعرف لماذا، لكنّي لا أتذكّر أشياء كثيرة من طفولتي - لقد مُحيت كلّها. كما تعرف فقد كنت في التاسعة أو العاشرة من عمري عندما غادر يوجين البيت ليدرس في بروكسل. لم أره منذ ذلك الحين سوى مرات قليلة جداً. تقول إنك على تواصل معه الآن؟»

«نعم، منذ أسبوعين فقط تعشّينا معاً في زيوريخ».

«زيوريخ؟ هل غادر بروكسل؟»

«منذ حوالي ستّة شهور. لقد أصيب مرة أخرى بالسل وجاء إلى سويسرا للعلاج. أنا أدرس في زيوريخ وزرته في المصحّة هناك. سيخرج منها بعد أسبوعين ثم سيذهب إلى برلين ليأخذ دورة متقدمة في الأعمال المصرفية، وسأنتقل أنا إلى برلين للدراسة بعد عدة أسابيع، لذلك فإننا سنلتقي كثيراً هناك. يبدو أنك لا تعرف كلّ ذلك؟»

«لا، فقد ذهب كلّ منا في حال سبيله. لم نكن قط على صلة وثيقة معاً ولم نعد على تواصل الآن».

«نعم، ذكر لي يوجين أيضاً أنّ - يا له من شيء محزن، فأنا أعرف أن أمّك ماتت بعد ولادتك بفترة وجيزة - هذا كان أمراً صعباً بالنسبة لكما، وأتذكّر أن والدك مات وهو شاب أيضاً بالسلّ؟»

«نعم، كان في الرابعة والأربعين من عمره، وكنت أنا في الحادية عشرة. قل لي، هير بفيستر. . .»

«فريدريش، أرجوك. إن شقيق صديق عزيز هو صديق أيضاً، لذلك، نحن الآن فريدريش وألفريد؟»

إيماءة من ألفريد.

«ألفريد، قبل دقيقة كنتَ ستسأل؟»

«أتساءل إن كان يوجين قد ذكرني؟»

«لم يذكرك في لقائنا الأخير. فلم نلتق منذ ثلاث سنوات تقريباً وكانت لدينا أشياء كثيرة يجب أن نقوم بها، لكنّه تحدّث عنك عدة مرات في الماضي».

تردّد ألفريد ثم قال: «هل يمكنك أن تخبرني بكلّ ما قاله لك عنّي؟»

«كلّ ما قاله؟ سأحاول، لكن أولاً اسمح لي أن أبدي ملاحظة:

فمن ناحية تقول لي إنك لست على علاقة حميمة مع شقيقك ويبدو أنكما لم تبذلا أي جهد كي تتواصلا. ومع ذلك، فإنك تبدو اليوم متلهّفاً - حتى يمكنني القول إنك متعطش - لسماع بعض الأخبار عنه. شيء ينطوي على تناقض. وهذا يجعلني أتساءل إن كنت تبحث عن نفسك وعن ماضيك؟»

دفع ألفريد رأسه إلى الوراء للحظة، فقد فوجئ من فطنة هذا السؤال. «نعم، هذا صحيح. أنا مندهش من أنك لاحظت ذلك. ففي هذه الأيام... حسناً، لا أعرف كيف أقولها... تعمّ الفوضى. فقد رأيت جماهير غاضبة في موسكو تدعو إلى إحداث الفوضى، والآن فإن الفوضى تعمّ أوروبا الشرقية أيضاً، لا بل أوروبا كلها. محيطات من الأشخاص النازحين. وأنا قلق ومشوش معهم، لعلّي ضائع أكثر من الآخرين... منفصل عن كلّ شيء».

«لذلك فإنك تبحث عن مرساة من الماضي تريد أن تتشبث بها. إنك تحنّ إلى الماضي الذي لا يتغيّر. يمكنني أن أفهم ذلك. دعني أفتش ثنايا في ذاكرتي عن التعليقات التي قالها يوجين عنك. أعطني دقيقة، دعني أركّز، وسأخرج الصور التي في ذاكرتي وأجعلها تطفو على السطح».

أغمض فريدريش عينيه، ثمّ فتحهما، وقال: «هناك عقبة - يبدو أن ذكرياتي عنك تقف حائلاً في الطريق. دعني أولاً أنقلها لك، ثم سأتمكّن من تذكّر تعليقات يوجين عنك. موافق؟»

«نعم، هذا جيد»، دمدم ألفريد. لكن لم يكن الأمر جيداً تماماً. بل على العكس، فقد بدا كلّ هذا الحديث في غاية الغرابة: فكلّ كلمة نطقها فريدريش كانت غريبة وغير متوقّعة. وعلى الرغم من ذلك، فقد وثق بهذا الرجل الذي يعرفه عندما كان طفلاً. إن فريدريش ينضح برائحة «البيت».

أغمض فريدريش عينيه ثانية، وبدأ يتكلّم بصوت بعيد: «اللعب بالوسادات - حاولت لكنّك لم تكن تلعب... لم أستطع أن أجعلك تلعب. بجدّ - بجدّ حقيقي. نظام، نظام... ألعاب، كتب، جنود ألعاب، كلّ شيء بتنظيم شديد... كنت تحبّ ألعاب الجنود تلك... صبي صغير جدّي جداً... كنت أحملك على ظهري أحياناً... أظن أنك كنت تحبّ ذلك... لكنّك كنت دائماً تقفز بسرعة... ألم يكن المرح جيّداً؟... كان البيت يبدو بارداً... بلا أمّ... الأب غير موجود، مصاب بالاكتئاب... لم تتكلما أنت ويوجين قط... أين كان أصدقاؤك؟... لم أر أصدقاء قط في بيتكم... كنت تخاف... تركض إلى غرفتك، تغلق الباب عليك، تركض دائماً إلى كتبك...»

صمت فريدريش، فتح عينيه، تناول جرعة كبيرة من البيرة، وأدار عينيه نحو ألفريد، وقال: «هذا كلّ ما يخرج من ذاكرتي عنك - قد تطفو ذكريات أخرى على السطح لاحقاً. أهذا ما أردته يا ألفريد؟ أريد أن أتأكّد. أريد أن أعطي شقيق أعزّ صديق لي ما يريده وما يحتاج إليه».

أومأ ألفريد ثم أدار رأسه بسرعة، مُستَحٍ من دهشته: فلم يسمع قط كلاماً كهذا من قبل. مع أن كلمات فريدريش كانت بالألمانية، أما لغته فكانت لساناً أجنبياً.

«إذاً سأستمرّ في تذكر تعليقات يوجين عنك». أغمض فريدريش عينيه مرة أخرى، ثم قال بعد دقيقة بنفس النبرة البعيدة الغريبة، «يوجين، حدّثني عن ألفريد»، ثم انتقل فريدريش إلى صوت آخر، صوت ربما قصد به أن يكون صوت يوجين.

«آه... أخي الخَوَّاف الخجول، فنان رائع - فقد اكتسب موهبة أفراد العائلة جميعاً - كم كنت أحبّ رسوماته عن ريفال - الميناء

والسفن الراسية فيه، والقلعة التوتونية ببرجها الشاهق - كانت رسومات رائعة حتى بالنسبة إلى شخص بالغ، ولم يكن قد بلغ العاشرة من عمره. أخي الصغير - كان يقرأ دائماً - ألفريد المسكين - المنعزل... الذي يخاف كثيراً من الأطفال الآخرين... لم يكن محبوباً - كان الصبية يسخرون منه ويدعونه 'الفيلسوف' - لا حبّاً به - كانت أمّنا قد ماتت، وكان أبونا يحتضر، عمّاتنا طيبات القلب لكنهن كنّ دائماً مشغولات بعائلاتهن - كان عليّ أن أبذل جهداً أكبر من أجله، لكنّ التواصل معه كان صعباً... وكنت أعيش أنا نفسي على النفايات».

فتح فريدريش عينيه، رمش مرّة أو مرّتين، ثم واصل كلامه بصوته الطبيعي، وقال، «هذا كلّ ما أتذكّره. أوه، نعم هناك شيء آخر يا ألفريد، وتنتابني مشاعر مختلطة لقولها: فقد كان يوجين ينحي باللائمة عليك لموت أمّكما».

«ينحي باللائمة عليّ؟ أنا ؟ لم أكن أتجاوز الأسبوعين من العمر عندما ماتت».

«عندما يموت أحد، فإننا غالباً ما نبحث عن شيء، أو عن شخص، لنلقي اللوم عليه».

«لا يمكن أن تكون جادّاً. أليس كذلك؟ أقصد هل قال يوجين هذا فعلاً؟ هذا غير منطقي».

«في أحيان كثيرة نؤمن بأمور غير منطقية. طبعاً أنت لم تقتلها، لكني أظن أن يوجين يرى أنها لو لم تحبل بك لما ماتت ولبقيت على قيد الحياة حتى الآن. لكن، ألفريد، لا أظن أنني أستطيع تذكّر كلماته بحذافيرها، لكن ما أعرفه هو أنّه يشغر بالنقمة تجاهك وهو نفسه يعتبر ذلك أمراً غير عقلاني».

لبث ألفريد، الذي شحب وجهه الآن، صامتاً لبضع دقائق.

حدّق به فريدريش، رشف قليلاً من البيرة، وقال بلطف، «أخشى أن أكون قد قلت الكثير. لكن عندما يطلب صديق شيئاً، فإني أحاول أن أعطيه كلّ ما أستطيع».

«وهذا شيء جيد. الإتقان، الصدق - مزايا ألمانية جيدة ونبيلة. أنا أثني عليك يا فريدريش. وكلّ هذا يبدو صحيحاً. يجب أن أعترف بأنّني كنت أتساءل أحياناً لماذا لم يقدم لي يوجين أكثر. وكم سمعت هذا التهكّم 'أيها الفيلسوف الصغير' من الصبية الآخرين! أظن أنه أثّر فيّ كثيراً، وقد قررت أن أنتقم منهم جميعاً بأن أصبح فيلسوفاً».

«في معهد البوليتكنيك؟ كيف يمكن أن يكون ذلك ممكناً؟»

«ليس بالتحديد فيلسوفاً يحمل شهادة - فشهادتي في الهندسة والهندسة المعمارية، أما بيتي الحقيقي فهو الفلسفة، وحتى في معهد البوليتكنيك فقد وجدت بعض الأساتذة المثقفين الذين أرشدوني إلى قراءاتي الخاصّة. وبدأت أعبد وضوح الفكر الألماني أكثر من أيّ شيء آخر. إنه ديني الوحيد. وعلى الرغم من ذلك فإنني الآن، في هذه اللحظة بالذات، أتخبّط وفي حالة عقلية مشوشة. في الواقع، أكاد أشعر بدوار، ربما كنت بحاجة إلى وقت حتى أستوعب كلّ ما قلته لي».

«ألفريد، يخيّل إليّ أنني أستطيع أن أفسّر ما تشعر به. لقد مررت بنفس التجربة، ورأيت ذلك في أشخاص آخرين. إنك لا تستجيب للذكريات التي قلتها لك. إنها شيء آخر. يمكنني أن أفسّرها بشكل أفضل بالتحدث بأسلوب فلسفي. فقد درست أيضاً الفلسفة ويسرّني أن أتحدّث مع شخص له ذات الميول والاهتمامات».

«ويسرّني ذلك أنا أيضاً. فقد كنت محاطاً بمهندسين لسنوات عديدة، وأتوق الآن إلى أحاديث فلسفية».

«جيد، جيد. دعني أبدأ هكذا: تذكّر الصدمة وعدم التصديق

عندما قال كانط إن الحقيقة الخارجية ليست كما ندركها عادة - أي أننا نشكّل طبيعة الحقيقة الخارجية وفق تكويننا العقلي الداخلي؟ أظن أنك مطّلع جيداً على كانط؟»

«نعم، مطّلع عليه جيداً. لكن ما علاقة ذلك بحالتي العقلية الحالية؟...»

«حسناً، إن ما أقصده هو أنّ عالمك فجأة، وأشير الآن إلى عالمك الداخلي، قد تشكّل الكثير منه من تجاربك الماضية، *ليس كما كنت تظن أنّه كان*، أو لقول ذلك بطريقة أخرى، دعني أستخدم عبارة قالها إدموند هوسرل، وأقول إن نيوما (*noema*) لديك قد تفجرت».

«هوسرل؟ إني أتحاشى الفلاسفة اليهود المزيّفين. وما هي *نيوما*؟»

«أنصحك يا ألفريد بأن لا تستبعد إدموند هوسرل - إنه واحد من العظماء. إن التعبير الذي وضعه «نيوما» هذا يشير إلى الشيء كما نشعر به، الشيء كما كونّاه وبنيناه بأنفسنا. فكّر مثلاً في فكرة مبنى، ثمّ فكّر في أنك تتكئ إلى مبنى وتكتشف أن المبنى ليس صلباً وأنّ جسدك يمرّ عبره. في تلك اللحظة، فإن *نيوما* المبنى لديك ينفجر - وتكتشف فجأة أن ***Lebenswelt*** (الحياة - العالم) لديك ليست كما كنت تظن».

«أحترم نصيحتك. لكن أرجو أن توضّح لي أكثر - أفهم فكرة تركيب نفرضه على العالم، لكنني لا أزال مشوّشاً حول العلاقة بيني وبين يوجين».

«حسناً، إن ما أقوله هو أنّ رأيك حول العلاقة الدائمة بينك وبين شقيقك قد تغيّرت بضربة قاصمة واحدة. فقد كنت تفكّر فيه بطريقة ما، وفجأة يتغير الماضي، قليلاً فقط، وتكتشف الآن أنّه كان ينظر

إليك أحياناً بكراهية - مع أنّ الكراهية، بالطبع، لم تكن عقلانية وعادلة».

«إذاً فأنت تقول إنني أشعر بالدوار لأن أرض ماضيّ الصلبة بدأت تميد من تحتي؟»

«تماماً. أحسنت يا ألفريد. إن عقلك مثقل لأنه مشغول كثيراً بإعادة تكوين الماضي، وهو غير قادر على أداء وظائفه الطبيعية - مثل الاعتناء بتوازنك».

أومأ ألفريد، «فريدريش، يا له من حديث ممتع ورائع. إنك تجعلني أفكّر أكثر، لكن دعني أقول إنني كنت أشعر بقليل من هذا الدوار قبل أن نبدأ حديثنا».

انتظر فريدريش بهدوء، بتوقع. كان يبدو أنه يعرف كيف ينتظر.

تردّد ألفريد وقال: «أنا لا أفضي عادة بهذا القدر من المعلومات لأحد. في الواقع، نادراً ما أتحدّث عن نفسي مع أي شخص، لكن ثمة شيئاً في شخصيتك - كيف أقول ذلك - جعلني أثق بك وأحبك».

«أما أنا، بشكل ما، شخص أحبّ العائلة، وطبعاً، فإنك تعرف جيداً أنك لا تستطيع أن تجعل الأصدقاء القدامى أصدقاء جدداً».

«أن تجعل الأصدقاء القدامى أصدقاء جدداً. . .» فكّر ألفريد للحظة، ثمّ ابتسم، وأضاف، «أفهم. في غاية الذكاء. حسناً، بدأت أشعر بالغربة اليوم - فقد وصلت البارحة من موسكو، وأشعر بالوحدة الآن. لقد تزوّجت لفترة قصيرة - أصيبت زوجتي بالسلّ، ووضعها أبوها في مصحّة في سويسرا منذ بضعة أسابيع. لكنّ الأمر يتجاوز موضوع السلّ: فلم توافق أسرتها الفاحشة الغنى عليّ وعلى فقري، وأنا متيقن بأن زواجنا القصير قد انتهى. لقد أمضينا وقتاً قصيراً معاً بل حتى لم يعد يكتب أحدنا للآخر كثيراً».

أخذ ألفريد جرعة من كأس البيرة بسرعة، ثم واصل كلامه، «عندما وصلت البارحة، كانت عمّاتي وأعمامي وأبناؤهم وبناتهم سعيدين جداً برؤيتي ورحبوا بي بحرارة. أحسست أنّني أنتمي إلى العائلة. لكن عندما استيقظت هذا الصباح، انتابني مرة أخرى شعور بالغربة والتشرّد ورحت أجوب شوارع المدينة أنظر وأنظر بحثاً عن . . . ماذا؟ أظن أنني كنت أبحث عن البيت، عن الأصدقاء، بل حتى عن الوجوه المألوفة، لكني لم أر إلّا غرباء. حتى في المدرسة الثانوية (ريلشول)، لم ألتق بأحد أعرفه سوى أستاذي المفضّل، أستاذ الفنون الذي تظاهر بأنه لا يعرفني. ثمّ، جاءت الضربة الأخيرة منذ أقل من ساعة. فقد قرّرت أن أذهب إلى حيث أنتمي حقاً، أن أتوقّف عن العيش في المنفى، وأن أعيد ارتباطي مع بني قومي وأعود إلى أرض الأجداد. عزمت على الالتحاق بالجيش الألماني، وتوجهت إلى مقر القيادة العسكرية الألمانية الكائن في الشارع المقابل. لكن السرجنت المسؤول عن التطوع في الجيش، يهودي اسمه غولدبيرغ، طردني كما يطرد حشرة. فلوّح لي بيده وقال إن الجيش الألماني للألمان، وليس لمواطني البلدان المتحاربة».

أومأ فريدريش متعاطفاً، «ربما كانت الضربة الأخيرة مباركة. ربما كنت محظوظاً لأنك أعفيت من موت لا معنى له في خنادق موحلة».

«قلتَ إنني كنتُ طفلاً جدّياً بشكل غريب، وأظن أنني لا أزال هكذا. فعلى سبيل المثال، فإني آخذ كانط على محمل الجد: وأعتبر أن التطوع في الجيش أولوية أخلاقية. فكيف سيصبح عالمنا لو أننا هجرنا جميعاً أرض الأجداد المثخنة بالجراح؟ فعندما ينادي الوطن، يجب أن يستجيب أبناؤه».

«أليس هذا غريباً»، قال فريدريش، «كيف يمكن أن نكون نحن

الألمان البلطيق ألماناً أكثر من الألمان أنفسهم. ربما كانت تتملكنا نحن الألمان النازحين نفس المشاعر القوية التي تصفها - للبيت، المكان الذي ننتمي إليه في الواقع. فنحن الألمان البلطيق نعيش في وسط وباء انعدام الجذور. تنتابني الآن مشاعر خاصة لأن أبي مات في مطلع هذا الأسبوع، لذلك جئت إلى ريفال. وأنا أيضاً لا أعرف الآن إلى أين أنتمي. فأجدادي لأمّي سويسريون، ومع ذلك فأنا لا أنتمي إلى هناك أيضاً».

«تعازيي القلبية» قال ألفريد.

«شكراً لك. في نواح عديدة، فقد عالجت الأمر بسهولة أكثر مما عالجته أنت: فقد بلغ أبي الثمانين من عمره تقريباً وعشت وجوده الصحّي الكامل طوال حياتي، ولا تزال أمّي على قيد الحياة. وأمضي وقتي هنا في مساعدتها للذهاب إلى بيت أختها. في الواقع، تركتها الآن تأخذ قيلولة ويجب أن أعود إليها بعد قليل. لكن قبل أن أغادر، أريد أن أقول إن كانت لديك مسألة عميقة وحاسمة تريدني أن أساعدك فيها، فيمكنني أن أبقى فترة أطول قليلاً إذا أردت أن تبحثها معي».

«لا أعرف كيف يمكنني أن أفعل ذلك. في الحقيقة، إن قدرتك على التحدّث عن أمور شخصية عميقة بهذه السهولة تثير دهشتي. لم أسمع أحداً يعبّر عن أفكاره الداخلية بهذه الصراحة مثلك».

«هل تريد أن أساعدك على عمل ذلك؟»

«ماذا تقصد؟»

«أقصد أن أساعدك على تحديد مشاعرك حول البيت وفهمها».

بدا ألفريد حذراً، لكنه بعد جرعة طويلة وبطيئة من كأس البيرة اللاتفية، وافق.

«جرّب هذه. افعل تماماً ما فعلته عندما نبشتُ ذكرياتي عنك

عندما كنت طفلاً. هذا هو اقتراحي: فكّر في عبارة 'لستُ في البيت'، ورددها لنفسك عدّة مرات: 'لستُ في البيت'، 'لستُ في البيت'، 'لستُ في البيت'».

بدأت شفتا ألفريد ترددان بصمت الكلمات لدقيقة أو دقيقتين، ثم هزّ رأسه وقال: «لم يأت شيء. عقلي في حالة إضراب».

«لا يدخل العقل في حالة إضراب على الإطلاق، بل إنه لا يتوقف عن العمل، لكن هناك شيئاً يحجب ما يعرفه في أحيان كثيرة. عادة ما يكون الوعي الذاتي. وفي هذه الحالة، أتصوّر أنّه وعيي الذاتي. حاول مرة أخرى. دعني أقترح عليك بأن تغمض عينيك وأن تنسى وجودي تماماً، انسَ ما سأفكّر فيه عنك، انسَ كيف يمكن أن أحكم على ما تقوله. تذكّر أنني أحاول أن أساعدك، وتذكّر أنني وعدتك بأنّ حديثنا هذا سيبقى معي فقط، حتى أنني لن أخبر يوجين به. اغمض عينيك الآن، دع أفكارك تنطلق إلى عقلك حول 'لستُ في البيت'، ثم أعطها صوتاً. فقط قل كلّ ما يخطر في بالك - ليس من الضروري أن يكون منطقياً».

أغمض ألفريد عينيه مرة أخرى، لكنه لم يقل شيئاً.

«لا أستطيع أن أسمعك. أرجو أن ترفع صوتك قليلاً».

بدأ ألفريد يقول بصوت خفيض: «لستُ في البيت. لستُ في أي مكان. لستُ مع العمّة كاسيلي أو مع العمّة ليديا... لا يوجد مكان لي، لا في المدرسة، لا مع الصبية الآخرين، لا في عائلة زوجتي، لا في الهندسة المعمارية، لا في الهندسة، لا في إستونيا، لا في روسيا... الأمّ روسيا، يا لها من نكتة...»

«جيد، جيد - تابع»، حثّه فريدريش.

«دائماً في الخارج، أنظر إلى الداخل، أريد دائماً أن أريهم...» صمت ألفريد، فتح عينيه، ثم قال فجأة: «لا شيء آخر».

«قلتَ إنك ستريهم. ستُري من يا ألفريد؟»

«كلّ الذين سخروا مني. في الحيّ، في المدرسة، في معهد البوليتكنيك، في كل مكان».

«وكيف ستريهم يا ألفريد؟ ابق في حالتك العقلية المنطلقة. ليس من الضروري أن تكون منطقياً».

«لا أعرف. بطريقة ما سأجعلهم يلاحظون وجودي».

«إذا لاحظوك، هل ستكون في البيت إذاً؟»

«البيت غير موجود. هل هذا ما تحاول أن تقوله لي؟»

«لا توجد لديّ خطة مسبقة، لكن لديّ فكرة الآن. إنه مجرد تخمين، لكنّي أتساءل إن كنت تستطيع أن تكون في البيت في أي مكان، لأن البيت ليس مكاناً، وإنما هو حالة عقلية. إن وجودك حقاً في البيت هو أن تشعر بأنك في البيت داخل جلدك، وألفريد، لا أظن أنك تشعر بأنك في البيت في جلدك. ربما لم تشعر بذلك قط. ربما كنت تبحث عن البيت في المكان الخاطئ طوال حياتك».

بدا ألفريد مصعوقاً. ارتخى فكّه، عيناه مثبّتتان على فريدريش، وقال: «كلماتك تصعد مباشرة إلى قلبي. كيف يصادف أنك تعرف هذه الأشياء، هذه الأشياء الرائعة؟ قلت إنك فيلسوف. هل هذا يأتي لأنك فيلسوف؟ يجب أن أقرأ هذه الفلسفة».

«أنا مجرد هاو. مثلك تماماً، كنت أحبّ أن أمضي حياتي في الفلسفة، لكن يجب أن أكسب رزقي. دخلت كلية الطب في زيوريخ وتعلّمت الكثير عن مساعدة الآخرين في التحدّث عن الأمور الصعبة، والآن». نهض فريدريش من مقعده، وقال: «يجب أن أتركك. أمّي تنتظرني، ويجب أن أعود إلى زيوريخ بعد غد».

«للأسف. لقد تعلمت أشياء كثيرة منك، وأشعر كأننا بدأنا للتو.

ألا يوجد لديك وقت حتى نتابع مناقشتنا قبل أن تغادر إلى ريفال؟»

«عندي يوم غد فقط. تأخذ أمّي عادة قيلولتها بعد الظهر. ربما في نفس الوقت؟ هل نلتقي هنا؟»

أمسك ألفريد نفسه عن الطمع أكثر ورغبته في أن يقول: «نعم، نعم». فأحنى رأسه كما ينبغي، وقال: «إني أتطلّع إلى هذا اللقاء».

الفصل الحادي عشر

أمستردام - ١٦٥٦

في مساء اليوم التالي في أكاديمية فان دن إندن، توقفت كلارا ماريا عن إعطائها درس اللغة اللاتينية عندما دخل أبوها، وانحنى بشكل رسمي لابنته، وقال، «أرجو أن تعذريني، مدموزيل فان دن إندن، على تطفّلي. لكن يجب أن أقول كلمة للسيّد سبينوزا»، والتفت نحو بنتو وقال: «أرجو أن تأتي إلى القاعة الكبيرة المقنطرة بعد ساعة للمشاركة في درس اللغة اليونانية الذي سنناقش فيه بعض نصوص أرسطو وأبيقور. ومع أنك لا تزال مبتدئاً في تعلّم اللغة اليونانية، يوجد لدى هذان السيدان المبجلان أشياء مهمة يريدان أن يقولاها لك»، ثم التفت إلى ديرك، وقال: «أعرف أنّك لست مهتماً كثيراً باللغة اليونانية لأنها لم تعد، للأسف، متطلباً رئيسياً للقبول في كليّة الطب، لكن قد تجد أن بعض جوانب هذه المناقشة مفيدة في معالجتك للمرضى في المستقبل».

انحنى فان دن إندن مرة أخرى لابنته، وقال: «والآن، مدموزيل، سأتركك لتستمري في وضع خطواتهما الأولى على أعتاب اللغة اللاتينية».

تابعت كلارا ماريا قراءة بعض الفقرات القصيرة من كتاب

شيشرون التي تناوب بنتو وديرك على ترجمتها إلى اللغة الهولندية. ونقرت كلارا ماريا مرات عديدة بمسطرتها على المنضدة لتنبّه بنتو الشارد الذهن الذي لم يكن يركّز انتباهه على شيشرون، وإنما كان يركّز على حركات شفتيها الجميلة وهي تلفظ حرفيْ *m* و *p* في كلمات *multa* و *pater* و *puer*، وكان أروعها جميعاً كلمة *praestantissimum*.

«أين هو تركيزك اليوم يا بنتو سبينوزا؟» سألته كلارا ماريا ذات الثلاثة عشر ربيعاً وهي تحاول بصعوبة أن ترسم على وجهها الجميل الذي يشبه إجاصة، تقطيبة صارمة.

«آسف، لقد سرحت في أفكاري للحظة، ، آنسة فان دن إندن».

«لا شكّ أنك تفكّر في درس أبي باللغة اليونانية؟»

«لا شكّ في ذلك»، قال بنتو الذي كان يفكّر في الابنة أكثر بكثير مما يفكّر في الأب. وظلت كلمات جاكوب الغاضبة التي قالها منذ ساعات قليلة تدور في خلده أيضاً والتي تنبأ فيها بأنه سيعيش وحيداً وفي عزلة. كان جاكوب شاباً متعنتاً، متشبثاً برأيه كثيراً، مغلق الذهن، ومخطئاً في أمور كثيرة، لكنه كان محقّاً في هذا الأمر: فقد كان بنتو يعرف جيداً أنه لا يمكن أن تكون لديه زوجة -أو أسرة، أو طائفة. فقد كان عقله يقول له إن الحرية يجب أن تكون غايته، وأنّ سعيه إلى تحرير نفسه من قيود الطائفة اليهودية التي تؤمن بالخرافات سيكون شيئاً تافهاً إذا استبدله بقيود الزوجة والأسرة. فالحرية حصنه الوحيد، الحرية في أن يفكّر ويحلل، وفي أن يدوّن الأفكار المدوّية التي يتردّد صداها في رأسه. لكن تجاهل شفتي كلارا ماريا الرائعتين كان أمراً في غاية الصعوبة.

بدأ فان دن إندن مناقشته في درس اللغة اليونانية بعبارة «*Eudaimonia*، دعونا ندرس الجذرين: *eu*؟» كوّر إندن يده حول

أذنه وانتظر. صاح الطلاب بخجل «جيد»، «طبيعي»، «لطيف». هزّ فان دن إندن رأسه وكرّر نفس التمرين بكلمة *daimon*، فسمع أصواتاً أكثر حيوية «روح»، «عفريت»، «إله ثانوي»».

«نعم، نعم، ونعم. كلّها صحيحة لكنها إذا اقترنت بـ *eu* فإن المعنى يتحوّل إلى 'حسن الحظ'، وهكذا فإن *eudaimonia* تعني عادة 'رخاء' أو 'سعادة' أو 'ازدهار'. هل هذه الكلمات الثلاث مرادفات؟ تبدو للوهلة الأولى أنها هكذا، لكن في الواقع، جادل فلاسفة كثيرون بأنه توجد ظلال فروق في المعنى في ما بينها. هل *eudaimonia* حالة عقلية؟ أسلوب حياة؟» ودون أن ينتظر أي ردّ، أضاف فان دن إندن، «أم أنها مجرد متعة تلذّذية مطلقة؟ أم يمكن ربطها بمفهوم *arete* التي تعني؟» وكوّر يده حول أذنه مرة أخرى وانتظر حتى صاح طالبان في وقت واحد «فضيلة».

«نعم، تماماً، ويدمج العديد من الفلاسفة اليونانيين القدماء الفضيلة في مفهوم *eudaimonia*، التي ربما ترفعها من الحالة الذاتية للشعور بالسعادة إلى مرتبة أعظم من العيش حياة أخلاقية مستقيمة، مرغوبة. وكان لدى سقراط مشاعر قوية إزاء ذلك. لا بد أنكم تتذكّرون قراءتكم الأسبوع الماضي *أبولوجيا أفلاطون* عندما يدنو من رجل أثيني ويثير مسألة *arete* بهذه الكلمات...». هنا اتخذ فان دن إندن وضعية مسرحيّة وراح يقرأ أفلاطون باليونانية، ثم بدأ يترجم ببطء النصّ إلى اللغة اللاتينية من أجل ديرك وبنتو: «ألا تخجل من اندفاعك لامتلاك أكبر قدر ممكن من الثروة والسمعة والتبجيل، ولا تعر أي اهتمام للحكمة أو للحقيقة أو بأفضل حالة ممكنة لروحك، أو تكترث لها؟»

«الآن، تذكّروا أنّ أعمال أفلاطون المبكرة تعكس أفكار معلّمه سقراط، لكننا نرى في أعماله اللاحقة، مثل «*الجمهورية*»، بدء ظهور

أفكار أفلاطون الخاصة التي تؤكّد على معايير مطلقة للعدالة والفضائل الأخرى في العالم الميتافيزيقي. ما هي فكرة أفلاطون حول هدفنا الرئيسي في الحياة؟ إنها تكمن في بلوغ أسمى أشكال المعرفة، وهذه، في رأيه، هي فكرة 'الخير' التي يُستمد منه جميع القيم الأخرى. عندها فقط، يقول أفلاطون، يمكننا بلوغ *eudemonia* - التي هي في رأيه، *حالة انسجام الروح*. دعوني أكرر هذه العبارة: '*انسجام الروح*'. من المفيد أن تتذكّروها، فقد تساعدكم كثيراً في حياتكم.

«الآن دعونا ننتقل إلى الفيلسوف العظيم الآخر، أرسطو الذي درس مع أفلاطون ربما لمدة عشرين سنة. *عشرون* سنة. تذكّروا ذلك، هؤلاء من بينكم الذين تذمروا من أن منهاجي صعب جداً وطويل جداً.

«في أجزاء من كتاب *الأخلاق النيقوماخية* الذي ستقروأنه هذا الأسبوع، سترون أنه كانت لدى أرسطو أيضاً آراء قوية عن الحياة الجيدة. وكان متأكّداً من أنها لا تتضمن المتعة الحسّية أو الشهرة أو الثروة. ما غرضنا في الحياة برأي أرسطو؟ إنه يرى أنّه يتمثل في *تحقيق أعمق وظيفة متميزة في أعماقنا*. ويسأل «ما الشيء الذي يبعدنا عن أشكال الحياة الأخرى؟ إني أطرح عليكم هذا السؤال».

لم تأتِ أجوبة فورية من الطلاب. وأخيراً قال أحدهم: «نستطيع أن نضحك، لكن الحيوانات الأخرى لا تستطيع ذلك»، فصدرت من زملائه بعض الضحكات الخافتة.

وقال آخر: «نمشي على ساقين».

فقال فان دن إندن: «نضحك ونمشي على ساقين - هل هذا هو أفضل ما عندكم؟ إن أجوبة غبية كهذه تسفّه هذه المناقشة وتجعلها تبدو تافهة. فكّروا! ما هي السمة الرئيسية التي تميّزنا عن أشكال

الحياة الأدنى؟» واستدار فجأة نحو بنتو وقال: «أوجّه هذا السؤال لك يا بنتو سبينوزا».

من دون أي لحظة تفكير، قال بنتو: «أرى أنها قدرتنا الفريدة على التفكير».

«تماماً. لذلك قال أرسطو إنّ أسعد إنسان هو الذي يتمكن من تحقيق هذه الوظيفة بالذات».

«إذاً فإن أسمى مسعى وأكثره سعادة هو أن يكون المرء فيلسوفاً؟» سأل ألفونس، أذكى طالب في دروس اللغة اليونانية الذي بدا متوتراً من ردّ بنتو السريع. «ألا يبدو ذلك أنه يخدم مصالح ذاتية عندما يصدر ذلك من لسان فيلسوف؟»

«نعم، يا ألفونس، ولست أنت أول مفكّر يتوصّل إلى هذا الاستنتاج. وهذه الملاحظة بالذات تنقلنا إلى أبيقور، وهو مفكّر يوناني مهم آخر له آراء مختلفة جذرياً حول *eudemonia* وعن رسالة الفيلسوف. فعندما ستقروأن عن أبيقور بعد حوالي أسبوعين، سترون أنه هو أيضاً، تحدّث عن الحياة الجيدة لكنه استخدم كلمة مختلفة تماماً. فهو يتحدّث كثيراً عن *ataraxia*، التي تُترجم...»، مرة أخرى كوّر فان دن إندن يده حول أذنه.

فصاح ألفونس على الفور «*الطمأنينة*»، وسرعان ما أضاف آخرون «الهدوء» و «راحة البال».

«نعم، نعم، ونعم»، قال فان دن إندن، الذي بدأ يشعر بسعادة أكبر من مشاركة طلابه، «بالنسبة لأبيقور، فإن *ataraxia* هي السعادة الحقيقية الوحيدة. وكيف يمكننا أن نتوصل إليها؟ لا من خلال *انسجام الروح* لدى أفلاطون، ولا من خلال العقل استناداً إلى أرسطو، وإنما ببساطة من خلال التخلص من *القلق أو الجزع*. فلو

كان أبيقور يحدّثكم الآن، لحثّكم على تبسيط الحياة. كان سيقولها بهذه الطريقة لو كان يقف هنا اليوم».

تنحنح فان دن إندن ثم بدأ يتحدّث بأسلوب معلّم: «أبنائي، إن احتياجاتكم قليلة، يسهل عليكم الحصول عليها، وتستطيعون بكل سهولة أن تتحمّلوا أيّ معاناة ضرورية، فلا تعقّدوا حياتكم بالسعي وراء تحقيق هذه الأهداف التافهة مثل جمع الثروات وتحقيق الشهرة لأنها من أعداء *ataraxia* (الطمأنينة). فالشهرة مثلاً تنطوي على آراء الآخرين بنا، وتقتضي أننا يجب أن نعيش حياتنا كما يرغب الآخرون. ولكي نحقق الشهرة ونحافظ عليها، يجب أن نحبّ ما يحبّه الآخرون، ونتجنّب كلّ ما يريدنا الآخرون أن نتجنّبه. وماذا عن حياة الشهرة أو الحياة في السياسة؟ اهربوا منها. وماذا عن الثروة؟ تجنّبوها! فهي فخّ. فكلّما كسبنا أكثر، ازدادت شهوتنا لنكسب المزيد، وإذا لم تتحقق شهوتنا تلك يزداد حزننا عمقاً. أبنائي، استمعوا إليّ: إذا كنتم تتوقون إلى السعادة، لا تهدروا حياتكم في السعي للحصول على شيء لستم بحاجة إليه فعلاً».

«والآن»، تابع فان دن إندن، وقد عاد إلى التكلم بصوته الطبيعي، «لاحظوا الفرق بين أبيقور والفلاسفة الذين سبقوه. إذ يرى أبيقور أن أعظم شيء في الحياة هو بلوغ مرحلة الطمأنينة، الـ *ataraxia* وذلك بالتحرر من جميع أشكال وأنواع القلق. الآن، هل لديكم أي تعليقات أو أسئلة؟ آه، نعم، سيّد سبينوزا. سؤال؟»

«هل يقترح أبيقور منهجاً سلبياً فقط؟ أقصد، هل يقول إن التخلص من الكرب والحزن هو كلّ ما نحتاج إليه، وإن الإنسان من دون قلق خارجي هو إنسان مثالي، صالح، سعيد، طبيعي؟ ألا توجد أمور إيجابية يجب أن نكافح من أجلها؟»

«سؤال ممتاز. والقراءات التي اخترتها لكم ستوضح ردّه.

لحسن الحظ، لن تنتظر يا سيّد سبينوزا كثيراً حتى تتقن اللغة اليونانية، لأنه سيكون باستطاعتك أن تقرأ أفكار أبيقور باللاتينية التي كتبها الشاعر الروماني لوكريتيوس الذي عاش بعده بمئتي سنة تقريباً. سأختار لك الصفحات المناسبة لاحقاً. أردت اليوم أن أتطرق فقط إلى الفكرة المركزية التي تميّزه عن الآخرين وهي أن الحياة الجيدة تتحقق من خلال التخلص من القلق والخوف. لكن بقراءة خفيفة ستلاحظ أنّ أفكار أبيقور معقدة أكثر مما تبدو بكثير. فهو يشجّع على المعرفة، وعلى الصداقة، وعلى سلوك حياة مستقيمة ومعتدلة. نعم، يا ديرك، هل لديك سؤال؟ يبدو أن طلابي الذين يدرسون اللاتينية أكثر فضولاً حول الإغريق من طلابي الذين يدرسون اللغة اليونانية».

فقال ديرك: «أعرف حانة في هامبورغ تُدعى *'البهجة الأبقيورية'*، *وهذا* يعني أن النبيذ والبيرة هما جزء من حياته الجيدة؟»

«إني أنتظر هذا السؤال - كنت متيقناً من أن أحداً سيسأله. إذ يستخدم الكثير من الناس اسمه خطأً للإشارة إلى الطعام أو النبيذ اللذيذين. لو عرف أبيقور ذلك، لأصيب بالدهشة. يخيّل إليّ أنّ هذا الخطأ الغريب ناجم عن ماديته الصارمة، فهو يؤمن بعدم وجود حياة أخرى بعد الموت، وبما أنه لا توجد لدينا إلّا الحياة التي نعيشها، علينا أن نبذل كل ما بوسعنا لنحصل على السعادة الدنيوية. لكن لا تخطئوا في الاستنتاج أنّ أبيقور يقول إنّ علينا أن نمضي حياتنا في التمرّغ في الأعمال الحسّية أو الشهوانية. بالتأكيد لا - فقد عاش ودعا إلى العيش حياة زاهدة تقريباً. أكرّر: كان يؤمن بأنه يمكننا أن نحقّق أقصى درجات المتعة بالتقليل من الألم والحزن إلى أدنى حد ممكن. ويتمثّل أحد استنتاجاته الرئيسية في أن الخوف من الموت هو مصدر ألمنا الأساسي، وأمضى معظم سنوات حياته في البحث عن

سبل وطرائق فلسفية للتقليل من حدة خوفنا من الموت. هل توجد أسئلة أخرى، رجاء؟»

«هل يذكر تقديم الخدمات إلى الآخرين وإلى المجتمع أو إلى الحبّ؟» سأل ديرك.

«سؤال صائب من شخص سيصبح طبيباً. وستكون مهتمّاً عندما تعرف أنّه كان يُعتبر نفسه فيلسوفاً طبيباً، يعالج أمراض الروح تماماً كما يعالج الطبيب أمراض الجسد. فقد قال ذات مرة الفلسفة التي لا تستطيع شفاء الروح ذات قيمة ضئيلة كالدواء الذي لا يستطيع شفاء الجسد. وقد ذكرت للتو بعض أمراض الروح الناجمة عن السعي وراء الشهرة والسلطة والثروة والشهوة الجنسية، لكنّها أمراض ثانوية. إنّ بهيموث القلق الذي يشمل جميع أشكال القلق الأخرى ويغذّيها هو الخوف من الموت والحياة بعد الموت. في الواقع، فإن أحد المبادئ الأولى في 'التعليم عن طريق السؤال والجواب' الذي كان على طلابه أن يتعلّموه هو أنّنا فانون، سنموت، وأنه لا توجد حياة بعد الموت، لذلك لا يوجد ثمة شيء يجعلنا نخاف من الآلهة بعد الموت. ستقرؤون المزيد عن ذلك في *لوكريتيوس* بعد فترة قصيرة. ديرك، لقد نسيتُ الجزء الآخر من سؤالك».

فقال ديرك: «بداية يجب أن أقول إنني لا أعرف معنى كلمة 'بهيموث'».

«سؤال وجيه. من منكم يعرف معنى هذه الكلمة؟» فرفع بنتو فقط يده.

«السيد سبينوزا، هيا قل لنا».

فقال بنتو: «وحش بشع. إنها تأتي من اللغة العبرية *b'hëmāh* ترد في سِفْر التكوين وفي سِفْر أيوب أيضاً».

«أيوب، إيه. لم أكن أعرف ذلك. شكراً. الآن، لنعد إلى سؤالك يا ديرك».

«لقد سألتُ عن الحبّ وعن خدمة المجتمع».

«حسب علمي، فإن أبيقور لم يتزوّج لكنه كان يؤمن بالزواج وبالأسرة بالنسبة للبعض - أولئك المستعدين لتحمّل المسؤولية. لكنّه كان يعارض بقوة الحبّ اللاعقلاني المشبوب العاطفة الذي يجعل الحبيب عبداً ويفضي في النهاية إلى معاناة أكثر مما يفضي إلى المتعة والبهجة. ويقول ما إن ينتهي الافتتان الشهواني، حتى يبدأ الحبيب يعاني من السأم أو من الغيرة أو من كليهما. لكنّه أعطى أهمية كبيرة للحبّ الأسمى، حبّ الأصدقاء الذي يوقظنا ويوصلنا إلى حالة من النعمة والسعادة. ومن المهم أن نعرف أنّه كان شاملاً وأنه عالج كلّ الأرواح البشرية بقدر متساو: فمدرسته هي المدرسة الوحيدة في أثينا التي كانت ترحّب بالنساء وبالرقيق.

«أما سؤالك عن الخدمة يا ديرك فهو مهم. فقد كان يرى أننا يجب أن نعيش حياة هادئة، منعزلة، وأن نتجنب تحمّل المسؤوليات العامة، وشغل مناصب، أو أيّ نوع آخر من المسؤولية التي قد تهدّد شعورنا بالطمأنينة».

«لم أسمع شيئاً عن الدين»، قال إدوارد، الطالب الكاثوليكي، الذي كان عمّه أسقف مدينة أنتويرب، «فقد سمعت عن حبّ الأصدقاء لكني لم أسمع شيئاً عن حبّ اللّه أو عن هدف اللّه لبلوغ السعادة».

«لقد وضعت إصبعك على نقطة هامة يا إدوارد. إذ يُعتبر أبيقور صادماً لقرّاء اليوم لأن وصفته لبلوغ السعادة لا تولي اهتماماً كبيراً بالإلهي وبالديني. فقد كان يؤمن بأنّ السعادة تنبثق من عقلنا فقط، ولم يكن يعلق أي أهمية على علاقتنا بعالم ما وراء الطبيعة».

فسأل إدوارد، «هل تعني أنه كان ينكر وجود اللّه؟»

فأجاب فان دن إندن، «تقصد *آلهة* بالجمع؟ إدوارد، تذكّر الفترة الزمنية التي كان يعيش فيها. كان يعيش في القرن الرابع قبل الميلاد، وكانت الثقافة اليونانية، شأن جميع الثقافات المبكرة، باستثناء العبرانيين، تؤمن بآلهة عديدة».

هزّ إدوارد رأسه وأعاد صياغة سؤاله: «هل كان أبيقور ينكر الرب؟»

«لا، كان شجاعاً، لكنه لم يكن متهوّراً. فقد ولد بعد أن أُعدم سقراط بستّين سنة تقريباً بتهمة الهرطقة، وكان يعرف أنّ عدم الإيمان بالآلهة سيّئ على صحة المرء. فأخذ موقفاً آمناً أكثر وقال إن الآلهة موجودة، وهي تعيش سعيدة فوق جبل أوليمبوس، لكنها لا تبالي بحياة البشر».

فسأل إدوارد، «لكن أيّ نوع من الرب ذاك؟ كيف يمكن أن يتخيّل المرء أنّ اللّه لا يريدنا أن نعيش بحسب مشيئته؟ فلا يمكن تخيّل أن اللّه الذي ضحّى بابنه من أجلنا لا يريد أن نعيش حياة مقدّسة محددة».

فتدخّل بنتو وقال: «توجد مفاهيم كثيرة عن الآلهة التي اخترعتها ثقافات عديدة».

«لكني أعرف بيقين شديد أنّ المسيح، إلهنا، يحبّنا ولديه مكان لنا في قلبه وهدف من أجلنا»، قال إدوارد، ونظر إلى الأعلى.

فردّ بنتو بحدّة «لا علاقة لقوّة الإيمان بمدى صدقيته، إذ يوجد لكلّ إله أناس يؤمنون به بعمق وبقوة».

فقاطعهما فان دن إندن، «أيها السادة، أيها السادة، لنؤجّل هذه المناقشة حتى نقرأ النصوص ونفهمها حق الفهم. لكن دعني أقول لك، يا إدوارد، إن أبيقور لم يتطاول على الآلهة: بل أدمجهم في

فكرته عن الطمأنينة (*ataraxia*) وحثّنا على إبقاء الآلهة بالقرب من قلوبنا وذلك بمحاكاتهم واستخدامهم كنماذج لعيش حياة مليئة بالطمأنينة والسعادة. والأكثر من ذلك، بغية تجنب الاضطراب» - هنا ألقى فان دن إندن نظرة نحو بنتو - «فقد نصح أتباعه بقوة بالمشاركة بهدوء وصفاء في جميع النشاطات الاجتماعية، بما فيها ممارسة الطقوس الدينية».

فقال إدوارد بانفعال: «لكن الصلاة لتفادي الاضطراب فقط ممارسة كاذبة وتنطوي على نفاق».

«أبدى الكثيرون هذا الرأي يا إدوارد، لكن بالرغم من ذلك، قال أبيقور أيضاً إنّ علينا أن نكرّم الآلهة باعتبارها كائنات مثالية. فضلاً عن أننا نستمدّ متعة جمالية من تأمّل وجودها المثالي. لقد تأخر الوقت أيها السادة. كانت جميع الأسئلة المطروحة ممتازة، وسنبحث في كلّ سؤال منها عندما نقرأ أعماله».

انتهى اليوم بأن تبادل بنتو ومعلميه الأدوار. فقد أعطى درساً باللغة العبرية لكل من الأب وابنته لمدة نصف ساعة، ثم طلب منه فان دن إندن أن يمكث قليلاً من أجل حديث خاصّ بينهما.

«هل تتذكر حديثنا عندما التقينا لأول مرة؟»

«أتذكّره جيداً، وقلت إنك ستعرّفني على أشخاص لهم ميول وأفكار متشابهة».

«لا ريب أنك لاحظت أنّ بعض تعليقات أبيقور تشبه إلى حد كبير المحنة التي تمرّ بها مع أبناء طائفتك».

«تساءلت عمّا إذا كنت قد وجّهت بعض تعليقاته عن المشاركة بهدوء وصفاء في الطقوس الدينية للمجتمع إليّ».

«تماماً. وهل أصابت هدفها؟»

«تقريباً، لكنّها كانت مثقلة بالتناقض الذاتي فلم تصب هدفها تماماً».

«كيف ذلك؟»

«لا أستطيع أن أتخيّل أن الطمأنينة قد تنمو في تربة من النفاق».

«أظن أنك تشير إلى نصيحة أبيقور التي يقول فيها إن المرء يستطيع أن يفعل أيّ شيء ضروري كي يصبح منسجماً ومتوافقاً مع أبناء مجتمعه بما في ذلك مشاركتهم في صلواتهم وطقوسهم».

«نعم، فأنا أعتبر ذلك نفاقاً. حتى إدوارد ردّ على ذلك. كيف يمكن أن يكون هناك انسجام داخلي إذا لم يكن المرء صادقاً مع نفسه؟»

«أردت أن أحدّثك على انفراد بشأن إدوارد. كيف ترى كان شعوره بمناقشتنا ورأيه بك؟»

متفاجئاً من هذا السؤال، صمت بنتو ثم قال: «لا أعرف جواب ذلك».

«أسألك عن رأيك به».

«حسناً، إنه غير سعيد بوجودي. أظن أنه غاضب. ربما كان يشعر بالتهديد».

«نعم، حدس في محله. متوقّع جداً، أستطيع أن أقول. الآن أجبني عن هذا السؤال. هل هذا ما تريد؟»

هزّ بنتو رأسه.

«وهل سيظن أبيقور أنّك تصرّفت بطريقة تفضي إلى حياة جيدة؟»

«يجب أن أوافق على أنّه لا يظن ذلك. لكني أظن في هذه اللحظة أنّني تصرّفت بحكمة عندما لم أتحدّث عن أشياء أخرى».

«مثل؟»

«أن اللّه لم يجعلنا على صورته - بل نحن الذين جعلناه على

صورتنا. إننا نتخيّل أنّه كائن مثلنا، يسمع همهمات صلواتنا ويهتم بأمنياتنا...».

«يا إلهي! إن كان هذا ما قلته تقريباً، فإني أفهم قصدك. لنقل إذاً إنك لم تتصرّف بحكمة، لكن ليس بحماقة تامة. إدوارد كاثوليكي متعصب، وكان عمّه أسقفاً كاثوليكياً. وتوقّع أن يتخلى عن معتقداته بسبب بضعة تعليقات، حتى لو كانت عقلانية، أمر لاعقلاني تماماً، بل ربما خطير. وتُعرف أمستردام بأنها أكثر المدن تسامحاً في أوروبا في وقتنا الحالي، لكن تذكّر أن عبارة 'متسامحة' - تعني أننا كلّنا نتسامح مع معتقدات الآخرين على الرغم من أننا نعتبر أنها غير عقلانية».

فقال بنتو: «بدأت تزداد قناعتي بأنه إذا عاش المرء بين أشخاص لهم معتقدات مختلفة، فلن يستطيع أن يتكيّف معهم إذا لم يغيّر نفسه كثيراً».

«بدأت الآن أفهم تقرير جاسوسي بحدوث اضطراب بشأنك بين أبناء الطائفة اليهودية. هل تفضي بجميع آرائك وأفكارك لليهود الآخرين؟»

«خلال تأملاتي قبل سنة تقريباً، قررت أن أكون صادقاً دائماً».

«آه»، قاطعه فان دن إندن، «الآن فهمت لماذا أعمالك التجارية لا تسير بشكل جيد. فالتاجر الذي يقول الصدق يدعى *Oxymoron*»

هزّ بنتو رأسه، وكرر: «*Oxymoron*»

«من اليونانية: *oxys* وتعني حادّ، و *moros* وتعني أحمق. لذلك فإن *oxymoron* تشير إلى تناقض داخلي. تخيّل ماذا يمكن أن يحدث لو قال تاجر الحقيقة لزبونه: 'أرجو أن تشتري هذا النوع من الزبيب - وإذا اشتريته فإنك تسدي إليّ معروفاً عظيماً. فقد مضى عليها في

المحل عدة سنوات وذبلت، ويجب أن أتخلّص منها قبل أن تصل شحنة الزبيب الجديد، الغضّ، الأسبوع المقبل'».

عندما لم يظهر أي أثر لابتسامة على وجه بنتو، تذكّر فان دن إندن شيئاً يعرفه جيداً وهو أن بنتو سبينوزا لا يتمتع بروح الدعابة. فعاد إلى حديثه وقال: «لكني لا أقصد أن أستخف بالأشياء الجدّية التي تقولها لي».

«سألتَ عن تكتمي بين أبناء طائفتي. فلم أبح بآرائي لأحد إلّا لأخي وإلى هذين الشابين الغريبين اللذين جاءا من البرتغال والتمسا نصيحتي. في الحقيقة، فقد رأيتهما منذ ساعات قليلة، ولكي أكون مفيداً لأحدهما الذي قال إنه يمرّ بأزمة روحية، لم أتمالك نفسي عن إبداء رأيي بالمعتقدات الخرافية، وقرأت لهما بضع فقرات من التوراة باللغة العبرية، وانتقدتها. ومنذ أن أزلت ذلك العبء عن كاهلي شعرت بما سمّيته أنت 'بالانسجام الداخلي'».

«يبدو كأنك تخنق نفسك منذ أمد بعيد».

«ليس بما يكفي بالنسبة لأفراد أسرتي أو لحاخامي المستاء مني تماماً. إني أتطلع إلى أناس لا يكونون عبيداً لمعتقدات زائفة».

«لو بحثت في العالم كلّه فلن تجد قوماً أو ديناً لا يؤمن بالخرافات، فما دام هناك جهل، فإن البعض سيتمسّكون بالخرافات. إن التخلص من الجهل هو الحلّ الوحيد، ولهذا السبب فإني أعلّم».

فأجاب بنتو، «أشعر أنّها معركة خاسرة. فالجهل والإيمان بالخرافات ينتشران كالنار في الهشيم، وأعتقد أنّ رجال الدين يغذّون هذه النار ليضمنوا مراكزهم».

«إن هذه كلمات خطيرة. كلمات تفوق سنوات عمرك. مرة أخرى، أقول لك إنّ التكتّم مطلوب للبقاء في أيّ طائفة».

«أصبحت على قناعة بأنني يجب أن أكون حرّاً. وإذا لم تكن تلك الطائفة موجودة، فعليّ إذاً أن أعيش من دون طائفة».

«تذكّر ما قلته عن *caute*. فإذا لم تتوخَّ الحذر، فقد تذهب جميع أمنياتك، وربما مخاوفك، أدراج الرياح».

فأجاب بنتو، «لم يعد ذلك أمراً محتملاً. أظن أنني بدأت ذلك للتو».

الفصل الثاني عشر

إستونيا - ١٩١٨

بعد يوم من لقائهما الأول، وصل ألفريد إلى حانة البيرة في وقت مبكر وجلس وعيناه مصوبتان نحو المدخل إلى أن رأى فريدريش. قفز واقفاً على قدميه ليرحب به، وقال: «فريدريش، يسعدني أن أراك مرة أخرى. شكراً لأنك خصصت لي جزءاً من وقتك».

بعد أن تناولا كأسي بيرتهما من على النضد، عادا وجلسا إلى نفس الطاولة الهادئة عند الزاوية. بدأ ألفريد الذي حرص على ألّا يكون بؤرة الاهتمام مرة أخرى في حديثهما، بالقول: «كيف حالك وكيف حال أمّك؟»

«لا تزال أمّي تعيش في وقع الصدمة، فهي لا تزال تحاول أن تفهم أنّ أبي ذهب من الوجود. وفي بعض الأحيان يبدو أنها تنسى أنه ذهب إلى غير رجعة. وخيّل إليها مرّتين أنّها رأته بين جمع من الناس خارج البيت. إنه النكران في أحلامها يا ألفريد - أمر استثنائي! فعندما استيقظت هذا الصباح، قالت إنها تجد صعوبة في فتح عينيها: فقد كانت سعيدة جداً وهي تحلم بأنها تمشي وتكلّم أبي إلى حدّ أنها أصبحت تكره أن تستيقظ لكي لا تعود إلى الواقع مرة أخرى وتعرف أنه لا يزال ميتاً».

وتابع فريدريش كلامه، «أما أنا، فإني أحارب على جبهتين، تماماً كما يفعل الجيش الألماني. فلا يتعين عليّ أن أتصدّى لحقيقة موته فحسب، وإنما عليّ أيضاً أن أساعد أمّي خلال هذه الفترة القصيرة التي سأمكث فيها هنا، وهذا أمر شائك».

فسأله ألفريد، «ماذا تقصد 'بشائك'؟»

«لكي تساعد أحداً، أظن أنّك يجب أن تلج إلى عالم ذلك الشخص. لكني كلما حاولت أن أفعل ذلك مع أمّي، عقلي يحلّق بعيداً، وبعد دقيقة أو دقيقتين أجد نفسي فجأة أفكّر في شيء مختلف تماماً. فمنذ قليل، كانت أمّي تبكي، وعندما ضممتها إليّ لأواسيها، لاحظت كيف أن أفكاري شردت ورحت أفكّر في لقائي معك اليوم. للحظة أحسست بالذنب، ثمّ ذكّرت نفسي بأنني بشر، ويكمن في نفوس البشر ميل نحو الشرود الوقائي. إني أفكّر ملياً في السبب الذي يجعلني لا أستطيع أن أبقي تفكيري مركّزاً على وفاة أبي. يخيّل إليّ أن مرد ذلك إلى أنه يضعني وجهاً لوجه أمام موتي، وأن التفكير في هذه الاحتمالية يخيفني. لا أستطيع أن أفكّر في أي تفسير آخر. ما رأيك؟» صمت فريدريش والتفت لينظر إلى عيني ألفريد مباشرة.

«لا أعرف شيئاً عن الأمور التي تتكلم عنها، لكن استنتاجك يبدو معقولاً. وأنا أيضاً، لا أترك نفسي أبداً أفكّر في الموت بعمق. فقد كنت أكره عندما كان أبي يصرّ على أن أرافقه لزيارة قبر أمّي».

صمت فريدريش حتى تأكد أن ألفريد لا ينوي أن يضيف شيئاً، فقال: «إذاً يا ألفريد، هذا ردّ طويل جداً على سؤالك المهذّب عن أحوالي، لكن كما ترى، فأنا أحبّ كثيراً ملاحظة مكائد العقل هذه ومناقشتها. هل أعطيتك رداً شخصياً أكثر مما كنتَ تتوقّع أو ترغب؟»

«إنه ردّ على سؤالي أطول مما توقّعت، لكنّه ردّ حقيقي، عميق،

وصادق. إني معجب بالطريقة التي تتحاشى فيها السطحية - إلى أي حدّ مستعد للبوح بأرائك لي بصدق وبتلقائية».

«وأنت أيضاً يا ألفريد، لقد سبرت أعماق نفسك في حديثنا البارحة. هل جرت أيّ تأثيرات لاحقة؟»

«أعترف بأنّني شعرت بعدم الارتياح: وإني لا أزال أحاول أن أفهم حديثنا».

«أيّ جزء منه لم يكن واضحاً؟»

«لا أشير إلى وضوح الأفكار وإنما إلى الإحساس الغريب الذي تملّكني عندما كنت أتحدّث إليك. أقصد أننا تحدّثنا لفترة قصيرة - ماذا، ربما ثلاثة أرباع ساعة؟ ومع ذلك، فقد أفضيت إليك أشياء كثيرة، وبدا لي أنك، على نحو غريب، قريب جداً مني، كما لو كنت أعرفك معرفة جيدة طوال حياتي».

«وهل أنت منزعج من ذلك؟»

«شعور مختلط. إنه جيد لأن يخفّف من حدّة عزلتي، إحساسي بأنني شخص متشرّد، لكنّه مزعج لغرابة الحديث الذي دار بيننا البارحة - وكما قلت لك، فإني لم أتحدّث مع أحد من قبل قط بهذه الدرجة من العمق، ولم أثق بشخص غريب بهذه السرعة».

«لكني لست غريباً بسبب شقيقك يوجين، أو لنقل إنني غريب مألوف يستطيع أن يلج إلى غرف بيت طفولتك الداخلية».

«إنك تخطر ببالي كثيراً منذ البارحة يا فريدريش. فقد أثيرت مسألة، وأتساءل عمّا إذا كنت تسمح لي بأن أطرح سؤالاً شخصياً. . .»

«طبعاً، طبعاً. لا حاجة لأن تسأل - فأنا أحبّ الأسئلة الشخصية».

«عندما سألتك كيف اكتسبت هذه المهارات في التكلّم وفي سبر

أغوار العقل، أجبت بأنك اكتسبتها من تدريبك الطبي. لكن عندما أفكّر في جميع الأطباء الذين أعرفهم، لم أر أحداً منهم يسلك بطريقتك الجذّابة. فكلّ شيء يتعلق بالعمل بالنسبة لهم - بضعة أسئلة مقتضبة وسريعة، لا يوجد فيها أي سؤال شخصي، ثمّ خربشة سريعة لكتابة وصفة بأحرف لاتينية غير مفهومة ثم تتبعها عبارة 'المريض التالي'، وسؤالي هو لماذا أنت تختلف عنهم كثيراً يا فريدريش؟»

«لم أكن صريحاً معك تماماً يا ألفريد»، أجاب فريدريش، وهو ينظر إلى عيني ألفريد بصدقه المعهود: «صحيح أنني طبيب، لكنّي أخفيت عنك شيئاً - فقد أكملت دراستي أيضاً في طبّ الأمراض النفسية، وهذه التجربة هي التي حدّدت الطريقة التي أفكر فيها وأتكلّم بها».

«يبدو أن هذه الحقيقة... غير مؤذية، فلماذا تبذل كلّ هذا الجهد لإخفائها؟»

«في الوقت الحالي، بدأ يزداد عدد الأشخاص المصابين بحالات عصبية، لكن ما إن يعرفوا أنني طبيب نفساني حتى يبدأوا في البحث عن منفذ للهروب مني، لأنهم لا يزالون يحملون أفكاراً سخيفة بأن الأطباء النفسانيين يستطيعون قراءة العقول ويعرفون كلّ أسرارهم السوداء».

فهزّ ألفريد رأسه، وقال: «حسناً، ربما هذا ليس شيئاً سخيفاً. فقد بدا لي البارحة كأنك تقرأ ما يدور في عقلي».

«لا، لا، لا. لكنني أتعلّم كيف أقرأ عقلي، واستناداً إلى هذه التجربة فبإمكاني أن أكون مرشداً لك حتى تستطيع قراءة ما يدور في خلدك. هذا هو الاتجاه الرئيسي الجديد في مجال تخصصي».

«يجب أن أعترف بأنّك أول طبيب نفساني قابلته في حياتي. لا أعرف شيئاً عن مجال تخصصك».

«حسناً، منذ عدة قرون، كان ينظر إلى الأطباء النفسانيين بشكل رئيسي على أنهم خبراء في تشخيص الأمراض ويشرفون على المصابين باضطرابات عقلية ونفسية في المستشفيات، المرضى المصابين غالباً بأمراض يتعذر الشفاء منها، لكن كلّ ذلك تغيّر في السنوات العشر الأخيرة. فقد بدأ التغيير مع سيغموند فرويد في فيينا الذي استنبط العلاج عن طريق الكلام وأصبح يطلق على هذا النوع من العلاج *التحليل النفسي* الذي يمكّننا من مساعدة المرضى على التغلّب على مشاكلهم النفسية. وأصبح بإمكاننا اليوم معالجة أمراض مثل حالات القلق الشديد، أو حالات الحزن المستعصية، أو شيئاً نسميه الهستيريا - مرض يصاب فيه المريض بأعراض جسدية تنجم عن مشاكل نفسية كالشلل أو حتى العمى. كان أستاذيّ في زيوريخ، كارل يونغ ويوجين بلولير، رائدين في هذا المجال. أنا معجب جداً بهذا المنهج، وسأبدأ قريباً تدريباً متقدّماً في التحليل النفسي في برلين مع كارل أبراهام، الأستاذ الهام والبارز في هذا المجال».

«سمعت بعض الأشياء عن التحليل النفسي. وسمعت أيضاً أنه إحدى المكائد اليهودية الأخرى. هل جميع أساتذتك يهود؟»

«بالتأكيد ليس يونغ أو بلولير».

«لكن، يا فريدريش، لماذا تورّط نفسك في دراسة مجال يهودي؟»

«سيكون ميداناً يهودياً إذا لم نتقدّم نحن الألمان، أو بعبارة أخرى يجب علينا ألّا نتركه لليهود فقط».

«لكن لماذا تلوّث نفسك؟ لماذا تدرس على أيدي اليهود؟»

«إنه أحد مجالات العلم. خذ يا ألفريد مثال عالم آخر، الألماني اليهودي ألبرت آينشتاين. أوروبا كلها تتحدّث عنه - لأن عمله سيغيّر وجه الفيزياء إلى الأبد. لا يمكنك أن تقول إن الفيزياء

الحديثة هي فيزياء يهودية. فالعلم علم. وفي كليّة الطب كان أحد أساتذتي في علم التشريح سويسرياً يهودياً - لكنه لم يعلّمني علم تشريح يهودياً. ولو كان وليام هارفي العظيم يهودياً، لظللت تؤمن بالدورة الدموية، أليس كذلك؟ ولو كان كيبلر يهودياً، لظللت تؤمن بأن الأرض تدور حول الشمس؟ فالعلم علم مهما كان دين مكتشفه».

فقاطعه ألفريد، «لكن الأمر يختلف مع اليهود، فهم يفسدون، ويحتكرون، ويمتصّون كلّ مجال ويجففونه. خذ السياسة على سبيل المثال، فقد رأيتُ بأمّ عيني اليهود البلاشفة وهم يقوّضون الحكومة الروسية من أسسها. رأيت وجه الفوضوية في شوارع موسكو. خذ المصارف مثلاً. فقد رأيتَ دور عائلة روتشيلد في هذه الحرب: عندما تحرّك الخيوط، ترقص أوروبا كلها. خذ المسرح. فما إن يهيمنون على مجال حتى لا يسمحون لأحد بالعمل فيه إلّا لليهود».

«ألفريد، كلّنا نحبّ أن نكره اليهود، لكنّك تفعل ذلك بحدّة شديدة... إنك تثير هذا الموضوع كثيراً في أحاديثنا القصيرة. دعنا نرى ما حدث لك... فهناك محاولة التسجيل لدى السرجنت اليهودي، وهسيرل، وفرويد، والبلاشفة. ما رأيك بأن نقوم بتحقيق فلسفي لهذه الحدّة في الكراهية»؟

«ماذا تقصد؟»

«أحد الأشياء التي أحبّها في الطبّ النفسي، هو أنه بخلاف أيّ مجال آخر في الطبّ، فإنه يقترب كثيراً من الفلسفة. ومثل الفلاسفة فإننا، نحن الأطباء النفسانيين نجري دراسة منطقية عميقة. إننا لا نساعد المرضى على تحديد مشاعرهم والتعبير عنها فقط، وإنما نسأل أيضاً 'عن السبب'؟ ما هو مصدر هذه المشاعر؟ لماذا تظهر بعض العقد في الدماغ؟ في بعض الأحيان، يخيّل إليّ أن هذا المجال بدأ

مع سبينوزا الذي يعتقد بأنّ لكلّ شيء سبباً، حتى العاطفة والفكر، يمكن اكتشافه عند إجراء فحص صحيح».

ملاحظاً الدهشة على وجه ألفريد، واصل فريدريش كلامه، «تبدو على وجهك تعابير الحيرة. دعني أحاول أن أوضح لك أكثر. فكّر في شيء يستحوذ على تفكيرك - بأنك لا تشعر بأنك في البيت. فخلال بضع دقائق من المناقشة معاً البارحة، اكتشفنا مصادر عديدة بأن لديك شعوراً بأنك مقتلع من جذورك. فكّر في الأمر: فهناك غياب أمّك وأبوك المريض الذي كان يعيش في مكان بعيد، ثمّ قلت إنك لم تختر مجال الدراسة الأكاديمية الصحيح، والآن تتحدث عن عدم تقديرك لذاتك، وهذا كله يجعلك لا تشعر بالارتياح في داخلك؟ أتفهم قصدي؟»

هزّ ألفريد رأسه.

«الآن، تخيّل كم سيكون سبرنا للأمر أغنى لو تمكنّا من قضاء عدة ساعات لأسابيع لنستكشف هذه المصادر كلها. أتفهم ما أقصده؟»

«نعم، أفهم».

«هذا هو مجال تخصصي. والشيء الذي اقترحته سابقاً هو أنه لا بد أن تكون لكراهيتك القوية جداً لليهود جذور نفسية أو فلسفية».

منسحباً قليلاً، قال ألفريد: «هنا نختلف. فأنا أفضّل أن أقول إنني على درجة كافية من الثقافة تجعلني أفهم المخاطر التي يشكّلها اليهود على جنسنا، والأضرار التي ألحقوها بالحضارات العظيمة في الماضي».

«أرجو أن تفهم يا ألفريد أنني لا أخالفك في استنتاجاتك. فلدينا كلانا هذه المشاعر إزاء اليهود. لكن الأمر الذي أريد أن أؤكد

عليه هو أنه تتملكك هذه المشاعر بقوة منقطعة النظير. لذلك فإن حبّ الفلسفة الذي يجمعنا يملي علينا أن نتمكّن من دراسة القاعدة المنطقيّة لجميع الأفكار والمعتقدات. أليس هذا صحيحاً؟»

«هنا لا أستطيع أن أجاريك يا فريدريش. لا أستطيع أن أتبعك. يكاد يبدو من غير اللائق إخضاع هذه الاستنتاجات الواضحة للتحقيق الفلسفي. إنها أشبه بالتحليل لماذا تشعر بأن السماء زرقاء أو لماذا تحبّ البيرة أو السكر».

«آه نعم، يا ألفريد، قد تكون محقّاً». وتذكّر بليولير الذي حذّره مرات عديدة: «أيها الشاب، إن التحليل النفسي ليس كبشاً ينطح: فنحن لا نطرق بالمطرقة حتى ترفع الأنا العليا رايات الاستسلام البيضاء المهترئة بعد أن تكون قد أُصيبت بالإعياء. صبراً، صبراً. اكسب ثقة المريض. حلّل وافهم المقاومة - لأن المقاومة ستتلاشى عاجلاً أم آجلاً، وسيُفتح أمامك الطريق إلى الحقيقة». كان فريدريش يعرف أن عليه أن يتوقف الآن عن تناول الموضوع. لكنه لم يستطع أن يهدئ من غلواء شيطانه الداخلي الطائش الذي كان يريد أن يعرف.

«دعني أثير نقطة أخيرة يا ألفريد. لنأخذ مثال شقيقك، يوجين. إنك توافقني الرأي أنّه ذكي، وأنه تربى ونشأ في نفس البيئة الثقافية التي تربيت ونشأت أنت فيها أيضاً، وتحملان ذات الصفات الوراثية، وعشتما في نفس البيئة، ولكما نفس الأقارب المحيطين بكما، ومع ذلك فهو لا يفكّر في المشكلة اليهودية بهذه الحدّة، وهو ليس مغرماً بالألمان ويفضّل أن تكون بلجيكا وطنه الحقيقي. إنه لغز يدعو إلى الدهشة. أخوان ترعرعا في البيئة نفسها، وعلى الرغم من ذلك، فإن آراءهما متباينة تماماً».

«لقد عشنا في بيئة متشابهة لكنها لم تكن متطابقة تماماً. ففي

البداية، لم يتعرض يوجين لما تعرضت له أنا من حظّ سيّئ في أن يكون لديّ مدير يحبّ اليهود إلى درجة كبيرة في المدرسة الثانوية».

«ماذا؟ المدير بيترسون؟ مستحيل. أنا أعرفه تمام المعرفة عندما كنت طالباً في تلك المدرسة».

«لا، ليس بيترسون. فقد كان في إجازة دراسية عندما كنت في سنتي الأخيرة في المدرسة، وقد حلّ محله هير إبشتاين».

«انتظر لحظة يا ألفريد - لقد بدأت أتذكّر أن يوجين أخبرني قصّة عنك مع هير إبشتاين وقال إنك تعرضت لمشكلة جدّية قبل تخرّجك من المدرسة. قل لي ماذا حدث بالتحديد؟»

حكى ألفريد لفريدريش القصّة كلها - عن خطابه المعادي للساميّة، وعن غضب إبشتاين وانشغاله بتشامبرلن، وحكى له عن إرغامه على تلك الوظيفة الإجبارية لقراءة تعليقات غوته المتعلقة بسبينوزا، والوعد الذي قطعه له ليقرأ كتاب سبينوزا.

«يا لها من قصّة يا ألفريد. أودّ أن أرى تلك الفصول من سيرة غوته الذاتية. عدني بأنّك ستكلّمني عنها ذات يوم. وقل لي هذا: هل أوفيت بوعدك وقرأت كتاب سبينوزا؟»

«حاولت عدة مرات لكني لم أستطع مواصلة قراءته، فهو مليء بالغموض. وشكّلت التعاريف والبديهيات في بداية الكتاب غير المفهومة حاجزاً منيعاً».

«آه، هل بدأت بكتاب *«الأخلاق»*. يا له من خطأ كبير. إنه عمل تصعب قراءته إذا لم يشرحه لك أحد. كان يجب أن تبدأ بكتابه الأسهل *«رسالة في اللاهوت والسياسة»*. إن سبينوزا مثل أعلى في المنطق، وأنا أضعه في مصاف الفلاسفة الكبار: سقراط وأرسطو وكانط. يجب أن نلتقي ذات يوم في أرض الأجداد، وإذا أردت، فإني سأساعدك على قراءة كتاب *الأخلاق*».

«كما ترى فإن لديّ مشاعر مشحونة حول قراءة كتب هذا اليهودي. لكن بالرغم من ذلك، فقد وقّره وبجّله غوته العظيم، وقد وعدت مدير المدرسة بأن أقرأه. لذلك هل تستطيع أن تساعدني على فهم سبينوزا؟ إن عرضك لطيف جداً. بل حتى مغرٍ. سأحاول أن أجعل طريقينا يلتقيان في ألمانيا، وإني أتطلّع إلى أن أتعلّم منك شيئاً عن سبينوزا».

«ألفريد، يجب أن أعود الآن إلى أمّي، وكما تعرف، فإني سأغادر إلى سويسرا غداً، لكنّي أريد أن أقول لك شيئاً أخيراً قبل أن أودعك. فأنا أشعر بأنني واقع في معضلة، فمن ناحية، أريد أن أهتمّ بك وأتمنّى لك كلّ الخير، ومن ناحية أخرى، فأنا مثقل ببعض المعلومات التي قد تؤلمك، لكنها ستوصلك، كما أظن، في نهاية الأمر، إلى بعض الحقائق حول نفسك».

«كيف يمكنني، كشخص مهتم بالفلسفة أن أرفض متابعة الحقيقة؟»

«لم أكن أتوقّع رداً نبيلاً أقل من هذا يا ألفريد. الأمر الذي يجب أن أقوله لك هو أننا أمضينا أنا وشقيقك عدة سنوات، بل حتى ساعات في الشهر الماضي في مناقشة الحقيقة بأنّ جدّة أمّه - والدة جدّتك - كانت يهودية. وقال إنه زارها ذات مرة في روسيا وقال إنها تحوّلت إلى المسيحية عندما كانت طفلة، واعترفت بأن أجدادها يهود».

حدّق ألفريد بصمت بعيداً.

«ألفريد؟»

«أنا أنكر ذلك. إنها إشاعة منحطة تحوم فوقنا منذ مدة طويلة، وإني أمقت أن تقوم بنشرها. فأنا أنكرها. وأبي ينكرها، وخالاتي

ينكرنها. إن أخي أحمق مضطرب!». امتلأ وجه ألفريد بالغضب. ورفض أن تلتقي عيناه بعينَي فريدريش، أضاف، «لا يمكنني أن أتصوّر لماذا يصدّق يوجين هذه الأكذوبة، ولماذا يخبر الآخرين بها، ولماذا تخبرني أنت الآن بها».

«أرجوك يا ألفريد». خفّض فريدريش صوته إلى درجة الهمس تقريباً. «أولاً، دعني أؤكد لك بأنني لا أنشرها. فأنت الشخص الوحيد الذي ذكرتها له، وستبقى هكذا دائماً. أقسم لك، قسمي الألماني. أما لماذا أخبرتك - لنفكّر في الأمر بعقلانية. فقد قلت لك إنني أواجه معضلة: فإذا أخبرتك فإن الأمر سيبدو مؤلماً، وإذا لم أخبرك سيبدو الأمر أسوأ. كيف يمكنني أن أدّعي أنني صديقك ولا أخبرك؟ أخوك هو الذي حكى لي ذلك، وبدا أن لهذا صلة بمناقشتنا. إذ يستطيع الأصدقاء المخلصون، من دون الحاجة إلى ذكر زملاء فلاسفة، بل يجب أن يتكلّموا، عن كلّ شيء. أرى أن امتعاضك شديد».

«إني مندهش لأنّك تقول لي ذلك».

تذكّر فريدريش أن بليولير الذي يشرف عليه قد حذّره عدة مرات: «ليس من الضروري أن تذكر كلّ ما تفكّر فيه يا دكتور بفيستر، فالمعالجة ليست مكاناً لتطلق فيه أفكاراً مزعجة. تعلّم كيف تحتفظ بها في نفسك. تعلّم أن تكون وسيلة لضبط أفكارك المنفلتة. فالتوقيت هو كلّ شيء». التفت إلى ألفريد وقال: «ربما أخطأتُ وكان عليّ أن أحتفظ بها لنفسي. يجب أن أتعلّم أنّ هناك أشياء يجب ألّا تقال. سامحني يا ألفريد. لقد قلت لك ذلك بدافع الصداقة، لأنني ظننت أن عواطفك القوية قد تؤدي في نهاية الأمر إلى التدمير الذاتي. انظر كيف كنت على وشك أن تُطرد من المدرسة الثانوية. وكنت ستضحي بمستقبلك في التعليم، وبشهادتك

الجامعية، وبمستقبلك البراق. لقد أردت أن أساعدك على أن لا تتكرر مثل هذه الأشياء في المستقبل».

لم يَبدُ أن ألفريد قد اقتنع وقال: «دعني أفكّر في الأمر جيداً، لأنني أعرف أنّك يجب أن تذهب».

تناول فريدريش ورقة مطوية من جيب قميصه وأعطاها لألفريد، وقال: «إذا أردت أن تراني مرة أخرى لأيّ سبب - لنواصل أيّ جزء من مناقشتنا، توجيهك في قراءة سبينوزا، أيّ شيء - فهذا هو عنواني الحالي في زيوريخ ومعلومات التواصل معي في برلين التي سأذهب إليها بعد ثلاثة أشهر. ألفريد، آمل أن نلتقي مرة أخرى. *Auf wiedersehen*».

جلس ألفريد متجهماً لمدة ربع ساعة. أفرغ كأس البيرة في جوفه ونهض ليغادر. فتح الورقة التي تركها فريدريش، حدّق في عناوين فريدريش، ثمّ مزّقها إلى أربعة أرباع ورماها على الأرض، ثم توجّه نحو باب الحانة، لكنه عندما وصل إلى الباب، توقّف، فكّر قليلاً، ثم عائد إلى الطاولة التي كان يجلس إليها، وانحنى ولملم قطع الورقة الممزّقة.

الفصل الثالث عشر

أمستردام - ١٦٥٦

في حوالي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، كان الأخوان سبينوزا منهمكين في العمل في مخزنهما، بنتو يكنس الأرض وغابرييل يفتح صندوقاً من التين المجفّف الذي وصل مؤخراً. توقفا عن عملهما عندما ظهر فرانكو وجاكوب عند الباب ووقفا هناك متردّدين حتى قال فرانكو: «إذا كان عرضك لنا لا يزال قائماً، فإننا نرغب في متابعة مناقشتنا. نرجوك، فنحن جاهزان للمناقشة في أي وقت يناسبك».

«يسرّني أن نستأنف مناقشتنا»، قال بنتو، لكنه التفت إلى جاكوب، وسأله، «هل تريد ذلك أيضاً يا جاكوب؟»

«أريد ما هو الأفضل بالنسبة لفرانكو».

فكّر بنتو في هذا الردّ للحظة ثم أجاب، «انتظرا دقيقة، من فضلكما». وبعد أن تحدّث مع أخيه همساً في الطرف الآخر من المخزن، قال بنتو: «أستطيع أن أكون في خدمتكما الآن. هل تريدان أن نذهب إلى بيتي ونواصل دراستنا للكتاب المقدّس؟»

كان التوراة الضخم على الطاولة، وكانت الكراسي لا تزال في

أماكنها كما لو كان بنتو يتوقّع مجيئهما. «من أين سنبدأ؟ لقد ناقشنا عدة مسائل المرة السابقة».

«كنت تقول إن موسى لم يكن هو من كتب التوراة»، قال جاكوب، متحدثاً بطريقة أكثر رقة وأكثر تصالحاً من اليوم السابق.

«لقد درستُ هذا الموضوع لسنوات عديدة وأرى أنّ قراءة متأنية ومنفتحة لكتب موسى تزوّدنا بأدلة داخلية كثيرة على أنّ موسى لا يمكن أن يكون هو الذي كتبها».

«أدلة داخلية؟ فسّر لي»، قال فرانكو.

«هناك أوجه تضارب وتناقضات كثيرة في قصّة موسى، فهناك أجزاء من التوراة تتناقض مع أجزاء أخرى، وهناك مقاطع عديدة لا يمكنها أن تصمد أمام المنطق البسيط. سأعطيكما أمثلة وسأبدأ بمثال واضح لاحظه آخرون من قبلي.

«فلا يصف التوراة الطريقة التي مات فيها موسى ودفن، والأيام الثلاثين لحداد العبرانيين، لكنه بعد ذلك يقارنه بجميع الأنبياء الذين جاؤوا من بعده ويقول إنه يتفوق عليهم جميعاً. ومن الواضح أن أحداً لا يستطيع أن يكتب عما سيجري له بعد موته، ولا يمكنه أن يقارن نفسه مع أنبياء آخرين لم يولدوا بعد. لذلك، من المؤكد أنه لا يمكن أن يكون هو الذي كتب هذا الجزء من التوراة. صحيح؟»

هزّ فرانكو رأسه، وهزّ جاكوب كتفيه بلا مبالاة.

«أو انظرا هنا». وفتح بنتو التوراة على صفحة أشّر عليها بخيط، وأشار إلى فقرة في سِفر التكوين ٢٢ وقال: «تريان هنا أنّ جبل المُريّا يدعى جبل الربّ. والمؤرخون يقولون لنا إن هذا الاسم قد أطلق عليه تيمّناً باسم الهيكل، بعد موت موسى بقرون كثيرة. انظر إلى هذه الفقرة، يا جاكوب: إذ يقول موسى بوضوح إنّ الربّ سيختار في زمن ما في المستقبل بقعة سيطلق عليها هذا الاسم. لذلك فهو يقول شيئاً

في البداية، ثم يقول شيئاً مناقضاً لذلك. هل ترى التناقض الداخلي يا فرانكو؟»

هزّ فرانكو وجاكوب رأسيهما.

«هل لي أن أعطيكما مثالاً آخر؟» سألهما بنتو الذي ما زال قلقاً من ثورات غضب جاكوب في لقائهما الأخير. فلم يكن يشعر بالراحة من المواجهات مع الآخرين، أما الآن فقد كان سعيداً لأنه يشاطر آخرين بأفكاره. تمالك نفسه. كان يعرف ما يجب أن يفعله - أن يتحدّث بهدوء وأن يقدّم أدلة لا يمكن إنكارها - «كان العبرانيون في زمن موسى يعرفون بشكل لا جدال فيه الأراضي التي تملكها قبيلة يهودا، لكن من المؤكد أنهم لم يكونوا يعرفونها باسم جبثّون أو *أرض العمالقة*، كما وردت في التوراة. بعبارة أخرى، يستخدم التوراة أسماء لم تظهر إلى الوجود إلّا بعد موت موسى بقرون عديدة».

عندما رأى الإيماءات منهما، واصل بنتو كلامه، «وبنفس الطريقة، في سِفْر التكوين. دعونا ننظر في هذا المقطع». قلب بنتو إلى صفحة أخرى مؤشّرة بخيط أحمر وقرأ المقطع بالعبرية لجاكوب: '*وكان الكنعانيون في الأرض آنذاك*'. الآن لا يمكن أن يكون موسى هو من كتب هذا المقطع لأن الكنعانيين أُخرجوا منها بعد موت موسى. لا بد أن شخصاً آخر قد كتبه وهو ينظر إلى الوراء في ذلك الزمن، شخص يعرف أنّ الكنعانيين كانوا قد أُخرجوا من تلك الأرض».

بعد الإيماءات من مستمعيه، واصل بنتو كلامه، «هنا توجد مشكلة واضحة أخرى. يُفترض أن يكون موسى هو المؤلف، ومع ذلك لا يتحدّث النصّ عن موسى بصيغة الشخص الثالث فحسب، وإنما يشهد أيضاً تفاصيل كثيرة تتعلّق به، فعلى سبيل المثال، '*كلّم*

الرب موسى، *’وكان موسى رجلاً متواضعاً جداً’*، والمقطع الذي ذكرته البارحة، *’ويكلِّمُ الربُّ مُوسى وجهاً لوجه’*».

«بهذا أقصد التناقضات الداخلية، والتوراة مليئة بها إلى درجة تبدو أوضح من الشمس في الظهيرة بأن كتب موسى لا يمكن أن يكون موسى قد كتبها، وليس من العقلانية بشيء مواصلة الادعاء أن موسى نفسه هو من كتبها. هل تفهمان ما أقوله؟»

هزّ فرانكو وجاكوب رأسيهما مرة أخرى.

«يمكن قول الشيء نفسه عن سِفْر القضاة. فلا يمكن أن يصدّق أحد بأنه من الممكن أنّ يكون كلّ قاض قد كتب السِفْر الذي يحمل اسمه، لأن الطريقة التي تربط الواحد بالآخر توحي بأن مؤلفاً واحداً كتبها كلها».

فسأله جاكوب، «إذا كان الأمر كذلك، فمن كتبه ومتى؟».

«إن أقوالاً كهذه تساعد في معرفة التأريخ» - وقلب الصفحة في سِفْر الملوك حتى يقرأها جاكوب «*’في تلك الأيام لم يكن لإسرائيل ملك فكان كلّ واحد يتصرف على هواه’* أترى الصياغة هنا يا جاكوب؟ هذا يعني أن هذه الفقرة لا بد أنها كتبت بعد أن أُنشئت الملكية. وأخمّن أنّ كاتباً ومجمّعاً رئيسياً لكتاب الملوك كان ابن عزرا».

«ومن هو؟» سأل جاكوب.

«ناسخ كهنوتي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. وهو الذي قاد خمسة آلاف عبراني منفي من بابل وعاد بهم إلى مدينتهم القدس».

«ومتى جُمع الكتاب المقدس كله؟» سأل فرانكو.

«أظن أننا يمكن أن نكون على يقين بأنه جُمع قبل عهد المكابيين

- أي حوالي ٢٠٠ قبل الميلاد - عندما لم تكن توجد مجموعة رسمية للكتب المقدّسة تدعى التوراة. ويبدو أنه جُمع على أيدي الفريسيين من مجموعة كبيرة من الوثائق أثناء ترميم الهيكل. لذلك أرجو أن تتذكّرا أنّ المقدّس وغير المقدّس هي فقط الآراء التي جمعها بعض الأحبار والكتبة الذين هم بشر مثلنا، والذين بعضهم رجال جادون مباركون، بينما كان آخرون يسعون جاهدين لأن يحظوا بمكانة شخصية خاصة، يحاربون حديثي النعمة في صفوف رعيتهم، ويشعرون بآلام الجوع، ويفكّرون في العشاء، ويقلقون على زوجاتهم وأطفالهم. لقد وضع الكتاب المقدس بأيدي بشر. فلا يوجد تفسير محتمل آخر لكل هذه التناقضات الكثيرة. ولا يمكن لأي شخص عاقل أن يتخيّل أنّ مؤلفاً إلهياً كلّي المعرفة قد تعمّد أن يكتب شيئاً ليناقض نفسه بمحض إرادته».

حاول جاكوب الذي بدا مرتبكاً، أن يتصدى له فقال: «ليس بالضرورة. ألا يوجد أحبار قبلانيون يقولون إن في التوراة أخطاء متعمّدة تنطوي على أسرار خفية عديدة، وأن الربّ حفظ كلّ كلمة، بل كلّ حرف في الكتاب المقدس، كي لا تفسد؟»

هزّ بنتو رأسه وقال: «لقد درستُ القبلانية، وأظن أنّهم يريدون إرساء رأي مفاده أنّهم وحدهم من يمتلكون أسرار الربّ. وأنا لا أرى في كتاباتهم شيئاً يشي بوجود سرّ إلهي، وإنما أجد دراسات طفولية فقط. أرجو أن نتفحص كلمات التوراة ذاتها، لا تفسيرات العابثين».

ساد صمت لفترة قصيرة، ثم سألهما، «هل اتضحت لكما أفكاري الآن حول تأليف التوراة؟»

فقال جاكوب: «أظن أنك فعلت ذلك، وربما يجب أن ننتقل إلى مواضيع أخرى. فمثلاً، أرجو أن تتحدث عن أسئلة فرانكو حول

المعجزات. فهو يسأل لماذا تمتلئ التوراة بها مع أننا لم نر أياً منها منذ ذلك الزمن. حدّثنا عن رأيك بالمعجزات».

«لا توجد المعجزات إلّا من خلال جهل الإنسان. ففي العصور القديمة كان كل شيء يحدث ولا يمكن تفسيره وإرجاعه إلى الأسباب الطبيعية يُعتبر معجزة، وكلما ازداد جهل العامة بطرق عمل الطبيعة، ازداد عدد المعجزات».

«لكن هناك معجزات عظيمة شاهدتها جموع غفيرة من الناس، منها انشقاق البحر الأحمر لموسى، وتوقف الشمس من أجل يوشع».

«شاهدها عدد كبير من الناس ما هو إلّا أسلوب في الكلام، طريقة لمحاولة الادعاء بصدقية أحداث لا يمكن تصديقها. أما بالنسبة إلى المعجزات، فإني أرى أنه كلما كان عدد الناس الذين يدّعون أنهم رأوها أكبر، كان الحدث أقل قبولاً للتصديق».

«إذاً كيف يمكنك أن تفسّر هذه الأحداث غير العادية التي تحدث كلما تعرّض الشعب اليهودي لخطر؟»

«سأبدأ بتذكيرك بملايين اللحظات التي لم تحدث فيها معجزات، عندما تعرّض أكثر الأشخاص ورعاً واستقامة للخطر، وطلبوا أن يساعدهم الربّ، لكن استجابة الربّ لدعواتهم كانت الصمت. فرانكو، لقد تحدّثت عن ذلك في أول لقاء لنا، عندما سألت لماذا لم تحدث معجزات عندما قُتل أبوك حرقاً. صحيح؟»

«نعم»، وافق فرانكو بهدوء، ونظر إلى جاكوب، «قلت ذلك، وسأقولها مرة بعد مرة - أين كانت المعجزات عندما تعرّض اليهود البرتغاليون لخطر؟ لماذا كان الرب صامتاً؟»

«ينبغي طرح هذه الأسئلة»، قال بنتو مشجّعاً، «دعوني أطرح

بضع أفكار أخرى عن المعجزات. يجب أن نتذكّر أنه توجد دائماً ظروف طبيعية مرافقة تُحذف عند ذكر المعجزة. فعلى سبيل المثال، يخبرنا سِفر الخروج، *'فمدّ موسى يده على البحر ورجع البحر إلى حالته العادية'*، لكن بعد ذلك نقرأ في نشيد موسى شيئاً آخر: *'لكنك نفخت نفخة فغطّاهم البحر'* بعبارة أخرى، فإن بعض الأوصاف تحذف الأسباب الطبيعية، وهي الرياح. لذلك فإننا نرى أنّ التوراة يقولها لكي تحدث قوّة عظيمة لتحريك البشر، لاسيما البشر غير المتعلمين، ودفعهم إلى الطاعة والولاء».

«ووقفت الشمس في وسط السماء من أجل انتصار يوشع العظيم؟ وهل هذه أيضاً قصة خيالية؟» سأل جاكوب، باذلاً جهده ليحافظ على هدوئه.

«هذه المعجزة هي أضعف المعجزات قاطبة. أولاً، تذكّر أن القدماء جميعاً كانوا يعتقدون بأن الشمس هي التي تتحرّك والأرض ثابتة. أما الآن فإننا نعرف أن الأرض هي التي تدور حول الشمس. وهذا الخطأ نفسه هو دليل على أن هناك أيادي بشرية وراء كتابة التوراة. والأهم من ذلك، فإن شكل المعجزة كما نراه شكّلته دوافع سياسية. ألم يكن إله الشمس هو الذي كان يعبده أعداء يوشع؟ ومن هنا، فإن المعجزة رسالة تعلن أن ربّ العبرانيين أقوى من إله الوثنيين».

«لقد شرحتها بشكل رائع»، قال فرانكو.

«لا تصدّق كلّ شيء تسمعه منه، يا فرانكو»، قال جاكوب، ثم سأل، «إذاً، بنتو، هل هذا هو التفسير الكامل للمعجزة في سِفر يوشع؟»

«هذا جزء منه فقط. ويكمن باقي التفسير في التعابير السائدة اليوم. فما يسمّى بالمعجزات ليست سوى أساليب في التعبير. إنها

الطريقة التي كان الناس يتكلّمون ويكتبون بها في ذلك الزمن. ربما كان ما يقصده كاتب يوشع عندما قال إن الشمس قد وقفت، هو ببساطة أن يوم المعركة ذاك بدا يوماً طويلاً. وعندما تقول التوراة إن الربّ جعل قلب فرعون قاسياً، فهذا يعني أن فرعون كان عنيداً، وعندما تقول إنّ الرب شقّ الصخور للعبرانيين فتدفّق الماء، فهذا يعني أن العبرانيين وجدوا ينابيع وشربوا منها ورووا عطشهم. فكلّ شيء غير عادي تقريباً يرد في التوراة يعزى إلى أنه عمل من أعمال الربّ، حتى الأشجار الضخمة يُطلق عليها اسم أشجار الرب».

فسأله جاكوب، «وماذا عن المعجزة التي تقول بأن اليهود ظلوا موجودين بينما بادت الأمم الأخرى؟»

«لا أرى أي شيء إعجازي في ذلك، فلا يوجد شيء لا يمكن تفسيره لأسباب طبيعية. فقد ظل اليهود منذ الشتات لأنهم رفضوا الاختلاط بالثقافات والشعوب الأخرى، وظلوا منعزلين عنها بسبب شعائرهم وطقوسهم المعقّدة، وقواعدهم في تناول الطعام، وشارة الختان التي يتمسكون بها بدقة شديدة. لهذا السبب بقوا، لكن ذلك كلفهم كثيراً: فقد جرّ عليهم تشبثهم بانفصالهم عن الآخرين كراهية عالمية شاملة».

صمت بنتو قليلاً عندما رأى وجهيْ فرانكو وجاكوب المصدومين، ثم أضاف، «ربما سببتُ لكما عسراً في الهضم لأنني ذكرت لكما أشياء يصعب عليكما ابتلاعها اليوم؟»

فقال جاكوب: «لا تقلق عليّ يا بنتو سبينوزا. فأنت تعرف أنّ الاستماع يختلف اختلافاً تاماً عن البلع».

«قد أكون مخطئاً، لكنّي أظن أنّك هززت رأسك ما لا يقل عن ثلاث مرات عندما كنت أتكلم. هل أنا مخطئ؟»

«معظم ما أسمعه هو غطرسة. إنك تعتقد بأنّك تعرف أكثر مما

تعرفه أجيال لا حصر لها من الأحبار، تعرف أكثر من راشي، وجرشون، وأكثر من ابن ميمون».

«ومع ذلك فقد هززت رأسك».

«عندما تأتي بدليل، عندما تأتي من سفر التكوين بشيئين يناقض أحدهما الآخر، فإني لا أستطيع إنكار ذلك. لكن بالرغم من ذلك، فأنا على يقين بأن لها تفسيرات تتجاوز حدود معرفتك، وأنا متيقن من أنك أنت، لا التوراة، المخطئ».

«ألا يوجد تناقض في كلماتك؟ فمن ناحية تحترم الإثبات، ومع ذلك تظل متشبثاً بشيء لا دليل له»، ثم التفت بنتو إلى فرانكو، وقال: «وأنت؟ كنت صامتاً على غير عادتك. عسر هضم؟»

«لا، ليس عسر هضم، يا باروخ - هل تمانع إذا ناديتك باسمك العبري بدلاً من اسمك البرتغالي؟ فأنا أفضّله. لا أعرف لماذا. ربما لأنك لست مثل أيّ رجل برتغالي رأيته في حياتي. لم تقدم لي عسر هضم - بل على العكس تماماً. ما هو؟ أظن أنه مهدّئ، مهدّئ للمعدة، مهدّئ للروح أيضاً».

«أتذكّر كم كنت خائفاً خلال حديثنا الأول. فقد جازفت كثيراً عندما حدثتنا عن ردّة فعلك عن الطقوس التي يمارسونها في الكنيس وفي الكاتدرائية، وأشرت إلى أنها ضرب من الجنون. هل تتذكر ذلك؟»

«كيف يمكنني أن أنسى؟ لكن عندما أعرف أنني لست وحدي، عندما أعرف أن آخرين - لاسيما أنت - يشاطرونني هذه المشاعر. إنها هدية تنقذ قواي العقلية».

«فرانكو، إن ردك هذا يمنحني القوة للمضي أكثر لأعلمك المزيد عن الطقوس والشعائر. لقد خلصت إلى أنه لا علاقة للطقوس التي تمارسها طائفتنا بالقانون الإلهي، ولا علاقة لها بالسعادة وبالفضيلة

وبالحبّ، وإنما لها علاقة بالطمأنينة المدنية وتخليد سلطة الحاخامات . . .»

«مرة أخرى»، قاطعه جاكوب وقد علا صوته، «إنك تبالغ كثيراً. ألا يوجد حدّ لعجرفتك؟ فتلميذ مدرسة يعرف أنّ التوراة يقول إن الطقوس هي شريعة الربّ».

«هنا نختلف مرة أخرى يا جاكوب، وأنا لا أطلب منك أن تصدّقني. وإنما أخاطب عقلك وأطلب منك بكل بساطة أن تنظر إلى كلمات التوراة بعينيك. إذ تطلب منك التوراة في أماكن عديدة أن تتبع قلبك وأن لا تأخذ الشعائر بجدية كبيرة. لننظر إلى أشعيا الذي يعلّم ببساطة شديدة أن الشريعة السماوية تعني انتهاج أسلوب صحيح في الحياة، لا قضاء حياة من ممارسة الشعائر. ويطلب منّا أشعيا بوضوح أن نتخلّى عن الأضاحي والأعياد ويلخّص الشريعة السماوية بهذه الكلمات البسيطة» - فتح بنتو التوراة إلى علامة مؤشر عليها في سِفر أشعيا، وقرأ: «*كفُّوا عن فعل الشر، تعلّموا فعل الخير. اطلبوا العدل. أنصفوا المظلوم*».

«إذاً أنت تقول إن القانون الربّاني ليس شريعة التوراة؟» سأل فرانكو.

«إن ما أريد أن أقوله هو أنّ التوراة يضم نوعين من القوانين: ففيه قانون أخلاقي، وهناك قوانين تهدف إلى إبقاء إسرائيل معاً كحكومة دينية منفصلة عن جيرانها. ولسوء الحظ، فقد أخفق الفريسيون، بسبب جهلهم، في فهم الفرق وظنّوا أن الالتزام بقوانين الدولة هو مجمل المبادئ الأخلاقية، في حين أن هذه القوانين تهدف إلى خير وصلاح الطائفة، ولم تكن تهدف إلى تقديم تعاليم لليهود وإنما لكي يظلوا تحت السيطرة. وهناك فرق أساسي في هدف كلّ من هذين النوعين من القوانين: فالتمسك بالقانون الشعائري لا يؤدي

إلّا إلى الشعور بالطمأنينة المدنية، أما التمسك بالشريعة السماوية أو الأخلاقية فإنه يفضي إلى النعيم».

فقال جاكوب: «إذاً، هل أسمع بشكل صحيح؟ هل تنصح فرانكو بأن لا يلتزم بالقانون الشعائري؟ بأن لا يذهب إلى الكنيس، بأن لا يصلّي، بأن لا يراعي قوانين الطعام اليهودية؟»

فقال بنتو: «إنك تسيء فهمي»، مستفيداً من المعرفة التي عرفها مؤخراً عن آراء أبيقور، «فأنا لا أنكر أهمية الشعور بالطمأنينة المدنية، لكنّي أميّزه عن السعادة الحقيقية». والتفت بنتو إلى فرانكو وقال: «إذا كنت تحبّ طائفتك، فكن جزءاً منها، ربّي أسرتك هنا، عش بين أبناء قومك، وشارك بانسجام في النشاطات الاجتماعية، بما فيها ممارسة الشعائر الدينية».

ثم التفت إلى جاكوب، وسأله، «هل يمكنني أن أكون أكثر وضوحاً؟»

فقال جاكوب: «أسمع أنك تقول إنّنا يجب أن نتبع قانون الشعائر بهدف الحفاظ على المظاهر فقط، وأنها ليست هامة كثيراً، لأن ما يهم فقط هو هذا القانون الإلهي الآخر الذي لم تعرّفه بعد».

«أقصد بالقانون الإلهي أسمى درجات الطيبة، ومعرفة وحبّ الربّ بشكل صحيح».

«هذا ردّ مبهم. ما هي 'المعرفة الصحيحة'؟»

«المعرفة الصحيحة تعني كمال عقلنا الذي يمكّننا من معرفة الربّ على نحو أكثر كمالاً. فهناك عقوبات إذا لم يتبع اليهودي قانون الشعائر: مثل أن يوجّه إليه أبناء الطائفة والحاخام الانتقاد علناً، وفي الحالات الشديدة، *الحرم* والنبذ أو المقاطعة. هل هناك عقوبة إذا لم يتبع اليهودي القانون الإلهي؟ نعم، لكنّها ليست عقوبة محددة، إنها عدم وجود الخير. إني أحبّ كلمات سليمان التي تقول، '*إذا دخلت*

الحكمة قلبك، وتلذّذت نفسك بالمعرفة، فحسن التدبير يحفظك، والفهم يحرسك، فتنجو من طريق الأشرار، ومن المتكلمين بالكذب الذين يتركون الصراط المستقيم'».

هزّ جاكوب رأسه وقال: «هذه العبارات الرنانة لا تخفي الحقيقة بأنك تعارض الشريعة اليهودية الأساسية. يقول موسى بن ميمون نفسه إنّ الذين يتبعون وصايا التوراة سيكافئهم الرب بالنعمة والسعادة في الدنيا الآخرة. وقد سمعت بأذنيَّ هاتين الحاخام مورتيرا نفسه يؤكد أن الربّ سيقطع الشخص الذي ينكر شريعة التوراة عن الحياة الخالدة معه».

«وأنا أقول إن عباراته '*الدنيا الآخرة*' و'*الحياة الخالدة مع الربّ*' هي كلمات وضعها بشر، وليست كلمات قالها الرب، فلن تجد كلمات كهذه في التوراة كلها. إنها العبارات التي وضعها الأحبار الذين كتبوا تفاسير التفاسير».

«إذاً» قال جاكوب بإصرار، «هل أسمع أنك تنكر وجود العالم الآخر؟»

«العالم الآخر، الحياة الخالدة، الحياة الآخرة الهانئة - أكرّر، كلّ هذه العبارات هي من اختراع الأحبار».

فتابع جاكوب، «إذاً أنت تنكر أن الأتقياء سيجدون بهجة أبدية وأنهم سيلتقون مع الربّ وأن الأشرار سيُذمّون وسينالون عقاباً أبدياً؟»

«إنه شيء مناف للعقل أن نفكّر في أنّنا، كما نحن اليوم، سنستمرّ بعد الموت. فالجسم والعقل هما مظهران لنفس الشخص. فلا يمكن للعقل أن يستمر بعد أن يفنى الجسد».

«لكننا»، قال جاكوب بصوت مرتفع وبدا الغضب جلياً عليه الآن، «إننا نعرف أن الجسد سيُبعث من جديد. جميع أحبارنا

يعلّموننا ذلك. وقال موسى بن ميمون ذلك بوضوح. فهذا إحدى دعائم الإيمان الثلاث عشرة في الديانة اليهودية. إنه أساس إيماننا».

«جاكوب، لا بد أنني معلّم سيّئ. فقد ظننت أنني أوضحت تماماً استحالة حدوث هذه الأمور، لكن، بالرغم من ذلك تجول الآن مرة أخرى في أرض المعجزات. أذكّرك للمرة الثانية أن هذه كلّها آراء من صنع البشر، ولا علاقة لها بقوانين الطبيعة، ولا يمكن أن يحدث شيء بعكس قوانين الطبيعة الثابتة. فالطبيعة اللانهائية والأبديّة التي تضم كلّ شيء في الكون، تعمل بحسب قوانين منظّمة لا يمكن إلغاؤها بالأفكار والآراء الغيبية. فالجسد المتفسّخ الذي يستحيل تراباً لا يمكن تجميعه من جديد، ويخبرنا سِفر التكوين بذلك بوضوح شديد: *'وبعرق جبينك تكسب رزقك حتى ترجع إلى الأرض التي أُخذت منها، لأنك تراب وإلى تراب ترجع'*».

فسأله فرانكو، «هل هذا يعني أنني لن ألتقي بأبي الشهيد مرة أخرى؟»

«أنا، مثلك، أشتاق إلى رؤية أبي المبارك مرة أخرى، لكن قوانين الطبيعة تجري هكذا. فرانكو، فأنا أشاطرك اشتياقك، وعندما كنت طفلاً، كنت أعتقد أيضاً بأنّ الزمن سينتهي وأننا سنلتقي ذات يوم بعد الموت - مع أبي وأمّي - مع أنني كنت صغيراً جداً عندما ماتت أمّي إلى درجة أنني لا أكاد أتذكّرها، وبطبيعة الحال فإنهما سيلتقيان مع والديهما وأن والديهما سيلتقيان مع والديهما وهكذا إلى ما لا نهاية».

وتابع بنتو بصوت معلّم هادئ، «أما الآن، فقد تخلّيت عن هذه الآمال الطفولية واستبدلتها بالمعرفة الأكيدة بأنني أضع أبي في داخلي - وجهه، حبّه، حكمته - وبهذه الطريقة فإني أتّحد به. إن اللقاء المبارك يجب أن يتم في هذه الحياة لأن هذه الحياة هي كلّ ما لدينا.

لا توجد سعادة أبدية في عالم الآخرة لأنه لا يوجد عالم آخر. إن مهمّتنا، وأعتقد أن التوراة تعلّمنا هذا، هو أن نحصل على النعيم والسعادة في هذه الحياة، وأن نعيش في وقتنا الحاضر حياة مفعمة بالحبّ والتعلّم لمعرفة اللّه. إن التقوى الحقيقية تكمن في العدالة، وفي حبّ الخير، وفي حبّ جارك».

نهض جاكوب واقفاً ودفع كرسيه جانباً بقوة، وقال: «يكفي! لقد سمعت ما يكفي من هرطقتك ليوم واحد. يكفي لعمر واحد. سنغادر الآن. هيا بنا نذهب يا فرانكو».

عندما أمسك جاكوب بيد فرانكو، قال بنتو: «لا، ليس بعد. جاكوب، لا يزال هناك سؤال، لدهشتي، لم تسأله».

أفلت جاكوب ذراع فرانكو ونظر بحذر إلى بنتو، وقال: «أي سؤال؟»

«قلت لك إنّ الطبيعة أبديّة، أزلية، وتضم جوهر المادة».

«نعم؟» أصبح وجه جاكوب متجهماً ومتسائلاً، «أي سؤال؟»

«وألم أقل لك إنّ اللّه أبديّ، أزلي، ويضم جوهر المادة؟»

هزّ جاكوب رأسه، في حيرة تامة.

«تقول إنك كنت تسمع، تقول إنّك سمعت بما يكفي، لكن مع ذلك لم تسألني أهم سؤال».

«ما هو؟»

«إذا كان للربّ وللطبيعة صفات وخصائص متطابقة، فما هو الفرق بين الربّ والطبيعة؟»

فقال جاكوب: «حسناً، إني أسألك: ما الفرق بين الربّ والطبيعة؟»

«وسأعطيك الجواب الذي تعرفه للتو: لا يوجد فرق. فالربّ هو الطبيعة، والطبيعة هي الربّ».

حدّق كلّ من جاكوب وفرانكو في بنتو، ومن دون أن ينبس بكلمة أخرى، سحب جاكوب فرانكو على قدميه وجرّه إلى الشارع.

عندما غابا عن الأنظار، وضع جاكوب ذراعه حول فرانكو وعصره. «جيد، جيد، يا فرانكو، لقد حصلنا منه على ما نحتاج إليه. واعتبرته أنت رجلاً حكيماً؟ يا له من أحمق».

ابتعد فرانكو عن معانقة جاكوب له، وقال: «الأشياء ليست دائماً كما تبدو. قد تكون أنت الأحمق لأنك تظن أنه أحمق».

الفصل الرابع عشر

ميونيخ - ١٩١٨-١٩١٩

الشخصية قدرٌ. لقد توافقت الموجة الجديدة لفكر التحليل النفسي التي اعتنقها فريدريش مع أفكار سبينوزا بأنّ المستقبل محدّد بما حدث من قبل، وبتكويننا الجسدي والنفسي - عواطفنا، مخاوفنا، هواجسنا، أهدافنا، مزاجنا، حبّنا للذات، مواقفنا إزاء الآخرين.

لكن انظر إلى ألفريد روزنبرغ، فيلسوف مدّع، منفصل عن ذاته، فاشل، مكروه، غير محبّ، يفتقر إلى حبّ الفضول للتعرف على نفسه، وعلى الرغم من إحساسه المخادع بنفسه، فقد كان يمشي فوق الأرض مختالاً يتملكه إحساس متعجرف بالتفوق. هل كان بإمكان فريدريش، هل كان باستطاعة أيّ طالب ذي طبيعة بشرية، أن يتوقّع ذلك الصعود الهائل الذي حققه ألفريد روزنبرغ؟ لا، فالشخصية وحدها لا تكفي للتنبؤ بمصير الفرد. ثمة جوهر آخر وعنصر مزاجي. كيف يمكننا وصف ذلك؟ الثروة؟ الحظ؟ الحظّ الجيد المطلق بالتواجد في المكان والزمان المناسبين؟

الزمن المناسب؟ تشرين الثاني ١٩١٨. كانت الحرب على وشك الانتهاء، وكانت ألمانيا تبكي من هول صدمة الهزيمة، تعيش

في حالة من الفوضى ريثما يأتي المخلّص. والمكان الملائم؟ ميونيخ. بعد فترة قصيرة، سيشقّ ألفريد روزنبرغ طريقه ليصل إلى تلك البقعة المختارة التي كانت أزقّتها الخلفيّة وصالات البيرة الشعبية فيها تفقّس مسرحية عظيمة لا تنتظر سوى وصول ممثلين حقودين ذوي قوة خارقة.

مكث ألفريد في ريفال عدة أسابيع أخرى، يكافح ليكسب عيشه من تعليم الفن في المدارس الناطقة باللغة الألمانية. وفي إحدى المناسبات فوجئ بفوزه بجائزة صغيرة للوحتين من لوحاته - كان ذلك المبلغ الأول والوحيد الذي كسبه من فنّه طوال حياته. وفي مساء اليوم التالي، عندما كان في مزاج بهيج ذهب لحضور اجتماع عام في قاعة البلدة، حيث وقف سارح الفكر في الصفوف الخلفية يستمع إلى جدال حول مستقبل إستونيا. وفجأة، كما لو كان في غيبوبة، اندفع إلى مقدمة القاعة وألقى كلمة حماسية قصيرة عن أخطار البلشفية اليهودية التي كانت تلوح في روسيا المجاورة. هل اضطرب عندما قاطعه ذلك اليهودي، صاحب مخزن كبير وقاد مجموعة كبيرة من اليهود إلى باب الخروج احتجاجاً على ما يقوله؟ لا أبداً. فقد زُمت شفتا ألفريد في ابتسامة شخص عارف، مقتنعاً وسعيداً بأنه تمكن من تطهير الذين كانوا يستمعون إليه. لم يكن ينوي الشرّ لهؤلاء اليهود، بل كان يأمل أن يمكثوا دافئين وسعداء في مطابخ بيوتهم. كان يريدهم أن يغادروا ريفال. وبدأت بذور فكرة خطيرة تنبت في رأسه شيئاً فشيئاً: وهي أنهم يجب ألّا يغادروا ريفال فقط، ولا إستونيا فقط، وإنما أوروبا برمّتها، وأنه لن تكون أرض الأجداد آمنة، ولن تزدهر إلّا بعد أن يغادر جميع اليهود أوروبا.

وبدأ عزمه على الهجرة إلى ألمانيا يزداد يوماً بعد يوم. فلم يعد يرغب في أن يعيش في بلد ثانوي عديم القيمة. فبعد أن أُفرغت

إستونيا من الألمان الآن، بدأت تسير نحو مستقبل متزعزع، غير مستقر، كبلد مستقل ضعيف، أو الأسوأ من ذلك، أن اليهود البلاشفة الروس سيسيطرون عليه. لكن كيف سيغادر؟ فجميع الطرق المؤدية إلى خارج إستونيا مغلقة، وقد استولى الجيش على جميع القطارات لإعادة الجنود المندحرين إلى ألمانيا. مُحاصراً وحائراً، تلقّى ألفريد أول زيارة له من ملاك الحظّ السعيد.

ففي المقهى الذي يرتاده أبناء الطبقة العاملة حيث يتناول ألفريد عشاءه في أحيان كثيره، كان يحتسي البيرة ويتناول المقانق ويقرأ رواية *الإخوة كارامازوف*. كان يقرأها بالروسية لكن كانت أمامه على الطاولة نسخة مترجمة إلى اللغة الألمانية كان يتوقّف بين حين وآخر ليدقق صحة الترجمة. وعندما أزعجه الضجيج البهيج المنبعث من الأشخاص الجالسين إلى الطاولة المجاورة، نهض واقفاً يبحث عن بقعة أكثر هدوءاً. وبينما جالت عيناه في المقهى، تناهى إليه صوت أشخاص يتكلمون باللغة الألمانية يجلسون إلى الطاولة الأخرى.

«نعم، نعم، سأغادر ريفال»، قال خباز في متوسط العمر يضع مئزراً أبيض مكسواً بالطحين يحاول بصعوبة احتواء بطن ضخمة. ابتسم ابتسامة عريضة وهو يفتح قنينة شراب شنابس للاحتفال مع رفاقه الثلاثة. صبّ كأساً، ورفعها فوق رأسه، وشرب نخبهم. «أشرب لأودعكم يا أصدقائي الأعزاء، وأرجو أن نلتقي في أرض الوطن. لأول مرة في حياتي أفعل شيئاً جيداً - خباز ذكي».

وأشار إلى رأسه ثم إلى بطنه، وقال: «لقد أحضرتُ إلى القائد العسكري رغيفين من خبزي الألماني وأفضل فطيرة بالتفاح والزبيب، ساخنة ولذيذة من الفرن مباشرة. لكن مساعده نظر إليّ بوجه عابس وحاول أن يأخذها منّي وقال إنه سيعطيها للقائد، لكنني نظرت إليه ملياً ووعدته بأنني سأعود بعد قليل لأحضر له فطيرة له تُخبز في فرني

الآن. والأهم من ذلك، قلت له إن القائد نفسه طلب أن أسلمها له شخصياً - لقد اختلقت ذلك في الحال. ثمّ دخلت إلى مكتب القائد، أريته هديتي، ورجوته أن يسمح لي بالذهاب إلى برلين، وقلت له: 'لن تكون أموري على ما يرام بعد أن يغادر الجيش لأن الأستونيين سيعتبرونني متعاوناً مع الألمان لأنني أخبز خبزاً ومعجنات ألمانية جيدة للجيش. انظر إلى هذا الخبز، ثقيل وهشّ. شمّه. تذوقه' وقطعت له قطعة ووضعتها في فمه المفتوح. مضغها، وتلألأت عيناه بالبهجة. 'الآن شمّ الفطيرة'، قلت له وقرّبتها من أنفه فراح يتنشق الرائحة المنبعثة منها. وسرعان ما انتشى بها: فبدأت عيناه تدوران في دوائر، ونهض واقفاً على قدميه. 'الآن، افتح فمك لتتذوق طعم الجنة'، ففتح فمه. ومثل أمّ طير ألقمته قطعاً من الفطيرة، وقد اخترت قطعاً محشوة بالزبيب، وأطلق أصوات بهيجة وهو يمضغ، ثم قال: 'نعم، نعم، نعم'، ودون أن يقول كلمة أخرى طلب منحي إذن سفر مشقّة إلى ألمانيا. وهكذا، فإني سأستقل القطار صباح غد، أما أنتم يا أصدقائي، فأهلاً بكم إلى العجينة التي تنضج في فرني الآن».

على مدى ثلاثة أيام، كان ألفريد يفكّر في ما سمعه، وعندما استيقظ في صباح اليوم الرابع، قرر أن يفعل كما فعل الخباز. فتوجه إلى مقر القيادة العسكرية وحمل ثلاثاً من أفضل لوحاته التي رسمها عن ريفال. وكما فعل الخباز، قال للضابط المسؤول عن المعسكر إنه يريد أن يقدّم هديته إلى القائد بنفسه. وتبخّرت مقاومة الضابط المساعد بسرعة عندما أهداه ألفريد إحدى رسوماته. وعندما دخل إلى مكتب القائد، قدّم له ألفريد لوحاته وقال: «ليست هذه سوى ذكرى صغيرة عن الفترة التي أمضيتها في ريفال. فقد كنت أعلّم الألمان الرسم، أما الآن فإني لا أريد شيئاً أكثر من أن أعلّم أهل

برلين فني». أمعن القائد النظر في أعمال ألفريد، وقد برزت شفته السفلى إعجاباً بها. وعندما وصف ألفريد الكلمة التي ألقاها في ذلك اللقاء العام وخروج اليهود من القاعة، أحبّه القائد وتطوّع من تلقاء نفسه بالقول إن ألفريد لن يكون في مأمن إذا بقي في إستونيا بعد جلاء القوات الألمانية، ومنحه آخر مقعد متاح في القطار المتوجّه إلى برلين الذي سينطلق عند منتصف الليل.

الوطن! سيعود أخيراً إلى أرض الأجداد! الوطن الذي لم يعرفه من قبل قط. وقد أنسته هذه الفكرة كلّ التعب الجسدي والمشقة التي تجشمها خلال تلك الرحلة الطويلة التي دامت أياماً عديدة في ذلك البرد القارس في القطار المتجه إلى برلين. لكن ما إن وصل إلى برلين، حتى فترت همته عندما رأى الاستعراض العسكري البائس للجيش الألماني العائد المهزوم في أونتر دن ليندن. وسرعان ما عرف ألفريد أن برلين ليست كما كان يتمنى، وشعر بوحدة لم تنتبْهُ من قبل. فلم يكلّم أحداً في محطة غوث المهاجرين التي نزل فيها، لكنّه راح يستمع بلهفة إلى أحاديث الناس. كانت ميونيخ تلهج على لسان الجميع. ففيها الفنانون الطليعيون بالإضافة إلى الجماعات السياسية المعادية للساميّة، بالإضافة إلى أن ميونيخ هي مكان تجمع المتطرفين الروس البيض المعادين للبلاشفة. وهكذا وجد ألفريد أنه لا يستطيع أن يقاوم الذهاب إلى ميونيخ. مقتنعاً بأنّ قدره يقبع في ميونيخ، انطلق بعد أسبوع على ظهر شاحنة ماشية إليها.

عندما بدأت نقوده تتناقص، بدأ ألفريد يتناول غداءه وعشاءه مجاناً في مركز المهاجرين في ميونيخ الذي كان يقدّم طعاماً جيداً لكن كان على المرء أن يجلب ملعقته معه وهذا ما وجده أمراً مهيناً. كانت ميونيخ مدينة مفتوحة، مشمسة، تعجّ بالنشاط، تمتلئ بصالات الفن ويملأ الرسامون شوارعها - وعندما دقق في لوحات الرسامين

في الشوارع، وجد أن لوحاتهم أفضل بكثير من رسوماته، وشعر بالحزن عندما وجد أن أحداً لا يشتري لوحاتهم. وبدأ يشعر بالقلق: كيف سيعيش؟ أين سيجد عملاً؟ لكنه، بصورة عامة، لم يأبه كثيراً لذلك. فقد كان متيقناً من أنّه كان في المكان الصحيح، ويعرف أنّ مستقبله سيُفتح أمامه إن آجلاً أم عاجلاً. وبينما كان ينتظر، أمضى أيامه في صالات المعارض الفنية وفي المكتبات العامة يقرأ كلّ ما يمكن أن يجده حول التاريخ والأدب اليهودي وبدأ يضع خطوطاً عريضة لكتاب بعنوان «*أثر اليهودي*».

ومرة تلو مرة، بدأ اسم سبينوزا يظهر في قراءاته عن التاريخ اليهودي. ومع أنه غادر ريفال حاملاً كلّ ما يملكه في حقيبة واحدة، فقد كان لا يزال يحتفظ بنسخته من كتاب سبينوزا «*الأخلاق*»، لكن بناء على نصيحة فريدريش لم يحاول أن يقرأه مرة أخرى، وسجّل اسمه في قائمة الانتظار في المكتبة للحصول على كتاب سبينوزا الآخر، *رسالة في اللاهوت والسياسة*.

بينما كان يجوب شوارع ميونيخ محاولاً عبثاً أن يبيع بعض رسوماته، أصابه الحظّ السعيد مرة أخرى عندما نظر بالصدفة إلى لافتة على واجهة إحدى البنايات: *إديث شرينك: تعليم الرقص*. إديث شرينك - إنه يعرف هذا الاسم. فمنذ عدة سنوات كانت زوجته السابقة هيلدا، وإديث تتعلمان الرقص في نفس المدرسة في موسكو. ومع أنه كان خجولاً بطبعه ولم يكلّم إديث إلّا مرّة أو مرّتين، فقد أحسّ بالشوق لرؤية وجه يعرفه، فنقر نقرات خفيفة على بابها. كانت إديث ترتدي ثوب رقص أسود يلتصق بجسدها، وتلفّ وشاحاً أزرق حول رقبتها. حيّته بود، ودعته إلى الجلوس، وقدمت له قهوة، وسألته عن هيلدا التي تحبّها كثيراً. وفي حديث طويل حكى لها ألفريد عن الشكوك التي تساوره حول مستقبله، وعن اهتمامه بالمسألة

اليهودية، وعن تجربته خلال الثورة الروسية. وعندما قال لها إنه يكتب مقالة عن أخطار البلشفية اليهودية، وضعت إديث يدها على يده، وقالت: «لماذا، إذاً يا ألفريد، لا تزور صديقي ديتريش إكارت، محرّر الصحيفة الأسبوعية *Auf gut Deutsch*، فهو يحمل أفكاراً مشابهة لأفكارك، وقد يبدي اهتماماً بملاحظاتك عن الثورة الروسية. هذا هو عنوانه. لا تنسَ أن تذكر له اسمي عندما تراه».

من دون إبطاء خرج ألفريد بسرعة وتوجّه إلى لقاء غيّر مسيرة حياته. وفي طريقه إلى مكتب إكارت بحث عن صحيفة *Auf gut Deutsch* في كشكين لبيع الصحف، لكن قيل له إنها بيعت كلها. وبينما كان يصعد الدرج إلى مكتب إكارت في الطابق الثالث، تذكّر كيف أن فريدريش حذّره من أنّ الأعمال المتعصّبة الاندفاعية قد تؤدي إلى نتائج عكسية، لكنه ألقى بهذه النصيحة عرض الحائط. فتح ألفريد الباب، وقدّم نفسه إلى ديتريش إكارت، وذكر اسم إديث، وقال باندفاع «هل يمكنك أن تستخدم مقاتلاً ضد القدس؟ فأنا مقاتل متفان وسأظل أحارب حتى أسقط».

الفصل الخامس عشر

أمستردام - تموز (يوليو) ١٦٥٦

بعد يومين، بينما كان بنتو وغابرييل يفتحان المخزن، جرى نحوهما صبي صغير يعتمر طاقيّة. وقف ليلتقط أنفاسه ثم قال: «بنتو، الحاخام يريد أن يكلمك. الآن. إنه ينتظرك في الكنيس».

لم يفاجأ بنتو بذلك: فقد كان يتوقّع مثل هذه الدعوة. وضع مكنسته جانباً، وشرب آخر رشفة من كوب قهوته، وأومأ مودعاً غابرييل، وتبع الصبي الصغير بصمت نحو الكنيس. خرج غابرييل وراح يراقب الاثنين حتى غابا عن نظره.

في غرفة مكتبه في الطابق الثاني في الكنيس، كان الحاخام شاول ليفي مورتيرا الذي يرتدي زي رجل هولندي ثري- بنطلون وسترة من وبر الجمل، وينتعل حذاء جلدياً فضياً مبكّلاً - ينقر بقلمه بعصبية على طاولته بانتظار قدوم باروخ سبينوزا. كان رجلاً طويلاً، مهيباً، في الستّين من العمر، له أنف حادّ مثل موسى حلاقة، وعينان مخيفتان، وشفتان مزمومتان صارمتان، وأرخى لحية صغيرة مشذّبة يتخللها الشيب. وكان الحاخام مورتيرا يجمع في شخصيته صفات متعددة - عالم جليل، ألّف كتباً عديدة، مفكّر، محارب شرس، انتصر في معارك عنيفة مع حاخامات منافسين، مدافع عن قدسية

التوراة ببسالة - لكنّه لم يكن رجلاً يتحلّى بالصبر. كانت قد مضت حوالي ثلاثين دقيقة على إرساله الفتى، المتدرب في *بار ميتزفه*، ليجلب تلميذه السابق المتمرّد.

ترأّس شاول مورتيرا بمهابة الطائفة اليهودية في أمستردام منذ سبع وثلاثين سنة. وفي عام ١٦١٩، عيّن في أول منصب له حاخاماً في كنيس *بيث جاكوب*، وهو أحد معابد السيفارديم الصغيرة الثلاثة في المدينة. وعندما اندمجت رعيته مع رعايا كنيسيْ *نيف شالوم وبيث إسرائيل* في سنة ١٦٣٩، اختير شاول مورتيرا من بين عدد من المرشّحين الآخرين لتسلّم منصب كبير حاخامات كنيس *تلمود التوراة الجديد*. إنه حصن منيع من الشرائع اليهودية التقليدية، وحمى أبناء طائفته طوال عقود من تشكيك وعلمانية موجة المهاجرين البرتغاليين الذين أُرغم الكثير منهم على اعتناق المسيحية، والذين لم يتعلّم سوى عدد قليل منهم التقاليد اليهودية في صغرهم. كان يشعر بالتعب - لأن تعليم الكبار في السن التعاليم والتقاليد اليهودية القديمة عمل شاقّ. وكان يقدّر عالياً الدرس الذي يعرفه جيداً جميع المعلمين الدينيين، وهو أن من الجوهري تعليم التلاميذ في سن مبكرة جداً.

معلّم لا يكلّ ولا يملّ، وضع منهاجاً شاملاً، واستقدم عدداً من المعلمين، وكان يعلّم يومياً اللغة العبرية ونصوص التوراة والتلمود الطلاب الأكبر سنّاً، وكان يتبارى مع حاخامات آخرين ليفرض تفسيراته هو حول شرائع التوراة. وكانت إحدى معاركه الشرسة قد جرت منذ أربع عشرة سنة مع مساعده ومنافسه، الحاخام إسحاق أبوب دي فونسيكا، حول السؤال: هل سيعيش المذنبون اليهود الذين لم يتوبوا، حتى أولئك اليهود الذين أرغمتهم محاكم التفتيش تحت التعذيب وألم الموت على اعتناق المسيحية، في الدنيا الآخرة إلى الأبد. فقد كان الحاخام أبوب، الذي كان يحظى بتقدير كبير من

أبناء الرعية، والذي تحوّل عدد من أقاربه إلى المسيحية ولا يزالون يعيشون في البرتغال، يرى أنّ اليهودي يظل يهودياً دائماً وأنّ جميع اليهود سيدخلون في نهاية المطاف إلى عالم الآخرة المبارك. وكان يلحّ على أن الدم اليهودي يبقى ولا يمكن أن يمحوه شيء، حتى لو اعتنق ديناً آخر. وللمفارقة، فقد دعم ادعاءه هذا بما قالته الملكة إيزابيلا، ملكة إسبانيا، أكبر أعداء اليهود، التي أقرّت بعدم زوال الدم اليهودي عندما سنّت القانون *«Estatutos de Limpieza de Sangre»*، (*قانون نقاء الدم*) الذي يحظر على المسيحيين الجدد، أي اليهود الذين تحوّلوا إلى المسيحية - من تسلّم مناصب مدنية وعسكرية هامة.

أما موقف الحاخام مورتيرا المتشدّد، فقد كان يتماشى مع بنية جسمه - متعنّت، متصلّب، معارض شرس - وكان يصرّ على أنّ جميع اليهود الذين لم يعلنوا توبتهم والذين خرقوا القانون اليهودي لن يدخلوا إلى العالم الآخر السعيد الأبدي وإنما سيلاقون عذاباً أبدياً. فالشريعة هي الشريعة، ولا توجد استثناءات، حتى لأولئك اليهود الذين استسلموا تحت التهديد بالموت لمحاكم التفتيش البرتغالية والإسبانية. فقد كُتب على جميع اليهود غير المختونين أو الذين انتهكوا قوانين الطعام اليهودية أو الذين لم يلتزموا بطقوس يوم السبت أو بأيّ شريعة من الشرائع الدينية التي لا تعد ولا تحصى، العذاب الأبدي.

أغضب موقف مورتيرا القاسي يهود أمستردام الذين يوجد لديهم أقارب اعتنقوا المسيحية وكانوا لا يزالون يعيشون في البرتغال وإسبانيا، لكنّه لم يتزحزح عن موقفه. وكان الجدال الذي أعقب ذلك حاداً وخلافياً إلى درجة أن أعضاء المجمع اليهودي في الكنيس طالبوا حاخامية فينيسيا بأن تتدخّل وأن تقدّم تفسيراً حاسماً لهذه

المسألة. فوافق حاخامات فينيسيا على مضض، واستمعوا إلى حجج المبعوثين التي قُدّمت في معظم الأحيان بأصوات عالية من طرفيْ هذا الخلاف المعقّد. وأمضى الحاخامات ساعتين في دراسة ردّهم. قرقعت البطون، وأُجِّل العشاء، وقرروا بالإجماع أخيراً ألّا يصدروا قراراً: لأنهم لم يرغبوا في أن يكونوا جزءاً في هذا الخلاف الشائك، وقالوا إن على رعية أمستردام حلّ هذه المشكلة بأنفسهم.

لكن أبناء الطائفة في أمستردام لم يتوصلوا إلى حلّ، ولكي لا يصل الأمر إلى حدوث انشقاق ديني لا يمكن رأبه، أرسلوا وفداً خاصاً للمرة الثانية إلى فينيسيا وطالبوا بتدخّل خارجي حاسم. فتوصلت الحاخامية في فينيسيا أخيراً إلى قرار أيدت فيه رأي شاول مورتيرا (الذي كان، بالمناسبة، قد تعلّم في يشيفا فينيسيا). فعاد الوفد الذي يحمل قرار الحاخامات إلى أمستردام بسرعة، وبعد أربعة أسابيع، وقف عدد كبير من أبناء الطائفة بحزن شديد في الميناء، يلوّحون مودعين الحاخام الحزين أبوب وأفراد أسرته، بينما كانت أغراضهم تُحمّل على متن سفينة متوجّهة إلى البرازيل، حيث سيتسلم واجباته الحاخامية في مدينة ريسيف الساحلية النائية. ومنذ ذلك الحين، لم يعد أي حاخام في أمستردام يجرؤ على مواجهة الحاخام مورتيرا.

لكن شاول مورتيرا وجد نفسه اليوم أمام معضلة مؤلمة شخصياً أكبر بكثير من سابقتها. وكان أعضاء المجمع اليهودي في الكنيس قد عقدوا اجتماعاً مساء اليوم السابق، واتخذوا قراراً بشأن مشكلة سبينوزا، وطلبوا من حاخامهم أن يبلغ باروخ بحرمانه الكنسي - في كنيس *تلمود التوراة*، بعد يومين من اتخاذهم ذلك القرار. وكان مايكل سبينوزا، والد باروخ، طوال أربعين عاماً أحد الأصدقاء المقربين لشاول مورتيرا ومن كبار مؤيديه. وكان اسم مايكل مسجلاً

في سند الملكية الأصلي لبيث جاكوب، ولم يتوقف طوال تلك العقود عن دعم صندوق الكنيس بسخاء (الذي يسدد أيضاً راتب الحاخام) بالإضافة إلى الأعمال الخيرية الأخرى التي تُقدّم للكنيس. وخلال تلك الفترة، كان مايكل يحضر جميع اجتماعات «*تاج القانون*» تقريباً، وهي المجموعة الدراسية التي كان يديرها الحاخام مورتيرا للبالغين والتي كان أعضاؤها يلتقون في بيت الحاخام. وفي مناسبات كثيرة، كان مايكل، يأتي برفقة ابنه العبقري، باروخ، لتناول العشاء على مائدته بالإضافة إلى حوالي أربعين شخصاً آخر. كما كان مايكل، وشقيقه الأكبر أبراهام، عضوين في المجمع اليهودي، وهو السلطة المطلقة في إدارة الكنيس.

لكن الحاخام كان يفكّر الآن. اليوم، في أيّ دقيقة. . . أين باروخ؟ إذ يتعين عليه أن يخبر ابن صديقه العزيز بالكارثة التي تنتظره. فقد كان شاول مورتيرا قد تلا الصلوات في حفل ختان باروخ، وأشرف على طقوس الاحتفال ببلوغه الثالثة عشرة (بار متسفا)، وكان يراقبه وهو يكبر ويتطوّر خلال تلك السنوات. كم كان هذا الصبي موهوباً، يمتلك مواهب استثنائية لا يمتلكها أحد آخر! فقد كان يفهم المعلومات ويتشربها مثل إسفنجة. وكانت جميع مراحله التعليمية تبدو كأنها ابتدائية لذلك كان المعلّمون يقدمون له نصوصاً متقدّمة في حين كان الطلاب الآخرون يبذلون جهوداً كبيرة لفهم الدروس وتأدية الفروض التي تقدم إليهم. وكان الحاخام مورتيرا يخشى أن يؤدي حسد الطلاب الآخرين إلى معاداة باروخ، لكن ذلك لم يحدث: فقد كانت قدراته واضحة للجميع، وكانت تفوق قدرات الجميع، فحظي بتقدير الطلاب الآخرين وكانوا يسعون إلى مصادقته، وكانوا غالباً يستشيرونه ويسألونه هو بدلاً من أن يسألوا أساتذتهم، حول مسألة معقّدة في الترجمة أو في التفسير. وتذكّر

الحاخام مورتيرا كيف أنه هو أيضاً كان ينظر إلى باروخ بوجل، وفي أحيان كثيرة كان يطلب من مايكل أن يحضر معه باروخ إلى العشاء ليدخل البهجة إلى نفس ضيف مشهور. أما الآن، قال شاول مورتيرا لنفسه متنهداً، لقد مرت فترة باروخ الذهبية، من سن الرابعة حتى الرابعة عشرة، منذ زمن طويل. فقد تغيّر الفتى كثيراً، وأخذ منعطفاً خاطئاً، وأصبح أبناء الطائفة جميعاً يواجهون خطر ذاك الفتى الأعجوبة ويرونه وهو يتحوّل إلى وحش سيلتهم نفسه.

سُمع صوت وقع خطوات على الدرج. بدأ باروخ يقترب. ظل الحاخام مورتيرا جالساً، وعندما ظهر باروخ عند باب مكتبه، لم يلتفت ليرحب به، وإنما أشار له لأن يجلس في مقعد واطئ غير مريح بجانب طاولة مكتبه، وخاطبه بحدّة: «اجلس هناك. لديّ أخبار مأساوية لك، أخبار ستغيّر مسار حياتك إلى الأبد». تكلّم الحاخام بلغة برتغالية ركيكة، لكنها مفهومة. فعلى الرغم من أن الحاخام مورتيرا يعود إلى أصول أشكنازية، وليس إلى السيفارديم، ومع أنه ولد وتعلّم في إيطاليا، وتزوّج امرأة من المارانو(*) فقد تعلّم ما يكفي من اللغة البرتغالية تجعله قادراً على إلقاء مئات المواعظ في يوم السبت أمام رعية برتغالية في الأصل.

أجاب باروخ بنبرة رصينة، «لا شكّ أن ما حدث هو أن أعضاء المجمع قد اتخذوا قرّاراً بحرماني الكنسي، وطلبوا منك أن تبلغني بقرار الحرمان في احتفال عام سيقام في الكنيس؟»

«وقح، كعهدك دائماً. ينبغي أن أكون قد تعودت على ذلك

(*) يهود شبه جزيرة إيبيريا الذين اعتنقوا المسيحية طوعاً أو قسراً والذين ظل بعضهم يمارسون دينهم اليهودي سرّاً.

الآن، لكنّي لا أزال مندهشاً من تحوّل طفل حكيم إلى شخص بالغ أحمق. لقد أصبت في تخميناتك يا باروخ - فهذا ما طلبوه مني تماماً. إذ إنك ستوضع غداً على قائمة *الحرم* وسيتم نبذك وطردك من هذه الطائفة إلى الأبد. لكنّي أعترض على استخدامك غير اللائق للفعل 'حدث'. ولا نظن أن الحرمان هو مجرد شيء حدث لك، بل أنت الذي جلبت الحرمان على نفسك بتصرفاتك وأعمالك».

فتح باروخ فمه ليردّ، لكن الحاخام أسرع يقول: «في جميع الأحوال، ربما لم يضع كلّ شيء بعد. فأنا رجل مخلص، وصداقتي الطويلة مع أبيك بارك اللّه روحه تحتّم عليّ أن أبذل كل ما بوسعي لأوفر لك الحماية والتوجيه. إن ما أريده منك الآن، في هذه اللحظة بالذات، أن تجلس وتنصت. فقد علّمتك منذ أن كنتَ في الخامسة من عمرك، لكنك لم تكبر كثيراً لتتعلم المزيد. أريد أن أعطيك نوعاً معيّناً من دروس التاريخ.

«لنعد»، قال شاول مورتيرا بصوته الحاخامي، «إلى إسبانيا القديمة، أرض أسلافك. لعلك تعرف أنّ اليهود قد جاؤوا في البداية إلى إسبانيا منذ ألف سنة، وعاشوا في سلام مع المسلمين والمسيحيين لقرون طويلة مع أنّ اليهود كانوا يتعرضون للعداء في مكان آخر؟»

هزّ باروخ رأسه متبرماً وراح ينقل عينيه من جانب إلى آخر.

لاحظ الحاخام مورتيرا هزة رأسه لكنه تركها تمرّ، ثم أضاف، «في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، طُردنا من بلد بعد بلد، أولاً من إنكلترا، مصدر افتراء الدم اللعين الذي اتهمنا بأننا نصنع خبز الفطير بدم الأطفال الأغيار، أي غير اليهود، ثمّ طردتنا فرنسا، ثمّ تلتها مدن ألمانيا وإيطاليا وسيسيلي - أوروبا الغربية كلّها في واقع الحال - ما عدا إسبانيا، حيث ساد التعايش، وعاش اليهود

والمسيحيون والمسلمون معاً في وئام وتفاهم. إلّا أن استعادة المسيحيين، شيئاً فشيئاً، لإسبانيا من أيدي المسلمين لطّخ هذه الفترة الذهبية، وأنت تعرف نهاية هذا التعايش سنة ١٣٩١؟»

«نعم، أعرف قصة الطرد والترحيل والمذابح التي جرت سنة ١٣٩١ في قشتالة وأرغون. أعرف كلّ ذلك. وأنت تعرف أنّني أعرفها. لماذا تخبرني بها اليوم؟»

«أعرف أنك تظن أنك تعرف. لكن هناك معرفة، وهناك المعرفة الصحيحة، المعرفة في قلبك، لكنك لم تبلغ بعد تلك المرحلة. كلّ ما أطلبه منك الآن هو أن تستمع إلى ما سأقوله. لا شيء غير ذلك. سيتضح كلّ شيء في الوقت المناسب».

وواصل الحاخام، «إن الأمر المختلف عن سنة ١٣٩١ هو أنه بعد تلك المذبحة، بدأ اليهود، لأول مرة في التاريخ، يتحوّلون إلى المسيحية - وتحوّلت أعداد هائلة، بالآلاف، لا بل بعشرات الآلاف. لقد استسلم اليهود الإسبان. كانوا ضعفاء. وقرّروا أن التوراة - الكلمة المرسلة مباشرة من الرب - وتراثنا الذي يزيد عمره على ثلاثة آلاف سنة لا يساويان ثمن المضايقات المتواصلة.

«وكان لهذا التحوّل الهائل لليهود مغزى يهز العالم، فلم يسبق لنا نحن اليهود أن تخلّينا عن ديننا طوال التاريخ. قارن هذا بردّ اليهود في سنة ١٠٩٦. هل تعرف هذا التاريخ؟ هل تعرف إلى ماذا أشير يا باروخ؟»

«لا شكّ أنك تعني اليهود الذين ذُبحوا في المذابح المدبرة في أثناء الحملات الصليبية - مذبحة عام ١٠٩٦ في ماينتس».

«في ماينتس وفي أماكن أخرى في أرجاء راينلاند. نعم، ذُبحوا، وأنت تعرف من قاد الجزّارين؟ الرهبان! فكلما كان اليهود يُذبحون، كنت تجد رجال الصليب على رأس القطيع. نعم، أولئك

اليهود اللطيفون في ماينتس، أولئك الشهداء الرائعون، فضّلوا الموت على أن يغيّروا دينهم - ومدّ عدد كبير منهم رقابهم إلى القتلة، وذبح عدد كبير آخر أفراد أسرهم بأيديهم لكي لا تدنّسهم سيوف الأغيار الكفار. لقد فضّلوا الموت على أن يبدّلوا دينهم».

نظر باروخ إليه نظرة مليئة بالشك، وقال: «وهل أنت سعيد بذلك؟ هل ترى أنه شيء رائع أن تضع حداً لوجودك وتقتل أطفالك حتى...»

«باروخ، لا يزال أمامك الكثير لتتعلّمه إذا لم تكن ترى أن هناك سبباً جديراً لتضحي بحياتك التافهة في سبيله، لكن الوقت قصير جداً الآن حتى تتعلّم هذه الأشياء. فأنت لست هنا اليوم لتكشف عن وقاحتك. سيكون لديك وقت كاف لتفعل ذلك لاحقاً. وسواء أقدّرت ذلك أم لم تقدّر، فأنت الآن في أخطر مفترق طرق في حياتك، وأنا أحاول أن أساعدك الآن لكي تختار طريقك. أريدك أن تنصت بانتباه شديد وبصمت إلى ما سأقوله حول كيف أن حضارتنا اليهودية برمّتها معرضة للخطر الآن».

رفع بنتو رأسه عالياً، وتنفّس بعمق، وتذكّر كيف أن صوت الحاخام الحاد والعنيف كان يفزعه في الماضي وكيف أنه لم يعد يخيفه اليوم.

أخذ الحاخام مورتيرا نفساً عميقاً وتابع كلامه، «في القرن الخامس عشر كان لا يزال هناك عشرات الآلاف ممّن اعتنقوا المسيحية في إسبانيا، بمن فيهم أفراد عائلتك. لكن شهية الكنيسة الكاثوليكية للدم لم تتوقف. فادّعوا أن هؤلاء ليسوا مسيحيين بما يكفي، وأن بعضهم لا يزالون يحتفظون بمشاعر يهودية، فقرروا أن يرسلوا محقّقين ليتأكدوا ما إذا كان لا يزال فيهم أي شيء يهودي. فراحوا يسألون، 'ماذا فعلتم يوم الجمعة، ويوم السبت؟' 'هل

توقدون شموعاً؟' 'في أيّ يوم تغيّرون الشراشف؟' 'كيف تصنعون الحساء؟' وإذا اكتشف المحقّقون أيّ أثر يدلّ على وجود مظاهر يهودية أو عادات يهودية أو طعام يهودي، فقد كان الكهنة اللطيفون يحرقونهم وهم أحياء على الملأ. وعلى الرغم من ذلك، فإنهم لم يقتنعوا من نظافتهم. فقد كان عليهم أن يزيلوا أي أثر يهودي. فلم يريدوا أن ترى عيون الذين اعتنقوا المسيحية يهودياً ملتزماً حقيقياً لأنهم كانوا يخشون أن تستيقظ فيهم العادات القديمة، فطردوا جميع اليهود من إسبانيا سنة ١٤٩٢. وذهب العديد منهم، بمن فيهم أسلافك، إلى البرتغال لكنهم لم يتمتّعوا إلّا بفترة قصيرة من الراحة فيها. وبعد خمس سنوات، أصرّ ملك البرتغال على أن يختار كلّ يهودي إما أن يعتنق المسيحية أو يُطرد من البلاد. ومرة أخرى، فقد اختار عشرات الآلاف أن يتحوّلوا إلى الدين المسيحي وهكذا خسرناهم من ديننا. هذه هي النقطة الدنيا في التاريخ اليهودي، هذه النقطة الدنيا التي تجعل الكثيرين، وأنا من بينهم، يعتقدون بأنّ قدوم المسيح المنتظر أصبح وشيكاً. هل تتذكّر عندما أعرتك ثلاثة مجلدات ضخمة من *ثلاثية المسيحانية* التي كتبها إسحاق أبرابانيل التي ذكر فيها هذا الأمر بالذات؟»

«أتذكّر أنّ أبرابانيل لم يطرح بعقلانية لماذا يجب أن يكون اليهود في أدنى نقطة حتى يقع هذا الحدث الأسطوري. ولا أيّ تفسير لماذا لم يكن الرب الكلي القدرة قادراً على حماية شعبه المختار وتركهم يصلون إلى هذه النقطة الدنيا، ولماذا...»

فصاح الحاخام، «اسكت. استمع اليوم فقط يا باروخ. استمع لمرة واحدة، بل ربما لآخر مرة، افعل تماماً ما أقوله لك. عندما أسألك سؤالاً، أجب فقط بنعم أو لا. عندي بضعة أشياء أخرى أريد أن أقولها. كنت أتحدّث عن أدنى نقطة في التاريخ اليهودي. أين

يمكن أن يبحث اليهود في أواخر القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر عن ملاذ؟ أين كان في العالم كله ملاذ آمن؟ فذهب بعضهم شرقاً إلى الإمبراطورية العثمانية أو إلى ليفورنو بإيطاليا، حيث تسامحت معهم شعوبها بسبب شبكتهم التجارية الدولية الهامة. ثم، بعد سنة ١٥٧٩، عندما أعلنت أقاليم هولندا الشمالية استقلالها عن إسبانيا الكاثوليكية، قدم عدد من اليهود إلى هنا، أمستردام.

«كيف رحّب بنا الهولنديون؟ كان ترحيبهم لا يشبه ترحيب أي شعب آخر في العالم. كانوا متسامحين جداً حول الدين. لم يسأل أحد عن المعتقدات الدينية. كانوا من أتباع الكالفينية لكنهم منحوا كلّ شخص الحقّ في العبادة بطريقته الخاصة - ما عدا الكاثوليك. لم يكن هناك تسامح كبير معهم. لكن هذه ليست قضيتنا. فلم نتعرض للمضايقة هنا، وإنما لقينا ترحيباً، لأن هولندا كانت تريد أن تصبح مركزاً تجارياً هاماً وكانوا يعرفون أن باستطاعة التجّار المارانو المساعدة في تطوير تلك التجارة. وسرعان ما بدأت تصل أعداد أكثر وأكثر من المهاجرين من البرتغال، وتمتّعوا بتسامح لم يُر في مكان آخر منذ قرون. وجاء يهود آخرون أيضاً: وتدفقت كذلك موجات من اليهود الأشكناز الفقراء من ألمانيا وأوروبا الشرقية هرباً من العنف المجنون الذي كان سائداً ضد اليهود هناك. وبالطبع كان اليهود الأشكناز يفتقرون إلى ثقافة اليهود السيفارديم: فكانوا يفتقرون إلى التعليم ولم تكن لديهم مهارات، وأصبح معظمهم باعة متجولين، وتجّار ألبسة قديمة، وأصحاب محلات، لكننا مع ذلك رحّبنا بهم وقدمنا لهم المساعدة. هل تعلم أن والدك كان يقدم تبرّعات سخية منتظمة إلى الصندوق الخيري للأشكنازيين في كنيسنا؟»

ظل باروخ صامتاً، يومئ برأسه.

«ثم»، تابع الحاخام مورتيرا، «بعد بضع سنوات، اعترفت

سلطات أمستردام، بالتشاور مع الخبير القانوني العظيم غروتيوس، رسمياً بحقّنا في العيش في أمستردام. في البداية كنّا وديعين واتبعنا أساليبنا القديمة في البقاء غير بارزين، فلم نكن نُظهر معابدنا الأربعة بوضوح بل كنا نقيم صلواتنا في مبان تشبه بيوتاً خاصة. وبعد سنوات عديدة خلت من المضايقات أدركنا أننا نستطيع أن نمارس طقوسنا علناً وأصبحنا متيقنين بأن الدولة ستحمي حياتنا وممتلكاتنا. لقد نلنا، نحن اليهود الذين عشنا في أمستردام، حظاً استثنائياً لأننا عشنا في البقعة الوحيدة في العالم كله حيث كان بإمكان اليهود أن يكونوا أحراراً. هل تقدّر ذلك - البقعة الوحيدة في العالم كله؟»

تململ باروخ فوق مقعده الخشبي، وهزّ رأسه ضجراً.

«اصبر، اصبر، يا باروخ. استمع قليلاً. سأنتقل الآن إلى المسائل المهمة العاجلة المتعلقة بك. فحريتنا المميزة تأتي ببعض الالتزامات التي ذكرها مجلس مدينة أمستردام بوضوح. لا ريب أنك تعرف ما هي هذه الالتزامات؟»

فأجاب باروخ، «أن لا نشوّه سمعة الديانة المسيحية أو نحاول اعتناق المسيحية أو الزواج من مسيحيين».

«هناك أكثر من ذلك. مع أن ذاكرتك هائلة، لكنّك لا تتذكّر الالتزامات الأخرى. لماذا؟ ربما لأنها لا تناسبك. دعني أذكّرك بها. كما أصدر غروتيوس قراراً بأن على جميع اليهود الذين يتجاوزون الرابعة عشرة من العمر أن يعلنوا عن إيمانهم بالرب، وبموسى، وبالأنبياء، وبالحياة الآخرة، وأنه يجب أن تكفل سلطاتنا الدينية والمدنية، تحت طائلة أن نخسر حريتنا، بأن لا يقول أحد من رعيتنا أو يفعل أو يتحدّى أو يقوّض أيّ مظهر من مظاهر العقيدة الدينية المسيحية».

صمت الحاخام مورتيرا قليلاً، وراح يهزّ سبّابته وهو يتكلّم ببطء

وبتأكيد. «دعني أشدد على هذه النقطة الأخيرة لك يا باروخ - إنها نقطة في غاية الأهمية يجب أن تفهمها. يمنع منعاً باتاً الإلحاد أو ازدراء الشريعة والسلطة الدينية، اليهودية أو المسيحية. فإذا أرينا السلطات المدنية الهولندية أننا لا نستطيع أن نحكم أنفسنا، فإننا سنفقد حريتنا الثمينة مرة أخرى ونذعن لحكم السلطات المسيحية».

صمت الحاخام مورتيرا مرة أخرى، ثم أضاف: «لقد أنهيت درسي في التاريخ. أملي الكبير هو أن تفهم أنّنا لا نزال شعباً متفرقاً، وأنه على الرغم من أن لدينا قدراً من الحرية المحدودة الآن، لن يكون بإمكاننا أن نكون مستقلين تماماً أبداً. وحتى اليوم ليس من السهل أن ندعم أنفسنا كأشخاص أحرار لأن مهناً كثيرة لا تزال مغلقة في وجهنا. تذكر ذلك يا باروخ عندما تعيش حياة خارج هذه الطائفة. فإن ذلك قد يعني أنّك تختار أن تموت جوعاً».

حاول باروخ أن يردّ، لكن الحاخام أسكته بهزة من سبّابته اليمنى، وقال: «هناك نقطة أخرى أريد أن أؤكد عليها. اليوم يتعرض أساس ثقافتنا الدينية لهجوم. فموجات المهاجرين الذين لا يزالون يتدفقون من البرتغال هم يهود لا يعرفون شيئاً عن التعاليم اليهودية. فقد مُنعوا من تعلّم اللغة العبرية، وأُجبروا على تعلّم العقيدة الكاثوليكية ويمارسون طقوسهم باعتبارهم كاثوليك. إنهم يعيشون بين عالمين بإيمان مزعزع في العقيدة الكاثوليكية والمعتقدات اليهودية. وتكمن مهمّتي في أن أستعيدهم، أن أعيدهم إلى دينهم، أعيدهم إلى جذورهم اليهودية. إن طائفتنا آخذة في الازدهار والتطوّر: بدأنا ننجب علماء، وشعراء، وكتّاب مسرحيات، وقباليين، وأطباء، وطابعين. إننا على وشك الدخول في عصر نهضة عظيم، ويوجد لك مكان هنا. معرفتك، عقلك الفطن، ومواهبك كمعلّم ستكون ذات فائدة كبيرة. فإذا علّمت معي، وإذا أخذت

مكاني عندما لا أعود موجوداً هنا، تكون قد حققت أحلام والدك لك - وأحلامي أيضاً».

مندهشاً، نظر باروخ في عيني الحاخام، وقال: «ماذا تقصد 'أعمل معك'؟ إن كلماتك تحيّرني. تذكّر أنني صاحب مخزن، وأنا تحت *الحرمان*».

«*الحرمان* معلّق. ولن يصبح سارياً إلّا بعد أن أعلنه على الملأ في الكنيس. نعم، بالرغم من أن أعضاء المجمع اليهودي في الكنيس يتمتعون بسلطة نهائية، إلّا أن لديّ تأثيراً كبيراً عليهم. فقد وصل مهاجران من المارانو مؤخراً، فرانكو بنيتيز وجاكوب ميندوزا، وقدّما البارحة شهادة، شهادة مضرة جداً إلى أعضاء المجمع، وقالا إنك تؤمن بأن الرب هو الطبيعة وأنه لا يوجد عالم آخر. نعم، كان ذلك مضراً للغاية، لكن بيني وبينك، فإني أشكّ في شهادتهما، وأعرف أنهما حرّفا كلماتك. إنهما ابنا أخ دويرت رودريغز الذي غضب لأنك لجأت إلى المحكمة الهولندية لتتفادى تسديد دينك له، وإني على قناعة بأنّه هو من أمرهما بأن يكذبا. وثق بي بأنني لست الوحيد الذي يرى ذلك».

«إنهما لم يكذبا، أيها الحاخام».

«باروخ، ثب إلى رشدك. إني أعرفك منذ أن ولدت، وأعرف أنك، بين حين وآخر، مثل أي شخص آخر، يمكن أن تفكر أفكاراً حمقاء. أرجوك: ادرس معي. دعني أطهّر عقلك. الآن استمع إليّ. سأعرض عليك شيئاً لم أعرضه على أي كائن آخر على وجه الأرض. أنا متأكّد من أنني أستطيع أن أمنحك راتباً طوال حياتك سيخرجك من عمل الاستيراد والتصدير إلى حياة عالم. أتسمع ذلك؟ أقدم لك هدية حياة مليئة بالدراسة، حياة كلها قراءة وتفكير. حتى يمكنك أن تفكّر في أفكار محرّمة عندما تريد إثبات أو نفي دليل من

الدراسة الربّانية. فكّر في هذا العرض: حياة كاملة من الحرية. وهي تأتي بشرط واحد وحيد: الصمت. يجب أن توافق على أن تحتفظ لنفسك بجميع الأفكار التي تلحق ضرراً بطائفتنا».

بدا باروخ كأنه مسمّر في التفكير. بعد فترة صمت طويلة، قال الحاخام، «ماذا تقول يا باروخ؟ الآن، عندما جاء دورك لتتكلم، تلوذ بالصمت».

فردّ باروخ بصوت هادئ، «في مرات أكثر مما أتذكّر، تحدّث أبي عن صداقته الوثيقة بك وتوقيره لك. وحدّثني أيضاً عن شدة إعجابك بعقلي - 'ذكاء غير محدود' هي الكلمات التي كان ينسبها لك. هل كانت تلك كلماتك حقاً؟ هل كان ينقل كلامك بشكل صحيح؟»

«كانت هذه كلماتي».

«أعتقد بأن العالم وكلّ شيء فيه يعملان بحسب القانون الطبيعي وأنّني أستطيع أن أستخدم ذكائي بشرط أن أستخدمه بطريقة عقلانية، لاكتشاف طبيعة اللّه والحقيقة والدرب المؤدي إلى حياة سعيدة. لقد قلت لك هذا من قبل، أليس كذلك؟»

وضع الحاخام مورتيرا رأسه بين يديه وهزّ رأسه.

«وبالرغم من ذلك فإنك تقترح عليّ الآن بأن أمضي حياتي في تأكيد أو نفي آرائي من خلال الدراسة الربّانية. هذه ليست طريقتي ولن تكون. فالسلطة الحاخامية لا تقوم على أساس النقاء الحقيقي. إنها تكمن فقط في الآراء التي عبّرت عنها أجيال من رجال الدين الذين يؤمنون بالخرافات، رجال الدين الذين يؤمنون بأن العالم مسطح، تحيط به الشمس، وأن رجلاً واحداً يدعى آدم ظهر فجأة وأصبح أباً للجنس البشري».

«هل تنكر قدسية أصل الخلق؟»

«هل تنكر الدليل الذي يظهر أنه كانت هناك حضارات قبل تاريخ الإسرائيليين بزمن طويل؟ في الصين؟ في مصر؟»

«هذا كفر. ألا تدرك كيف تعرّض مكانك في العالم الآخر للخطر؟»

«لا يوجد دليل عقلاني على وجود عالم آخر».

صُعق الحاخام مورتيرا، «هذا تماماً ما نقله ابنا أخ دويرت رودريغز عنك. ظننت أنهما كانا يكذبان لأن عمهما قد طلب منهما ذلك».

«أظن أنك لم تسمعني، أو أنك لم ترد أن تسمعني، عندما قلت إنهما لم يكذبا، أيها الحاخام».

«وماذا عن الاتهامات الأخرى التي ذكراها؟ بأنّك تنكر المصدر الإلهي للتوراة، وأنّ موسى لم يكتب التوراة، وأن الرب غير موجود إلّا فلسفياً، وأن قانون الشعائر والطقوس غير مقدّسة؟»

«أبناء الأخ لم يكذبا أيها الحاخام».

حدّق الحاخام مورتيرا في وجه باروخ، وقد تحوّل ألمه إلى غضب، ثم قال: «أيّ واحدة من هذه الاتهامات تؤدي إلى الحرم الكنسي، وإذا جمعتها كلها فإنها تستحق أقسى أنواع الحرمان».

«كنتَ معلّمي في اللغة العبرية، وقد أحسنت تعليمي. دعني أكافئك بأن أحصي عدد الحرمان التي فرضتها أنت. لقد أريتني بعض أشدّ أنواع الحرمان وحشية التي صدرت عن الطائفة في فينيسيا، وأنا أتذكّر كلّ كلمة منها».

«قلت سابقاً إنه سيكون عندك وقت كاف للصفاقة. والآن أرى أنها قد بدأت». صمت الحاخام مورتيرا ليستجمع نفسه، «إنك تريد أن تقتلني. تريد أن تحطّم عملي كله. إنك تعرف أنّ عملي في الحياة هو الدور الحيوي للحياة الآخرة في الفكر والثقافة اليهودية. إنك

تعرف كتابي، بقاء الروح، الذي وضعته بين يديك في عيد بلوغك، بار متسفا. تعرف مناقشتي العظيمة مع الحاخام أبوب حول تلك المسألة وانتصاري عليه؟»

«نعم، طبعاً».

«إنك تأخذ الأمر باستخفاف قليلاً. هل تعرف ما هي المخاطر التي تنطوي على ذلك؟ لو كنتُ قد خسرتُ في ذلك الجدال، لو قُرِّر أن لجميع اليهود منزلة متساوية في العالم الآخر وأنه لن يكون هناك ثواب على ممارسة الفضيلة ولن يكون هناك عقاب على ارتكاب الخطيئة، ألا ترى أن ذلك سينطوي على عواقب وخيمة على الطائفة؟ إذا لم يكن لديهم مكان في العالم الآخر، فما هو حافزهم لاعتناق اليهودية مرة أخرى؟ إذا لم تكن هناك عقوبة على ارتكاب الخطأ، فهل يمكنك أن تتخيّل كيف سينظر إلينا الهولنديون الكالفينيون؟ إلى متى ستدوم حريتنا؟ هل تظن أنّني كنت ألعب لعبة أطفال؟ فكّر في العواقب».

«نعم، تلك المناظرة العظيمة - لقد أظهرت كلماتك الآن أنّها لم تكن مناظرة حول الحقيقة الروحية. لا شكّ أن الحاخامية في فينيسيا كانت مرتبكة. فقد أتى كلّ منكما بروايات مختلفة عن الحياة الآخرة لأسباب لا تمتّ بصلة إلى حقيقة ما بعد الموت. فأنت تحاول أن تسيطر على عامة الناس بواسطة قوّة تخويفهم وبثّ الأمل فيهم - القوتان التقليديتان اللتان يستخدمهما رجال الدين طوال التاريخ. فأنتم، السلطات الربانية في كل مكان، تدّعون أنكم تحملون المفاتيح إلى الحياة الآخرة، وأنت تستخدم تلك المفاتيح بهدف السيطرة السياسية. أما الحاخام أبوب فقد اتخذ موقفه للتخفيف من آلام رعيته الذين أرادوا أن يساعدوا عائلاتهم التي أُجبرت على اعتناق المسيحية. لم يكن ذلك خلافاً روحياً. وإنما

كان جدالاً سياسياً في لبوس نقاش ديني. ولم يقدم أحد منكما أيّ برهان على وجود الحياة بعد الموت، لا برهاناً عقلياً ولا حتى برهاناً من كلمات التوراة. وأنا أؤكد لك أنها غير موجودة في التوراة، وأنت تعرف ذلك».

فقال الحاخام مورتيرا: «من الواضح أنك لم تستوعب ما كنت أقوله لك عن مسؤوليتي تجاه الرب وتجاه إصرار أهلنا».

فأجاب باروخ، «إن معظم ما يفعله رجال الدين لا علاقة كبيرة له بالرب. ففي السنة الماضية حرمتَ من الكنيس رجلاً اشترى لحم كوشر من جزّار أشكنازي ولم يشتره من جزّار من السيفارديم. هل تظن أن لهذا علاقة بالرب؟»

«كان حرماناً لمدة قصيرة حتى يتعلم أهمية التحام أبناء الطائفة وتماسكهم».

«وعرفت في الشهر الماضي أنك قلت لامرأة جاءت من قرية صغيرة لا يوجد فيها خباز يهودي أنّها تستطيع أن تشتري خبزاً من خباز غير يهودي شريطة أن تلقي قطعة خشب داخل فرنه لتشاركه في عملية الخبز».

«لقد جاءت إليّ وهي حزينة وغادرتني وهي مرتاحة وسعيدة».

«لقد غادرت وهي امرأة مشوشة العقل أكثر من ذي قبل، امرأة لم تعد قادرة على التفكير بنفسها وعلى تطوير ملكاتها العقلانية. هذه هي النقطة التي أهدف إليها بالتحديد وهي أن السلطات الدينية من جميع الفئات والطوائف تسعى إلى إعاقة تطوير ملكاتنا العقلانية».

«إن كنت تظن أن شعبنا يمكن أن يعيش من دون تحكم وسلطة، فأنت أحمق».

«أظن أن رجال الدين يفقدون توجيههم الروحي عندما يتدخلون

في الشؤون السياسية للدولة. فسلطتك أو تقديمك للمشورة يجب أن ينحصر في إسداء النصح حول التقوى من الداخل».

«الشؤون السياسية للدولة؟ ألم تفهم ما حدث في إسبانيا والبرتغال؟»

«هذه هي فكرتي بالتحديد: الدين والدولة يجب أن يكونا منفصلين. إن أفضل حاكم يمكن تخيّله هو زعيم منتخب يحدّد سلطاته مجلس منتخب بشكل مستقل ويتصرّف من أجل سلام عامة الناس وسلامتهم وازدهارهم الاجتماعي».

«باروخ، لقد نجحت الآن في إقناعي بأنّك ستعيش حياة منعزلة وأنّ مستقبلك لن يشمل الكفر فقط وإنما الخيانة أيضاً. هيا اخرج من هنا».

بينما كان يسمع وقع خطوات باروخ وهو يهبط الدرج، رفع الحاخام مورتيرا بصره إلى الأعلى وتمتم، «مايكل، صديقي، لقد فعلت كلّ ما بوسعي لإنقاذ ابنك، لكن عندي أرواح كثيرة أخرى يجب أن أحميها».

الفصل السادس عشر

ميونيخ - ١٩١٩

تخيّل هذا المشهد: شاب مهاجر في ثياب رثّة، عاطل من العمل، في جيب قميصه ملعقة في مطعم يقدّم الطعام مجاناً للفقراء، يندفع إلى داخل مكتب صحفي مشهور، وشاعر وسياسي، ويقول له: «هل يمكنك أن تستخدم مقاتلاً شرساً ضدّ القدس؟»

لا ريب في أنها بداية مشؤومة لإجراء مقابلة بغية الحصول على وظيفة! وأيّ مسؤول مهذب، رئيس تحرير محنّك، سيطرد هذا المتطفل على الفور لأنه تصرفه هذا تصرف طفولي غريب، بل وقد يكون خطراً. لكن لا - فالزمن هو سنة ١٩١٩، والمكان ميونيخ، وقد أُعجب ديتريش إكارت بكلمات الشاب الجميلة.

«حسناً، حسناً، أيها المحارب الشاب، أرني أسلحتك».

«عقلي هو قوسي، وكلماتي هي. . .» وأخرج ألفريد قلماً من جيبه ولوّح به عالياً وصاح، «كلماتي هي سهامي!»

«كلام جميل، أيها المحارب الشابّ. وحدّثني عن مآثرك، هجماتك على القدس».

ارتعش جسد ألفريد من شدة الحماسة بينما أخذ يسرد مآثره ضدّ القدس: فقرات كاملة حفظها عن ظهر قلب من كتاب هيوستن

ستيوارت تشامبرلن، وخطابه الانتخابي المعادي للساميّة وهو في السادسة عشرة، ووصف مواجهته مع مدير مدرسته إبشتاين الذي كان يشك في أنه يهودي (لكنه حذف الجزء المتعلق بسبينوزا)، وحدّثه عن نفوره من رؤية الثورة اليهودية البلشفيّة، وعن خطابه الحماسي المعادي لليهود في ذلك الاجتماع الجماهيري في ريفال، وعن عزمه على كتابة روايته كشاهد عيان على الثورة التي قام بها البلاشفة اليهود، وعن بحثه التاريخي حول خطر الدم اليهودي.

«بداية ممتازة. لكنها مجرد بداية. في المرة القادمة يجب أن نبحث في قدرة أسلحتك. خلال أربع وعشرين ساعة، أحضر لي ألف كلمة من روايتك باعتبارك شاهد عيان على الثورة البلشفيّة، وسنرى إن كانت تستحق النشر».

لم يُبدِ ألفريد أي حركة تدل على أنه سيغادر، بل ألقى نظرة أخرى على ديتريش إكارت، رجل مهيب حليق الرأس، يضع نظّارات ذات إطار داكن تحمي عينين زرقاوين، وله أنف لحيم قصير، وذقن عريضة، لا بل قاسية.

«أربع وعشرون ساعة أيها الشاب. بدأ الوقت».

أشاح ألفريد بعينيه عنه، وبدا من الواضح أنه لا يريد أن يغادر مكتب إكارت، ثمّ قال باستحياء: «هل توجد طاولة مكتب، ركن، وورقة يمكنني أن أستخدمها؟ فلا يوجد أمامي سوى المكتبة التي تغص الآن باللاجئين الأمّيين الذين يبحثون عن مكان دافئ».

أشار ديتريش إكارت إلى سكرتيره وقال: «خذ الموظف الجديد هذا إلى المكتب الخلفي، وأعطه أوراقاً ومفتاحاً». ثم التفت إلى ألفريد وقال: «التدفئة فيه ليست جيدة، لكنه مكان هادئ وله مدخل منفصل، لذلك تستطيع أن تعمل فيه حتى ساعة متأخرة من الليل، إذا

احتجت إلى ذلك. الآن *Auf Wiedersehen* (إلى اللقاء) حتى يوم غد في هذا الوقت تماماً».

وضع ديتريش إكارت قدميه على طاولة مكتبه، وسحق عقب سيجارة في منفضة السجائر، واسترخى في كرسيه ليغفو قليلاً. ومع أنه كان في أوائل الخمسينات من العمر، لم يرحم جسده، فتهدلت قطع لحمية ثقيلة فوقه. وهو ينتمي إلى عائلة ثريّة، ابن كاتب عدل ومحام في القصر الملكي، وقد فقد أمّه عندما كان طفلاً، وبعد عدة سنوات، وفي أواخر سنوات مراهقته انجرف إلى حياة بوهيمية وأصبح يتعاطى المخدرات، وسرعان ما بدّد الثروة التي خلّفها له والده. وبعد سلسلة من الانطلاقات الفاشلة في الفنون والانضمام إلى حركات سياسية متطرفة، وقضاء سنة في كليّة الطب، أدمن على تعاطي المورفين فاضطر إلى دخول المستشفى لأشهر عديدة من أجل العلاج النفسي. ثمّ أصبح كاتباً مسرحياً، لكن أعماله لم تر النور على خشبة المسرح. واثقاً بجدارته الأدبية، أنحى باللائمة لفشله على اليهود الذين كان يرى أنهم يسيطرون على المسارح الألمانيّة وكانوا يجدون إهانة في الآراء السياسية التي يطرحها. وأدت رغبته في الانتقام إلى احتراف مهنة معاداة اليهود: فقد ولد من جديد كصحفي، وأطلق صحيفة «أوف غوت دويتش» كآخر سلسلة من المطبوعات التي تهدف إلى التصدي إلى قوّة اليهود ونفوذهم. وفي عام ١٩١٩ أضحى الزمن مؤاتياً، وأصبح أسلوبه الصحفي مؤثراً، وسرعان ما ازداد الإقبال على قراءة صحيفته وازداد الطلب عليها خاصة للمهتمّين بمعرفة مكائد اليهود الشنيعة.

وعلى الرغم من أن صحة ديتريش لم تكن على ما يرام، ولم تعد طاقته عالية، فقد كان تعطشه للتغيير هائلاً، وكان ينتظر بلهفة شديدة مجيء المنقذ الألماني - رجل يتمتع بقوة ومهابة استثنائيتين يقود

ألمانيا ويضعها في مكانتها المجيدة التي تليق بها. لكنه لم ير في روزنبرغ الشابّ الوسيم ذلك الرجل المنتظر: فقد برزت رغبة روزنبرغ المثيرة للشفقة بوضوح من خلال تقديم نفسه بهذه الطريقة الطائشة. لكن ربّما سيكون له دور في تمهيد الطريق أمام الرجل الذي سيأتي لاحقاً.

* * *

في اليوم التالي، جلس ألفريد في مكتب إكارت، يلفّ ساقاً على ساق تارة ثم يبعد ساقيه بعصبية، وهو يراقب الناشر يقرأ كلماته الألف.

أزاح إكارت نظّارته ونظر إلى ألفريد، وقال: «بالنسبة لشخص يحمل شهادة في الهندسة المعمارية ولم يكتب نثراً كهذا من قبل، فإني أقول إنّ هذا العمل لا يشي بأنه غير واعد. صحيح أن هذه الكلمات الألف لا توجد فيها جملة واحدة صحيحة قواعدياً، لكن على الرغم من هذه الحقيقة المزعجة، فإن عملك ينطوي على قدر من القوة. إذ يوجد توتّر، ويوجد ذكاء وتعقيد، وتوجد، مع أنها ليست كافية، بضع صور قوية. لذلك فإني أعلن أنّ بكارتك الصحفية قد بلغت منتهاها. سأنشر هذه المقالة، لكن أمامنا الكثير من العمل: فكلّ جملة تصرخ طلباً للمساعدة. اسحب كرسيك إلى هنا يا ألفريد، وسنقرأها سطراً سطراً».

قرّب ألفريد كرسيه بحماسة إلى جانب إكارت.

«هذا هو أول درس لك في الصحافة» واصل إكارت كلامه، «إن مهمة الكاتب الإبلاغ. لكن للأسف، فإن جملاً كثيرة في مقالتك لا تدرك هذه القاعدة البسيطة، بل بدلاً من ذلك، تسعى إلى أن تكون غامضاً أو أنك تحاول أن توصل الفكرة بأن الكاتب يعرف أكثر مما

يريد أن يقوله بكثير. لتذهب كلّ جملة من هذه الجمل إلى المقصلة. انظر هنا وهنا وهنا». وبدأ قلم ديتريش إكارت الأحمر عمله، وبدأت فترة تدريب ألفريد روزنبرغ.

وهكذا نُشرت مقالة ألفريد المنقّحة كجزء من سلسلة مقالات بعنوان «*اليهود في داخلنا وخارجنا*»، وبعد فترة كتب عدة مقالات أخرى كشاهد عيان عن الفوضى البلشفيّة، وشيئاً فشيئاً، بدأ أسلوبه في الكتابة يتحسن مع كلّ مقالة جديدة يكتبها. وبعد بضعة أسابيع، أصبح يتقاضى راتباً منتظماً بصفته مساعداً لإكارت، وبعد بضعة أشهر، رضي إكارت عن عمله رضاء تاماً إلى حدّ أنه طلب من ألفريد أن يكتب المقدمة لكتابه «*حفّار قبور روسيا*»، الذي يصف بتفاصيل شنيعة كيف قوّض اليهود نظام القيصر في روسيا.

كانت تلك الأيام هي أيام العصر الذهبي لألفريد، وحتى نهاية حياته، كانت تغمره سعادة كبيرة عندما يتذكّر عمله مع إكارت الذي كان يرافقه بسيارة الأجرة عندما يقومان بتوزيع المنشور الحماسي الذي كان إكارت يصدره «*إلى جميع العمال*»، في أرجاء ميونيخ. وأصبح لألفريد أخيراً، بيت وأب وهدف.

وبتشجيع من إكارت، أكمل ألفرد بحثه التاريخي عن اليهود، وبعد سنة، نشر أول كتاب له بعنوان «*أثر اليهود على مدى الأزمنة المتغيرة*» الذي كان يحتوي على البذور التي ستصبح بعد ذلك المواضيع الرئيسية لمعاداة الساميّة النازية: اليهودي كمصدر للمادية المدمرة والفوضوية والشيوعية، وأخطار الماسونية اليهودية، والأحلام الخبيثة للفلاسفة اليهود بدءاً من عزرا وحزقيال وحتى ماركس وتروتسكي، والأهمّ من كل ذلك، التهديد الذي يواجه الحضارة السامية التي يشكلها التلوّث مع الدم اليهودي.

وبرعاية وبتوجيه من إكارت، بدأ ألفريد يدرك أنّ العامل

الألماني الذي أرهقته الضغوط المالية اليهودية، واقع تحت نير العقيدة المسيحية بصورة أكبر. وبدأ إكارت يعتمد على ألفريد في السياق التاريخي، لا لمعاداة اليهود فحسب، وإنما بتتبع تطور اليسوعية من يهودية التلمود، للمشاعر المعادية للمسيحية بقوة أيضاً.

وبدأ إكارت يرافق ربيبه الشاب إلى التجمعات السياسية الراديكالية، وعرّفه على شخصيات سياسية ذات نفوذ هام، ثم كفل ألفريد في عضوية جمعية *ثيل*، وأخذه إلى أول اجتماع يحضره في هذه الجمعية السرّية المهيبة.

خلال الاجتماع في جمعية *ثيل*، بعد أن عرّف إكارت ألفريد على عدد من أعضاء الجمعية، تركه وحده وراح يتحدث على انفراد مع عدد من أصدقائه. بحث ألفريد عنه، فقد كان ذلك بمثابة عالم جديد بالنسبة له - لا حانة لاحتساء البيرة وإنما قاعة كبيرة في فندق الفصول الأربعة الفخم في ميونيخ. ولم يأت في حياته قط إلى قاعة كهذه. اختبر الكومة السميكة للبساط الأحمر تحت حذائه ورفع بصره فرأى سقفاً مزخرفاً رسمت عليه غيوم بيضاء وملاك مكتنز. لم ير كؤوس البيرة، فمشى نحو الطاولة وسط القاعة وتناول كأساً من النبيذ الألماني الحلو. عندما تطلع حوله إلى الأعضاء الآخرين الذين ربما يبلغ عددهم مئة وخمسين، والذين كان من الواضح أنهم رجال أغنياء، يرتدون ثياباً أنيقة، متخمون، شعر ألفريد بالخجل من ثيابه التي كان قد اشترى كلّ قطعة منها من محلات للملابس المستعملة.

مدركاً أنه كان يبدو أفقر رجل في القاعة وأكثرهم رثاثة، فقد بذل كل ما بوسعه للاختلاط مع أعضاء جميعة ثيل بل إنه حاول الادّعاء أنه شخص مميّز، يشير إلى نفسه، كلما أمكنه ذلك، بأنه كاتب - فيلسوف. وعندما يقف وحده، كان يحاول أن يرسم تعبيراً جديداً على وجهه فيزمّ شفتيه قليلاً مع إيماءة صغيرة وإغماض جفنيه،

كان يأمل أن ينقل من خلالها رسالة تقول: «نعم، أنا أعرف ماذا تقصد تماماً - فأنا لست على اطلاع على ما تقوله فقط، وإنما أعرف أكثر مما تظن بكثير». وفي المساء، كان يتفحص هذه التعابير أمام المرآة في دورة مياه الرجال ويغمره السرور، وسرعان ما أصبحت هذه هي الابتسامة التي تميّزه.

«مرحباً! هل أنت ضيف ديتريش إكارت؟» سأله رجل حادّ المظهر، متجهم الوجه، له شارب، ويضع نظّارة ذات إطار أسود. «أنا أنتون دركسلر، عضو في لجنة الاستقبال».

«نعم، روزنبرغ، ألفريد روزنبرغ. أنا كاتب وفيلسوف أعمل في صحيفة *Auf gut Deutsch*، ونعم، أنا ضيف ديتريش إكارت».

«لقد أخبرني أشياء جيّدة عنك. هذه أول زيارة لك، ولا بدّ أن لديك أسئلة. ماذا يمكنني أن أخبرك عن منظمتنا؟»

«عدة أشياء. أولاً، أنا مهتمّ بمعرفة الاسم، 'ثيل'»

«للإجابة عن ذلك يجب أن أبدأ بالقول إن اسمنا الأصلي كان '*مجموعة دراسة الآثار الألمانية القديمة*'، ويعتقد الكثيرون أن '*ثيل*'، هي قطعة أرض لم يعد لها وجود الآن، تقع بالقرب من آيسلندا أو غرينلاند وأنها الوطن الأصلي للعرق الآري».

«ثيل... أعرف تاريخي الآري جيداً من كتابات هيوستن ستيوارت تشامبرلن، لكني لا أذكر شيئاً عن ثيل».

«آه، تشامبرلن هو مؤرخ وأحد أفضل مؤرخينا، لكن هذا يعود إلى فترة ما قبل تشامبرلن وقبل التاريخ. عالم الأسطورة. وتريد منظمتنا أن تكرّم أسلافنا النبلاء الذين لا نعرفهم إلّا من خلال التاريخ الشفهي».

«إذاً، جميع هؤلاء الرجال المبجلين مجتمعين هذه الليلة في هذا المكان لاهتمامهم بالأسطورة، بالتاريخ القديم؟ أنا لا أسأل عن ذلك

- حقاً من الرائع رؤية هذا الهدوء والتفاني العلمي في وقت تسوده الاضطرابات وقد تنفجر فيه ألمانيا في أي لحظة».

«لم يبدأ الاجتماع بعد، هير روزنبرغ. سترى قريباً لماذا تقدّر جمعية ثيل كتاباتك في صحيفة *Auf gut Deutsch* عالياً. نعم، نعم، إننا مهتمون كثيراً بالتاريخ القديم. لكننا مهتمّون أكثر بتاريخنا بعد الحرب، التاريخ الذي يُصنع الآن، والذي سيقرأ عنه أبناؤنا وأحفادنا ذات يوم».

شعر ألفريد بالغبطة عندما سمع الكلمات التي ألقيت. متكلّم تلو الآخر حذّروا من الخطر الجسيم الذي يواجه ألمانيا من البلاشفة واليهود. وأكّد كلّ متكلّم على الحاجة الملحّة إلى العمل الفوري. وعندما شارف المساء على نهايته، وضع إكارت، الذي ثمل من شرب جدول لا ينتهي من النبيذ الألماني، ذراعه على كتف ألفريد، وصاح، «يا له من وقت مثير، أليس كذلك يا روزنبرغ! سيزداد إثارة. كتابة الأخبار، تغيير المواقف، توجيه الرأي العام - كلّ المساعي النبيلة. من يمكنه إنكار ذلك؟ صناعة الأخبار نعم، صناعة الأخبار - هنا يكمن المجد الحقيقي! وستكون معنا يا ألفريد. سترى، سترى. ثق بي، أعرف ما سيأتي».

كان ثمة حدث بالغ الأهمية يحوم في الأجواء. أحسّ ألفريد به بدقة، ومن شدة حماسته جافاه النوم، وجاب شوارع ميونيخ طوال ساعة بعد أن ودّع إكارت. متذكراً نصيحة صديقه الجديد فريدريتش بفيستر للتخلص من الشعور بالتوتّر، أخذ نفساً عميقاً، وحبس أنفاسه ثم أطلقه بسرعة من منخريه لبضع ثوان، ثمّ زفر الهواء من فمه ببطء. وبعد عدة مرات، شعر بالتحسّن ودُهش أيضاً من فعالية هذه الحيلة البسيطة. لا شكّ فيها - كان فريدريش ساحراً بعض الشيء. ومع أنه لم يحبّ أن يتحول حديثهما حول إمكانية وجود عرق يهودي في أسرة

جدته، كانت مشاعره تجاه فريدريش إيجابية، ورغب في أن يكون لهما لقاء آخر، وقرر أن يتم ذلك.

عندما عاد إلى البيت وجد رسالة على الأرض سقطت من شقّ علبة البريد تقول: «ستحجز مكتبة ميونيخ العامة كتاب *رسالة في اللاهوت والسياسة*، تأليف سبينوزا من أجلك لمدة أسبوع واحد، يمكنك استلامه من المكتبة عند الباب الخارجي». أعاد ألفريد قراءة الرسالة عدّة مرات. كم كانت رسالة المكتبة الصغيرة هذه التي شقّت طريقها عبر شوارع ميونيخ الخطيرة الصاخبة إلى شقّته الصغيرة تدعو إلى الغرابة.

الفصل السابع عشر

أمستردام - ١٦٥٦

تجوّل بنتو في شوارع فلوينبيرغ، ذلك الشطر من أمستردام الذي يعيش فيه معظم اليهود السفارديم، يدقق في كلّ شيء يراه. كان يمعن النظر في كلّ صورة، كما لو أنه يريد أن يضفي عليها صفة الديمومة، حتى يتمكن من تذكرها واستدعائها إلى ذهنه في المستقبل، مع أنّ صوت العقل همس له بأن كلّ شيء سيتبخر وأن الحياة يجب أن تعاش في الحاضر.

عندما عاد بنتو إلى المخزن، ألقى غابرييل الذي امتلأت عيناه بالخوف، بمكنسته وهرع إليه، وقال «بنتو، أين كنت؟ هل كنت تكلّم الحاخام طوال هذا الوقت؟»

فقال بنتو: «لقد دار بيننا حديث طويل غير ودّي، ومنذ ذلك الحين رحت أتمشى في شوارع المدينة لكي أتمالك نفسي. سأخبرك بكلّ ما حدث بيننا، لكنني أريد أن أخبرك أنت وريبيكا معاً».

«إنها لن تأتي يا بنتو. فالآن لم تعد هي غاضبة وحدها - بل أصبح زوجها غاضباً الآن أيضاً. فمنذ أن أنهى صموئيل دراساته الربانية السنة الماضية، بدأ يتخذ موقفاً أكثر تشدداً، وأصبح الآن يمنع ريبيكا من رؤيتك».

«ستأتي إذا أخبرتها بأن الأمر جدّي للغاية». ووضع بنتو يديه على كتفي غابرييل ونظر في عينيه، وقال: «أعرف أنها ستأتي. ذكّرها بذكريات أسرتنا المباركة. ذكّرها بأننا الوحيدون الذين لا نزال أحياء في هذه الأسرة. إنها ستأتي إذا قلت لها إن هذه ستكون آخر مرة نتكلّم فيها».

بدا الخوف على وجه غابرييل، وقال: «ما الذي يجري؟ إنك تخيفني يا بنتو».

«أرجوك يا غابرييل. لا أستطيع أن أصف ما حدث مرّتين - هذا أمر صعب للغاية. أرجو أن تطلب من ريبيكا أن تحضر إلى هنا. تستطيع أن تجد وسيلة لإقناعها. هذا آخر طلب أطلبه منك».

خلع غابرييل مئزره وألقى به فوق الطاولة الخلفية، وهرع خارجاً من المخزن، وعاد بعد عشرين دقيقة ومعه ريبيكا عابسة. فلم تستطع أن ترفض توسلات غابرييل لها - هي التي ربّت بنتو خلال السنوات الثلاث بين موت أمّهم حنّة وزواج والدهم ثانية من إستر - كانت ريبيكا تقطر غضباً عندما دخلت المخزن. حيّت بنتو بإيماءة باردة ومدّت راحتي يديها، وقالت: «حسنا؟»

فأجاب بنتو الذي ألصق ورقة على باب المخزن باللغتين البرتغالية والهولندية تقول إن المحل مغلق وسيُفتح بعد قليل، «لنذهب إلى البيت حيث يمكننا أن نتكلّم وحدنا».

عندما وصلوا إلى البيت، أغلق بنتو الباب وأشار إلى غابرييل وريبيكا لأن يجلسا بينما ظل هو واقفاً وراح يذرع الغرفة. «مع أنني أريد أن تظل هذه المسألة خاصّة بيننا، فإني أعرف بأنها لن تكون كذلك. وقال غابرييل إن هذا الأمر سيؤثّر في الأسرة كلها» وأضاف، «أخشى أن ما سأقوله سيصدمكما. إنه شيء صعب، لكن يجب أن

أخبركما بكلّ شيء. فأنا لا أريد أحداً، بالتأكيد لا أحد في الطائفة، أن يعرف أكثر مما تعرفان عمّا سيحدث».

صمت بنتو. كان أخوه وأخته يصغيان بانتباه شديد، جالسين مثل صنمين لا يأتيان بحركة. أخذ بنتو نفساً عميقاً. «سأدخل في الموضوع مباشرة. في صباح هذا اليوم، أخبرني الحاخام مورتيرا بأن أعضاء مجمّع الكنيسة عقدوا اجتماعاً وقالوا إنهم سيصدرون قريباً قراراً يقضي بحرماني من الكنيس. إن قرار *الحرم* سيصدر غداً».

«*حُرُم*؟» صاح غابريل وريبيكا في وقت واحد. كان وجهاهما شاحبين.

فسألت ريبيكا، «ألا توجد وسيلة لوقفه؟ ألم يقف الحاخام مورتيرا إلى جانبك؟ كان والدنا من أعزّ أصدقائه!»

«لقد تكلّمت مع الحاخام مورتيرا منذ قليل ساعة كاملة، وقال لي إن الأمر ليس بيده - فقد انتخبت الطائفة أعضاء مجمع الكنيس الذين يملكون سلطة مطلقة، ولا يوجد أمامه من خيار سوى أن ينفّذ ما يأمرونه به. لكنه قال أيضاً إنه موافق على القرار الذي اتخذوه».

تردّد بنتو، ثم أردف قائلاً: «لن أكتم عنكما شيئاً»، ونظر في عيني أخته وأخيه، واعترف، «قال إنه قد تكون هناك فرصة. إذا تراجعت عن آرائي كلّها، إذا اعترفت على الملأ بأنني مخطئ وأعلنت بأنّني أعتنق، منذ هذه اللحظة، أركان الإيمان الثلاثة عشر التي حددها ابن ميمون، فإنه سيعيد النظر في *الحرم* وسيبذل كلّ ما استطاع من قوة لوقفه. في الواقع - وأنا لست متأكّداً من أنه يريد أن يعرف الآخرون ذلك لأنه قاله لي همساً - فقد عرض أن يدفع لي راتباً طوال حياتي من صندوق الكنيس، إذا تعهّدت بأن أكرّس حياتي لدراسة التوراة والتلمود باحترام وصمت».

«و. . .؟» قالت ريبيكا ونظرت في عيني بنتو مباشرة.

«و. . .» نظر بنتو إلى الأرض، «رفضتُ عرضه. فأنا أعتبر أن حرّيتي لا تقدّر بثمن».

«أحمق! فكّر في ما تفعله»، كان صوت ريبيكا حاداً، «يا إلهي، يا أخي، ما الذي جرى لك؟ هل فقدت عقلك؟» انحنت إلى الأمام كما لو كانت تنوي أن تغادر الغرفة.

«ريبيكا. . .» بذل بنتو كلّ ما بوسعه ليحافظ على هدوء صوته، «هذه هي آخر مرّة، آخر مرّة، سنلتقي فيها معاً. فالحرمان يعني نفياً تاماً. إنه يحرّم عليك أن تتكلّمي معي أو تتّصلي بي بأي طريقة مرة أخرى. إلى الأبد. فكّري كيف ستشعرين، كيف سنشعر نحن الثلاثة، إذا كان لقاؤنا الأخير قاسياً وخالياً من الحبّ».

وقف غابرييل الذي لم يعد يستطيع البقاء جالساً من شدة غضبه، وراح يذرع الغرفة أيضاً. «بنتو، لماذا تظل تكرر كلمة 'آخر'؟ آخر مرّة سنراك فيها، آخر طلب، آخر؟ إلى متى سيدوم هذا *الحرم*؟ متى سينتهي؟ لقد سمعت بحرمان ليوم واحد أو حرم لمدة أسبوع واحد».

ابتلع بنتو ريقه ونظر في عيني أخيه وأخته، وقال: «سيكون هذا نوعاً مختلفاً من الحرم. أعرف أنواع الحرمان، فإذا نفّذوه بحذافيره فلن تكون له نهاية. سيبقى طوال العمر، ولا يمكن الطعن فيه».

«عد إلى الحاخام»، قالت ريبيكا، «اقبل العرض الذي قدمه لك يا بنتو، أرجوك. كلّنا نرتكب أخطاء في شبابنا. عد إلينا. أكرم الرب. كن اليهودي الذي كنته. كن ابن والدك. سيدفع لك الحاخام مورتيرا راتباً مدى الحياة. يمكنك أن تقرأ، وتدرس، تفعل أيّ شيء تريد، فكّر في أيّ شيء تريد. ابق ذلك لنفسك. اقبل عرضه يا بنتو. ألا ترى أنه تكريم لأبينا فهو يدفع لك كي لا تنتحر؟»

«أرجوك»، أمسك غابرييل يد بنتو، «اقبل عرضه. ابدأ بداية جديدة».

«سيدفع لي راتباً لأفعل شيئاً لا أستطيع أن أفعله. فأنا أنوي أن أبحث عن الحقيقة وأكرس حياتي لمعرفة اللّه، بينما يعرض عليّ الحاخام أن أعيش حياة مليئة بالغش وهذا يعني أنني أغش اللّه. لن أفعل ذلك. لن أتبع أي قوّة على وجه الأرض إلّا ضميري».

بدأت ريبيكا تنشج. وضعت يديها وراء رأسها وراحت تهزّه وهي تردد: «لا أفهمك، لا أفهم، لا أفهم».

اقترب بنتو منها ووضع يده على كتفها. لكنها أبعدتها بسرعة ثمّ رفعت رأسها والتفتت نحو غابرييل، «كنتَ صغيراً جداً، لكنّي أذكر عندما كان، كما لو كان البارحة، والدنا رحمه اللّه يتفاخر بأن الحاخام مورتيرا كان يقول إن بنتو أفضل طالب رآه في حياته».

ثم نظرت إلى بنتو، والدموع تسيل على خديها، «الأذكى والأعمق، كان يقول. كيف أشرق وجه والدنا عندما سمع أنك قد تكون الحبر الأعظم التالي، ربّما جرسونيدس التالي. وأنّك ستكون كاتب تفسير التوراة العظيم في القرن السابع عشر! لقد آمن الحاخام بك. قال إن عقلك يحفظ كلّ شيء، وإنه لم يكن أحد من شيوخ الكنيس يستطيع مواجهتك في النقاش. ومع ذلك الآن، وعلى الرغم من ذلك، على الرغم من مواهبك التي منحك إياها الرب، انظر إلى ما تفعله. كيف يمكنك أن ترمي كلّ شيء؟» أخذت ريبيكا المنديل الذي مدّه لها غابرييل.

انحنى بنتو لينظر في عينيها مباشرة، وقال: «ريبيكا، أرجو أن تحاولي أن تفهمي. قد لا يكون الآن، بل ربما في وقت ما في المستقبل ستفهمين هذه الكلمات: لقد سلكت دربي هذا بسبب مواهبي، لا على الرغم منها. هل تفهمين؟ بسبب مواهبي، لا على الرغم منها».

«لا، لا أفهمها، ولن أفهمك أبداً، مع أنني أعرفك منذ

ولادتك، مع أننا نحن الثلاثة كنا ننام في سرير واحد لسنوات بعد أن ماتت أمّنا».

«أتذكّر»، قال غابرييل، «أتذكّر أننا كنا ننام معاً وكنتَ تقرأ لنا قصصاً من التوراة يا بنتو. وكنت تعلّم سرّاً كلاً من ريبيكا وميريام القراءة. أتذكّر عندما قلت إنه ليس من العدل ألّا تُعلّم الفتيات القراءة».

«لقد حكيت لزوجي ذلك»، قالت ريبيكا، «أخبرته بكلّ شيء: حكيت له كيف أنك علّمتنا، وكيف كنت تقرأ لنا، وأنك كنت تتساءل عن كلّ شيء، عن المعجزات كلها. وكيف كنت تركض إلى والدنا وتسأله، 'أبي، أبي، هل كان ذلك يحدث فعلاً؟' أتذكّر عندما كنت تقرأ لنا قصة نوح والفيضان وسألت والدنا هل يمكن أن يكون الربّ قاسياً إلى هذه الدرجة. وسألت، 'لماذا أغرق الجميع؟ وكيف عاد الجنس البشري وبدأ من جديد؟' و 'من يستطيع أن يتزوّج من أبناء نوح؟' - نفس السؤال الذي كنت تسأله عن قابيل وهابيل. يرى صموئيل أن تلك التساؤلات هي العلامات الأولى لمرضك. لعنة منذ الولادة. كنت أفكّر أحياناً في أنني أنا السبب. اعترفت لزوجي أنني كنت أضحك على كلّ ما تقوله، كلّ تعليقاتك التكفيرية. لعلّي شجّعتك على أن تفكّر بهذه الطريقة».

هزّ بنتو رأسه، وقال: «لا، يا ريبيكا، لا تلومي نفسك على فضولي. إنها طبيعتي. لماذا نريد أن نلوم أنفسنا على شيء يحدث لأسباب لا حول لنا بها ولا قوة؟ هل تذكرين كيف كان والدنا يلوم نفسه على وفاة شقيقنا؟ كم مرّة سمعناه يقول إنه لو لم يرسل إسحاق لتسليم البن إلى الأحياء الأخرى، لما أصيب بالطاعون. إنه مسار الطبيعة، ولا يمكننا التحكم به والسيطرة عليه. إن لوم أنفسنا ليس إلّا وسيلة لخداع أنفسنا للتفكير في أننا أقوياء وأننا نستطيع أن نتحكم

بالطبيعة ونسيطر عليها. ريبيكا، أرجو أن تعرفي أنّني أحترم زوجك. إن صموئيل رجل طيب. لكن الفرق بيننا هو أننا نختلف حول مصدر المعرفة، فأنا لا أؤمن بأنّ التساؤل مرض، وإنما الطاعة العمياء وعدم الشكّ والتساؤل هو المرض».

لم يكن لدى ريبيكا أي ردّ. لاذ الثلاثة بالصمت حتى سأل غابرييل، «بنتو، *هل* هو حرم دائم؟ هل يوجد حرم كهذا؟ لم أسمع بذلك في حياتي».

«إني متيقن من أن هذا ما سيفعلونه يا غابرييل. لقد قال الحاخام مورتيرا إن عليهم أن يفعلوا ذلك ليثبتوا للهولنديين أننا نستطيع أن نحكم أنفسنا. قد يكون هذا أفضل للجميع. إنه سيعيد عودتكما، أنت وريبيكا، إلى الطائفة. يجب أن تنضمّا إلى الآخرين وتلتزما بقرار الحرم. يجب أن تتجنباني، ومثل الآخرين يجب أن تطيعا القانون وألّا تلتقيا بي».

«أفضل للجميع يا بنتو؟» سأل غابرييل، «كيف يمكنك أن تقول شيئاً كهذا؟ كيف يمكن أن يكون ذلك أفضل لك؟ كيف سيكون من الأفضل أن تعيش بين أشخاص يمقتونك؟»

«لن أمكث هنا. سأذهب لأعيش في مكان آخر».

«أين يمكنك أن تعيش؟» سألته ريبيكا، «هل تنوي أن تعتنق المسيحية؟»

«لا، اطمئنا. فأنا أجد الكثير من الحكمة في كلمات المسيح. إنها تشبه الرسالة الرئيسية في العهد القديم. لكنّي لن أؤمن بأيّ آراء خرافية حول إله له، مثل أيّ إنسان، ابن ويرسله في مهمّة لينقذنا. وكما هي الحال في جميع الأديان، بما فيها ديننا، فإن المسيحيين يتخيّلون إلهاً له صفات إنسانية وذو رغبات واحتياجات بشرية».

«لكن أين ستعيش إن كنت ستبقى يهودياً؟» سألته ريبيكا، «فلا يستطيع اليهودي أن يعيش إلّا مع اليهود».

«سأجد طريقة للعيش خارج الطائفة اليهودية».

«بنتو، قد تكون موهوباً، لكنّك أيضاً طفل ساذج»، قالت ريبيكا، «هل فكّرت في ذلك جيداً؟ هل نسيت أورييل دا كوستا؟»

«من؟» سأل غابرييل.

فقالت ريبيكا: «كان دا كوستا كافراً وحرمه الحاخام مودينا، معلّم الحاخام مورتيرا»، وأضاف، «كنت لا تزال طفلاً صغيراً يا غابرييل. لقد تحدّى دا كوستا جميع نواميسنا - التوراة، الطاقية، التمائم، الختان، وحتى التعاويذ (الميزوزة) التي نلصقها على أبواب بيوتنا - مثل شقيقك. والأسوأ من كلّ ذلك فقد أنكر خلود النفس وانبعاث الجسد. وواحدة تلو الأخرى، طردته الطوائف اليهودية الأخرى في ألمانيا وإيطاليا أيضاً، وأعلنت عليه *الحرم*. ولم يرده أحد هنا، لكنّه ظل يتوسل لقبول عودته. فقبلناه أخيراً، لكنه عاد إلى جنونه ثانية. وتوسل مرة أخرى لكي يُغفر له، فأقام الكنيس مراسم الكفّارة. كنت صغيراً جداً يا غابرييل، لكننا رأينا، أنا وبنتو، تلك المراسم معاً. هل تتذكّر؟»

أومأ بنتو، وواصلت ريبيكا كلامها، «كان عليه أن يخلع ثيابه في الكنيس في المعبد اليهودي، وجُلد تسعاً وثلاثين جلدة شديدة على ظهره، وعندما انتهت المراسم استلقى أمام مدخل الكنيس وداس كلّ من كان في المعبد عليه وهم يغادرون، ثم جرى وراءه جميع الأطفال وبصقوا عليه. لم نشاركهم في ذلك - لأن والدنا لم يسمح لنا بأن نفعل ذلك. وبعد فترة قصيرة، تناول مسدساً وأطلق النار على رأسه بنفسه».

«هذا ما يحدث»، قالت ثم التفتت إلى بنتو، «لا توجد حياة

خارج الطائفة. لم يستطع أن يفعل ذلك، ولن تستطيع أنت كذلك. كيف ستعيش؟ لن يكون لديك نقود - فلن يسمح لك أن تدير تجارة أو عملاً في هذه الطائفة - وسنُمنع أنا وغابرييل من مساعدتك. لقد أقسمنا أنا وميريام لأمّنا أننا سنعتني بك، وعندما كانت ميريام على فراش الموت، طلبت مني أن أحيطك أنت وغابرييل برعايتي. أما الآن فلن أستطيع أن أفعل شيئاً. كيف ستعيش؟»

«لا أعرف يا ريبيكا. احتياجاتي قليلة. تعرفين ذلك. انظري حولك»، وأشار بذراعه حول الغرفة، «أستطيع أن أعيش على النزر اليسير».

«لكن أجبني، كيف ستعيش؟ من دون نقود. من دون أصدقاء؟»

«أفكّر في العمل في الزجاج لكسب رزقي. طحن وصقل العدسات. أظن أنّني سأجيد ذلك».

«زجاج من أجل ماذا؟»

«نظارات. عدسات مكبّرة. بل حتى مناظير».

نظرت ريبيكا إلى أخيها مندهشة، وقالت: «يهودي يطحن زجاجاً. ما الذي جرى لك يا بنتو؟ لماذا أنت غريب هكذا؟ لا يوجد لديك اهتمام بالحياة الواقعية. لا بامرأة، زوجة، أسرة. كنت تقول طوال الوقت عندما كنّا أطفالاً إنك تريد أن تتزوجني، لكن منذ سنوات - منذ عيد بلوغك (*بار متسفا*) - لم تعد تذكر الزواج قط، ولم أسمع بأنك تبدي أيّ اهتمام بأيّ امرأة. هذا شيء غير طبيعي. إنك تعرف بماذا أفكّر؟ أظن أنك لم تبرأ قط من وفاة أمّنا. كنت تراقبها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، ينبعث منها صفير، وتتنفس بصعوبة شديدة. كان ذلك شيئاً فظيعاً. أذكر كيف أمسكت بيدي فوق العربة التي نقلت جثمانها إلى مقبرة بيث حاييم في أودركيرك. لم تنبس بكلمة واحدة طوال ذلك اليوم - كانت عيناك مثبتتين على

الحصان الذي كان يجرّ العربة على طول القناة. وكان الجيران والأصدقاء ينوحون ويولولون بصوت عال حتى اقترب الحراس الهولنديون منّا وطلبوا منا أن نصمت. ثمّ، طوال مراسم الدفن، كانت عيناك مغمضتين كما لو كنت نائماً وأنت واقف. لم تر كيف داروا حول جثمان أمّنا سبع مرات. قرصتك عندما أنزلوها تحت الأرض، ففتحت عينيك مرعوباً وحاولت أن تهرب عندما بدأ الجميع بإلقاء حفنات من التراب على جثمانها. ربما كان ذلك كثيراً عليك - ربما كنت حزيناً جداً على موتها. لم تكد تتكلّم لأسابيع بعد ذلك. ربما لم تتجاوز تلك المحنة قط، فلم تجازف بأن تحبّ امرأة أخرى، ولم ترغب في أن تجازف بفقدان آخر، موت آخر مثل ذاك. ربما لهذا السبب لم تعد تريد أن يكون هناك أحد يكون مهماً بالنسبة لك».

هزّ بنتو رأسه، وقال: «هذا غير صحيح يا ريبيكا. فأنت تهمينني كثيراً، وكذلك غابرييل. إن عدم رؤيتكما مرة أخرى سيكون مؤلماً جداً. إنك تتكلّمين كما لو كنت لست بشراً».

تابعت ريبيكا حديثها كما لو أنها لم تسمعه، «يخيّل إليّ أنك لم تبرأ من جميع الوفيات التي حدثت. فأثناء موت شقيقنا إسحاق لم تُبدِ مشاعر قوية، كما لو أنك لم تفهم حقيقة ما يجري. وعندما طلب منك والدنا أن تتوقف عن دراساتك الربّانية لتشرف على المخزن، كان كل ما فعلته هو أنك هززت رأسك موافقاً. وفي لحظة واحدة تغيّرت حياتك كلها، ومع ذلك لم تفعل شيئاً سوى أنك هززت رأسك، كما لو كانت تلك مسألة تافهة».

فقال غابرييل: «هذا غير معقول، إن فقدان والدينا ليس هو التفسير، فأنا عشت في نفس الأسرة، وعانيت من الوفيات نفسها، لكني لا أفكّر كما يفكّر بنتو. فأنا أريد أن أكون يهودياً. أريد أن تكون لي زوجة وأسرة».

فقال بنتو: «ومتى سمعتني أقول إن الأسرة ليست مهمة؟ إني سعيد جداً من أجلك يا غابرييل. أحبّ فكرة أن تنشئ أسرة. كم يؤلمني أن أفكّر في أنني لن أرى أطفالك أبداً».

فقالت ريبيكا: «لكنّك تحبّ الأفكار، لا الناس. ربما يعزى ذلك إلى الطريقة التي رباك فيها والدنا. هل تتذكّر لوح العسل؟»

هزّ بنتو رأسه.

«ماذا؟» سأل غابرييل.

«عندما كان بنتو صغيراً، ربما في الثالثة أو الرابعة من عمره - لا أذكر جيداً - علّمه والدنا القراءة بطريقة غريبة. قال لي لاحقاً إنها طريقة تعليم شائعة منذ مئات السنوات. فقد أعطى بنتو لوحاً كُتبت عليه جميع أحرف الأبجدية -*ألف*، بيت، جيمل - وغطّاه بالعسل، وطلب من بنتو أن يلعق العسل كلّه. فقد كان والدنا يظن أن هذه الطريقة قد تساعد بنتو على أن يحبّ الحروف العبرية ويحبّ اللغة».

«أظن أنها نجحت»، واصلت ريبيكا كلامها، «وربما لهذا السبب فإنك تبدي اهتماماً بالكتب وبالأفكار أكثر مما تبديه للناس».

تردّد بنتو. فأيّ شيء يقوله يمكن أن يزيد الأمر سوءاً. فلن تفتح شقيقته ولا شقيقه عقليهما لأفكاره، وقد يكون ذلك أفضل. فإذا تمكن من مساعدتهما على رؤية مشاكل الطاعة العمياء لسلطة الحاخام، فإن آمالهما في القناعة والشعور بالرضا بزيجتيهما وطائفتهما ستهتز. لذلك كان عليه أن يغادرهما من دون مباركتهما.

«أعرف أنك غاضبة يا ريبيكا، وأنت أيضاً يا غابرييل. وعندما أرى ذلك من وجهة نظركما، فإني أستطيع أن أفهم السبب. لكنّكما لا تستطيعان رؤية ذلك من وجهة نظري، ويحزنني أننا يجب أن نفترق دون أن نكون متفاهمين. قد تسبب لكما قليلاً من الراحة، فإن

كلمات فراقي هي هذه: أعدكما بأنّني سأعيش حياة مقدّسة وأتبع كلمات التوراة حول محبة الآخرين، وأن لا أوذي أحداً، وأن أسلك درب الفضيلة، وأوجّه أفكاري نحو إلهنا اللامتناهي والأبدي».

لكن ريبيكا لم تكن تسمع. كان عليها أن تقول المزيد. «فكّر في أبيك يا بنتو. إنه لا يرقد بجانب زوجتيه، لا أمّنا ولا إستر. وإنما يرقد في أرض مقدّسة بجانب أقدس الرجال. إنه يرقد في نومه الأبديّ، مكرّماً لولائه وإخلاصه للكنيس ولشريعتنا. كان والدنا يعرف عن القدوم الوشيك للمسيح المنتظر، ويعرف عن خلود الروح. فكّر - فكّر كيف ستكون مشاعره حول ابنه باروخ. فكّر كيف يشعر، لأن روحه لا تموت. إنها تحوم فوقنا، إنها ترى، إنه يعرف هرطقة ابنه المختار. إنه يلعنك في هذه اللحظة!»

لم يتمالك بنتو نفسه، فقال: «إنك تفعلين كما يفعل الحاخامات ورجال الدين تماماً. وهذا ما يجعلنا، أنا وهم، نسير في طريقين مختلفين. إنكم تعلنون جميعاً بيقين تام بأن روح والدنا تراقبني وتلعنني. من أين يأتي يقينك هذا؟ ليس من التوراة! فأنا أعرفه عن ظهر قلب، ولا توجد فيه كلمة واحدة مما تقولينه. ولا يوجد أي دليل لادّعاءاتك عن روح والدنا. أعرف أنك تسمعين هذه القصص الخيالية من حاخاماتنا، لكن ألا ترين كيف أنها تخدم أهدافهم؟ إنهم يحكموننا من خلال الخوف والأمل: الخوف مما سيحدث بعد الموت، والأمل بأننا إذا عشنا بطريقة معيّنة - حياة جيّدة للرعية والخضوع باستمرار لسلطة الحاخامات - فإننا سنتمتّع بحياة سعيدة في العالم الآخر».

وضعت ريبيكا يديها على أذنيها، فرفع بنتو صوته، «أقول لك إنه عندما يموت الجسد، تموت الروح. لا يوجد عالم آخر. لن أسمح للحاخامات أو لأي شخص آخر أن يمنعني من التفكير، لأنّنا من

خلال العقل فقط نستطيع أن نعرف اللّه، وأن هذا البحث هو المصدر الحقيقي الوحيد للسعادة في هذه الحياة».

نهضت ريبيكا واقفة تتهيأ للمغادرة. اقتربت من بنتو ونظرت في عينيه، وقالت: «أحبّك كما كنت ذات مرّة في أسرتنا»، وعانقته، «أما الآن» - صفعته بقوة على وجهه - «فإني أكرهك»، وأمسكت بيد غابرييل وجرّته إلى خارج الغرفة.

الفصل الثامن عشر

ميونيخ - ١٩١٩

في صباح اليوم التالي، بينما كان ألفريد يقف في الرتل في المكتبة بانتظار استلام كتاب سبينوزا ، تذكّر حلماً رآه الليلة الماضية: *كنت أسير في الغابة أتحدّث إلى فريدريش. فجأة اختفى وأصبحت وحدي أتجاوز أشخاصاً آخرين يبدو أنهم لم يكونوا يرونني. كنت أشعر بأنني مخفيّ. غير مرئي. ثمّ خيم الظلام على الغابة، فاعتراني الخوف*. كان هذا كلّ ما استطاع أن يتذكّره. كان يعرف أنه رأى أشياء أخرى في الحلم، لكنّه لم يتذكّرها. تساءل كيف يمكن أن تكون الأحلام عابرة. وفي الواقع، فإنه لم يتذكّر أنه حلم أصلاً حتى انبثقت هذه الصورة في عقله. لا بد أن ما حفّز هذه الذاكرة هو الربط بين سبينوزا وفريدريش. فها هو يقف في الرتل لاستلام كتاب سبينوزا «*رسالة في اللاهوت والسياسة*»، الكتاب الذي اقترح فريدريش أن يقرأه قبل أن يقرأ كتاب «*الأخلاق*». أليس من الغرابة أن يخطر فريدريش بباله كثيراً مع أنهما لم يلتقيا إلّا مرّتين. لا ، هذا غير صحيح لأن فريدريش يعرفه منذ أن كان طفلاً. والغريب أيضاً أن أول حديث دار بينهما كان ذا طابع شخصي.

عندما وصل ألفريد إلى المكتب، لم يكن إكارت قد وصل بعد.

لم يكن هذا أمراً غير عادي، خاصة أن إكارت كان يكثر من الشرب مساء كلّ يوم، ولم يكن يأتي إلى العمل في الصباح في أوقات منتظمة. أخذ ألفريد يتصفح مقدمة كتاب سبينوزا الذي يصف ما كان يريد أن يثبته. لا توجد مشكلة في قراءة هذا الكتاب - فلغته واضحة جداً. كان فريدريش محقّاً، فمن الخطأ أن يبدأ بقراءة كتاب *الأخلاق*.

جذبت الصفحة الأولى انتباه ألفريد، فقرأ، «*الخوف هو سبب وجود الخرافة*»، ثم قرأ، «*وإذا شعر الأشخاص الضعفاء والجشعون بمكروه فإنهم يطلبون العون الإلهي بتلاوة الصلوات وذرف الدموع كما تفعل النساء*». كيف يمكن ليهودي من القرن السابع عشر أن يكتب كلاماً كهذا؟ فهذه كلمات ألماني من القرن العشرين!

ووصفت الصفحة التالية كيف أن «*الخيلاء والشعائر التي تُوظف في الدين تملأ عقول الرجال بالدوغماتية، وتحجب العقل السليم ولا تترك له حتى قدراً قليلاً من الشكّ والتساؤل*». رائع! لكنه لم يتوقّف هنا! بل واصل سبينوزا يتكلّم عن الدين «*بأنه نسيج من الألغاز السخيفة التي تجذب الإنسان، والتي تستخف بالعقل تماماً*». بدأ ألفريد يلهث واتسعت عيناه.

العبراونيون هم «شعب اللّه المختار؟» هذا هراء، قال سبينوزا. وبعد قراءة مستنيرة ونزيهة لشريعة موسى، يقول سبينوزا، إن الرب فضّل اليهود فقط بأن اختار لهم شريطاً ضيقاً من الأرض ليعيشوا فيه بسلام.

والتوراة هو «كلمة الرب»؟ لقد شتت نثر سبينوزا القوي هذه الفكرة عندما ادّعى أنّ الكتاب المقدّس يحتوي على حقيقة روحية فقط - أي ممارسة العدل والمحبة - ولا يحتوي على حقائق أرضية

ودنيوية. وأن جميع الذين يجدون قوانين وحقائق دنيوية في الكتاب المقدّس هم مخطئون أو وصوليون، قال سبينوزا بإصرار.

واختتم المقدمة بتحذير، «*وإني أطلب من عامة الناس أن لا يقرأوا رسالتي هذه*»، وتابع موضحاً، «*لذلك، فإني لا أدعو العامة أو الذين تسيرهم أهواء انفعالاتهم إلى قراءة هذا الكتاب، لأنهم لن يجدوا فيه فائدة، بل سيجدون فيه وسيلة لإيقاع الشر والإساءة إلى بعض الفلاسفة الأحرار الذين لا يؤمنون بأنه يجب تكريس العقل لخدمة اللاهوت*».

مندهشاً من هذه الكلمات، لم يتمالك ألفريد نفسه من الإعجاب بجرأة سبينوزا. وعلى الرغم من المقدمة القصيرة حول سيرته الذاتية، تذكّر ألفرد أن الكتاب نُشر سنة ١٦٧٠ من دون ذكر اسم المؤلف (عندما كان سبينوزا في الثامنة والثلاثين من العمر) لكن هوية المؤلف كانت معروفة جيداً. كان قول هذه الكلمات في سنة ١٦٧٠ يتطلب شجاعة كبيرة: فقد كانت سنة ١٦٧٠ بعد جيلين فقط من حرق جيوردانو برونو بتهمة الهرطقة، وجيل واحد من قيام الفاتيكان بمحاكمة غاليلو. وورد في المقدمة أنّ الدولة والكنيسة الكاثوليكية والطائفة اليهودية حظرت الكتاب، ثم حظره الكالفانيون.

لا يمكن إنكار ذكاء المؤلف الاستثنائي. الآن، أخيراً، أخيراً، فهم لماذا كان غوته العظيم وجميع الألمان الآخرين - شيلينغ، شيلر، هيغل، ليسينغ، نيتشه - يبجلون هذا الرجل. فكيف يمكنهم ألّا يبدون إعجابهم بعقل رجل كهذا؟ لكنهم، بالطبع، كانوا يعيشون في قرن آخر، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن علم السلالات والأعراق الجديد، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن أخطار الدم المسمّم - لكنهم أُعجبوا ببساطة بهذه الطفرة، هذه الزهرة الاستثنائية التي نبتت من الوحل. ألقى ألفريد نظرة على صفحة العنوان: «بينديكتوس سبينوزا»

- بينديكتوس، اسم ليس من المحتمل أن يكون اسماً سامياً. وتشير النبذة الشخصية إلى أن اليهود نبذوه من الطائفة وهو في العشرينات من عمره، ولم يحتك باليهود بعد ذلك على الإطلاق. لذلك فهو ليس يهودياً حقيقياً. إنه طفرة - وقد أدرك اليهود أنّه لم يكن يهودياً، وبإطلاق هذا الاسم على نفسه، لا بدّ أنه كان يدرك ذلك أيضاً.

وصل ديتريش في الساعة الحادية عشرة، وأمضى معظم ساعات النهار في تعليم ألفريد كيف يصبح محرّراً أفضل. وسرعان ما أوكل إليه مسؤولية تحرير معظم المقالات المرسلة إلى الصحيفة. وفي غضون أسابيع، بدأ قلم ألفريد الأحمر يتحرك بسرعة البرق ويحسّن بمهارة مستوى أسلوب المقالات التي يكتبها الآخرون ويرفع من سويتها وأهميتها. وغمرت ألفريد السعادة، فلم يكن يتدرب على يد معلّم ممتاز فحسب، وإنما كان «طفل» ديتريش الوحيد. إلا أن ذلك سرعان ما سيتغير. لأن منافساً لألفريد سيأتي قريباً- منافس سيملأ الغرفة كلها.

وحدث التغيير بعد بضعة أسابيع، في أيلول ١٩١٩، عندما ظهر أنتون دركسلر، الرجل الذي رحّب بألفريد في جمعية ثيل، في المكتب في غاية الحماسة. كان ديتريش على وشك أن يغلق باب مكتبه لتبادل حديث خاص معه، عندما أشار دركسلر، بموافقة ديتريش، إلى ألفريد لأن يدخل.

قال دركسلر: «ألفريد، دعني أخبرك، فأنا واثق بأنك تعرف بأنه بعد فترة ليست طويلة من أول اجتماع حضرته معنا في جمعية *ثيل*، أنشأ عدد منّا حزباً سياسياً جديداً - حزب *العمّال الألماني*؟ أذكر أنك حضرت أول اجتماع عقدناه، كان اجتماعاً صغيراً، والآن فنحن مستعدون لتوسيعه. ونريد أنا وديتريش أن ندعوك لحضور اجتماعنا القادم وأن تكتب مقالة رئيسية عن الحزب. أصبحنا الآن بين عدد

كبير من الأحزاب ويجب أن نكون أكثر بروزاً».

بعد أن نظر ألفريد إلى إكارت الذي أوحت إيماءته الحادّة بأنّ الدعوة هي أكثر من دعوة، أجاب، «سأحضر الاجتماع القادم».

بدا دركسلر راضياً. أغلق الباب وأشار إلى ألفريد بأن يجلس، وقال: «إذاً يا ديتريش، أظن أننا وجدنا الشخص الذي ننتظره. دعني أخبرك بما حدث. بالطبع فإنك تتذكّر أننا عندما قرّرنا أن نحوّل الحزب من جمعية *ثيل* يتبادل فيها الأعضاء أحاديث ومناقشات عامة إلى حزب سياسي نشيط يعقد اجتماعات علنية، كان علينا أن نتقدم بطلب إلى قيادة الجيش للحصول على موافقة؟ وأُبلغنا بأنّ مراقباً عسكرياً سيحضر اجتماعاتنا بين الحين والآخر؟»

«أتذكّر وأنا أوافق تماماً على هذه الأنظمة. فمن الضروري مراقبة الشيوعيين وكبح جماحهم».

«حسناً»، واصل دركسلر، «في اجتماع الأسبوع الماضي الذي كان يحضره حوالي خمسة وعشرين أو ثلاثين شخصاً، وصل هذا الرجل الذي يبدو فظاً، ويرتدي ثياباً سيئة في وقت متأخّر وجلس في الصفّ الأخير. فهمس لي كارل، حارسنا الخاص، بأنه مراقب من الجيش في ثياب مدنية وكان قد شوهد في اجتماعات سياسية أخرى، وفي مسارح ونواد، يبحث عن مثيري الشغب الخطرين».

«إذاً فهو مراقب - اسمه هتلر، عريف في الجيش، لكنه سيُسرّح من الجيش بعد بضعة أشهر - ظل صامتاً تماماً بينما كان يستمع إلى المتحدّث الرئيسي وهو يلقي كلمة مملّة عن ضرورة القضاء على الرأسمالية. لكن، في فترة المناقشة التالية، بدأت الحيوية تدبّ في صفوف المجتمعين. فألقى أحد الحاضرين كلمة طويلة قال فيها إنه يحبّذ تلك الخطّة الغبية التي يجري التخطيط لها لفصل بافاريا عن ألمانيا ودمجها مع النمسا لتصبح دولة ألمانية جنوبية. حسناً، على

الفور، استشاط هتلر هذا غضباً، ونهض واقفاً واتجه إلى الجزء الأمامي من القاعة وهاجم بعنف هذه الفكرة أو أيّ اقتراح يرمي إلى إضعاف ألمانيا. وراح ينتقد أعداء ألمانيا بقسوة لبضع دقائق - هؤلاء المتحالفون مع مجرمي فيرساي الذين يحاولون قتل بلدنا، وتمزيقه، وحرماننا من قدرنا المجيد - وما إلى هنالك.

«كانت نوبة غضبه عارمة، وبدا مثل مجنون على وشك أن يفقد القدرة على التحكم بنفسه. بدأ الحاضرون يتململون، وكنت على وشك أن أطلب من كارل أن يلقي به إلى خارج القاعة - لكني تردّدت فقط لأنه، حسناً، موفد من الجيش. لكن عندها فقط، كما لو أنه عرف بما كنت أفكّر، أمسك نفسه، وتمالك نفسه، وارتجل كلمة مذهلة لمدة خمس عشرة دقيقة. لم يكن فيها شيء أصلي. آراؤه - المناهضة لليهود، الموالية للجيش، المعادية للسامية - موازية لخطّنا. إلا أن طريقة إلقائه كانت مدهشة. وبعد بضع دقائق، راح الجميع، أقصد جميع الحاضرين، ينصتون، مركزين كلّ انتباههم على عينيه الزرقاوين المتقدتين، وعلى كلّ كلمة يقولها. إن هذا الرجل موهوب. عرفت ذلك على الفور، وبعد انتهاء الاجتماع جريت خلفه وأعطيته منشوري «*صحوتي السياسية*»، وقدمت له كذلك بطاقتي، ودعوته لأن يتصل بي ليتعرف أكثر على الحزب».

«و؟» سأل إكارت.

«حسناً، زارني ليلة البارحة. تكلّمنا طويلاً عن أهداف الحزب وغاياته، وهو الآن العضو رقم ٥٥٥ وسيلقي كلمة أمام أعضاء الحزب في الاجتماع القادم».

«خمسمئة وخمس وخمسون؟» قاطعه ألفريد، «مذهل! هل أصبح الحزب ضخماً بهذه السرعة؟»

«بيننا، وبيننا فقط، يا ألفريد، العدد هو ٥٥»، همس دركسلر،

«لكن للنشر نريد أن تضيف رقماً وتجعله ٥٥٥. إذا اعتقد الآخرون بأن حزبنا ضخم سينظرون إلينا بجديّة أكبر».

بعد بضع ليال، ذهب إكارت وألفريد معاً للاستماع إلى الكلمة التي سيلقيها العريف هتلر، ثم سيذهبان بعد ذلك لتناول العشاء في بيت إكارت. تقدّم هتلر بثقة شديدة ووقف أمام الأربعين عضواً ومن دون مقدمة راح يحذر بسرعة وبحماسة شديدة من الخطر الذي يشكّله اليهود على ألمانيا. فقال: «لقد جئت لأحذركم من اليهود ولأحثّكم على استخلاص نوع جديد من معاداة اليهود. أحثّكم على معاداة اليهود بالاستناد إلى الحقائق، لا بالاستناد إلى العاطفة. لأن معاداتهم عاطفياً لن تؤدي إلّا إلى مذابح غير مجدية. لا، ليس هذا هو الحلّ. إننا نحتاج إلى أكثر من ذلك، أكثر بكثير. إننا بحاجة إلى معاداتهم بعقلانية. فالعقلانية فقط تقودنا إلى استنتاج ثابت وهو: التخلص من اليهود من ألمانيا تماماً».

ثمّ أطلق تحذيراً آخر، وقال: «إن الثورة التي كنست رأس ألمانيا المتوّج من رأس السلطة يجب ألّا تفتح الباب أمام البلشفيّة اليهودية».

فوجئ ألفريد بعبارة هتلر «البلشفيّة اليهودية». فقد كان يستخدم هذه العبارة بالذات منذ زمن، وها هو هذا العريف يفكّر بنفس الطريقة التي يفكّر بها - ويستخدم الكلمات نفسها. كان هذا أمراً سيئاً وجيداً في آن معاً. سيّئ لأنه كان يشعر بأنه هو صاحب هذه العبارة، وجيّد لأنه أدرك أنه أصبح لديه الآن حليف قوي.

«دعوني أحدّثكم المزيد عن الخطر اليهودي»، تابع هتلر، «دعوني أحدّثكم أكثر عن معاداة اليهود العقلانية. إنها ليست بسبب الدين اليهودي. فدينهم ليس أسوأ من الأديان الأخرى - فهي كلّها جزء من الخداع الديني العظيم نفسه. وليس بسبب تاريخهم أو

ثقافتهم الطفيلية البغيضة - مع أن آثامهم ضدّ ألمانيا على مدى القرون لا تعد ولا تحصى. لا، ليست هذه الأشياء هي السبب. القضية الحقيقية هي عرقهم، دمهم الملوّث الذي يضعف ألمانيا ويهددها كلّ يوم، وكلّ ساعة، وكلّ دقيقة.

«ولا يمكن للدم الملوّث أن يصبح نقياً. دعوني أحدّثكم عن اليهود الذين اختاروا المعمودية، اليهود الذين تحوّلوا إلى المسيحية. إنهم أسوأ الأنواع. إنهم يشكّلون أعظم خطر. فهم سيلوثون وسيدمّرون بمكر بلدنا العظيم، كما دمّروا كلّ الحضارات العظيمة».

هزّ ألفريد رأسه لدى سماعه هذه الكلمات. إنه على حقّ، إنه على حقّ، قال لنفسه. فقد ذكّره هتلر هذا بما يعرف. لا يمكن للدم أن يتغيّر.

فعندما تكون يهودياً، ستظل يهودياً على الدوام. كان ألفريد بحاجة إلى أن يعيد التفكير في مقاربته الكاملة لمشكلة سبينوزا.

«والآن، اليوم» - واصل هتلر وبدأ يضرب على صدره مع كلّ فكرة - «يجب أن تدركوا أنه لا يمكنكم أن تتعاموا عن هذه المشكلة. ولا يمكن للخطوات الصغيرة أن تحلّ هذه المشكلة - هذه المشكلة المتعلقة بقدرة أمّتنا على استعادة عافيتها. يجب استئصال الجرثومة اليهودية. لا يضلّلكم التفكير بأنكم تستطيعون مكافحة مرض من دون القضاء على ناقل المرض، من دون القضاء على البكتيريا. لا تتخيّلوا أنكم تستطيعون محاربة السلّ العرقي من دون أن تخلّصوا الأمّة من ناقل ذلك السلّ العرقي».

أثار هتلر كلّ نقطة بصوت يزداد حدّة، كلّ جملة بنبرة أعلى، حتى بدا من المؤكد أن صوته سيتصدّع إلى شظايا - لكنّه لم يتصدّع أبداً. وعندما أنهى كلامه بالصراخ « لن ينحسر هذا التلوّث اليهودي، ولن ينتهي تسمّم الأمّة هذا إلّا بعد أن يتم التخلّص من ناقل المرض

نفسه، اليهود، من بيننا»، عندها قفز جميع الحاضرين ووقفوا على أقدامهم، وصفقوا له بقوة.

كان العشاء في ذلك المساء في بيت إكارت حميماً - فلم يكن هناك سوى أربعة أشخاص: ألفريد ودركسلر وإكارت وهتلر. لكن هتلر هذا أصبح مختلفاً الآن - لا هتلر الغاضب الذي يدق بيديه على صدره، وإنما هتلر اللطيف، المهذب.

رافقتهم روزا، زوجة إكارت، المرأة الراقية، إلى صالة الاستقبال، ثم انسحبت بأدب شديد بعد بضع دقائق وتركت الرجال الأربعة لأحاديثهم الخاصة. ثم أحضر إكارت قنينة من أفضل أنواع النبيذ لديه من القبو، لكن غبطته سرعان ما تلاشت عندما عرف أن هتلر لا يشرب الكحول، وأن ألفريد رجل يكتفي بكأس واحدة. وشعر بإحباط أكثر عندما عرف أن هتلر نباتي ولن يشاركهم في تناول الإوزّة المشوية التي حملتها مدبرة المنزل بفخر إلى غرفة الطعام. وبعد أن أعدّت مدبرة المنزل قليلاً من البيض المخفوق بالحليب والبطاطا بسرعة من أجل هتلر، تناول أربعتهم الطعام وتحدّثوا لأكثر من ثلاث ساعات.

«إذاً، هير هتلر، حدّثنا عن مهمتك الحالية وعن مستقبلك في الجيش»، قال إكارت.

«لا يوجد مستقبل كبير للجيش بما أن معاهدة فيرساي - عليها اللعنة الأبدية - قد حددت عدد أفراد جيشنا بمئة ألف جندي ولم تضع أي حدّ لجيوش أعدائنا. هذا التقليص في عدد أفراد الجيش يعني أنني سأُسرّح بعد ستة أشهر تقريباً. حالياً، توجد لديّ بضع مهام أخرى بالإضافة إلى مراقبة الاجتماعات التي تعقدها أحزابنا السياسية الخمسين الأكثر تهديداً والتي تعمل حالياً في ميونيخ».

«ولماذا يشكّل حزب العمّال الألماني تهديداً؟» سأل إكارت.

«بسبب الكلمة التي قلتها 'العمّال'. فهذه الكلمة تثير الشكوك حول التأثير الشيوعي. لكن، هير إكارت، فإني أطمئنك بأنه بعد أن أقدّم تقريري، سيقدّم لك الجيش كلّ الدعم. فالوضع خطير علينا جميعاً. البلاشفة هم المسؤولون عن استسلام الروس في الحرب، والآن فإنهم يبذلون جهودهم لاختراق ألمانيا وتحويلنا إلى دولة بلشفيّة».

وقال دركسلر: «لقد تحدّثنا، أنا وأنت، البارحة عن موجة اغتيالات الزعماء اليساريين مؤخراً. هل تتفضل وتكررها على مسامع هير إكارت وهير روزنبرغ وتقول لنا كيف ترى أنه يجب أن يستجيب الجيش والشرطة لذلك؟»

«أظن أن عدد الاغتيالات لا يزال قليلاً جداً، ولو تُرك الأمر لي، لزوّدت المغتالين بعدد أكبر من الطلقات».

ابتسم إكارت ودركسلر ابتسامة عريضة عندما سمعا هذا الرد، وسأل إكارت، «وما رأيك بحزبنا حتى الآن؟»

«لقد أحببت ما رأيته. وأتّفق تماماً مع برنامج الحزب، وبعد التفكير في الأمر ملياً، لا توجد عندي أدنى مخاوف بأن أضع مصيري مع حزبكم».

«وحجمنا الصغير؟» سأل دركسلر، ثم أضاف، «فوجئ ألفريد، صحفيّنا هنا، قليلاً عندما عرف أن أول خمسمئة من جنودنا كانوا من التشكيلة الأسطورية».

فالتفت هتلر نحو ألفريد وقال: «آه، باعتبارك صحفياً، أرجو أن توافقني الرأي بأنّ الحقيقة هي كل ما يصدّقه عامة الناس. بصراحة، هير دركسلر، فإني أعتبر أن حجمنا الصغير ميّزة وليس نقطة ضعف. فيوجد لديّ راتبي الذي أتقاضاه من الجيش، وبعض المطالب من

الضابط رئيسي، وفي الأشهر الستّة القادمة أزمع أن أعمل من دون كلل من أجل الحزب وآمل أن أضع بصمتي عليه قريباً».

«هل لي أن أرفع الكلفة وأطلب المزيد من المعلومات عن خدمتك العسكرية، هير هتلر؟» سأله إكارت، «فما يثير اهتمامي بشكل خاص هو رتبتك. فمن الواضح أنك تمتلك إمكانات قيادية كبيرة. كان يجب أن تكون برتبة أعلى، لكن على الرغم من ذلك، فأنت برتبة عريف؟»

«يجب أن تطرح هذا السؤال على الضباط في المراتب العليا. أشكّ في أنهم سيقولون إنني أحمل إمكانيات قائد كبير لكنهم يقولون إنني أقاوم بشدة أن أكون تابعاً. لكن المهم هي الحقائق». والتفت إلى ألفريد ليتأكد أنّه يسجّل ملاحظات، «لقد مُنحت وسامين للصليب الحديدي للشجاعة. يمكنك أن تتأكد من ذلك من القيادة العسكرية، هير روزنبرغ. يجب على الصحفي الجيد أن يدقق في الحقائق، مع أنه تمرّ أوقات قد لا يستخدمها. وقد أصبت بجروح مرّتين في معارك على خطّ الجبهة. في المرة الأولى شظيّة أصابت ساقي بجروح، لكن بدلاً من أن أستمتع بفترة نقاهة طويلة، أصررت على أن أعود فوراً إلى كتيبتي. وفي المرة الثانية، كانت هدية من أصدقائنا البريطانيين - غاز الخردل. فقد أصيب عدد منّا بالعمى المؤقت ولم تكتب لنا الحياة إلّا لأن أحدنا أصيب بعمى نصفي فقط، فقادنا، كلّ واحد منّا يمسّك بالجندي التالي في سلسلة من الأيادي، من الجبهة حتى مركز الرعاية الطبية. وقد عالجوني في مستشفى باسيوالك وخرجت من المستشفى منذ حوالي سنة، وأصيبت حبالي الصوتية بشيء من الضرر».

نظر ألفريد، المنهمك بتدوين ملاحظات، إلى الأعلى وقال: «تبدو حبالك الصوتية معافاة وسليمة هذه الليلة».

«نعم، ظننت ذلك. إنه شيء غريب، لكن الذين يعرفونني قبل أن أصاب يظنون أن غاز الكلور هو جعل صوتي أقوى. ثق بي، فلن أُخفق في استخدامه ضدّ المجرمين الفرنسيين والبريطانيين».

«إنك متحدّث بارع، هير هتلر»، قال إكارت، «وأرى أنك ستصبح عضواً ثميناً في حزبنا. قل لي: هل حصلت على أيّ تدريب محترف في الخطابة؟»

«لفترة قصيرة فقط، في الجيش. فبعد أن ألقيت بضعة خطابات مرتجلة أمام الجنود الآخرين دُرِّبتُ لمدة ساعتين على فن الخطابة وكُلِّفت بإعطاء محاضرة لأسرى الحرب الألمان العائدين عن الأخطار الكبرى التي تواجه ألمانيا: الشيوعية، اليهود، ومبدأ السلام. ويضم سجلي العسكري تقريراً من الضابط المسؤول عني يدعوني فيه 'خطيب مفوّه بالفطرة' وأنا أصدق ذلك. عندي موهبة، وأعتزم أن استخدمها لخدمة حزبنا».

استمرّ إكارت في طرح أسئلة عن تعليم هتلر وقدرته على القراءة. وفوجئ ألفريد عندما سمع أن هتلر رسّام وتعاطف مع حدّة غضبه لسيطرة اليهود على أكاديمية الفنون في فيينا ومنعوه من الدخول إلى مدرسة الرسم. واتفقا على أن يرسما معاً في وقت ما. وفي نهاية السهرة، بينما كان المدعوون يستعدّون للمغادرة، طلب إكارت من ألفريد أن يبقى قليلاً ليناقش معه بعض المسائل المتعلقة بالعمل. وعندما أصبحا وحدهما، صبّ إكارت كأسين من البراندي لكليهما، متجاهلاً رفض ألفريد، وقال: «حسناً، يا ألفريد، لقد وصل. أعتقد أننا رأينا هذه الليلة مستقبل ألمانيا. إنه قاس وفظ - لديه جوانب نقص عديدة، أعرف، لكنه يمتلك قوّة، قوّة كبيرة! ولديه كلّ المشاعر اللازمة. ألا توافقني الرأي؟»

كان ألفريد متردّداً، وقال: «إني أرى ما تراه. لكني عندما أفكّر

في الانتخابات، فإني أتصوّر أن أجزاء كبيرة في ألمانيا قد لا توافق. هل يمكنهم قبول رجل لم يمض يوماً واحداً في الجامعة؟»

«صوت واحد لكلّ رجل. الغالبية العظمى مثل هتلر، حصلوا على تعليمهم من الشارع».

لكن ألفريد جازف أكثر وقال: «بالرغم من ذلك، فإني أرى أن عظمة ألمانيا تنبثق من أرواحنا العظيمة - غوته، كانط، هيغل، شيلر، ليبنيز. ألا توافق؟»

«لهذا السبب بالتحديد طلبت منك أن تبقى قليلاً. إنه يحتاج إلى ... ماذا أقول؟ صقل. إكمال. إنه قارئ لكنه انتقائي جداً، ويجب أن نملأ الفجوات. وسيكون هذا يا روزنبرغ عملنا - عملك وعملي. لكن يجب أن نكون حاذقين ودقيقين. أشعر أنه يتمتع بقدر عظيم من الكبرياء، والمهمة الشاقة التي تقبع أمامنا هي أن نثقفه من دون أن يعرف».

سار ألفريد إلى بيته متثاقلاً في خطواته. لقد ازداد المستقبل وضوحاً. مسرحية جديدة بدأت تتجلّى على خشبة المسرح، ومع أنّه أصبح على يقين الآن بأنه سيكون واحداً في فريق التمثيل، فلن يكون الدور الذي سيوكل إليه هو الدور الذي يحلم به.

الفصل التاسع عشر

أمستردام - ٢٧ تموز (يوليو) ١٦٥٦

كانت واجهة كنيس تلمود التوراة، الكنيس الرئيسي لطائفة اليهود السيفارديم، تشبه واجهة أيّ بيت آخر يقع في شارع هوتغراشت، جادة كبيرة تعج بالحركة يعيش فيها عدد كبير من يهود السيفارديم في أمستردام. لكن بأثاثه المورسكي الباذخ، كان الكنيس من الداخل يبدو أنه ينتمي إلى عالم آخر. فقد انتصب إزاء الجدار الجانبي - أقرب جدار إلى القدس - تابوت العهد منحوتاً بإتقان يُخبأ فيه سِفر التوراة وراء ستارة مطرّزة من المخمل الأحمر الغامق. وتنتصب أمام تابوت العهد منصة خشبية يقف عليها الحاخام، أو قائد جماعة الترتيل، أو قارئ اليوم، والوجهاء الآخرون. وكانت جميع النوافذ مغطاة بستائر ثقيلة مطرّزة برسوم طيور وكروم، تمنع أيّ عابر سبيل من رؤية الكنيس من الداخل.

وكان الكنيس مركزاً للطائفة اليهودية ومدرسة لتعليم اللغة العبرية، وبيتاً لأداء صلاة الصبح البسيطة، وشعائر يوم السبت التي تدوم فترة أطول، ومكاناً لإقامة الاحتفالات البهيجة في الأعياد اليهودية الرئيسية.

ولم يكن الكثير من الأشخاص يحضرون الصلاة بانتظام طوال

الأسبوع، وغالباً ما يحضر الصلاة عشرة رجال فقط - *المنيان* «الحد الأدنى المطلوب لإقامة الصلاة» - وإذا لم يحضر عشرة رجال، كان يتم إحضار رجال آخرين بسرعة من الشارع لكي يكتمل العدد وتقام الصلاة. وبطبيعة الحال، ليس من الممكن أن تكون النساء جزءاً من *المنيان*. أما في صباح يوم الخميس الموافق ٢٧ تموز ١٦٥٦، فلم يكن في الكنيس عشرة مصلّين أتقياء هادئين فقط، وإنما ثلاثمئة شخص يشغلون كلّ مقعد وكلّ بوصة يمكن الوقوف فيها. ولم يكن الحاضرون من أولئك المصلين الذين يحضرون الصلاة بانتظام خلال أيام الأسبوع وصلاة يوم السبت فحسب، وإنما كانت تندر رؤيتهم «اليهود الذين يأتون لأداء الصلاة في الأعياد الرسمية».

ما سبب كلّ هذه الجلبة وهذا والإقبال الشديد اليوم؟ فقد غذّت هذا الجنون نفس الإثارة، نفس الرعب والافتتان المظلم الذي، على مدى العصور، ألهب الحشود للاندفاع لرؤية عملية صلب، أو شنق، أو قطع رؤوس، أو رسوم الإيمان(*). فقد انتشر الخبر بين أفراد الطائفة اليهودية في أمستردام بسرعة كبيرة بأن باروخ سبينوزا سيُحرم وسيُنبذ من الطائفة.

كان *الحرم* شائعاً عند الطائفة اليهودية في أمستردام في القرن السابع عشر. وكان الحاخامات يصدرون على أحد أبناء الرعية حرماً بين الحين والآخر، ولا بد أن جميع اليهودي المسنين شهدوا مراسم حرم عديدة. لكن الجمع الضخم الذي جاء اليوم في ٢٧ تموز ليشاهد مراسم حرم، لم يكن حرماً عادياً. فقد كانت أسرة سبينوزا مشهورة ومعروفة لدى جميع اليهود في أمستردام. فقد كان والد باروخ وعمّه، أبراهام، من أعضاء المجمّع اليهودي (*ماهاماد*)، ودُفن

(*) التكفير العلني للخطيئة التي كان يخضع له المدانون بالهرطقة أو الردة.

الرجلان في المقبرة التي يدفن فيها عادة أكثر الأشخاص ورعاً وتقى. إن سقوط الأشخاص الذين يشغلون مكانة كبيرة تثير دائماً جموع الناس: الجانب المظلم من الإعجاب هو الحسد يرافقه سخط من عامة الناس.

في الأجيال القديمة، وصف *الحُرم* للمرة الأولى في القرن الثاني قبل الميلاد، في *الميشناه*، الأحاديث الربّانية الشفهية الأولى. خلاصة منهجية وافية عن الإساءات التي تستدعي *الحرم* التي قام الحاخام جوزيف كارو بجمعها في القرن الخامس عشر في كتابه المؤثر «*الجدول المحضّر*» (*شولشان آروخ*)، الذي طُبع ونشر على نطاق واسع، وكان معروفاً لدى اليهود في أمستردام في القرن السابع عشر. وأورد الحاخام كارو قائمة طويلة من الإساءات التي تقتضي *الحرم*، بما فيها القمار، أو السلوك المخلّ بالآداب، أو عدم تسديد الضرائب، أو إهانة أبناء الطائفة علناً، أو الزواج من دون موافقة الأبوين، أو الجمع بين زوجتين، أو الزنى، أو عدم إطاعة القرار الذي يصدره مجمّع الكنيس «*المهاماد*»، أو عدم احترام الحاخام، أو الدخول في مناقشات دينية مع أشخاص من غير اليهود، أو إنكار صحة الشريعة الربانية الشفهية، أو الشكّ في خلود الروح أو في الطبيعة الإلهية للتوراة.

لماذا أثار *الحرم* الوشيك الفضول لدى الحاضرين في كنيس تلمود التوراة: كان للإشاعات تأثير كبير. فقد كانت معظم أنواع *الحرم* تقتصر على توجيه توبيخ خفيف على الملأ، وقيام المرء بدفع غرامة، أو يتحاشاه أبناء الطائفة لأيام أو لأسابيع. أما في الحالات الأشدّ خطورة التي من بينها التجديف، فتكون مدة *الحرم* عادة أطول - في حالة واحدة، فُرض لمدة إحدى عشرة سنة. وكانت عودة الشخص الذي صدر بحقه *الحرم* ممكنة دائماً إذا كان مستعداً لإعلان

التوبة وقبول عقوبة محددة - تكون عادة غرامة كبيرة، أو كما في حالة أوريل دا كوستا السيّئ الصيت، عقوبة الجلد أمام الناس. أما في الأيام التي سبقت ٢٧ تموز ١٦٥٦، فقد انتشرت شائعات بأنه سيصدر حرم شديد لم يصدر مثله من قبل.

وبحسب التقاليد المتبعة لفرض *الحرم*، يضاء الكنيس من الداخل بشموع مصنوعة من الشمع الأسود، سبع شمعات توضع على ثريا ضخمة تتدلّى من السقف، واثنتا عشرة شمعة توضع في كوى في الجدار المحيط بالكنيس. وقف الحاخام مورتيرا ومساعده الحاخام أبوب الذي عاد من البرازيل التي أمضى فيها ثلاث عشرة سنة، بجانب بعضهما على المنبر أمام تابوت العهد، يحيط بهما أعضاء مجمّع الكنيس الستة. انتظر الحاخام مورتيرا بوقار حتى هدأ الجمع وصمت الجميع، ثم رفع عالياً وثيقة مكتوبة باللغة العبرية، ومن دون أي كلمة ترحيب أو افتتاحية، راح يتلو البيان المكتوب باللغة العبرية بصوته الجهوري. ساد صمت مطبق. وكان القلة الذين يفهمون اللغة العبرية المحكية يهمسون باللغة البرتغالية للأشخاص الواقفين بجوارهم، فينقلون بدورهم ما يسمعونه إلى الآخرين. وعندما أنهى الحاخام مورتيرا قراءة الوثيقة، تجهّمت وجوه الحاضرين، وتكدر مزاجهم.

رجع الحاخام مورتيرا خطوتين إلى الوراء وتقدّم الحاخام أبوب وبدأ يترجم قرار *الحرم* المكتوب باللغة العبرية، كلمة كلمة، إلى اللغة البرتغالية.

يعلن أعضاء مجمّع الكنيس، بأنهم كانوا يسمعون منذ زمن، بآراء باروخ دي سبينوزا وبأفعاله الشرّيرة، وبعد السعي بشتى الوسائل والوعود لإعادته إلى الطريق القويم، لكن جميع محاولات إقناعه

بالتوقف عن تصرفاته الشرّيرة هذه باءت بالفشل، وكانوا يتلقون في كلّ يوم معلومات خطيرة عن الهرطقات البغيضة التي يقول بها ويعلّمها وأعماله الشنيعة، وبناء على شهادة شهود موثوق بهم أدلوا بشهاداتهم لهذا الغرض في وجود سبينوزا المذكور، فقد أصبحوا على قناعة بحقيقة ذلك؛ وبعد التحقيق في كلّ ذلك بحضور الحاخامات المبجلين، فقد قرّروا إصدار قرار الحرم بحق سبينوزا المذكور وطرده من أمة بني إسرائيل.

«هرطقات بغيضة؟» «تصرّفات شرّيرة؟» «أعمال شنيعة؟» سُمعت همهمات تسري بين الحاضرين، وراح الناس المندهشون يبحثون في وجوه بعضهم بعضاً، لأن عدداً كبيراً منهم يعرفون باروخ سبينوزا طوال حياته، وكان عدد كبير من أبناء الطائفة معجبين به، ولم يكن أحد يعلم بأنه أقدم على أيّ تصرّف شرير، أو أعمال شنيعة، أو هرطقات بغيضة. ثم واصل الحاخام أبوب:

باسم الملائكة وباسم القديسين والأحبار، فإننا نحرم، ونطرد، ونلعن، وندين باروك سبينوزا، بموافقة الرب تبارك اسمه، وباتفاق جميع أعضاء الطائفة المقدّسة، وأمام هذه اللفائف المقدّسة التي تضم ٦١٣ مبدأً ووصية، فإننا نلعنه بالحرمان والطرد كما لعن يشوع كل من يأتي ويبني أريحا، وكما لعن أليشع الأولاد الصغار، وبكلّ العقوبات المدوّنة في كتاب الشريعة.

في القسم الذي يجلس فيه الرجال، راح غابرييل يبحث بعينيه عن ريبيكا في قسم النساء، محاولاً أن يعرف ردّة فعلها إزاء هذه اللعنة الشديدة التي حلّت بشقيقهما. كان غابرييل قد شهد مراسم

حرم من قبل، لكنه لم ير حرماً شديداً بهذه الحدّة. ثم بدأت الأمور تزداد سوءاً. فقد واصل الحاخام أبوب:

ليكن باروخ سبينوزا ملعوناً في النهار، وملعوناً في الليل. ليكن ملعوناً عندما يستلقي، وملعوناً عندما ينهض. ملعوناً عندما يخرج، وملعوناً عندما يدخل. إن الربّ لن ينقذه، وسيحلّ عليه غضب الربّ وغيرته، وسيمحو الربّ اسمه من تحت السماء؛ وسيرسله الربّ إلى الشريرين وسيفصله عن جميع قبائل بني إسرائيل، وفق جميع لعنات العهد المدوّنة في كتاب الشرائع هذا. أما أنتم يا من تلتصقون بالربّ إلهكم، فأنتم أحياء، كلّ واحد منكم، في هذا اليوم.

عندما رجع الحاخام أبوب خطوات إلى الوراء، تقدّم الحاخام مورتيرا وحدّق في الحاضرين، كما لو كان يريد أن ينظر إلى عين كلّ واحد منهم، ثمّ بدأ، ببطء، يؤكد على كلّ مقطع، وقال أعلن قرار الحرم والطرد:

نأمر بأنه يمنع على أي شخص أن يتواصل مع باروخ سبينوزا، بواسطة الكتابة أو بتقديم أيّ معروف له، أو الإقامة معه تحت سقف واحد، وألا يقترب منه لمسافة أربعة أذرع، ويمنع أن يقرأ أحد أيّ أطروحة يؤلّفها أو يكتبها.

أومأ الحاخام مورتيرا للحاخام أبوب. ودون أن ينبس بكلمة، شبك الرجلان ذراعيهما وهبطا معاً من المنبر، ثمّ، تبعهما أعضاء مجمّع الكنيس الستّة، وساروا في الممر، وخرجوا من باب الكنيس.

عندها انفجر الحشد في صخب شديد. فلا يتذكر أحد، حتى كبار أعضاء مجمع الكنيس حرماً بهذه القسوة. فلم يرد ذكر للتوبة أو الاستتابة. وبدا أن الجميع فهموا ما تنطوي عليه كلمات الحاخام، وهي أن هذا *الحرم* أبدي.

الفصل العشرون

ميونيخ - آذار (مارس) ١٩٢٢

مع مرور الأسابيع غيّر ألفريد رأيه حول الدور الذي أوكل إليه. فلم يعد يراه حملاً ثقيلاً، بل أصبح الآن فرصة مجيدة، الدور المثالي الذي يلائمه لممارسة تأثير كبير على مصير أرض الأجداد. ومع أن الحزب لا يزال صغيراً، فقد كان ألفريد يعرف في قرارة نفسه بأنّه سيصبح حزب المستقبل.

كان هتلر يعيش في شقّة صغيرة قريبة من المكتب، وكان يزور إكارت كل يوم تقريباً، الذي يوجّه ربيبه ويدربه على شحذ معاداته للساميّة، ويوسع من آفاق رؤيته السياسية، ويعرّفه على الألمان اليمينيين البارزين. وبعد ثلاث سنوات، سيقوم هتلر بإهداء المجلد الثاني من كتابه «كفاحي» إلى ديتريش إكارت، «هذا الرجل الذي كرّس حياته من أجل إيقاظ شعبنا في كتاباته، وفي أفكاره، وفي أعماله». وكان ألفريد أيضاً يرى هتلر غالباً، دائماً في وقت متأخر من بعد الظهر أو في المساء، لأن هتلر كان يسهر حتى ساعة متأخرة وينام حتى الظهيرة. كانا يتناقشان ويتمشيان ويزوران المعارض والمتاحف.

كان هناك هتلران. أحدهما هتلر الخطيب المفوّه الشرس الذي

يلهب حماسة الجماهير التي يخاطبها. لم ير ألفريد شيئاً كهذا من قبل، وكان أنتون دركسلر وديتريش إكارت سعيدين لأنهما وجدا أخيراً الرجل الذي سيقود حزبهم إلى المستقبل. وكان ألفريد يحضر الكثير من الأحاديث التي تدور بينهم، وكانوا يشكّلون فريقاً معاً. وبطاقته اللامتناهية، كان هتلر يخاطب جمهوراً في أي مكان يجده: عند ناصية أي شارع يضجّ بالحركة، وفي حافلات الترام المزدحمة، وخاصة في حانات البيرة. وسرعان ما اشتُهر كخطيب مفوّه، وهكذا اتسعت دائرة المستمعين له - التي كانت تزيد أحياناً على ألف شخص. ولكي يصبح الحزب أكثر شمولية، اقترح هتلر تغيير اسمه من «حزب العمّال الألماني» إلى «حزب العمال القومي الاشتراكي الألماني».

وفي بعض الأحيان، كان ألفريد يلقي أيضاً خطابات في اجتماعات الحزب التي يحضرها هتلر عادة ويصفّق له دائماً. «الأفكار *wunderbar* (رائعة)» كان هتلر يقول، «لكنها بحاجة إلى مزيد من النار، إلى مزيد من النار».

وهناك هتلر الآخر - هتلر الدمث، هتلر المهذّب المسترخي الذي يستمع إلى أفكار ألفريد حول التاريخ، وعلم الجمال، والأدب الألماني. «إننا نفكر بنفس الطريقة» كان هتلر يصيح غالباً، متناسياً الحقيقة أن ألفريد هو الذي زرع العديد من البذور التي بدأت تتبرعم الآن في عقله.

في أحد الأيام زاره هتلر في مكتبه الجديد في صحيفة *Völkischer Beobachter* (*مراقب الشعب*) وسلّمه مقالاً عن الإدمان على الكحول كان يريد أن ينشره. وفي وقت مبكر من تلك السنة، اشترى الحزب النازي صحيفة جمعية ثيل، *Münchener Beobachter*، (*مراقب ميونيخ*) التي ظهرت باسم جديد، وسلّمها إلى

ديتريش إكارت الذي أغلق صحيفته القديمة ونقل جميع العاملين فيها إلى الصحيفة الجديدة. انتظر هتلر بينما كان ألفريد يقرأ المقالة وفوجئ عندما فتح ألفريد درج مكتبه وأخرج منه مسوّدة مقالة كان يكتبها، بالصدفة المحضة، عن الإدمان على الكحول.

بعد أن قرأ هتلر مقالة ألفريد بسرعة، رفع بصره وقال: «إنهما توأم».

فأجاب ألفريد، «نعم، المقالتان متشابهتان إلى حد كبير، لذلك، سأسحب مقالتي».

«لا، أصرّ على ألّا تفعل ذلك. انشر كلتا المقالتين. سيكون لهما تأثير أكبر بكثير لو نُشرتا في نفس العدد».

عندما تسلّم هتلر سلطة تنفيذية أكبر في الحزب، أصدر أمراً بأن يقدّم له كلّ من يريد إلقاء كلمة في الحزب خطابه إلى هتلر ليطّلع عليها قبل إلقائها، وأعفى ألفريد من ذلك - هذا أمر غير ضروري، قال له هتلر، لأن الخطابات التي يلقيانها متشابهة كثيراً. لكن ألفريد لاحظ وجود فروقات بينهما. فعلى الرغم من تعليم هتلر الرسمي المحدود، والفجوات الهائلة في درجة معرفته، كان يتمتع بثقة شديدة بنفسه. وكان هتلر غالباً ما يستخدم عبارات مثل «لا يتزعزع» مشيراً إلى إيمانه الراسخ بمعتقداته، والتزامه الكليّ بألّا يغيّر، مهما كانت الظروف، جانباً واحداً من الأفكار التي يؤمن بها. وكان ألفريد يبدي إعجاباً شديداً عندما يستمع إلى هير هتلر. من أين جاءت كل هذه الثقة؟ كان ألفريد على استعداد ليبيع روحه لكي يحصل على ثقة بنفسه كهذه، وكان يحتقر نفسه عندما يلاحظ أنه ينتظر دائماً إشارات من هتلر يعبّر فيها عن موافقته وقبوله له.

وثمة فرق آخر بينهما أيضاً. فعندما كان ألفريد يتحدّث غالباً عن ضرورة «التخلص من» اليهود من أوروبا، أو «إعادة توطين» أو «نقل»

أو «طرد» اليهود، كان هتلر يستخدم لغة مختلفة. فقد كان يتحدّث عن «إبادة» أو «استئصال» اليهود، بل حتى شنق جميع اليهود على أعمدة المصابيح. لكن من المؤكد أنها ليست سوى تعابير طنانة، وهو يعرف كيف يجذب المستمعين إليه.

بعد عدة أشهر، أدرك ألفريد أنّه لم يقدّر إمكانيات هتلر حق قدرها. فهو رجل يتمتع بقدر كبير من الذكاء، علّم نفسه بنفسه، يقرأ الكتب بنهم، ويعرف الكثير من المعلومات، ويقدّر عالياً فنّ فاغنر وموسيقاه. لكن، بما أنه لم يحصل على تعليم جامعي رسمي، فقد كانت قاعدة معرفته مضطربة وتتخللها فجوات كبيرة من الجهل. فبذل ألفريد كل ما بوسعه لمعالجتها، لكن المهمّة كانت شديدة الصعوبة، لأن درجة الكبرياء في هتلر بلغت مبلغاً لم يكن بوسع ألفريد أن يطلب منه بوضوح ماذا عليه أن يقرأ. وإنما تعلّم أن يعلّمه بصورة غير مباشرة، لأنه لاحظ أنه عندما يتحدّث عن شيلر مثلاً، كان هتلر، بعد عدة أيام، يناقش أعمال شيلر الهامة بإسهاب وبثقة عالية.

في صباح أحد أيام الربيع في تلك السنة، اقترب ديتريش إكارت من باب مكتب ألفريد، ونظر لبضع لحظات عبر اللوح الزجاجي إلى ربيبه الذي كان منهمكاً في تحرير مقالة، ثمّ، هزّ رأسه، ونقر على الزجاج وأشار إلى ألفريد لأن يتبعه إلى مكتبه. عندما دخل المكتب، أشار إكارت إلى كرسي ليجلس عليه.

«لديّ شيء أريد أن أخبرك به - بحق المسيح، يا ألفريد، لا تبدو قلقاً هكذا. إنك تقوم بعمل جيد. إني راض تماماً عن عملك الدؤوب ومثابرتك. وإذا كان هناك شيء يمكنني أن أقترحه عليك فهو أن تخفف من وتيرة عملك، وتحتسي مزيداً من البيرة، وتتبادل أحاديث مع الآخرين أكثر بكثير. فالعمل لساعات طويلة لا يُعتبر مزيّة

دائماً. لكن لنترك هذا الأمر جانباً لوقت آخر. اسمع، لقد بدأت تزداد أهمية بالنسبة إلى حزبنا، وأرغب في أن أسرّع من وتيرة تطورك فيه. هل توافق على أنّ المحرّرين الذين ينشرون ما يعرفونه هم أكثر إفادة؟»

«طبعاً»، بذل ألفريد جهداً كبيراً لإبقاء ابتسامة على وجهه لكنه كان قلقاً بما سيتبع ذلك. فقد كان إكارت رجلاً مزاجياً إلى درجة كبيرة.

«هل زرت معظم أوروبا؟»

«لا، شطراً بسيطاً منها فقط».

«كيف يمكنك أن تكتب عن أعدائنا إذا لم تكن قد رأيتهم بعينيك؟ على المحارب الجيّد أن يتوقّف من حين لآخر ليشحذ أسلحته. صحيح؟»

«لا شكّ في ذلك»، وافق ألفريد بحذر.

«إذاً اذهب واحزم حقائبك. رحلتك إلى باريس ستنطلق بعد ثلاث ساعات».

«باريس؟ رحلة طيران؟ ثلاث ساعات؟»

«نعم. سيعقد ديميتري بوبوف، أحد المتبرعين الرئيسيين الروس للحزب، اجتماع عمل مهمّاً هناك. لقد سافر بالطائرة اليوم مع اثنين من مساعديه ووافق على أن يجمع تبرعات من الروس البيض هناك. سيطير على متن إحدى طائرات جانكير إف ١٣ الجديدة، وهي تتسع لأربعة ركّاب. كنتُ أزمع مرافقته، لكن ألماً مفاجئاً انتابني في صدري البارحة فجعل السفر شيئاً مستحيلاً. فقد منعني طبيبي وزوجتي من الذهاب. أريد أن تذهب مكاني».

«إني آسف لمرضك، هير إكارت. لكن إذا نصحك الطبيب بأخذ

استراحة، فلا ينبغي لي أن أتركك وحدك لتصدر العددين القادمين. . . »

«لم يقل الطبيب شيئاً عن الاستراحة. إنه مجرد حذر بسيط لأنه لا يعرف كثيراً عن تأثير السفر بالطائرة على هذه الحالة. لقد أُعدَّ العددان للتو. سأعتني بهما أنا. اذهب أنت إلى باريس».

«ماذا تريد أن أفعل هناك؟»

«أريدك أن ترافق هير بوبوف عندما يلتقي بالمتبرعين المحتملين. وإذا أراد، يمكنك أن تقوم أنت بإلقاء كلمات أمام المتبرعين. لقد آن الأوان لتتعلم كيف تخاطب الأغنياء. ثم عد بالقطار. لا توجد عجلة. خذ أسبوعاً كاملاً أو عشرة أيام. كن رجلاً حرّاً. سافر حيثما أردت وراقب فقط. انظر كيف يتمتّع أعداؤنا بمعاهدة فيرساي. دوّن ملاحظات. فكلّ شيء تلاحظه سيكون مفيداً للصحيفة. بالمناسبة، وافق هير بوبوف أيضاً على أن يقدم لك مبلغاً كافياً من الفرنكات الفرنسية. ستحتاج إليها. فالمارك الألماني أصبح عديم القيمة تقريباً في الخارج بسبب التضخّم. أصبح عديم القيمة تقريباً هنا!»

«إن سعر رغيف الخبز يزداد يوماً بعد يوم»، قال ألفريد موافقاً.

«تماماً. وأكتب الآن مقالاً للعدد التالي حول السبب الذي يجعلنا نرفع ثمن الصحيفة مرة أخرى».

عندما أقلعت الطائرة، تشبّث ألفريد بمسندي مقعده وراح يحدّق من النافذة فيما بدأت ميونيخ تصغر شيئاً فشيئاً في كل ثانية. مندهشاً من خوف ألفريد، صاح هير بوبوف، بأسنانه الذهبية اللامعة، ليغطي صوته على صوت هدير المحرّكات، «هل هذه أول مرة تسافر فيها بالطائرة؟» فهزّ ألفريد رأسه وراح ينظر من النافذة، شاعراً بالامتنان لأن الضجيج جعل أي حديث مع هير بوبوف والركاب الآخرين أمراً

مستحيلاً. فكّر في تعليق إكارت حول فتح أحاديث مع الآخرين بلباقة.. لماذا لا يجيد الدخول في أحاديث عادية مع الآخرين؟ لماذا هو متحفظ جداً؟ لماذا لم يقل لإكارت إنّه سافر ذات مرّة إلى سويسرا مع عمّته، وإنه زار باريس مع خطيبته هيلدا، منذ بضع سنوات، قبيل اندلاع الحرب. لعله يريد أن يخفي ماضيه بأنه من أحد بلدان البلطيق، وأنه ولد من جديد كمواطن ألماني في أرض الأجداد. لا، لا، لا - إنه يعرف أن الأمر أعمق من ذلك بكثير.

كان الكشف عن نفسه أمراً خطيراً. لذلك كان حديثه مع فريدريش في حانة البيرة استثنائياً وقد حررّه كثيراً. حاول أن يسبر أعماق نفسه لكنه، كالعادة، ضلّ طريقه. يجب أن أتغيّر... سأذهب لزيارة فريدريش ثانية.

في اليوم التالي اعتمد هير بوبوف على ألفريد لمناقشة برنامج الحزب وتوضيح السبب الذي يجعل الحزب الحزب الوحيد القادر على كبح جماح البلاشفة اليهود. قال صاحب مصرف يضع خاتماً ماسياً يلمع في خنصره لألفريد: «هل أفهم أن اسم حزبك الرسمي الآن هو حزب العمال القومي الاشتراكي الألماني - *Nationalsozialistische Deutsche Arbeiterpartei*؟»

«نعم».

«ولماذا هذا الاسم الأخرق والمشوّش؟ فكلمة 'قومي' تعني 'يمين' وكلمة اشتراكي تعني يسار، و 'الألماني' يمين، و'العمال' يسار! هذا مستحيل. كيف يمكن لحزبك أن يكون كلّ شيء في وقت واحد؟»

«هذا بالتحديد ما يريده هتلر، أن يكون كلّ شيء لجميع الناس - ما عدا اليهود والبلاشفة بطبيعة الحال. لدينا خطّة بعيدة المدى.

يتمثل أول هدف لنا في دخول البرلمان بأعداد كبيرة في السنوات القليلة القادمة».

«البرلمان؟ هل تصدّق أن باستطاعة الجماهير الجاهلة أن تحكم؟»

«لا. لكننا يجب أن نسيطر على السلطة أولاً. إن تغلغل البلاشفة يضعف ديمقراطيتنا البرلمانية حتى الموت، وأعدك بأننا سنتخلّص من هذا النظام البرلماني إلى الأبد في نهاية المطاف. قال لي هتلر هذه الكلمات بالتحديد عدة مرات، وأوضح أهداف الحزب في برنامجه الجديد. لقد أحضرت نسخاً من البرنامج الجديد للحزب المؤلف من خمس وعشرين نقطة».

في نهاية زيارتهما، قدّم هير بوبوف لألفريد مغلفاً سميكاً مليئاً بالفرنكات الفرنسية. «أحسنت صنعاً، هير روزنبرغ. ينبغي أن تساعدك هذه الفرنكات في رحلتك في أوروبا. كانت كلماتك ممتازة، تماماً كما أكّد لي هير إكارت. وبهذه اللغة الروسية الراقية، لغة روسية جميلة، أبدى الجميع إعجابهم بك».

لديه أسبوع كامل يفعل أثناءه ما يشاء. يا لها من متعة لأن يستطيع أن يتجوّل حيثما أراد. كان إكارت محقاً - فقد كان يجهد نفسه كثيراً في العمل. وعندما كان ألفريد يتجول في شوارع باريس، كان يقارن بين المرح والثراء في كل مكان، وبين كآبة برلين وفقر واضطراب ميونيخ. لم تكن باريس تُبدي الكثير من ندوب الحرب، وبدا له أن مواطنيها يأكلون جيداً، ومطاعمها مكتظة، لأن فرنسا، بالإضافة إلى إنكلترا وبلجيكا، لا تزال تمصّ شريان حياة ألمانيا بتلك التعويضات القاسية. قرّر ألفريد أن يمضي يومين في باريس -

فقد كانت صالات العرض الفنية وتجّار الفنّ تناديه - ثمّ استقلّ القطار شمالاً باتجاه بلجيكا وأخيراً إلى هولندا - بلد سبينوزا. ومن هناك سيستقل القطار في رحلة طويلة عائداً عن طريق برلين حيث سيزور فريدريش.

في بلجيكا، لم ترق بروكسل لألفريد واعتراه شعور بالكراهية لمبنى وزارة العدل البلجيكية حيث لا يتوقف أعداء ألمانيا عن وضع سبل جديدة لسلب أرض الأجداد. وفي اليوم التالي، زار المقبرة العسكرية الألمانيّة في يبريس، حيث مُني الألمان بخسائر فظيعة في الحرب العالمية وحيث كان هتلر يخدم بشجاعة، ثمّ توجه شمالاً إلى أمستردام.

لم يكن ألفريد يعرف ماذا يريد. كان كلّ ما يعرفه أنّ مشكلة سبينوزا ترنّ في مؤخرة رأسه. فقد ظل مفتوناً باليهودي سبينوزا. لا، قال لنفسه، لست مفتوناً. كن صادقاً - إنك معجب به - تماماً كما كان غوته معجباً به. لم يُرجع ألفريد نسخة كتاب «*رسالة في اللاهوت والسياسة*» لسبينوزا التي كان قد استعارها من المكتبة، وفي أحيان كثيرة، كان يقرأ منه بضع فقرات وهو مستلق على السرير في الليل. كان ينتابه الأرق كثيراً، ولسبب لا يمكن تفسيره، كان يتملكه القلق عندما يأوي إلى الفراش، وكان يبدو أنه يصارع النوم. سيكلّم فريدريش عن هذه المشكلة أيضاً.

في القطار، فتح ألفريد كتاب *رسالة في اللاهوت والسياسة* على الصفحة التي كان قد وصل إليها عندما غطّ في النوم ليلة البارحة. ومرة أخرى أُعجب بشجاعة سبينوزا وبجرأته على التشكيك في السلطة الدينية لرجال الدين في القرن السابع العشر. انظر كيف أشار إلى التناقضات المتناثرة في التوراة وسخافة اعتباره أنها وثيقة ذات أصل إلهي تملأها الأخطاء البشرية، ولفتت انتباهه بشكل خاص

فقرات يسخر فيها سبينوزا من القساوسة والحاخامات الذين يعتقدون أن لديهم رؤية متميّزة في معنى اللّه ومعرفته.

إذا كان التصريح بأنه توجد أخطاء في التوراة تجديفاً، فماذا يمكن أن نسمّي الذين يحشرون فيه تخيلاتهم ويحطّون من قدر الكتبة المقدّسين والذين يبدو أنهم يكتبون سخافات مشوّشة وغامضة؟

وانظر ماذا يقول سبينوزا للمتطرفين الروحيّين اليهود: «لقد قرأت أيضاً بعض القباليين وعرفت ترهاتهم ولم تنقطع دهشتي أبداً من خبلهم». .

يا للمفارقة! يهودي شجاع وحكيم في آن معاً. كيف سيردّ هيوستن ستيوارت تشامبرلن على مشكلة سبينوزا؟ لماذا لا يزوره في بايريوث ويسأله عن مشكلة سبينوزا؟ نعم، سأفعل ذلك - سأطلب من هتلر أن يرافقني. ألسنا ورثته في الفكر؟ ربما خلص تشامبرلن إلى أنّ سبينوزا ليس يهودياً. وسيكون محقّاً في ذلك - فكيف يمكن أن يكون سبينوزا يهودياً؟ فعلى الرغم من كلّ هذا التلقين الديني، فقد رفض الإله اليهودي والشعب اليهودي. إن لدى سبينوزا حكمة روح - لا بدّ أن الدم اليهودي لا يسري في عروقه.

لكن بعد بحثه الدؤوب عن نسب سبينوزا، لم يجد شيئاً سوى أن والد سبينوزا، مايكل دا سبينوزا، قد جاء من إسبانيا وهاجر إلى البرتغال ثمّ إلى أمستردام في أوائل القرن السابع العشر. وأسفرت تحقيقاته أيضاً عن نتائج مثيرة غير متوقّعة. فمنذ أسبوع واحد فقط، اكتشف أنّ الملكة إيزابيلا، كانت قد أصدرت في القرن الخامس العشر قانون «نقاء الدم» (*limpiezas de sangre*) الذي حظرت بموجبه اليهود الذين تحوّلوا إلى المسيحية من شغل مناصب هامة في الحكومة والجيش. كانت لديها حكمة كافية لتفهم أنّ الخبث اليهودي لا ينبع من التفكير الديني - وإنما يجري في الدم نفسه. وسنّت ذلك

في قانون! لتُرفع القبعات للملكة إيزابيلا! غيّر رأيه بها الآن. ففي الماضي، كان يربطها باكتشاف أمريكا فقط - تلك البالوعة من المزيج العرقي.

بدت أمستردام ملائمة أكثر من بروكسل، ربما بسبب حياد هولندا في الحرب العالمية. ومع أنه انضم إلى مجموعة سياحية لنصف يوم، فقد ظلّ منكفئاً على نفسه، وجاب ألفريد قنوات أمستردام، وتوقّف لزيارة المواقع الجديرة بالاهتمام. كان الموقف الأخير في شارع غودينبريسترات، لزيارة كنيس السيفارديم العظيم، الذي كان قبيحاً وضخماً، يتسع لألفي يهودي، ويظهر فيه المزيج اليهودي غير النقي في أسوأ أحواله - هذا الدمج بين الأعمدة الإغريقية، والنوافذ المسيحية المقنطرة، والمنحوتات الخشبية الإسلامية. وتخيّل ألفريد سبينوزا واقفاً أمام المنبر المركزي يلعنه حاخامات جهلة ويدينونه، ثمّ يخرج مبتهجاً في سريرته، ربما لأنه أصبح حراً. لكنه سرعان ما محا هذه الصورة من مخيلته عندما قال المرشد السياحي إن قدم سبينوزا لم تطأ هذا الكنيس قط، الذي بُني عام ١٦٧٥، أي بعد أن صدر قرار *الحرم* بحق سبينوزا من الطائفة بعشرين سنة تقريباً، وعرف ألفريد أن هذا القرار منعه من دخول أيّ معبد يهودي، بل حتى التحدّث إلى أيّ يهودي طوال حياته.

في الجهة المقابلة من الشارع انتصب كنيس ضخم لليهود الأشكنازيين، أكثر عتمة، وأكثر متانة، وأقل بهاء. وعلى مسافة شارع تقريباً من هذين الكنيسين، يقع المكان الذي ولد فيه سبينوزا. كان البيت قد هُدّم منذ زمن بعيد وحلّت محله كنيسة موسى وهارون الكاثوليكية الضخمة. لم يكن باستطاعة ألفريد الانتظار حتى يخبر هتلر بذلك. فهذا مثال صارخ عمّا يشعران به كلاهما بقوة - بأن اليهودية والمسيحية وجهان لعملة واحدة. ابتسم ألفريد عندما تذكر

عبارة هتلر الملائمة - لهذا الرجل المدهش طريقته في استخدام الكلمات: «اليهودية، الكاثوليكية، البروتستانتية - ما الفرق بينها؟»
«كلّها جزء من الخداع الديني ذاته».

وفي صباح اليوم التالي، استقلّ ألفريد الترام إلى رنسبرخ حيث يقع متحف سبينوزا. ومع أن الرحلة لم تكن تستغرق ساعتين، فإن المقاعد الخشبية الصلبة الستّة جعلتها تبدو أطول من ذلك بكثير. وكان أقرب موقف إلى قرية رنسبرخ الصغيرة يبعد ثلاثة كيلومترات عن المكان المتوجه إليه الذي وصل إليه بعربة يجرّها خيل. كان المتحف عبارة عن بيت صغير مشيّد من الآجر عليه الرقم «٢٩» وعُلِّقت لوحتان على الجدار الخارجي.

بيت سبينوزا
بيت الدكتور من عام ١٦٦٠
الفيلسوف ب. دي سبينوزا عاش هنا من سنة ١٦٦٠
إلى سنة ١٦٦٣.

وعلى اللوحة الثانية:

وأسفاه، لو كان جميع البشر حكماء
ولديهم نوايا طيبة أكثر
لأضحى العالم فردوساً
لكن معظمه الآن جحيم.

هراء، قال ألفريد لنفسه. كان سبينوزا محاطاً بأشخاص أغبياء. وعندما تجوّل ألفريد حول المبنى، اكتشف أن نصف البيت متحف، وتسكن في النصف الآخر أسرة قروية تستخدم مدخلاً جانبياً

منفصلاً. ويوحي وجود محراث قديم عند المدخل أنّهم ربما كانوا مزارعين. وكان باب المتحف واطئاً فاضطر ألفريد إلى أن يخفض رأسه ليدخل. وكان عليه أن يدفع رسم دخول إلى حارس يهودي رثّ الثياب يقف عند الباب يبدو أنه استيقظ من قيلولته منذ لحظات. كان الحارس بحد ذاته منظراً جديراً بالمشاهدة! وكان من الواضح أنه لم يحلق ذقنه منذ أيام، وتهدلت هالات تحت عينيه الكليلتين.

كان ألفريد الزائر الوحيد إلى المتحف، وراح ينظر في أرجاء المكان باستياء. كان المتحف كلّه يتكون من غرفتين صغيرتين، ثمانية أقدام بعشرة أقدام، وفي كلتا الغرفتين توجد نافذة صغيرة تطلّ على بستان تفاح في الخلف، وفي إحدى الغرفتين التي لم تثر اهتمام ألفريد كثيراً توجد معدات لصقل العدسات تعود إلى القرن السابع عشر، بينما كانت الغرفة الأخرى، الغرفة التي أثارت اهتمام ألفريد، تضم مكتبة سبينوزا الشخصية في رفوف تمتدّ على طول الحائط الجانبي على امتداد ستّة أقدام تغطّيها ألواح زجاجية غير نظيفة بحاجة إلى تنظيف. ووضع حاجز من حبل سميك أحمر مزين بشراشيب مثبّت على أربعة أعمدة لمنع الزوار من الاقتراب من رفوف المكتبة التي تتكدس فوقها مجلدات سميكة، صُفّ معظمها عمودياً، أما المجلدات الأضخم فقد صُفّت أفقياً، وكانت كلّها مجلدة بأغلفة متينة تعود إلى القرن السابع عشر وما قبله. يقبع هنا كنز حقاً. بذل ألفريد جهداً لعدّ العناوين - أكثر من مئة مجلد. نظر الحارس، الجالس على كرسي في الزاوية، إلى صحيفته وصاح «*Honderd een en vijftig*».

«لا أتكلم الهولندية. أتكلّم الألمانية والروسية فقط»، أجاب ألفريد، فانتقل الحارس فوراً إلى التكلم بلغة ألمانية ممتازة «*Ein hundert ein und funfzig*» وعاد إلى قراءته.

على الجدار المجاور تنتصب خزانة زجاجية صغيرة تضم خمس

طبعات أولى (١٦٧٠) من كتاب *رسالة في اللاهوت والسياسة* - نفس الكتاب الذي يحمله ألفريد في حقيبته الصغيرة. وقد فُتحت كلّ طبعة من الطبعات الخمس على صفحة العنوان، وكما أوضحت الأسطورة باللغات الهولندية والفرنسية والإنكليزية والألمانيّة، فقد أعلن الناشرون بما أن هذا الكتاب قابل للاحتراق فلم يتم ذكر اسم مؤلفه أو ناشره. وتدّعي كلّ طبعة من تلك الطبعات الخمس أنها نُشرت في مدينة مختلفة.

أشار الحارس إلى ألفريد لأن يدنو من طاولة المكتب ليوقّع في سجلّ الزوار. بعد أن وقّع، راح ألفريد يقلّب الصفحات ليقرأ أسماء الزوار الآخرين. فدنا الحارس وقلّب بضع صفحات إلى الوراء، وأشار إلى توقيع ألبرت آينشتاين (مؤرّخ في ٢ تشرين الثاني ١٩٢٠)، ونقر على الصفحة، وقال بافتخار «نال جائزة نوبل للفيزياء. عالم مشهور. لقد أمضى يوماً كاملاً تقريباً وهو يقرأ في هذه المكتبة وكتب قصيدة لسبينوزا. «انظر هناك»، وأشار إلى صفحة مؤطّرة صغيرة من الورق معلّقة على الجدار خلفه، «هذا خطّ يده - كتب لنا منها نسخة. إنها أول بيت من قصيدته».

تقدّم ألفريد وقرأ:

كم أحبّ هذا الرجل النبيل
أكثر مما أستطيع أن أعبّر عنه في كلمات.
لكني أخشى أن يبقى وحيداً
بهالته المشرقة.

أراد ألفريد أن يتقيّأ.

مزيد من الهراء. عالم يهودي مزيّف يضفي هالة يهودية على رجل رفض كلّ شيء يمت بصلة إلى اليهودية.

«من يدير هذا المتحف؟» سأل ألفريد، «الحكومة الهولندية؟»
«لا، إنه متحف خاصّ».
«من يرعاه؟ من يدفع له».
«جمعية سبينوزا. الماسونيون. متبرعون يهود من القطاع الخاص. هنا، هذا الرجل دفع ثمن البيت ومعظم الكتب» - قلّب الحارس صفحات سجلّ الزوار الضخم إلى الصفحة الأولى وأشار إلى أول توقيع مؤرخ في سنة ١٨٩٩: جورج روزنثال.
«لكن سبينوزا لم يكن يهودياً. فقد طرده اليهود».
«عندما تكون يهودياً، فإنك تظلّ يهودي دائماً. لماذا كلّ هذه الأسئلة؟»
«أنا كاتب ومحرّر صحيفة في ألمانيا».
انحنى الحارس ليمعن النظر في توقيعه. «أها، روزنبرغ؟ *Bist an undzericker?*»
«عمَّ تتكلّم؟ لم أفهم».
«أتكلّم بلغة الإيدش. سألتك هل أنت يهودي؟»
اعتدل ألفريد في وقفته وقال: «انظر جيداً. هل أبدو لك يهودياً؟»
تفحّصه الحارس من أعلى رأسه إلى قدميه، وقال: «لم أميّزك بما يكفي»، وعاد إلى كرسيه.
لاعناً بصوت غير مسموع، عاد ألفريد إلى رفوف المكتبة ومال فوق الحبل الحاجز بقدر ما أمكنه ليتمكن من قراءة عناوين كتب سبينوزا. كان لا يزال بعيداً عنها قليلاً. اختلّ توازنه ووقع على رفوف المكتبة. ألقى الحارس الجالس في كرسيه عند الزاوية، صحيفته وهرع ليتأكد من أن ضرراً لم يلحق بالكتب، وقال: «ماذا تفعل؟ هل أنت مجنون؟ هذه الكتب لا تقدّر بثمن».

«كنت أحاول أن أقرأ عناوين الكتب».

«لماذا عليك أن تعرف؟»

«أنا فيلسوف. أريد أن أرى من أين جاء بأفكاره».

«أها، في البداية كنت صحفياً، والآن أنت فيلسوف؟»

«كلاهما. أنا فيلسوف ومحرّر صحيفة. هل فهمت؟»

حدّق الحارس فيه.

حدّق ألفريد في شفتيه المتدليتين، وأنفه الغليظ الممسوخ، وشعره النابت من أذنيه المكتنزتين غير النظيفتين، وقال «هل يصعب فهم ذلك؟»

«أفهم الكثير».

«هل تفهم أنّ سبينوزا فيلسوف مهمّ؟ لماذا تبقي كتبه بعيدة جداً؟ لماذا لا يوجد دليل عن الكتب المعروضة؟ فالمتاحف الحقيقية تهدف إلى عرض الأشياء، لا إخفائها».

«أنت لست هنا لتعرف المزيد عن سبينوزا. أنت هنا لتدمّره. لتثبت أنه سرق أفكاره».

«إذا كنت تعرف شيئاً عن العالم، فإنك ستعرف أنّ كلّ فيلسوف يتأثر ويُلهم من فلاسفة سابقين. فقد أثّر كانط على هيغل، وشوبنهاور أثّر على نيتشه، وأفلاطون أثّر على الجميع. إنها معلومات عامة بأن...»

«تأثر، أُلهم. هذه هي النقطة، النقطة بالذات: فأنت لم تقل ’تأثر‘ ولم تقل ’أُلهم‘. كانت كلماتك الدقيقة ’من أين جاء بأفكاره‘ وهذا أمر مختلف».

«أها، جدل تلمودي، أليس كذلك؟ هذا ما تحبون أن تفعلوه. إنك تعرف جيداً ما أقصده...»

«أعرف تماماً ماذا قصدت».

«متحف. تسمح لآينشتاين، لأنه واحد منكم، أن يمضي اليوم كله في قراءة المكتبة وتُبعد الآخرين إلى مسافة ثلاثة أقدام».

«أعدك أيها الفيلسوف - المحرّر، هير روزنبرغ - إذا حصلت على جائزة نوبل، فسيكون بوسعك أن تعانق وتحتضن كلّ كتاب موجود في هذه المكتبة. سيغلق المتحف الآن. هيا اخرج».

رأى ألفريد وجه جهنم: حارس يهودي يمارس سلطة على شخص آري، يهودي يمنع غير يهودي من الاقتراب، اليهود يسجنون فيلسوفاً عظيماً يكره اليهود. لن ينسى هذا اليوم في حياته.

الفصل الحادي والعشرون

أمستردام - ٢٧ تموز (يوليو) ١٦٥٦

على بعد شارعين من كنيس توراة التلمود، وضع بنتو بمساعدة ديرك، زميله في أكاديمية فان دن إندن، مكتبته المؤلفة من أربعة عشر مجلداً في صندوق خشبي كبير، ثمّ فكّك السرير ذي الأعمدة الأربعة. ثمّ نقلا السرير والكتب إلى مركب راسٍ في قناة نيوي هيرينغراخت لنقلها إلى منزل فان دن إندن الذي سيقيم فيه بنتو لفترة مؤقتة. صعد ديرك مع أغراض بنتو إلى المركب، بينما ظل بنتو يحزم أغراضه المتبقية - بنطالان، وحذاء بأبازيم نحاسية، وثلاثة قمصان، وياقتان بيضاوان، وملابس داخليّة، وغليون، وتبغ - في حقيبة سيحملها إلى بيت فان دن إيدن. لم تكن الحقيبة ثقيلة، وهنّأ بنتو نفسه لأنه لا يمتلك أغراضاً كثيرة. ولولا سريره وكتبه، لكان بمقدوره أن يعيش من دون أي قيود، مثل بدوي.

ألقى بنتو نظرة أخيرة حول الغرفة، وجمع موسى الحلاقة المسطح، ولوح صابون، ومنشفة، ثمّ وقع نظره على *التفلين* الموضوع فوق رفّ عال. لم يلمس بنتو هذه التميمة منذ يوم وفاة أبيه. مدّ يده وأنزل الصندوقين الجلديين الصغيرين بأشرطتهما، وأمسكهما برفق - ربما كانت هذه، قال لنفسه، آخر مرّة. يا لغرابة

الأشياء! والغريب أيضاً، قال لنفسه، كيف أنهما أشارا إليه. رفع الصندوقين الجلديين، وراح يتفحص كلّ واحد منهما. فقد ثُبِّت على الصندوق المكتوب عليه «روش» - المخصص للرأس شريطان جلديان. وثُبِّت على الصندوق المكتوب عليه «ياد» - المخصص للذراع شريط طويل. وفي الصندوقين المجوّفين توجد أسفار من التوراة كُتبت على رقّ. وبطبيعة الحال، فإن كلّ شيء فيهما - الجلد الذي صنع منه الصندوقان، والأوتار المستخدمة لربطهما، والرقّ المكتوب فيهما، والأشرطة - كلّها مأخوذة من حيوانات مذبوحة بالحلال (كوشر).

راودته ذكرى حدثت منذ خمس عشرة سنة. فعندما كان طفلاً، كان يراقب بفضول شديد والده وهو يرتدي *التاليت* ثم يضع *التفلين* قبل أن يتناول طعام الفطور - شيء كان والده يفعله صباح كلّ يوم حتى آخر يوم في حياته. (لا يُستخدم *التفلين* في صلاة السبت). وذات يوم، التفت إليه والده وقال: «أظن أنك تريد أن تعرف ماذا أفعل، أليس كذلك؟»

فأجاب بنتو، «نعم».

فأجاب والده، «في هذا كما في جميع الأشياء الأخرى فإني أتبع تعاليم التوراة. إذ تأمرنا كلمات سِفْر التثنية، '*اربطها كعلامة على يدك، وكعصابة على جبهتك*'».

وبعد عدة أيام، عاد أبوه إلى البيت يحمل معه هدية - *التفلين* الذي يحمله بنتو الآن.

«هذا لك، يا باروخ، لكنك لن تستعمله اليوم. سنحتفظ به حتى تبلغ الثانية عشرة من عمرك، وقبل بضعة أسابيع من عيد بلوغك (*بار متسفا*)، سأعلمك كيف ترتدي التفلين». كان بنتو متلهفاً لمجيء تلك اللحظة حتى يضع بمساعدة أبيه *التفلين*، وكان ينهال على أبيه بأسئلة

حول طريقة وضعه بدقّة، حتى رضخ والده بعد بضعة أيام، وقال: «اليوم، هذه المرة فقط، سنجرّب، ثمّ سأضعها جانباً حتى يحين وقت ارتدائك لها. اتفقنا؟» فأومأ بنتو متلهفاً.

وتابع والده قائلاً: «سنفعل ذلك معاً. افعل تماماً ما أفعله. ضع صندوق *الياد* في أعلى ذراعك اليسرى، في مواجهة قلبك، ثمّ لفّ الأشرطة الجلدية سبع مرات حول ذراعك حتى تصل إلى رسغك. انظر - انظر إليّ. تذكّر يا باروخ، سبع مرات بالتحديد - لا ستّ مرات، ولا ثمانية - هكذا علّمنا الأحبار».

ثم، أنشد أبوه الدعاء المرافق:

النعمة الموصوفة:

Baruch atah Adonai Eloheinu melech ha-olam asher kid'ishanu b'mitzvotav v'tzivanu l'hani'ach tefillin.

(مبارك أنت، يا اللّه، إلهنا، ملك العالم الذي جعلنا مقدّسين بوصاياه وأمرنا بأن نضع التفلين).

فتح أبوه كتاب الصلاة وأعطاه لبنتو، وقال: «هيا ردد الصلاة». لكن بنتو لم يأخذ الكتاب، بل رفع رأسه حتى يرى أن والده أغمض عينيه، ثمّ كرّر الصلاة بحذافيرها كما قالها والده. فعندما يسمع بنتو صلاة لمرّة واحدة - أو أيّ نصّ آخر - كان يحفظها ولا ينساها أبداً. مبتسماً، قبّله أبوه برقّة على خدّيه، وقال: «كم سيكون الاحتفال *ببار متسفا* عظيماً، يا لهذا العقل النيّر. في أعماق قلبي، أعرف أنّك ستكون أحد عظماء اليهود».

توقف بنتو عن الحلم ليستمتع بطعم الكلمات «أحد عظماء اليهود».

انسابت الدموع على خدّيه عندما عاد إلى ذاكرته.

«الآن، دعنا نواصل بصندوق *تفلين شل روش*»، قال أبوه، «ضعه على جبينك كما أفعل - عالياً، فوق خطّ شعرك، وبين عينيك تماماً، ثمّ ضع العقدة المشدودة في مؤخرة رقبتك، تماماً كما أفعل. والآن، ردد الصلاة التالية».

Baruch atah Adonai Eloheinu melech ha-olam asher kid'ishanu b'mitzvotav v'tzivanu al mitzvat yefillin.

(مبارك أنت، يا اللّه، إلهنا، ملك العالم، الذي جعلنا مقدّسين بوصاياه وأمرنا بأن نولي التفلين كلّ الاحترام والتبجيل).

مرة أخرى، لسعادة أبيه، كرّر بنتو الصلاة بحذافيرها.

«ثم ضع شريطي *روش* المتدليين أمام كتفيك واحرص على أن يكون الطرف الأسود متجهاً نحو الخارج ويجب أن يصل الشريط الأيسر إلى هنا» - ووضع أبوه إصبعه فوق سرة بنتو ودغدغها، «واحرص على أن يصل الشريط الأيمن إلى الأسفل ببضع بوصات - بجانب بزبوزك الصغير».

«نعود الآن إلى شريط *تفلين شل ياد*، اربطه واعقده حول إصبعك الوسطى، ثلاث مرات. انظر كيف أفعل ذلك؟ ثمّ لفّه حول يدك. هل ترى كيف أنه يشكّل شكل الحرف شين حول إصبعي الوسطى؟ أعرف أنه من الصعب رؤيته. إلى ماذا يرمز الشين؟»

هزّ بنتو رأسه.

«الشين هو الحرف الأول لكلمة شاداي (اللّه القدير)».

تذكر بنتو حالة الهدوء غير العادية التي غمرته عندما لفّ الأشرطة الجلدية حول رأسه وذراعيه. شعور بالتقييد، بالارتباط، سرّه كثيراً، وأحسّ بأنه كاد يندمج مع أبيه المربوط بالأشرطة الجلدية بنفس الطريقة.

أنهى والده الدرس، وقال: «بنتو، أعرف أنّك لن تنسى أيّة خطوة من هذه الخطوات، لكن يجب أن تقاوم الرغبة في أن تضع *التفلين* حتى تبدأ التدريبات الرسمية قبل عيد بلوغك مباشرة (*بار متسفا*). وبعد عيد بلوغك، فإنك ستضعه صباح كلّ يوم طوال حياتك، ما عدا...».

«أيام الأعياد ويوم السبت».

«نعم»، قال والده وقبّله على خديه، «مثلي تماماً، مثل جميع اليهود».

ترك بنتو صورة والده تتلاشى، وعاد إلى الزمن الحاضر، وراح يحدّق في الصندوقين الصغيرين الغريبين، وللحظة، انتابه شعور بالألم لأنه لن يضع *التفلين* مرة أخرى، ولن يراوده ثانية ذلك الشعور بالتقييد والاندماج مع أبناء الطائفة الآخرين. أليس هذا تصرفاً غير مشرّف لأنه لم يطع رغبة والده؟ هزّ رأسه. فقد أتى والده، ليتبارك اسمه، من عصر مليء بالخرافات. ألقى بنتو نظرة أخيرة على أشرطة روش وياد، وعرف أنه اتّخذ القرار المناسب له، لكن ماذا عليه أن يفعل بهدية والده، هذا *التفلين*؟

لن يستطيع أن يتركها في البيت كي لا يراها غابرييل، لأن ذلك سيجرح مشاعر شقيقه كثيراً. يجب أن يأخذه معه ويتخلّص منه لاحقاً. وضع الصندوقين الصغيرين في حقيبته إلى جانب موسى الحلاقة ولوح الصابون ثمّ جلس ليكتب رسالة طويلة مليئة بالحب لغابرييل.

في منتصف الرسالة، أدرك بنتو الحماقة التي أقدم عليها. لأن *الحرم* يحرّم على غابرييل وعلى جميع أبناء الطائفة اليهودية قراءة أيّ شيء يكتبه. لم يشأ بنتو أن يزيد ألم شقيقه، فمزّق الرسالة وكتب بسرعة رسالة قصيرة من بضعة أسطر ذكر فيها معلومات ضرورية ووضعها على طاولة المطبخ:

غابرييل - كلمات أخيرة، للأسف. لقد أخذتُ السرير الذي تركه لي والدنا في وصيته، بالإضافة إلى ثيابي ولوح صابون والكتب. وأترك لك كلّ ما تبقى، بما في ذلك كلّ تجارتنا - التي للأسف تمر في حالة سيئة.

في جميع الأماكن التي توقف فيها بنتو على الطريق، كان يعرف أن المركب الذي يحمل سريره وكتبه لن يصل إلى بيت فان دن إدن إلّا بعد ساعتين. ويمكنه أن يقطع المسافة سيراً على الأقدام خلال نصف ساعة، لذلك لديه وقت كاف ليتمشى للمرة الأخيرة في شوارع الحيّ اليهودي حيث أمضى حياته كلها. ترك حقيبته، وراح يمشي بخطى سريعة، لكنه سرعان ما أحسّ بضيق شديد من الشوارع الهادئة المقفرة على نحو مخيف وتذكّر أن كلّ من يعرفهم هم الآن في الكنيس يستمعون إلى الحاخام مورتيرا وهو يلعن اسم باروخ سبينوزا، ويأمرهم بأن يتجنبوه ويبتعدوا عنه طوال حياته. تخيّل بنتو المشهد لو أنه سار في الشارع يوم غد: فالعيون كلها ستشيح عنه، وسينفضّ الجميع من حوله، ويبتعدون عنه كأنهم يفسحون الطريق لشخص مصاب بالجذام.

ومع أنه هيأ نفسه لهذه اللحظة منذ بضعة أشهر، فقد صُدم من الألم الذي سرى في جسده بشكل غير متوقع - ألم التشرّد، الألم بأن يكون ضائعاً، والألم لأنه يعرف بأنه لن يستطيع أن يسير بعد الآن في هذه الشوارع المثقلة بذكريات أيام شبابه، الشوارع التي سار فيها غابرييل وريبيكا وكلّ أصدقاء وجيران طفولته، الشوارع التي سار فيها ذات يوم العزيزون على قلبه الذين لم يعودوا يمشون في أيّ شوارع على سطح الأرض - أمّه وأبوه، مايكل وحنّة، وزوجة أبيه إستر، وشقيقه وشقيقته المتوفيان، إسحاق وميريام - وواصل بنتو

سيره وتجاوز صفاً صغيراً من الدكاكين. كانت هذه الشوارع صلة الوصل الملموسة الأخيرة مع الذين غادروا هذه الدنيا. فقد وطئوا معاً هذه الشوارع ذاتها، ووقعت عيونهم على المشاهد نفسها: دكان جزّار ميندوزا لبيع اللحم الكوشر، ومخبز مانويل، وأكشاك سيمون لبيع سمك الرنغة. لكن هذه الصلة ستُقطع الآن، ولن تقع عيناه ثانية على أيّ شيء رآه أبوه وأمّه وزوجة أبيه أيضاً. العزلة - لقد عرفها الآن كما لم يعرفها من قبل قط.

وعلى الفور، لاحظ بنتو شعوراً متناقضاً ينبثق في عقله: «الحرّية»، همس في نفسه، «يا لها من شيء مثير!» لم يستحضر هذه الفكرة بنفسه - وإنما انبثقت لتعوضه عن ألم العزلة. كان كما لو أن عقله يكافح ليصبح متوازناً. كيف يمكن أن يحدث كلّ ذلك؟ هل تقبع في أعماقه قوة مستقلة عن وعيه الإرادي تخلق الأفكار وتوفر له الحماية وتمكّنه من أن يزدهر ويتطور؟

«نعم، الحرّية»، قال لنفسه - كان من عادة بنتو أن يكلّم نفسه - «الحرّية هي الترياق. لقد تحررت أخيراً من نير التقاليد. تذكّر كم كنتَ متلهفاً وسعيت لنيل الحرّية - من أداء الصلاة والطقوس ومن الخرافات والإيمان بالغيب. تذكّر كم كانت حياتك أسيرة للطقوس والشعائر. الساعات التي لا تعد ولا تحصى التي أمضيتها في ارتداء *التفلين*، وأداء الصلاة المفروضة ثلاث مرات في اليوم في الكنيس، وكلما شربت ماء، أو أكلت تفاحة، أو تناولت أيّ لقمة من الطعام، وكلما فعلت أي شيء في الحياة. تذكّر الساعات اللانهائية وأنت تردد قائمة الآثام والذنوب بحسب الترتيب الأبجدي وتضرب صدرك البريء وتصلّي طلباً للمغفرة».

توقّف بنتو على جسر فوق قناة فيرويرس واتكأ على الدرابزين الحجري البارد وراح يحدّق في الماء الذي بلون الحبر في الأسفل

وتذكّر دراسته للتفاسير الدينية. فقد كرّس وقته بعد أداء الطقوس في قراءة التفاسير. ويوماً بعد يوم، وليلة بعد ليلة، لساعات لا تعد ولا تحصى، كان يمعن التفكير في الكلمات - بعضها تافهة، وبعضها جيدة، كتبتها جيوش ضخمة من الأحبار الذين أنفقوا كلّ عمرهم في الكتابة عن المعاني والمعاني التي تتضمنها كلمات الرب في التوراة بالإضافة إلى تبرير مضمون الوصايا (*الميتزوفاه*) التي يبلغ عددها ٦١٣ وصية والتي تنظّم كلّ جوانب الحياة اليهودية. وعندما بدأ بدراسة القبّالة مع الحاخام أبوب، أصبحت دروسه غامضة وسرّية إلى درجة لا تصدق عندما بدأ يتطرق إلى المعاني السرّية لكلّ حرف وتداعيات الأرقام المنسوبة لكلّ حرف.

وعلى الرغم من ذلك، لم يشكك أو يتساءل أيّ حبر من الأحبار الذين علّموه ولم يتساءل رجال الدين القدماء في صحة نصوصهم الأساسية، أو هل أن كتب موسى هي فعلاً كلمات الرب الحقيقية. فعندما كان يدرس التاريخ اليهودي منذ أكثر من اثنتي عشرة سنة، تجرأ وتساءل كيف يمكن أن يكون الرب قد كتب وثيقة توجد فيها متناقضات كثيرة، فرفع الحاخام مورتيرا رأسه ببطء، وحدّق فيه غير مصدق، وأجاب، «كيف يمكنك، وأنت مجرّد طفل، روح واحدة، أن تشكك في صحة كتابة الرب للكتاب، وتتجرأ وتفترض أنك تعرف معرفة الرب اللامتناهية ونواياه؟ ألا تعرف أن تقديم العهد إلى موسى شهده العشرات، بل مئات الألوف، بل شعب إسرائيل بأسره؟ لقد رآه أناس أكثر مما رآه بشر في أيّ مناسبة أخرى في التاريخ كلّه».

نقلت نبرة الحاخام إلى جميع طلاب الصفّ رسالة بأنه يجب ألّا يثير أحد من التلاميذ سؤالاً غبياً كهذا أبداً. ولم يفعل أحد ذلك قط. ولا، كما بدا لبنتو، أن أحداً، إلّا هو، لاحظ أنّ شعب إسرائيل،

بشكل جماعي، في موقفهم الموقر للتوراة قد ارتكب الإثم الذي حذّرهم الرب بواسطة موسى بقوة من: عبادة الأصنام. فلم يعبد اليهود أصناماً من الذهب وإنما عبدوا أصناماً من الورق والحبر.

بينما كان يراقب مركباً صغيراً وهو يختفي عن الأنظار في قناة جانبية، تناهى إلى بنتو صوت شخص يجري نحوه. عندما رفع عينيه، رأى ماني، ابن الخباز، زميله السمين البليد البطيء التفكير، لكن المخلص وصديق العمر. وكردّة فعل، ابتسم بنتو ووقف ليحيّي صديقه، لكن دون أن يتمهل في خطواته، ودون أن يبدي أي إشارة بأنه يعرفه، تجاوزه ماني بسرعة، وراح يجري فوق الجسر ثم هبط إلى أسفل الشارع نحو مخبز أبيه.

سرت في جسد بنتو رعشة. فقد نُفّذ *الحرم* بالفعل! بالطبع كان يعرف أنّ هذا الأمر سيحدث في الواقع - فقد أخبرته بذلك نظرة الحاخام مورتيرا المحدقة به، كما فعلت الشوارع المقفرة، وصفعة ريبيكا التي لا تزال تلسع خدّه. لكن ابتعاد ماني عنه جعل هذه الحقيقة مؤلمة. ابتلع ريقه وقال لنفسه، *هذا أفضل بكثير - إنهم يرغمونني على أن أفعل الأشياء التي كنت أريد أن أفعلها*. *كنت أخشى الفضيحة، لكن بما أنهم يريدونها بهذه الطريقة، فإني سأسلك بسعادة الدرب الذي فُتح أمامي.*

«أنا لم أعد يهودياً»، دمدم بنتو واستمع إلى صوت الكلمات. أعادها مراراً وتكراراً، «*أنا لم أعد يهودياً*»، «*أنا لم أعد يهودياً*»، «*أنا لم أعد يهودياً*». ارتجف. بدت الحياة باردة ومتحجرة القلب. لكن الحياة أصبحت تبدو باردة منذ أن مات أبوه وزوجة أبيه. وبدءاً من هذا اليوم، لم يعد يهودياً. ربما الآن، كيهودي مطرود، يستطيع أن يفكّر ويكتب كما يشاء، وسيكون بمقدوره أن يتبادل الآراء مع أشخاص من غير اليهود.

قبل أشهر عديدة، كان بنتو قد أقسم بينه وبين نفسه أن يعيش بصدق وحبّ مع نفسه. والآن بعد أن أصبح يُعتبر غير يهودي أضحى بإمكانه أن يعيش بهدوء وبسلام. فطالما كرر اليهود أن الآراء الحقيقية وخطّة الحياة الحقيقية التي تأتي من العقل، ولا تأتي من الوثائق الموسوية النبوية، لا يوجد لها مكان في طريق النعيم والسعادة. وبدت إدانة العقل أمراً غير معقول بالنسبة لبنتو، لكنه الآن، بعد أن لم يعد يهودياً، أصبح يستطيع أن يعيش حياة العقل والتفكير.

عندما هبط من الجسر، قال بنتو لنفسه فجأة، *ماذا أنا؟ فإذا لم أكن يهودياً، فماذا أنا؟* مدّ يده إلى جيبه يبحث عن الدفتر الذي يضعه في جيبه دائماً - الدفتر الذي رآه فان دن إدن يكتب فيه في أول لقاء لهما. انعطف يميناً إلى شارع صغير، جلس على حافة القناة وراح يبحث عن جواب بين الملاحظات التي كان قد دوّنها في السنتين الماضيتين، وتوقّف ليعيد قراءة التعليقات التي قوّت عزيمته بصورة خاصة.

إذا كنت بين رجال لا يتفقون مع طبيعتي على الإطلاق، فلن أكون قادراً على التكيّف معهم من دون أن أغيّر نفسي كثيراً

إن الرجل الحرّ الذي يعيش في وسط الجهلة يسعى بقدر ما يستطيع إلى تجنّب أفضالهم

الرجل الحرّ يتصرّف بصدق، لا بشكل مخادع

الرجال الأحرار فقط هم الذين يكون أحدهم مفيداً للآخر ويمكنهم إقامة صداقات حقيقية

يجوز إلى درجة كبيرة، بأعلى حق للطبيعة، أن يستخدم كل

شخص عقلاً واضحاً ليحدد كيف يمكنه أن يعيش بطريقة تجعله يزدهر وينجح.

أغلق بنتو دفتر ملاحظاته. نهض، وسار في الشوارع المقفرة متجهاً إلى بيته ليحمل أغراضه. وفجأة، صاح صوت حزين من خلفه، «باروخ سبينوزا. باروخ سبينوزا».

الفصل الثاني والعشرون

برلين - ١٩٢٢

كانت برلين في أول يوم من أيام الربيع لا تزال كما يتذكّرها ألفريد من خلال إقامته القصيرة فيها في شتاء سنة ١٩١٩. تحت سماء من الغرانيت، ورياح شديدة البرودة، ومطر خفيف يهمي باستمرار يبدو أنه لن يصل إلى الأرض أبداً، وأصحاب المحلات ذوو الوجوه المتجهمة المتدثرون بعدة طبقات من الملابس جالسون في محلاتهم الباردة. وكانت جادة أونتر دير ليندن مقفرة لكن جنوداً يحرسونها عند كلّ ناصية. كانت برلين مدينة خطيرة: فقد كانت المظاهرات والاغتيالات السياسية العنيفة على أيدي الشيوعيين والديموقراطيين الاجتماعيين أحداثاً يومية فيها.

في نهاية لقائهما الأخير الذي مضت عليه أربع سنوات، كتب فريدريش «مستشفى شاريتيه، برلين» على قصاصة ورقية كان ألفريد قد مزّقها ورماها على الأرض، لكنه عاد بعد بضع دقائق ولملم قطع الورقة المبعثرة. اقترب ألفريد من أحد الحراس، وسأله عن الطريق المؤدي إلى المستشفى. رمق ألفريد من حذائه إلى قمة رأسه، وسأله مزمجراً «صوتك؟»

فسأله ألفريد بحيرة «ماذا؟»

«لمن أدليت بصوتك؟»

«أوه»، تمالك ألفريد نفسه، «سأخبرك لمن سأصوّت في الانتخابات القادمة: **أدولف هتلر** مع قائمة المرشحين المناهضين للبلاشفة اليهود في حزب العمال القومي الاشتراكي الألماني».

فأجاب الجندي، «لا أعرف أحداً يدعى باسم هتلر» ، «ولم أسمع بحزب العمال القومي الاشتراكي الألماني. لكن القائمة تعجبني. شاريتيه، هه - لا يمكنك أن تضيّعه - إنه أكبر مستشفى في برلين». وأشار إلى شارع إلى يساره، «أسفل ذلك الشارع، إلى الأمام مباشرة».

«شكراً جزيلاً، ويا سيدي، احتفظ باسم هتلر في رأسك. لأنك ستصوّت لمصلحة أدولف هتلر قريباً».

عرف الموظف في قسم الاستقبال اسم فريدريش بفيستر على الفور. «آه، نعم، هير دكتور بفيستر مستشار في قسم العيادات الخارجية للاضطرابات العصبيّة والنفسية. في آخر البهو إلى يمينك، خارج الباب، ومباشرة أمام المبنى المجاور هناك».

كانت منطقة الاستقبال في المبنى المجاور تعجّ برجال شباب ومتوسطي العمر لا يزالون يرتدون معاطفهم العسكرية الرمادية وأمضى ألفريد خمس عشرة دقيقة حتى تمكن من الوصول إلى المكتب الأمامي حيث جذب أخيراً انتباه موظفة الاستقبال البرمة عندما ابتسم لها بتهذيب وقال: «أرجوك، أرجوك، أنا صديق مقرّب للدكتور بفيستر. أؤكد لك أنه يريد أن يراني».

نظرت إلى عينيه مباشرة. كان ألفريد شاباً وسيماً، وسألته، «ما اسمك؟»

«ألفريد روزنبرغ».

«عندما ينهي فحصه، سأخبره بأنك هنا». بعد عشرين دقيقة، ابتسمت لألفريد ابتسامة دافئة وأشارت إليه بأن يتبعها إلى مكتب ضخم. كان فريدريش الذي يضع عصابة ومرآة على رأسه، ويرتدي معطفاً أبيض وقد حشر في جيوبه مصباحاً كاشفاً، وقلماً، ومنظاراً للعين، وخافض لسان خشبي، وسمّاعة طبيب، بانتظاره.

«ألفريد، يا لها من مفاجأة! مفاجأة سعيدة. لم يخطر ببالي أنني سأراك ثانية. كيف حالك؟ ماذا حلّ بك منذ أن التقينا في إستونيا؟ ما الذي جاء بك إلى برلين؟ أم أنك تعيش هنا؟ يمكنك أن ترى أنني مستعجل قليلاً وألقي عليك بحماقة أسئلة ولا يوجد لديّ وقت لأسمع ردودك. كما ترى فإن العيادة مكتظة كالعادة، لكني سأنهي عملي عند السابعة والنصف - هل سيكون لديك وقت آنذاك؟»

«سأكون حرّاً تماماً. كنت أعبر برلين فقط. فكّرت في أن أحظى بفرصة رؤيتك»، قال ألفريد، مؤنباً نفسه بصمت، «*لماذا* لا تخبره بسبب وجودك *الحقيقي هنا*؟»

«جيّد جيّد. لنتناول العشاء ونتكلّم. سأستمتع بذلك».

«وأنا كذلك».

«سنلتقي عند مكتب الاستقبال الساعة ٧:٣٠».

أمضى ألفريد فترة بعد الظهر وهو يجوب شوارع المدينة ويقارن شوارع برلين المبتذلة بالجادات المتلألئة في باريس. وعندما اشتدّ البرد، راح يتسكع في القاعات الأكثر دفئاً في المتاحف غير المدفأة. وفي الساعة السابعة، عاد إلى غرفة الانتظار في المستشفى التي أصبحت الآن فارغة تقريباً. ووصل فريدريش في الساعة ٧:٣٠ تماماً ورافق ألفريد إلى غرفة طعام الأطباء، غرفة ضخمة تملأها رائحة مخلل الملفوف لا توجد فيها نوافذ كبيرة ويتنقل بين الطاولات عدد من الندل لخدمة زبائن يرتدون معاطف بيضاء. «كما ترى يا ألفريد،

هذا المكان يشبه ألمانيا كلها: طاولات كثيرة، مساعدة كثيرة، لكن الأكل قليل».

طعام العشاء في المستشفى، وجبة باردة تتألف من شرائح رقيقة من السجق وسجق الكبد، وجبن ليمبيرغير، وبطاطا مسلوقة باردة، ومخلل ملفوف ومخللات. اعتذر فريدريش وقال: «أنا آسف، فهذا أفضل ما يمكنني أن أقدمه. آمل أن تكون قد تناولت وجبة ساخنة اليوم؟»

أومأ ألفريد، وقال: «تناولت نقانق وورستس في القطار. لم تكن سيئة».

«يمكننا أن نتطلّع إلى الحلوى. لقد طلبت من الطاهي أن يعدّ لنا شيئاً خاصاً - ابنه أحد مرضاي، وغالباً ما يخبز لي حلوى لذيذة». أسند فريدريش ظهره الآن إلى الكرسي وتنهّد، كان من الواضح أنه كان منهكاً، «وأخيراً أصبح بإمكاننا أن نسترخي ونتحدّث. أولاً، دعني أحدّثك عن أخيك. فقد كتب لي يوجين للتو يسألني إن كنتُ قد سمعتُ منك. لقد رأيته لفترة قصيرة في برلين، لكنه انتقل إلى بروكسل منذ حوالي ستة أشهر ليتولى منصباً مرموقاً في أحد المصارف البلجيكية. إنه لا يزال في مرحلة نقاهة من مرض السلّ الذي أصيب به».

«أوه، لا»، قال ألفريد متنهداً.

«ماذا؟ النقاهة خبر جيّد».

«نعم، بالطبع. إن ردّي هو على 'بروكسل'. لو كنتُ أعرف لأمضيت فيها يوماً».

«لكن كيف يمكنك أن تعرف؟ ألمانيا كلّها مفككة. كتب يوجين يقول إنه لا يعرف أين تعيش. أو كيف. كلّ ما استطعت أن أخبره

عن لقائنا في ريفال بأنّك تأمل أن تذهب إلى ألمانيا. إذا أردت فسأكون وسيطاً بينكما وأعطي أحدكما عنوان الآخر».

«نعم، أريد أن أكتب له».

«سأحضر لك عنوانه بعد العشاء - إنه في غرفتي. لكن ماذا كنت تفعل في بروكسل؟»

«هل تريد القصة الطويلة أم القصيرة؟»

«القصة الطويلة. عندي متسع من الوقت».

«لكن لا بد أنك متعب. ألم تكن تسمع إلى الناس طوال اليوم؟ متى بدأت هذا الصباح؟»

«أعمل منذ السابعة. لكن التحدّث مع المرضى ليس مثل التحدّث معك. فأنت ويوجين كلّ ما بقي من حياتي في إستونيا - كنت طفلاً وحيداً، وكما تذكر، فقد مات أبي قبل لقائنا الأخير، وماتت أمّي منذ سنتين. إني أثمّن الماضي - ربّما إلى درجة لاعقلانية. وأشعر بأسف عميق لأننا افترقنا في المرّة الأخيرة بطريقة غير ملائمة - كان ذلك بسبب تهوري وطيشي. لذلك احكِ لي القصة الطويلة كلها، أرجوك».

تحدّث ألفريد بملء إرادته عن حياته خلال السنوات الثلاث الماضية. لا، إنها أكثر من الرغبة: فقد تسلل الدفء في عظامه وهو يتكلّم، دفء ينبع من مشاطرة قصة حياته مع شخص يريد أن يسمع عنها حقاً. تحدّث عن هروبه من ريفال في آخر قطار إلى برلين، وفي شاحنة نقل الماشية إلى ميونيخ، وفرصة لقائه بديتريتش إكارت، وعن عمله كمحرّر في صحيفة، وانضمامه إلى حزب العمال القومي الاشتراكي الألماني، وعلاقته الحماسية مع هتلر. وحدّثه عن إنجازاته الكبرى - كتابه «*أثر اليهودي*»، وأنه نُشر في السنة الماضية «*بروتوكولات حكماء صهيون*».

لفتت بروتوكولات حكماء *صهيون* انتباه فريدريش. فمنذ بضعة أسابيع فقط، سمع فريدريش عن هذه الوثيقة في أثناء محاضرة ألقاها مؤرخ بارز في جمعية برلين *للتحليل النفسي* حول موضوع حاجة الإنسان الأبديّة إلى إيجاد كبش فداء. وعرف أن بروتوكولات *حكماء صهيون* هي خلاصة الكلمات التي ألقيت في المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد سنة ١٨٩٧ في بازل التي تكشف عن مؤامرة يهودية دولية لتقويض المؤسسات المسيحية، وإشعال الثورة الروسية، وتمهيد الطريق للهيمنة العالمية اليهودية. وقال المتكلّم في مؤتمر التحليل النفسي إن صحيفة مجردة من المبادئ الأخلاقية في ميونيخ أعادت نشر *البروتوكولات* كلها، مع أنّ مؤسسات دراسية رئيسية أوضحت أن بروتوكولات حكماء *صهيون* ما هي إلّا أكذوبة. *هل عرف ألفريد بأنها أكذوبة*؟ تساءل فريديش. *هل كان سينشرها على الرغم من ذلك*؟

لكنه لم يقل شيئاً عن ذلك. ففي عمله في التحليل النفسي المكثف خلال السنوات الثلاث الماضية، تعلّم فريدريش كيف ينصت وتعلّم أيضاً أن يفكّر قبل أن يقول شيئاً.

«إن صحة إكارت آخذة في التدهور»، واصل ألفريد، ملتفتاً للحديث عن طموحاته، «أنا حزين لأنه أستاذ رائع، لكن في الوقت نفسه أعرف أن تقاعده الوشيك سيفتح لي الطريق لأصبح رئيس تحرير صحيفة حزب العمال القومي الاشتراكي الألماني (*Völkischer Beobachter*) فقد قال لي هتلر نفسه إنني أفضل مرشّح لهذا المنصب، والصحيفة تتوسع وتكبر بقوة، وستصبح قريباً صحيفة يومية. والأهم من ذلك، فإني آمل أن يؤدي عملي في قسم التحرير، بالإضافة إلى قربي من هتلر، في نهاية الأمر، إلى أداء دور رئيسي في الحزب».

أنهى ألفريد كلامه بإفشاء سرّ كبير: «أنوي أن أنشر كتاباً مهمّاً جداً بعنوان *«أسطورة القرن العشرين»*. آمل أن يبيّن لكلّ شخص مفكّر حجم التهديد اليهودي للحضارة الغربية. ستستغرق كتابته عدة سنوات، لكن في النهاية، أتوقّع أن يخلف العمل العظيم الذي كتبه هيوستن ستيوارت تشامبرلن، *أسس القرن التاسع عشر*. هذه هي قصتي حتى سنة ١٩٢٣».

«ألفريد، إني معجب جداً بما أنجزته في هذه الفترة القصيرة، لكنك لم تنته بعد. انقلني إلى الحاضر. ماذا عن بروكسل؟»

«آه، نعم. لقد أخبرتك بكلّ شيء ما عدا ما سألتني عنه!» ثمّ وصف ألفريد بالتفصيل رحلته إلى باريس وبلجيكا وهولندا. ولسبب ما تحدّث كثيراً، لكنه حذف أيّ إشارة إلى زيارته إلى متحف سبينوزا في رنسبرخ.

«يا لها من ثلاث سنوات غنية، يا ألفريد! يجب أن تكون فخوراً بما أنجزته. لي الشرف لأنك وثقت بي. لديّ شعور بأنك لم تفض بذلك إلى أي أحد، لا سيما طموحاتك، قبل الآن. صحيح؟»

«صحيح. أنت محقّ تماماً. لم أتحدّث مع أحد بشكل شخصي هكذا منذ أن تحدّثنا في المرّة الأخيرة. ثمة شيء فيك يا فريدريش يشجّعني على أن أكون صريحاً معك». أحسّ ألفريد بأنه على وشك أن يخبر فريدريش بأنّه يريد أن يغيّر بعض السمات الرئيسية في شخصيته، عندما جاء الطاهي حاملاً قالباً كبيراً من تورتة لينزير الساخنة.

«خبزته طازجاً لك ولضيفك، دكتور بفيستر».

«هذا لطف منك، هير شتاينير. وابنك، هانز؟ كيف حاله هذا الأسبوع؟»

«أصبحت أيامه أفضل، لكن الكوابيس التي تراوده لا تزال رهيبة. أسمعه يصرخ كلّ ليلة تقريباً. أصبحت كوابيسه كوابيسي».

«الكوابيس طبيعية في حالته. اصبر - فهي ستتلاشى، هير شتاينير. ستختفي دائماً».

«ما مشكلة ابنه؟» سأله ألفريد بعد أن غادر الطاهي.

«لا أستطيع أن أحدّثك عن أيّ مريض بعينه يا ألفريد - قانون السريّة لدى الأطباء. لكني أستطيع أن أقول لك هذا: هل تذكر الرجال الذين رأيتهم في غرفة الانتظار؟ إنهم مصابون جميعاً، كلّ واحد منهم، بذات الشيء - صدمة القذائف. والحالة نفسها في جميع غرف الانتظار في جميع مستشفيات الاضطرابات العصبيّة في ألمانيا. كلهم يعانون معاناة شديدة: إنهم مضطربون، لا يستطيعون التركيز، وتنتابهم نوبات قلق واكتئاب شديدة. صدمتهم هذه لا تبارحهم. وفي النهار تقتحم عقولهم صور مرعبة، وفي الليل يرون كوابيس عن الذين تناثرت أجسادهم وبأن موتهم أصبح وشيكاً.

«وعلى الرغم من أنهم يشعرون بأنهم محظوظون لأنهم نجوا من الموت، فإنهم يعانون جميعاً من الإحساس بالذنب لأنهم ظلوا أحياء بينما مات كثيرون آخرون. إنهم يجترّون حول ما كان بإمكانهم أن يفعلوه لإنقاذ رفاقهم الذين قتلوا، كيف لو أنهم ماتوا بدلاً عنهم. وبدلاً من أن يشعروا بالفخر، فإن الكثيرين منهم يتملكهم شعور بأنهم جبناء. إنها مشكلة فظيعة يا ألفريد. إني أتحدّث عن جيل كامل من الرجال الألمان المصابين. وبطبيعة الحال، هناك حزن أسرهم. لقد خسرنا ثلاثة ملايين شخص في الحرب، وفقدت كلّ أسرة في ألمانيا تقريباً ابناً أو أباً».

«وكل ذلك»، أضاف ألفريد على الفور، «ربما أصبح أسوأ بكثير بسبب مأساة معاهدة فيرساي الشيطانية التي جعلت كلّ معاناتهم عديمة الجدوى».

لاحظ فريدريش كيف نقل ألفريد بدهاء المناقشة إلى قاعدة

معرفته بالسياسة لكنه تجاهل ذلك، وقال: «توقّع مثير، يا ألفريد. ولمعالجته يجب أن نعرف ماذا يجري في غرف الانتظار في المستشفيات العسكرية في باريس ولندن. قد تكون في موقع هام يمكّنك من تقصي هذه المسألة لصحيفتك، وبصراحة، فإني أريد أن تكتب عنها. فكلّ الدعاية التي يمكن أن تعلنها ستساعد. يجب أن تأخذ ألمانيا هذا الأمر بجدية أكبر. إننا بحاجة إلى المزيد من الموارد».

«أعدك بذلك. سأكتب مقالة عنها فور عودتي».

بينما استمتعا بتناول قالب الحلوى ببطء، التفت ألفريد إلى فريدريش وقال: «إذاً أنهيت تدريبك الآن؟»

«نعم، معظم تدريبي الرسمي. لكن الطبّ النفسي مجال غريب لأنه، بخلاف جميع ميادين الطبّ الأخرى، فإنك لا تنتهي أبداً. إن أعظم أداة هي أنت، نفسك، والعمل على فهم الذات لا ينتهي. لذلك فإني لا أزال أتعلّم. وإذا لاحظت أيّ شيء عنّي يمكن أن يساعدني في معرفة المزيد عن نفسي، أرجو ألّا تتردد في أن تلفت انتباهي إليه».

«ربما لا أستطيع أن أتخيّل ذلك. ماذا يمكنني أن أرى؟ ماذا يمكنني أن أقوله لك؟»

«أيّ شيء تلاحظه. فربّما وجدتني أنظر إليك بطريقة غريبة، أو أقاطعك في الكلام، أو أستخدم كلمة غير لائقة. ربما أسيء فهمك أو أسألك أسئلة خرقاء أو أسئلة مزعجة... أيّ شيء. أقصد ما أقوله يا ألفريد. أريد أن أسمعه».

لم يحر ألفريد جواباً، كاد يتزعزع. لقد حدث ذلك مرة أخرى. فقد ولج مرة أخرى إلى عالم فريدريش الغريب، بقواعد خطاب مختلفة إلى حد كبير - عالم لم يصادفه في أي مكان آخر.

«إذاً»، واصل فريدريش كلامه، «قلت إنك كنت في أمستردام وكان عليك أن تعود إلى ميونيخ. لكن برلين لا تقع على نفس الطريق».

ماداً يده إلى جيب معطفه، سحب ألفريد كتاب سبينوزا *رسالة في اللاهوت والسياسة*، وقال: «إن رحلة طويلة بالقطار هي المكان المثالي لقراءة هذا». ورفع الكتاب إلى فريدريش، وأضاف، «لقد أنهيت هذا الكتاب وأنا في القطار. كنت على حقّ تام عندما اقترحته لي».

«أنا معجب بك يا ألفريد. فأنت باحث متفان. لا يوجد كثيرون مثلك. وما عدا الفلاسفة المحترفين، فإن عدداً قليلاً جداً من الناس يقرأون سبينوزا بعد أن يتخرجوا من الجامعة. ظننت أنك الآن، بعد أن استلمت عملك الجديد وبعد كلّ الأحداث الفظيعة في أوروبا، فإنك ستنسى بنيديكتوس العجوز. قل لي ما رأيك بالكتاب؟»

«واضح، شجاع، ذكيّ. إنه نقد مدمّر لليهودية والمسيحية - أو كما يقول صديقي هتلر، 'خداع ديني كامل'. لكنني أشكّك في آراء سبينوزا السياسية. فلا شكّ أنه ساذج في دعمه للديمقراطية والحرّية الفردية. انظر فقط إلى أين أوصلتنا هذه الأفكار في ألمانيا في وقتنا الراهن. يكاد يبدو أنه يدعو إلى نظام أمريكي، وكلّنا نعرف إلى أين تتجه أمريكا - إلى كارثة بلد مختلط شبه خلاسيّ».

صمت ألفريد، وتناول الرجلان آخر قطعة من قالب الحلوى، الذي يعدّ ترفاً حقيقياً في مثل هذه الأوقات العصيبة.

وواصل قائلاً: «لكن حدّثني أكثر عن كتاب *الأخلاق*، الكتاب الذي منح غوته الكثير من الطمأنينة والرؤية، الكتاب الذي حمله في جيبه سنة كاملة. أتذكر عرضك لأن تكون مرشدي، لتساعدني على أن أتعلّم كيف أقرأه؟»

«أتذكّر، والعرض لا يزال سارياً. فقط آمل أن أكون أهلاً لذلك، لأنني أحشر عقلي بأفكار مهنتي الصغيرة والكبيرة. ولم أفكّر في سبينوزا منذ أن كنت معك. من أين نبدأ؟» أغمض فريدريش عينيه، وأردف، «إني أعود إلى أيام الجامعة والاستماع إلى محاضرات أستاذي في الفلسفة. أذكر أنه قال إن سبينوزا شخصية شامخة في تاريخ الفكر، وإنّه كان رجلاً وحيداً نبذه اليهود، وحظر المسيحيون كتبه، وغيّر العالم. وقال إن سبينوزا أدخلنا إلى العصر الحديث، وإن عصر التنوير ونشوء علم الطبيعة بدأت معه. ويرى البعض أن سبينوزا هو أول شخص غربي يعيش علناً من دون أيّ ولاء أو ارتباط ديني. أذكر كيف أن والدك كان يحتقر الكنيسة على الملأ. وقال لي يوجين إنه كان يرفض أن تطأ قدمه الكنيسة، حتى في عيد الفصح أو في عيد الميلاد. صحيح؟»

نظر إلى ألفريد في عينيه، فأومأ ألفريد وقال: «صحيح».

«لذلك، من الناحية العملية فقد كان والدك مديناً لسبينوزا. فقبل سبينوزا، كان الاعتراض على الدين بشكل علني بهذا الشكل أمراً لا يمكن تصوّره. وكنت حصيفاً في تبين دوره في نشوء الديمقراطية في أمريكا. فقد استُلهم إعلان الاستقلال الأمريكي من الفيلسوف البريطاني جون لوك الذي استوحى أفكاره بدوره من سبينوزا. دعنا نرى. ماذا هناك أيضاً؟ آه، أتذكّر أن أستاذ الفلسفة كان يؤكّد كثيراً على تمسك سبينوزا كثيراً بالاسْتِتْباب. هل تعرف ماذا أقصد بهذه الكلمة؟»

بدا على وجه ألفريد أنه غير متأكد عندما أدار يديه بتساؤل.

«إنها عكس كلمة 'السمو'. إنها تشير إلى فكرة أنّ هذا الوجود العالمي هو كلّ ما هنالك، وأن قوانين الطبيعة تتحكم بكلّ شيء وأن اللّه هو نظير الطبيعة بالكامل. وكان لإنكار سبينوزا وجود أيّ حياة

في المستقبل أهمية كبيرة على الفلسفة التي تلته، لأنّها تعني أنّ جميع الأخلاق، جميع قوانين الحياة وسلوكها يجب أن تبدأ بهذا العالم وبهذا الوجود». صمت فريدريش قليلاً، ثم أضاف، «هذا كلّ ما يخطر ببالي الآن... أوه نعم، شيء واحد أخير. فقد قال أستاذي إن سبينوزا هو أذكى رجل مشى على وجه الأرض».

«أفهم هذا الادّعاء. سواء اتفقت معه أم لم تتفق، فمن الواضح أنه رجل ذكي. وأنا متيقن بأن غوته وهيغل وجميع مفكّرينا العظام كانوا يدركون ذلك».

ومع ذلك كيف جاءت هذه الأفكار من يهودي؟

كان ألفريد سيضيف شيئاً، لكنه توقف. ربما كان الرجلان يحرصان على تجنّب إثارة الموضوع الذي أثار هذه الحدّة بينهما في لقائهما الأخير.

«إذاً ألفريد، ألا تزال تحتفظ بنسختك من كتاب *الأخلاق*؟»

توقّف الطاهي عند الطاولة وقدّم لهما شاياً.

«هل نجعلك تنتظر؟» سأله فريدريش بعد أن نظر حوله ووجد أنّه لم يتبق أحد في المطعم إلّا هو وألفريد.

«لا، لا، دكتور بفيستر. عندي عمل كثير. سأبقى هنا لساعات أخرى».

بعد أن غادر الطاهي، قال ألفريد: «لا تزال لديّ نسخة من كتاب *الأخلاق*، لكني لم أفتحها منذ سنوات».

بعد أن نفخ على كوب الشاي وأخذ رشفة، استدار فريدريش إلى ألفريد وقال: «أظن أنه حان الوقت للبدء بقراءته. إنها قراءة صعبة. لقد أخذت دورة لمدة سنة لدراسته، وكنا نمضي غالباً في الصفّ ساعة كاملة في مناقشة صفحة واحدة. نصيحتي لك بأن تمضي في

قراءته بتمهل. إنه غني بشكل يفوق الوصف ويتطرق تقريباً إلى جميع الجوانب المهمّة في الفلسفة - الفضيلة، الحرّية، والحتميّة، وطبيعة اللّه، والخير والشر، والهوية الشخصية، والعلاقة بين الجسد والعقل. وقد لا يوجد كتاب بهذه الشمولية غير كتاب *الجمهورية* لأفلاطون».

تطلّع فريدريش حوله في المطعم الخاوي مرة أخرى، وقال: «بغضّ النظر عن اعتراضات هير شتاينير المهذبة، فإني أخشى أننا نؤخّره معنا هنا. لنذهب إلى غرفتي حيث يمكنني تحفيز ذاكرتي بإلقاء نظرة سريعة على ملاحظاتي التي كنت قد دوّنتها عن سبينوزا، وأعطيك كذلك عنوان يوجين».

كانت غرفة فريدريش في مسكن الأطباء كبيرة لا توجد فيها إلّا خزانة كتب، وطاولة مكتب، وكرسي، وسرير مرتّب جيداً. قدّم فريدريش الكرسي لألفريد وأعطاه نسخته من كتاب *الأخلاق* ليتصفحه بينما جلس على السرير يقلّب ملفاً قديماً سجّل فيه بعض الملاحظات. بعد عشر دقائق، قال: «إذاً، بضعة تعليقات عامّة. أولاً - وهذا مهمّ - لا تدع همّتك تتثبط بالأسلوب الهندسي. لا أصدّق أن هناك قارئاً وجد هذا ملائماً. إنه يشبه إقليدس، بتعاريف دقيقة، مسلَّمات، فرضيات، براهين، وبديهيات. إن قراءته صعبة للغاية، ولا يعرف أحد لماذا اختار الكتابة بهذه الطريقة. أتذكر عندما قلت إنّك توقفت عن محاولة قراءته لأنه يبدو عصياً على الفهم، لكنّي أحثّك على أن تبقى معه. يشكّ أستاذي في أنّ سبينوزا كان يفكّر فعلاً بهذه الطريقة وإنما كان يعتبر ذلك أداة تعليمية متفوّقة. ربّما كان يبدو له أنها الطريقة الطبيعية لتقديم فكرته الأساسية بأنه لا يوجد شيء عرضي، وأنّ كلّ شيء في الطبيعة مرتب ومنهجي ومفهوم، تقتضيه

أسباب أخرى هي تماماً ما هي. أو لعله أراد أن يسود المنطق، لكي يظل مخفياً ويترك المنطق يدافع عن استنتاجاته، لا باللجوء إلى البلاغة أو السلطة، ولا إلى الحكم عليه مسبقاً على أساس خلفيته اليهودية. لقد أراد أن يُحكم على عمله باعتباره نصّاً رياضياً - بمنطق طريقته فقط».

استعاد فريدريش كتابه من ألفريد وراح يقلّب الصفحات، ثم قال: «إنه مقسّم إلى خمسة أجزاء: في اللّه؛ وفي طبيعة النفس وأصلها؛ وفي أصل الانفعالات وطبيعتها؛ وفي عبودية الإنسان أو في قوى الانفعالات؛ وفي قوة العقل أو في حرّية الإنسان. إن القسم الرابع، 'في عبودية الإنسان' هو الذي يثير اهتمامي أكثر من أي شيء آخر لأنّ له علاقة وثيقة بمجال عملي. قلت لك منذ قليل إنني لم أفكّر فيه منذ أن التقينا آخر مرّة، لكن بينما نتحدّث الآن، فإني أدرك أن هذا غير صحيح. ففي أحيان كثيرة، بينما أقرأ أو أستمع إلى محاضرات في الطبّ النفسي أو أتحدّث إلى المرضى، فإني أفكّر في تأثير سبينوزا الذي لم يلق تقديراً كبيراً في مجال عملي في الطبّ النفسي. وللجزء الخامس، 'في قوّة العقل، أو في حرّية الإنسان' صلة هامة بعملي أيضاً وينبغي أن يكون مهماً لك أيضاً. وأظن أن هذا الجزء هو الجزء الأكثر فائدة بالنسبة لغوته».

«فكرتان حول الجزءين الأولين...» نظر فريدريش إلى ساعته، «فهما بالنسبة لي أصعب جزءين وأكثرهما غموضاً، ولم أتمكن من فهم كلّ فكرة ومفهوم فيهما. إن الفكرة الرئيسية تكمن في أنّ كلّ شيء في الكون ما هو إلّا مادة أبديّة واحدة أو الطبيعة أو اللّه. ولا تنس أبداً أنه يستخدم العبارتين بشكل متبادل».

فسأله ألفريد، «هل يملأ ذكر 'اللّه' كلّ صفحة؟ لم أكن أظن أنه كان مؤمناً».

«أثير جدال كثير حول هذه المسألة. إذ يرى الكثيرون أنه مؤمن بوحدة الوجود، ويفضّل أستاذي أن يسمّيه ملحداً مخادعاً، فهو يستخدم عبارة 'اللّه' كثيراً لكي يشجع القرّاء في القرن السابع عشر على مواصلة القراءة، وكي لا تكون كتبه فريسة للنيران. من المؤكد أنه لا يستخدم كلمة 'اللّه' بالمعنى التقليدي، فهو يدين سذاجة ادّعاء البشر أنهم خُلقوا على صورة اللّه. فهو يقول في مكان ما، أظن في رسائله، إنه لو كان بإمكان المثلثات أن تفكّر لخلقت إلهاً مثلث الشكل. فجميع صور اللّه الشبيهة بالإنسان ليست سوى اختراعات خرافية. بالنسبة إلى سبينوزا، فإن الطبيعة واللّه كلمتان مترادفتان، تستطيع أن تقول إنه يطبّع الرب».

«حتى الآن لم أسمع شيئاً عن *الأخلاق*».

«يجب أن تنتظر حتى تصل إلى الجزءين الرابع والخامس. أولاً يقول إننا نعيش في عالم من الحتمية مليء بالعقبات التي تعترض سبيل سعادتنا. وإن كل ما يحدث هو نتيجة قوانين طبيعة ثابتة، وإننا جزء من الطبيعة نخضع لهذه القوانين الحتمية. بالإضافة إلى ذلك، فإن الطبيعة شديدة التعقيد، وكما قال فإن الطبيعة تضم عدداً لامتناهياً من الأنماط أو الخصائص، ونحن البشر لا ندرك إلّا اثنتين منها، وهما الفكر والجوهر المادي».

ثم سأل ألفريد بضعة أسئلة أخرى عن *الأخلاق*، لكن فريدريش لاحظ أنّه يبذل جهداً لمواصلة الحديث. اختار فريدريش وقته بعناية، وجازف بإبداء هذه الملاحظة. «ألفريد، من الرائع أن أتذكّر سبينوزا وأناقشه معك. لكنّي أريد أن أتأكد من أنني لم أنس شيئاً. وبما أنني معالج فقد تعلّمت أن أولي اهتماماً بالمشاعر التي تخطر لي، ويوجد لديّ شيء عنك».

رفع ألفريد حاجبيه. وانتظر متلهفاً.

«لديّ شعور بأنك لم تأت لتتحدّث عن سبينوزا فقط، وإنما جئت لسبب آخر».

قل له الحقيقة، قال ألفريد لنفسه. *حدّثه عن شعورك بالتوتر. عن عدم قدرتك على النوم. عن كونك غير محبوب. عن كونك دائماً تشعر بأنك غريب، بعيد عن بدلاً من أن تكون جزءاً من*. لكنه قال بدلاً من ذلك: «لا، كان شيئاً عظيماً أن أراك، لأتعلّم المزيد عن سبينوزا - فكم مرّة يعثر المرء على معلّم سبينوزا؟ الأهم من ذلك، فقد أصبحت لديّ مادة جيّدة لكتابة مقالة للصحيفة. إذا كان بإمكانك أن تزودني بقراءات طبية حول *صدمة القذائف*، لأنني سأكتب المقالة في أثناء رحلتي في القطار إلى ميونيخ وسأنشرها في عدد الأسبوع القادم. سأرسلها لك».

سار فريدريش إلى طاولة مكتبه وقلّب في عدة مجلات، ثم قال: «هذه مراجعة جيدة في *مجلّة الأمراض العصبيّة*. خذ المجلة معك، وأعدها بالبريد عندما تنتهي من قراءتها. وهذا هو عنوان يوجين أيضاً».

عندما بدأ ألفريد ينهض ببطء، بشيء من التردّد، قرّر فريدريش أن يحاول شيئاً أخيراً - أداة أخرى كان قد تعلّمها من محلّله الشخصي والتي يطبّقها كثيراً مع مرضاه. وقلما أخفقت.

«ابق لحظة يا ألفريد. عندي سؤال أخير لك. دعني أطلب منك أن تتخيّل شيئاً. أغمض عينيك وتخيّل أنك تغادر مكتبي الآن. تخيّل أنك تبتعد عن حديثنا، ثمّ تخيّل أنك جالس في رحلة القطار الطويلة إلى ميونيخ. أعلمني متى تصبح مخيلتك هناك».

أغمض ألفريد عينيه وبعد قليل أومأ بأنه جاهز.

«الآن، هذا ما أريد أن تفعله. عد بالتفكير إلى حديثنا هذه

الليلة، واسأل نفسك هذه الأسئلة: هل أنا نادم لأنني كلّمت فريدريش؟ هل كانت هناك مسائل هامة أخرى لم أثرها؟»

ظل ألفريد مغمضاً عينيه، وبعد فترة صمت طويلة، هزّ رأسه ببطء، وقال: «نعم، يوجد شيء واحد. . .»

الفصل الثالث والعشرون

أمستردام - ٢٧ تموز (يوليو) ١٦٥٦

كان بنتو يدفع عربته عندما سمع أحداً ينادي اسمه، ثم رأى فرانكو أشعث الشعر، رث الثياب، يبكي، وجثا على الفور على ركبتيه وأحنى رأسه حتى لامس جبينه الرصيف.

«فرانكو؟ ماذا تفعل هنا؟ وماذا تفعل على الأرض؟»

«يجب أن أراك، لأحذّرك، لأطلب منك المغفرة. أرجوك سامحني. أرجوك دعني أوضح لك».

«فرانكو، انهض. لست في مأمن أن يراك أحد وأنت تكلّمني. أنا ذاهب إلى بيتي. اتبعني من بعيد، ثمّ ادخل من دون أن تقرع الباب. لكن احرص أولاً على ألّا يراك أحد».

بعد بضع دقائق، في غرفة دراسة بنتو، تابع فرانكو كلامه بصوت مرتجف، «لقد أتيت للتو من الكنيس. لقد لعنك الحاخامات. أشرار - إنهم أشرار. لقد فهمت كلّ شيء لأنهم ترجموه إلى البرتغالية - لم أتخيّل قط أنهم أشرار هكذا. وأمروا الجميع بألّا يكلموك أو ينظروا إليك أو . . .»

«لذلك قلت لك إنك لن تكون في مأمن إذا رآك أحد معي».

«أكنت تعرف؟ كيف عرفت؟ لقد جئت للتو من الكنيس. ما إن انتهت الصلاة حتى رحت أجري إليك».

«كنت أعرف أن ذلك سيحدث. كان ذلك مقدّراً».

«لكنّك رجل طيب. عرضت أن تساعدني. وقد ساعدتني. وانظر ماذا فعلوا بك. كلّ ما حدث كان بسببي». وسقط فرانكو على ركبتيه مرة أخرى وأمسك بيد بنتو وضغطها على جبينه، وقال: «إنها صلب، وأنا يهوذا. لقد خنتك».

رفع بنتو يد فرانكو من على جبينه ووضعها على رأس فرانكو للحظة، وقال: «أرجوك انهض. أريد أن أقول لك بعض الأشياء. قبل كل شيء، يجب أن تعرف أن ما فعلته لم يكن ذنبك لأنهم كانوا يبحثون عن عذر».

«لا، هناك أشياء أنت لا تعرفها. لقد آن الأوان: يجب أن أعترف. لقد خدعناك، أنا وجاكوب. لقد ذهبنا إلى مجمّع الكنيس ونقل لهم جاكوب كلّ ما قلته لنا، وأنا لم أفعل شيئاً لأمنعه، بل وقفت هناك أهزّ رأسي وهو يتكلم. كانت كل هزة من رأسي بمثابة ضربة مسمار في صلبك. لكني كنت مجبراً. لم يكن لديّ خيار آخر... صدّقني، لم يكن أمامي خيار آخر».

«يوجد خيار دائماً يا فرانكو».

«يبدو ذلك كلاماً جيّداً، لكنّه ليس صحيحاً. الحياة الحقيقية معقدة أكثر من ذلك».

مذهولاً، ألقى بنتو نظرة طويلة على فرانكو. كان هذا فرانكو مختلفاً تماماً. «لماذا هذا ليس صحيحاً؟»

«ماذا لو أنه لم يكن لديك سوى خيارين اثنين فقط، وكلاهما قاتلان؟»

«قاتلان؟»

تجنّب فرانكو عيني بنتو، ثم قال: «هل يعني اسم دوارته رودريغيز لك شيئاً؟»

هزّ بنتو رأسه. «الرجل الذي حاول أن ينهب أسرتي. الرجل الذي لم يكن بحاجة إلى إعلان الحاخام لكي يكرهني».

«إنه عمّي».

«نعم، أعرف ذلك يا فرانكو. فقد أخبرني الحاخام مورتيرا بذلك البارحة».

«هل أخبرك أنّ عمّي عرض عليّ خيارين؟ فإذا وافقت على أن أشي بك، فإنه سينقذني من البرتغال، وبعد أن أنجز صفقتي، سيرسل سفينة إلى البرتغال فوراً لينقذ أمّي وأختي وابنة خالتي، أمّ جاكوب. فهم مختبئون ويتعرضون لخطر شديد من محاكم التفتيش، وإذا رفضت، فإنه سيتركهم يلقون مصيرهم في البرتغال».

«فهمت. لقد فعلت الخيار الصحيح. لقد أنقذت عائلتك».

«ومع ذلك، فإن هذا لا يمحو عاري. أفكّر في أن أعود إلى مجمّع الكنيس عندما تصبح أسرتي في مأمن وأعترف لهم بأننا نحن اللذين حرّضناك على أن تقول الأشياء التي قلتها».

«لا، لا تفعل ذلك يا فرانكو. إن أفضل شيء يمكنك أن تقدمه لي الآن هو الصمت».

«الصمت؟»

«إنه أفضل لي، لنا جميعاً».

«لماذا الأفضل؟ لقد خدعناك حتى تقول ما قلته».

«لكن هذا غير صحيح. فقد قلت ما قلته بإرادتي».

«لا، إنك رؤوف بي، تقول ذلك لتخفف من ألمي. لا يزال الذنب ذنبي. كان كلّ ذلك مدبراً، مخطّطاً له مسبقاً. لقد ارتكبت إثماً. لقد خدعتك. لقد سببت لك ضرراً شديداً».

«فرانكو، إنك لم تخدعني. كنت أعرف أنك ستشهد ضدّي. لقد تعمّدت أن أقول لكما ذلك بطيش. لقد أردتك أن تشهد. أنا المذنب بالخداع».

«أنت؟»

«نعم، لقد استغللتك. الأسوأ من كلّ ذلك، فقد فعلت ذلك مع أنني كنت أشعر بأننا، أنا وأنت، متشابهان بطريقة التفكير».

«فهمك هذا صحيح. لكن التشابه في طريقة تفكيرنا يزيد من شعوري بالذنب. فعندما وصف جاكوب آراءك لأعضاء مجمّع الكنيس، لذت بالصمت، في حين كان عليّ أن أصرخ بملء فمي وأقول 'إنني أتّفق مع ما يقوله باروخ سبينوزا، لأن آراءه هي آرائي أيضاً'».

«لو فعلت ذلك لأصابك أسوأ مكروه، لأن عمّك سينتقم منك، وستتعرّض أسرتك للخطر، وكانوا سينبذونني من الكنيس، وسينبذك المجمّع معي».

«باروخ سبينوزا...»

«أرجوك - أنا بنتو الآن. لم يعد لباروخ سبينوزا وجود».

«حسناً، يا بنتو. بنتو دي سبينوزا، أنت شخص غامض. يبدو أن ما حدث اليوم غير مفهوم. أجب عن سؤال بسيط واحد: إن كنت تريد أن تترك هذه الطائفة، فلماذا لم تتركها بمحض إرادتك؟ لماذا جلبت على نفسك هذا الخزي وهذه الكارثة؟ لماذا لم تنتقل بنفسك؟ لماذا لم تذهب إلى مكان آخر؟»

«إلى أين؟ هل أبدو هولندياً؟ لا يستطيع اليهودي أن يخبئ نفسه. وفكّر في أخي وفي أختي. فكّر في صعوبة تركهما ثمّ تظل تقرر مرة تلو المرة بأن تبتعد عنهما. هذه الطريقة أفضل، وأفضل كذلك

لأسرتي. فلم يعد عليهما الآن أن يختارا بألّا يكلّما شقيقهما. إن الحرم الذي أصدره الحاخام يقرّر عني وعنهما بشكل نهائي».

«إذاً فأنت تقول إن من الأفضل أن تضع مصيرك في أيدي أناس آخرين. من الأفضل ألّا تختار، بل أن تجبر الآخرين على أن يختاروا بالنيابة عنك؟ ألم تقل للتو إنه يوجد لدينا خيار دائماً؟»

مصدوماً، نظر بنتو مرة أخرى إلى فرانكو المختلف هذا، فرانكو الرصين، الصريح، واختفى أي أثر لفرانكو الخجول، المحرج كما كان في لقاءاتهما السابقة. «توجد حقيقة كبيرة في ما قلته. كيف أصبحت تفكّر بهذه الطريقة؟»

«كان أبي الذي أحرقته محاكم التفتيش رجلاً حكيماً، وقبل أن يرغموه على التحوّل إلى المسيحية، كان الحاخام الأكبر ومرشد طائفتنا. وحتى بعد أصبحنا مسيحيين، ظلّ القرويون يزورونه لمناقشة بعض مسائل الحياة الخطيرة. كنت أجلس بجانبه في أحيان كثيرة، وقد تعلّمت منه أشياء كثيرة عن الإثم والعار والاختيار والحزن».

«أنت، ابن حاخام حكيم؟ لذلك في لقائنا مع جاكوب، أخفيت معرفتك وأفكارك الحقيقية. عندما تحدّثت عن كلمات التوراة، تظاهرت بالجهل».

أطرق فرانكو برأسه وأومأ، «أعترف بأنّني قمت بدور مخادع، لكني في الواقع جاهل بأمور الديانة اليهودية. أبي، بحكمته وحبّه لي، لم يكن يريد أن أتعلّم تقاليدنا إذا كان علينا أن نبقى أحياء، بل كان يجب أن نكون مسيحيين، وتعمّد ألّا يعلّمني شيئاً عن اللغة أو عن العادات اليهودية لأن القائمين على محاكم التفتيش المخادعين يستطيعون العثور على كلّ أثر من الأفكار اليهودية».

«واندفاعك بالقول عن جنون الأديان؟ هل كان ذلك ادعاء أيضاً؟»

«لا أبداً! نعم، كانت خطّة جاكوب تتمثّل في أن أبدي شكوكاً دينية كبيرة لأشجّعك على حلّ عقدة لسانك. لكن ذلك الدور كان سهلاً - لم يمنح أي ممثل دوراً أسهل من هذا. في الواقع، يا بنتو، لقد أراحتني كثيراً تلك الكلمات. فقد اعتدت على إخفاء مشاعري. فكلما أُرغمت على تعلّم العقيدة المسيحية وقصص المعجزات أكثر، أدركت كيف أن الديانتين المسيحية واليهودية تقومان على أساس تهويمات وتخيّلات طفولية خارقة للطبيعة. لكنّي لم أستطع قط أن أبوح بذلك لأبي، لأنني لم أكن أريد أن أجرح مشاعره. ثمّ قُتل لأنه كان يخفي بضع صفحات من التوراة التي كان يعتقد بأنها تحتوي على كلمات الرب. ومرة أخرى لم أستطع أن أقول شيئاً. عندما سمعت آراءك تحررت كثيراً إلى درجة أن شعوري بالخداع قد خفّ كثيراً، مع أنّ كلامي الصادق معك كان بحد ذاته في خدمة الخداع. يا لها من مفارقة معقّدة».

«أفهم ما تقوله تماماً. ففي أثناء حديثنا، شعرت أنا أيضاً بالبهجة لأنني بدأت أخيراً أقول حقيقة ما كنت أراه وأعتقد به. ومع أنني كنت أعرف أن كلامي صادم، لم يردعني جاكوب أبداً، بل على العكس تماماً - أعترف بأنني كنت أستمتع بأنني أصدمه على الرغم من إدراكي أن ذلك سينطوي على عواقب مظلمة».

لاذا بالصمت. بدأ إحساس بنتو بالحزن من العزلة التامة بعد أن تحاشاه ماني، ابن الخباز، يتلاشى. فقد أثّر هذا اللقاء، لحظة الصدق تلك مع فرانكو، به كثيراً وجعل الدفء يسري في أوصاله. وكالعادة، لم تستمر المشاعر لفترة طويلة، لكنه انتقل إلى دور المراقب وراح يتفحّص عقله، ولاحظ الرقة التي تسري في جسده. حتى إدراكه الكامل لطبيعتها العابرة لم يردع عذوبتها. آه، الصداقة! إذاً هذا هو الشيء الذي يجمع الناس ويجعلهم يلتصقون بعضهم

ببعض - هذا الدفء، هذه الحالة العقلية التي تبدّد الوحدة. الشكّ، الخوف الشديد، البوح الشحيح - نادراً ما اختبر الصداقة في حياته.

نظر فرانكو إلى حقيبة بنتو المحشوة بالأغراض وكسر الصمت، «هل ستغادر اليوم؟»

هزّ بنتو رأسه.

«إلى أين ستذهب؟ ماذا ستفعل؟ كيف ستعيل نفسك؟»

«آمل أن أذهب إلى حياة مليئة بالتأمل خالية من الهموم. وفي السنة الماضية، تدرّبت على يد صانع عدسات محليّ لصناعة عدسات للنظارات، وهي ذات أهمية أكبر، صنع آلات بصرية، مناظير ومجاهر. إن الأشياء التي أحتاج إليها قليلة جداً، وسأكون قادراً على أن أعيل نفسي بسهولة».

«هل ستبقى هنا في أمستردام؟»

«سأمكث مؤقتاً في بيت فرانسيسكوس فان إندن، مدير الأكاديمية التعليمية بالقرب من قناة سينغل. ثم سأنتقل إلى بلدة أصغر، مكان أكثر هدوءاً لأتمكن من متابعة دراستي».

«ستعيش وحيداً؟ أظن أن وصمة *الحرم* ستجعل الآخرين يتحاشونك ولا يقتربون منك؟»

«بالعكس، فالعيش كيهودي منبوذ من الطائفة وسط غير اليهود سيكون أسهل عليّ بكثير. لاسيما كيهودي مطرود من الطائفة إلى الأبد، وليس يهودياً مرتداً يريد صحبة غير اليهود فقط».

«إذاً فهذا سبب آخر جعلك ترحّب *بالحرم*؟»

«نعم، أعترف بذلك وثمة شيء آخر: إني أزمع أن أكتب في النهاية، وقد تكون هناك فرصة أفضل لأن يقرأ العالم برمّته أعمال يهودي نبذته طائفته وليس يهودياً من الطائفة اليهودية».

«هل كنت متأكداً من أن ذلك سيحدث؟»

«مجرد تخمين، لكنّي أقمت علاقات مع عدد من الزملاء من ذوي الآراء والميول المتشابهة وهم يحثّونني على أن أكتب أفكاري».

«هل هم مسيحيون؟»

«نعم، لكنهم ضرب مختلف عن المسيحيين الكاثوليك الإيبيريين المتعصّبين الذين التقيت بهم. فهم لا يؤمنون بمعجزة يوم القيامة أو بشرب دم المسيح أثناء القداس أو بحرق الذين يؤمنون بعقيدة غير عقيدتهم وهم أحياء. إنهم مسيحيون لهم عقول متحررة يسمّون أنفسهم *المجمعيين* ولا يحتاجون إلى وعّاظ أو كنائس، بل يفكّرون بأنفسهم».

«إذاً تريد أن تعتنق معتقداتهم لتصبح واحداً منهم؟»

«لا، أبداً. إني أزمع أن أعيش حياة دينية من دون تدخّل أيّ دين. إني أؤمن بأنّ جميع الأديان - الكاثوليكية، والبروتستانتية، والإسلام، وكذلك اليهودية - تحجب رؤيتنا عن الحقائق الدينية الرئيسيّة. آمل أن يصبح العالم ذات يوم خالياً من الأديان، عالم له دين عالمي شامل يستخدم فيه جميع البشر عقولهم لمعرفة اللّه وتبجيله».

«هل هذا يعني أنك تتمنّى أن تنتهي اليهودية؟»

«أن تنتهي جميع التقاليد التي تتدخّل في حقّ المرء في التفكير من تلقاء نفسه».

صمت فرانكو بضع لحظات، ثم قال: «بنتو، إنك متطرّف جداً وهذا أمر مخيف. ما يذهلني هو أن أتخيّل أن تموت تقاليدنا بعد أن عاشت آلاف السنين».

«يجب أن نثمّن الأشياء لأنها حقيقية، لا لأنها قديمة. فالأديان القديمة تحصرنا في الفخّ بإصرارها على أننا إذا تخلّينا عن التقاليد، فإننا لا نحترم جميع المتعبّدين السابقين. وإذا استُشهد أحد أسلافنا،

فإننا نقع في فخّ أكبر لأننا نشعر بأنّ الشرف يحتّم علينا أن نجعل معتقدات هؤلاء الشهداء أبدية، مع أننا نعرف أنهم يطفحون بالأخطاء والخرافات. ألم تقل إنك شعرت بشيء من هذا القبيل بسبب استشهاد والدك؟»

«نعم - وأنّني سأجعل حياته عديمة الجدوى لو أنني أنكرت الشيء الذي مات من أجله».

«لكن ألن يكون من غير الجدوى أن تكرّس حياتك الواحدة والوحيدة لنظام زائف يؤمن بالخرافات - نظام يختار شعباً واحداً فقط ويستثني جميع الكائنات الأخرى؟»

«بنتو سبينوزا، إنك تمدّ عقلي إلى أبعد الحدود، وإذا مددته أكثر فإنه سيتمزق. لم أجرؤ في حياتي كلّها على التفكير في أمور كهذه. لا أستطيع أن أتصوّر أن أعيش من دون أن أنتمي إلى طائفتي، إلى عشيرتي. كيف يمكن أن يكون هذا الأمر سهلاً بالنسبة لك؟»

«سهلاً؟ لا إنه ليس أمراً سهلاً، لكن من الأسهل أن يكون الأشخاص الأعزاء عليك أمواتاً. إن نبذي الدائم من الطائفة يمنحني الآن مهمّة إعادة تجديد هويتي كلها وتعلّم أن أعيش دون أن أكون يهودياً أو مسيحياً، أو تابعاً لأيّ دين آخر. لعلّي سأكون أول رجل يعيش هكذا».

«كن حذراً! فقد لا يكون نبذك الدائم دائماً. ففي عيون الآخرين قد لا يكون لديك ترف أن تكون غير يهودي. باروخ، ألم تسمع بقانون *نقاء الدم*؟»

«قوانين الدم الإيبيرية؟ ليس كثيراً، سوى أن إسبانيا طبّقتها لمنع اليهود الذين تحوّلوا إلى المسيحية من تبوؤ مناصب كبيرة».

«قال لي أبي إنهم بدأوا بتوماس دي توركيمادا، أول محقّق في محاكم التفتيش الذي أقنع الملكة إيزابيلا قبل مئتي سنة بأن الوصمة

اليهودية تظل تسري في الدم حتى بعد اعتناق المسيحية. وبما أنه كان لدى توركيمادا نفسه أسلاف من اليهود منذ أربعة أجيال، فقد جعل قوانين الدم تسري إلى ثلاثة أجيال فقط، لذلك ظلّ الذين اعتنقوا المسيحية مؤخراً، أو حتى الذين ينتمون إلى جيلين أو ثلاثة أجيال، موضع شكّ كبير، ومُنعوا من مزاولة العديد من المهن - في الكنيسة، في الجيش، في الكثير من النقابات، وفي الخدمة المدنية».

«من الواضح أن معتقدات كاذبة مثل 'ثلاثة أجيال لا أربعة' اختُرعت لمصلحة مخترعها. مثل فقراء الأرض، اعتقادات كاذبة ستبقى معنا دائماً، واستمرارها خارج عن سيطرتي. أما الآن فإنني أسعى للاهتمام فقط بالأشياء التي يمكنني التحكم بها».

«مثل؟»

«أظن أن لديّ سيطرة حقيقية على شيء واحد فقط: وهو تقدّم قدرتي على الفهم».

«بنتو، تعتريني رغبة قوية لأن أقول لك شيئاً أعرف أنه مستحيل».

«لكن ليس من المستحيل قوله؟»

«أعرف أنّه مستحيل، لكنّي أريد أن آتي معك! إنك تفكّر في أفكار عظيمة، وأعرف أنّك ستفكّر في أفكار أعظم. أريد أن أتبعك، أن أكون تلميذك، خادمك، أشارك بما ستفعله، أن أكون ناسخاً لمخطوطاتك، أجعل حياتك أسهل».

صمت بنتو لوهلة. ابتسم، ثمّ هزّ رأسه.

«أجد أن ما تقوله مبهجاً، بل مغرياً. دعني أجيبك من الداخل ومن الخارج».

«أولاً من الداخل. فعلى الرغم من أنني أريد أن أعيش حياة منعزلة لكي أواصل تأملاتي فإنني أصرّ على هذه الحياة، وأشعر بأن

جزءاً آخر منّي يتوق إلى الألفة والرفقة. ويمكن أحياناً أن أنزلق بشكل لا يمكن تفسيره إلى حنين شديد، إلى المشاعر القديمة بأن تحملني أسرة محبّة وتضمني إليها، وأن هذا الجزء منّي - هذا الجزء المتعطّش - يرحّب بأمنيتك ويجعلني أريد أن أعانقك وأجيبك، 'نعم، نعم، نعم'. وفي الوقت نفسه، يصرخ جزء آخر فيّ، الجزء الأقوى والأعلى، ويطالبني بالحرّية. إني أتألم لأن الماضي ولّى ولن يعود أبداً. وأتألم عندما أتذكر أنّ جميع الذين ضموني إليهم ذات يوم قد فارقوا الحياة، كما أكره هذا الألم الذي يقيّدني ويكبح جماحي. لا أستطيع أن أؤثر في الأحداث التي حدثت في الماضي، لكنّي صمّمت على أن أتجنّب ملحقات المستقبل الشديدة. فلن أتدثر مرة أخرى برغبتي الطفولية في أن أُهدهد. هل تفهم ما أقصد؟»

«نعم، تماماً».

«هذا من الداخل. الآن دعني أجيبك من الخارج. أفترض أن كلمتك 'مستحيل' تشير إلى استحالة أن تهجر عائلتك. ولو كنت في مكانك، فإني سأجد أنا أيضاً أن ذلك أمراً مستحيلاً. فكم يشقّ عليّ أن أهجر أخي الأصغر. وبما أن أختي أصبح لديها أسرة الآن، أصبح قلقي عليها أقل. لكن، فرانكو، ليست عائلتك هي التي تمنعك من الانضمام إليّ فقط، وإنما توجد عقبات أخرى. فمنذ بضع دقائق فقط، قلت لي إنّك لا تستطيع أن تتصوّر أن أعيش حياة من دون الطائفة أو المجتمع. أما دربي فهو درب العزلة ولا أريد أن أعيش في أي مجتمع أو طائفة سوى الاستغراق التام في اللّه. ولن أتزوّج أبداً. وحتى لو أردت أن أتزوج فإن ذلك لن يكون ممكناً. وعلى الرغم من غرابة العزلة فإني أستطيع أن أعيش من دون ارتباط ديني، لكني أشكّ في أن تسمح، حتى هولندا أكثر البلاد تسامحاً في العالم، أن يعيش رجل وامرأة معاً بهذه الطريقة ويربّيا أطفالاً إذا لم

يكونا ينتميان إلى طائفة دينية. وتعني حياتي المنعزلة أنه لن تكون لديّ عمّات أو أعمام أو أبناء عم، ولا احتفالات عائلية في الأعياد، ولا وجبات طعام في عيد الفصح، ولا روش *هاشاناه*. الوحدة فقط».

«أفهم يا بنتو. أفهم أنني شخص اجتماعي أكثر وقد تكون لديّ متطلبات كثيرة. إني أُعجب بقدرتك الاستثنائية على الاكتفاء الذاتي، فأنت لا تريد أحداً ولا تحتاج إلى مساعدة أحد».

«لقد قيل لي ذلك عدة مرات إلى درجة أنّني بدأت أصدّق ذلك. ليس لأنّني لا أستمتع بصحبة الآخرين - ففي هذه اللحظة، يا فرانكو، أنا سعيد بحديثنا. لكنك محقّ، فالحياة الاجتماعية ليست جوهرية بالنسبة لي، أو على الأقل ليست أساسية كما تبدو للآخرين. أذكر كيف كانت أختي وأخي يغضبان عندما لا يُدعيان إلى مناسبة ما مع أصدقائهما. إن هذه الأشياء لا تؤثّر عليّ أبداً».

«نعم»، هز فرانكو رأسه، «هذا صحيح: فأنا لا أستطع أن أعيش كما تعيش أنت. إنها حياة غريبة عليّ فعلاً. لكن، بنتو، انظر في خياري الآخر. فأنا رجل أشاطرك الكثير من شكوكك ورغباتك في أن أعيش من دون المعتقدات الخرافية، وعلى الرغم من ذلك، فقد كُتب عليّ أن أجلس في الكنيس أصلّي إلى إله لا يسمعني، وأمارس طقوساً غبية، وأعيش كمنافق، أعتنق حياة لا معنى لها. هل هذا كلّ ما تبقى لي؟ هل هذه هي الحياة؟ ألن أُجبر على العيش حياة منعزلة حتى لو كنت في وسط حشد من الناس؟»

«لا يا فرانكو، إنها ليست كئيبة إلى هذه الدرجة. فأنا أراقب هذا المجتمع منذ زمن طويل، وستكون لديك طريقة لتعيشها هنا. فاليهود الذي تحوّلوا إلى المسيحية القادمين من البرتغال وإسبانيا يتدفقون إلى أمستردام كلّ يوم، وصحيح أن عدداً كبيراً منهم يتوق

للعودة إلى جذور سلالتهم اليهودية، وبما أن أحداً منهم لم يحصل على تعليم يهودي، فإن عليهم أن يبدأوا بتعلّم اللغة العبرية والشريعة اليهودية كما لو كانوا أطفالاً، ويعمل الحاخام مورتيرا ليل نهار على إعادتهم إلى اليهودية، وسيقلّده الكثيرون وسيصبحون أكثر تديّناً من الحاخام نفسه، لكن ثق بي، سيكون هناك آخرون مثلك، ممن تحرروا، نتيجة إرغامهم على التحوّل إلى المسيحية، من الدين برمّته وسينضمّون إلى الطائفة اليهودية من دون حماسة دينية. ستجدهم إذا بحثت يا فرانكو».

«لكن لا يزال هناك التظاهر، النفاق...»

«دعني أقول لك شيئاً عن أفكار أبيقور، وهو مفكّر وحكيم يوناني قديم، كان يعتقد، كما ينبغي لأيّ شخص عقلاني أن يعتقد، بأنّه لا يوجد عالم آخر وأنّنا ينبغي أن نمضي حياتنا الوحيدة بسلام وبهجة بقدر الإمكان. ما هو الهدف من الحياة؟ فكان جوابه أننا يجب أن نسعى لبلوغ *الأتاراكسيا*، التي يمكن ترجمتها إلى 'الطمأنينة' أو 'التحرر من الاضطراب العاطفي'. وقال إنّ احتياجات الإنسان الحكيم قليلة ويمكن إرضاؤها بسهولة، أما الأشخاص المتعطّشون بقوة إلى السلطة أو إلى الثروة، ربّما مثل عمّك، فإنهم لا ينعمون بهذه الطمأنينة أبداً لأن الاشتهاء لديهم يتوالد ويزداد باستمرار. فكلما أصبحت تمتلك أكثر، ازداد استحواذ ما تملكه عليك أكثر. وعندما تفكّر أنك تريد أن تعيش حياتك هنا، فكّر أن تبلغ *الأتاراكسيا*. اندمج في ذلك الجزء من المجتمع حتى لا يسبب لك ضغوطاً كثيرة. تزوّج امرأة لديها مشاعر وأفكار مقاربة لمشاعرك - ستجد الكثير من بين الذين أرغموا على اعتناق المسيحية والذين، مثلك، سيتمسكون باليهودية لشعورهم بالراحة لأنهم ينتمون إلى الطائفة. وإذا كان الآخرون من أبناء الطائفة، يصلّون بضع مرّات في

السنة، ويمارسون الطقوس والشعائر، فصلِّ معهم وأنت تعرف أنّك تفعل ذلك من أجل *الأتاراكسيا* فقط لكي تتفادى الشعور بالاضطراب والكرب لعدم مشاركتهم».

«هل تسخر مني يا بنتو؟ هل يتعين عليّ أن أقبل *الأتاراكسيا* بينما تريد أنت أن تبلغ شيئاً أسمى؟ أم أنك ستسعى إلى بلوغ *الأتاراكسيا* أيضاً؟»

«سؤال صعب. أظن. . .» دوّت أجراس الكنيسة فجأة. توقّف بنتو للحظة ليستمع وليلقي نظرة على حقيبته المحزومة ثمّ تابع، «للأسف، إن وقت التفكير قصير. يجب أن أغادر بعد قليل، قبل أن تزدحم الشوارع. لكن بسرعة - لم أختر *الأتاراكسيا بدقة* كهدف لي، وإنما سأوجّه نفسي نحو هدف يجعل عقلي كاملاً. ربّما كان هو الهدف نفسه، لكن الطريقة مختلفة. فالعقل يقودني إلى الاستنتاج الاستثنائي أن كلّ شيء في العالم هو جوهر واحد، الذي هو الطبيعة، أو إذا شئت، اللّه، وأنه يمكن فهم كلّ شيء، بلا استثناء، من خلال توضيح القانون الطبيعي. وكلما اكتسبت مزيداً من الوضوح حول طبيعة الواقع، فأنا، في بعض الأحيان، عارفاً بأنني لست سوى مويجة فوق سطح الرب، أعيش حالة من البهجة والنعيم. لعل هذه هي *الأتاراكسيا* البديلة لي. وربّما كان أبيقور محقّاً في نصيحته لنا بأن يكون هدفنا الطمأنينة والهدوء. لكن على كلّ شخص، بحسب ظروفه الخارجية ونزعة عقله الطبيعية والخصائص العقلية الداخلية، أن يسعى إليها بطريقته الخاصة به».

دوّت الأجراس ثانية.

«قبل أن نفترق يا فرانكو، لديّ طلب أخير منك».

«قل لي. فأنا مدين لك بالكثير».

«طلبي ببساطة هو الصمت. لقد قلت لك أشياء اليوم لكنها

ليست سوى أفكار غير مكتملة. لا يزال أمامي طريق طويل للتفكير. عدني بأنّ كلّ ما قلناه اليوم يبقى سرّاً بيننا. سرّاً تخفيه عن أعضاء المجمّع اليهودي، وعن جاكوب، وعن أي شخص، إلى الأبد».

«أعدك بأن أحمل أسرارك إلى القبر. فقد علّمني أبي، بارك اللّه به، الكثير عن قداسة الصمت».

«الآن يجب أن يودّع أحدنا الآخر، يا فرانكو».

«انتظر لحظة أخرى يا بنتو سبينوزا، لديّ طلب أخير منك. لقد قلت الآن إنه ربّما كانت لدينا أهداف متشابهة في الحياة وشكوك متماثلة لكن على كلّ واحد منّا أن يسير في درب مختلف. لذلك، بشكل ما، فإننا سنتناوب حيوات تتجّه إلى الهدف نفسه. ربّما، لو أن القدر والزمن قد دارا قليلاً وغيّرا ظروفنا الخارجية ومزاجينا، لكان من الممكن أن تعيش أنت حياتي، وأن أعيش أنا حياتك. هذا هو طلبي منك: أريد أن أعرف عن حياتك بين الحين والآخر، حتى لو كان ذلك كلّ سنة أو كلّ سنتين أو ثلاث سنوات. وأريدك أن تعرف عن حياتي كما تتجلّى. لذلك يمكن لكلّ واحد منّا أن يرى *ماذا يمكن أن تكون* -الحياة الأخرى التي كان من الممكن أن نعيشها. هل تعدني بأن تظل على تواصل معي؟ لا أعرف كيف يمكننا عمل ذلك. لكن هل ستخبرني بما يجري في حياتك؟»

«أريد ذلك بقدر ما تريد أنت يا فرانكو. عقلي يقول لي بأنني يجب أن أغادر بيتي، لكن قلبي يتردّد أكثر مما كنت أتوقّع، وأنا أرحّب بعرضك المثير لرؤية حياتي البديلة. أعرف شخصين سيكونان على اطلاع بالمكان الذي سأعيش فيه، فرانسيسكوس فان دن إندن وصديق اسمه سيمون دي فريس يعيش في سينغل. سأجد طريقة للتواصل بواسطتهما بالرسائل أو بلقاءات شخصية. الآن يجب أن تذهب. كن حريصاً بأن لا يراك أحد».

فتح فرانكو الباب، تطلّع حواليه، ثم مضى. ألقى بنتو نظرة أخيرة حول بيته، ونقل الرسالة التي كتبها إلى غابرييل إلى كرسي قريب من المدخل ليراها بسهولة، وحقيبته في يده، فتح الباب وخرج إلى حياة جديدة.

الفصل الرابع والعشرون

برلين - ١٩٢٢

«حسناً. . .» تردّد ألفريد، «هناك شيء واحد سأندم عليه إذا لم أناقشه معك، لكن. . . . هههههممم. . . أشعر بالحرج لإثارته. لم أتمكن من الحديث عنه طوال هذا المساء».

انتظر فريدريش بنفاد صبر. فقد ومضت في رأسه الكلمات التي كان المشرف كارل أبراهام قد قالها له: «أنا في مأزق، انس المضمون وركّز على المقاومة. وستجد أنّك ستعرف أكثر بكثير عن مريضك». متذكّراً ذلك، قال فريدريش: «أظن أنّني أستطيع أن أساعدك يا ألفريد. هذا هو اقتراحي. لفترة قصيرة، انس ما كنت ستقوله لي، وبدلاً من ذلك، دعنا نستكشف كلّ العقبات التي حالت دون أن تقولها».

«عقبات؟»

«أيّ شيء يعترض كلامك معي. مثل ما هي التداعيات التي ستنشأ لو قلت لي ما كنت تريد أن تقوله؟»

«تداعيات؟ لست متأكداً ماذا تقصد».

كان فريدريش صبوراً. كان يعرف أنه يجب أن يقارب «المقاومة» بمهارة ومن جميع الجوانب. «دعني أصوغها بهذا

الشكل. لديك شيء تريد أن تقوله لكنك لا تستطيع. ما هي الأشياء السلبية التي قد تحدث لو أنك قلتها؟ تذكّر دائماً أنّني جزء مركزي في كلّ هذا. إنك لا تحاول أن تقول شيئاً في غرفة فارغة - بل تحاول أن تقوله لي، صحيح؟»

هز ألفريد رأسه متردداً قليلاً. تابع فريدريش، «إذاً حاول أن تتخيّل الآن أنّك قلت لي كلّ ما يجول في خاطرك. كيف تتخيل ستكون نظرتي تجاهك؟»

«لا أعرف كيف ستكون ردّة فعلك. أظن أنني سأكون محرجاً».

«لكن الشعور بالحرج يتطلّب دائماً وجود شخص آخر، وهذا الشخص اليوم هو أنا، الشخص الذي يعرفك منذ طفولتك. كان فريدريش فخوراً بصوته اللطيف. فقد كان لتحذيرات الدكتور أبراهام في التوقف إذا لقي مقاومة مثل ثور هائج تأثيرها».

«حسناً» - أخذ ألفريد نَفَساً، ثم قال فجأة - «لوهلة قد تشعر بأنني أستغلّك حتى تساعدني، وأنا محرج لأن أحصل على خدماتك المهنية من دون مقابل، مما يجعلني أشعر أيضاً بأنني الشخص الضعيف وأنت القوي».

«يا لها من بداية عظيمة يا ألفريد. تماماً كما كنت أنوي. والآن أستطيع أن أرى ورطتك. لا بد أن هذا الأمر يبدو صعباً بالنسبة لك. فأنا كذلك لا أريد أن أكون مديناً لأحد آخر. لكنك رددت لي الجميل بموافقتك على أن تنشر لي مقالة في الصحيفة التي تعمل فيها».

«إنه ليس الشيء نفسه، لأنك لم تحصل على شيء شخصياً».

«أفهم ذلك. لكن قل لي، هل تظن أنّني أكره أن أقدّم لك شيئاً؟»

«لا أعرف - قد يكون الأمر كذلك. في جميع الأحوال فإن وقتك ثمين، فأنت تعمل ذلك طوال اليوم لقاء أجر».

«وجوابي بأنني أعتبرك مثل أحد أفراد أسرتي ألا يعني لك شيئاً أيضاً؟»

«صحيح. أسمع ذلك بمثابة استرضاء».

«قل لي، كيف يبدو الأمر عندما نتحدّث عن سبينوزا، عن الفلسفة؟ يساورني شعور بأنك تصبح مرتاحاً أكثر».

«نعم، هذا أمر مختلف. عندما تعلّمني، يتشكّل لديّ انطباع بأنك تستمع عندما تتحدّث عن الفلسفة».

«نعم، أنت محقّ في ذلك. لكن ألا تظن أن الاستماع إليك وأنت تتحدث عن نفسك يمتعني؟»

«لا أتخيّل أن الأمر هكذا».

«عندي فكرة - إنها مجرد تخمين. ربما توجد لديك مشاعر سلبية حول نفسك وتظن أنك إذا ما أفضيت بها إليّ، فإني سأنظر إليك نظرة سلبية أيضاً؟»

بدا الارتباك على وجه ألفريد، وقال: «هذا ممكن كما أظن، لكن إذا كان الأمر كذلك، فهو ليس العامل الرئيسي. فلا يمكنني أن أتخيّل نفسي أنني أحصل على هذا النوع من الاهتمام من أي شخص آخر».

«يبدو ذلك مهمّاً، وأتخيّل أنّ قولك لي هذا مجازفة. قل لي يا ألفريد: هل هذا قريب جداً من الشيء الذي سيجعلك تندم لأنك لن تثيره اليوم؟»

ابتسم ألفريد ابتسامة عريضة وقال: «يا إلهي! إنك بارع حقاً في هذا يا فريدريش! نعم، أكثر من قريب. هذا هو الأمر بالتحديد».

«أسهب في كلامك»، استرخى فريدريش. بدأ يقترب من مياه مألوفة الآن.

«حسناً، قبل أن أغادر، دعاني رئيسي، ديتريش إكارت، إلى مكتبه. أراد ببساطة أن يحدّثني عن رحلتي إلى باريس، لكني لم أعرف ذلك، وكان أول شيء فعله عندما دخلت إلى مكتبه هو أنه وبّخني لأنني أبدو قلقاً ومتوتراً على الدوام. وبعد أن طمأنني بأنني أقوم بعمل جيّد، قال إنه سيكون من الأفضل لي بكثير إذا عملت أقل ونصحني بأن أخرج أكثر وأشرب وأخالط الآخرين».

«وهل أثّرت فيك هذه النصيحة».

«نعم، لأنها حقيقية - فقد قيل لي ذلك بطريقة أو بأخرى في مناسبات عديدة. وطالما قلت ذلك لنفسي، لكنني لا أستطيع أن أجلس مع أشخاص فارغي العقول يتحدّثون عن أمور تافهة».

تذكّر فريدريش مشهداً: الزمن، منذ خمس وعشرين سنة، عندما حاول أن يحمل ألفريد على ظهره لكن ألفريد رفض ذلك. وفي لقائهما الأخير وصف ذلك لألفريد وأضاف، «لم تكن تحبّ أن تلعب». إن استمرار هذه الصفات مدى الحياة فتن فريدريش. يا لها من فرصة نادرة أن تتمكن من دراسة أصل تشكيل الشخصية! قد يكون ذلك اختراقاً مهنياً عظيماً. هل يوجد محلّل نفسي آخر أتيحت له فرصة تحليل شخص يعرفه منذ أن كان طفلاً؟ والأهم من ذلك، فقد كان يعرف شخصياً كذلك الأشخاص الأكبر سناً الهامّين بالنسبة للمريض: والد ألفريد وشقيقه وزوجة أبيه، وعمّته كاجيلي، وحتى طبيب ألفريد. ويعرف كذلك البيئة المحيطة به - بيت ألفريد، الملعب - وكانا قد درسا في المدرسة نفسها، ودرّسهما نفس المعلمين. من سوء الحظ أن ألفريد لا يعيش في برلين لكي يتمكن من إجراء تحليل نفسي كامل له.

واصل ألفريد كلامه، «وكان ذلك صحيحاً آنذاك، مباشرة بعد تعليق ديتريش إكارت، قرّرت أن أراك. كنت أعرف أنه محقّ. ومنذ بضعة أيام سمعت حديثاً عنّي بين مستخدمين اثنين، قالا إنني أبو الهول».

«وكيف كان شعورك؟»

«شعور مختلط. لم يكونا شخصين مهمّين، عامل تنظيف وعامل توزيع الرسائل، وأنا لا أعير عادة أي اهتمام إلى أيّ آراء تصدر من هذا النوع من الناس. لكن ذلك جلب انتباهي لأنهما كانا محقّين تماماً في ما قالاه. فأنا شخص مغلق ومتوتّر، وأعرف أنه يجب أن أغيّر هذه الصفة من نفسي لو أردت أن أحقق نجاحاً في الحزب القومي الاشتراكي».

«قلت 'مشاعر مختلطة' ما الشيء الإيجابي في أن تكون *أبو الهول*؟»

«هممم، لست متأكداً، ربما...»

«انتظر، لنتوقّف دقيقة يا ألفريد. لقد تعجّلت في قولي. هذا ليس منصفاً لك. فأنا أمطرك بالأسئلة الشخصية قبل أن نتّفق على ماذا نفعله هنا، أو بلغتي المهنية، لم نعرّف إطار علاقتنا، أليس كذلك؟»

بدا ألفريد مشوّشاً. «إطار؟»

«لنرجع إلى الوراء قليلاً ونبرم اتفاقاً حول ما نحن بصدده. إني أفترض أنك تريد أن تجري تغييرات على نفسك من خلال العمل في العلاج. صحيح؟»

«لست متأكداً ماذا يعني العمل في العلاج».

«إن الشيء الجيد الذي فعلته خلال الدقائق العشر الأخيرة هو أنك كنت تتكلّم بكلّ صدق وبانفتاح عن هواجسك».

«من المؤكد أنني أريد أن أجري تغييرات في نفسي. إذاً، نعم، أريد علاجاً. وأريد أيضاً أن أعمل معك».

«لكن، ألفريد، إن التغيير يتطلّب أشياء كثيرة، جلسات عديدة. ونحن الآن نجري دردشة تمهيدية، وأنا سأغادر غداً لحضور مؤتمر عن التحليل النفسي لثلاثة أيام. إني أفكّر في المستقبل. برلين بعيدة كثيراً عن ميونيخ. أليس من الأفضل أن ترى محلّلاً نفسانياً في ميونيخ تستطيع أن تراه أكثر؟ يمكنني أن أحيلك إلى محلل نفساني جيّد...»

هزّ ألفريد رأسه بقوة، وقال: «لا، لا أحد غيرك. قد لا أتمكن من أن أثق بأي شخص آخر، وبالتأكيد لا يوجد أحد أثق به في ميونيخ. يتملكني اعتقاد، اعتقاد راسخ، بأني سأتبوأ منصباً قوياً ذات يوم في هذا البلد. وسيكون لديّ أعداء، لذلك فقد أُدمّر على يد أحد يعرف أسراري. أعرف أنني أشعر بالأمان معك».

«نعم، أنت في مأمن معي. حسناً، لنفكّر في البرنامج الذي سنضعه - متى يمكن أن تزور برلين في المرة القادمة؟»

«لست متأكداً، لكنّي أعرف أن صحيفة *Völkischer Beobachter* ستصبح صحيفة يومية بعد فترة قصيرة، وسنغطّي مزيداً من الأخبار الوطنية والدولية. قد أقوم بزيارة برلين غالباً في المستقبل، وآمل أن أتمكن من رؤيتك لنجري جلسة أو جلستين عندما آتي».

«سأحاول أن أخصص لك وقتاً إذا أخبرتني قبل مجيئك. وأريد أن تعرف أنني سأحتفظ بكلّ ما تقوله في سرية تامة ومطلقة».

«أنا متأكد من ذلك. لهذا الأمر أهمية قصوى بالنسبة لي، وقد شعرت باطمئنان شديد عندما رفضت أن تخبرني أيّ شيء شخصي عن مريضك، ابن الطاهي».

«وكن متيقناً بأنني لن أفضي بأسرارك، ولا حتى بأنني أعالجك،

لأي شخص في العالم، ولا حتى لشقيقك. فالسريّة شيء جوهري في مجال عملي، وأقسم لك بذلك».

ربّت ألفريد فوق قلبه وقال: «شكراً. شكراً جزيلاً».

فقال فريدريش: «أتعرف، قد تكون محقّاً. أظن أن ترتيبنا سيكون أفضل لو كان منتظماً. أظن أنني ينبغي، اعتباراً من المرة القادمة، أن أطلب منك الأجر المتعارف عليه لقاء جلسات التحليل. وسأحرص على أن يكون بإمكانك تسديده، ما رأيك؟»

«تمام».

«إذاً، الآن، لنعد إلى عملنا. لنواصل ما بدأنا به. قبل دقائق قليلة عندما كنّا نتحدّث عن أنك سمعتهم يدعونك «*أبو الهول*»، وقلت إن مشاعر 'مختلطة' تنتابك. الآن، أريدك أن تطلق نفسك في تداع حر 'لأبي الهول'. وأقصد بذلك أن تحاول أن تدع أفكارك عن 'أبي الهول' تدخل إلى عقلك بحرية وفكّر بصوت مسموع، وليس من الضرورة أن يكون ذلك منطقياً».

«الآن؟»

«نعم، لدقيقتين فقط».

«أبو الهول... الصحراء، ضخم، قويّ، غامض، مبهم، يحتفظ بأسراره... خطير - لقد خنق أبو الهول أولئك الذين لم يستطيعوا الإجابة على لغزه». ثم صمت ألفريد.

«تابع».

«هل تعلم بأنّ الجذر اليوناني يعني 'الخانق' أو الشخص الذي يخنق أو يعصر؟ *'Sphincter'* (العاصرة) ترتبط بعبارة «أبو الهول» - جميع العضلات العاصرة في الجسم تعصر... صارم... متكتم».

«إذاً»، سأل فريدريش، «أنت تقصد بكلمة 'مختلطة' أنك لا تحب أن ينظر الناس إليك على أنك رجل صامت ومتعال ومتكتم بل

تحبّ أن ينظروا إليك باعتبارك شخصاً غامضاً، مبهماً، قوياً، مخيفاً؟»

«نعم، هذا صحيح. صحيح تماماً».

«إذاً، ربّما كانت الجوانب الإيجابية - تباهيك بأنك شخص قوي وغامض، بل وحتى خطير - تقف في طريقة حديثك وفي أن تكون صريحاً. هذا يعني أن لديك خياراً - أن تتكلم بصراحة وأن تكون مطلعاً وعالماً ببواطن الأمور، أو تظل غامضاً، وخطيراً، ومنكفئاً عن الآخرين».

«أرى النقطة التي تقصدها. إنها معقّدة».

«ألفريد، ألم تكن كما أذكر منكفئاً أيضاً عندما كنت شاباً؟»

«كنت منعزلاً دائماً. لا أنتمي إلى أيّ مجموعة».

«لكنّك ذكرت أيضاً أنّك مقرب جداً من زعيم الحزب، هير هتلر، ولا بد أن ذلك يجعلك تشعر بالارتياح. حدّثني عن هذه الصداقة».

«إنني أمضي وقتاً طويلاً معه. نحتسي قهوة، ونتحدّث في السياسة والأدب والفلسفة. نزور معارض، وفي أحد الأيام في الخريف الماضي ذهبنا إلى مارينبلاتز - أتعرفها؟»

«نعم، ساحة ميونيخ الرئيسيّة».

«صحيح. يوجد فيها ضوء مدهش. نصبنا لوحات الرسم وبدأنا نرسم معاً لساعات. أعتبر ذلك اليوم أحد أجمل أيامي. كانت اللوحات التي رسمناها جميلة، امتدح أحدنا الآخر، واكتشفنا أوجه التشابه في عملنا. فكلانا قوي في التفاصيل المعمارية وضعيف في رسم الهيئات البشريّة. كنت دائماً أتساءل إن كانت عدم قدرتي على رسم الهيئات البشرية شيئاً رمزياً لكن شعوراً بالارتياح انتابني عندما اكتشفت أن لديه نفس المشكلة. من المؤكد أن هذا ليس شيئاً رمزياً

بالنسبة لهتلر - لا يوجد لدى أحد مهارات أفضل في إقامة علاقات مع الآخرين».

«يبدو أن الأمر ممتع. هل رسمت معه مرة أخرى؟»

«لم يقترح عليّ بعد ذلك قط».

«حدّثني عن أوقات جيدة أخرى أمضيتها معه».

«كان أفضل يوم في حياتي منذ حوالي ثلاثة أسابيع. فقد اصطحبني هتلر لشراء طاولة لمكتبي الجديد. كان يحمل محفظة محشوة بالفرنكات السويسرية - لا أعرف كيف حصل عليها، ولم أسأله قط. أفضّل أن أتركه يحدّثني عن التفاصيل من تلقاء نفسه. وفي صباح أحد الأيام جاء إلى مكتب الصحيفة وقال، 'سنذهب لنتسوّق. بإمكانك أن تشتري أيّ طاولة مكتب تريدها - واشتري جميع كلّ ما تريد أن تضعه على الطاولة'. وفي الساعتين التاليتين انطلقنا في سباق محموم في أغلى محلات بيع الأثاث في ميونيخ».

«أفضل يوم في حياتك - هذا يدل على أشياء كثيرة. حدّثني أكثر».

«جزء من ذلك كان ببساطة سحر الهدية. تخيّل أن أحداً يصطحبك ويقول لك 'اشترِ أيّ طاولة مكتب تريدها، مهما بلغ ثمنها'. أن يمنحني هتلر كلّ هذا الوقت والانتباه كان حقاً سعادة كبيرة بالنسبة لي».

«لماذا تراه شخصاً مهمّاً إلى هذه الدرجة؟»

«من الناحية العملية، فهو رئيس الحزب الآن، والصحيفة التي أعمل فيها هي صحيفة الحزب. لذلك، فهو رئيسي الفعلي. لكني لا أظن أنك كنت تقصد ذلك».

«لا، قصدت 'مهمّاً' بمعنى شخصي أعمق».

«يصعب عليّ أن أضع ذلك في كلمات. ليس لدى هتلر ذلك التأثير عليك فقط، وإنما على كلّ شخص».

«يذهب معك للتسوّق. يبدو من كلامك أنك كنت تريد أن يفعل والدك ذلك من أجلك».

«كنت تعرف أبي! هل تستطيع أن تتصوّر أنه يصطحبني ويشتري لي أيّ شيء، حتى قطعة حلوى؟ نعم، لقد فقد زوجته، وكانت صحته في حالة فظيعة، وكان يعاني من مشاكل مالية كبيرة، لكني مع ذلك لم أحصل على شيء، لم أحصل منه على شيء على الإطلاق».

«توجد مشاعر قوية في هذه الكلمات».

«عمر كامل من المشاعر».

«كنت أعرفه. وأعرف أنّك لم تنل منه الكثير من العطف الأبوي - وبالطبع حتى أنك لم تعرف أمّك».

«بذلت العمّة كاسيلي كلّ ما بوسعها. لم أُلُمْها قط - فقد كان لديها أطفالها. كانت توجد أكتاف كثيرة لمعانقتها».

«لذلك، لعل قدراً كبيراً من بهجتك بهتلر سببه هو أنك حصلت أخيراً على أبوة حقيقية. كم عمره؟»

«يكبرني ببضع سنوات. لم ألتق بأحد مثله. جاء من لا مكان، مثلي، من أسرة مغمورة، غير مثقفة. لم يكن سوى جندي برتبة عريف في الحرب، ومع ذلك فقد نال أوسمة عديدة. لا توجد لديه موارد مالية، وليس مثقفاً، ولم يحصل على تعليم جامعي. وعلى الرغم من ذلك، فهو يجذب الجميع إليه، لا أنا فقط. بل يتحلّق حوله الناس. الجميع يتوددون إليه ويلتمسون صحبته واستشارته. الكلّ يرى أنّه الرجل الذي بعثه القدر، النجم القطبي لمستقبل ألمانيا».

«إذاً فأنت ترى أنك محظوظ لكونك معه. هل علاقتك معه تتقدّم لتصبح صداقة وثيقة؟»

«هنا تكمن المشكلة - إنها لا تتقدّم. فما عدا 'يوم شراء طاولة المكتب' لم يعد هتلر يطلب مني أن أخرج معه. أظن أنّني أعجبه، لكنّه لا يحبّني. إنه لا يطلب مني أن نتناول الطعام معاً. إنه مقرّب إلى الآخرين أكثر مني بكثير. رأيته الأسبوع الماضي يتبادل حديثاً ودياً مع هيرمان غورينغ. كان رأس كلّ منهما قريب جداً من رأس الآخر حتى كادا يتلامسان. كانا قد التقيا للتو، ومع ذلك كانا يضحكان ويتبادلان النكات ويمشيان يداً بيد، وكان أحدهما يلكز الآخر في بطنه كما لو كان أحدهما يعرف الآخر طوال حياتهما. لماذا لا يحدث لي شيء كهذا؟»

«عبارتك 'إنه لا يحبّني' - فكّر في ذلك. دع عقلك يطوف حولها. فكّر بصوت مسموع».

أغمض ألفريد عينيه.

«لا أسمعك جيداً»، قال فريدريش.

ابتسم ألفريد، وقال: «الحبّ. أحدهم يقول، 'أحبّك' لقد سمعت هذه الكلمات مرة واحدة فقط، من هيلدا في باريس قبل أن نتزوّج».

«أنت متزوّج! نعم، كدت أنسى. نادراً ما تذكر زوجتك».

«ينبغي أن أقول كنت متزوّجاً. وأظن أنني لا أزال متزوجاً رسمياً. دام الزواج فترة قصيرة جداً في سنة ١٩١٥. هيلدا ليسمان. عشنا معاً لمدة أسبوعين في باريس حيث كانت تدرس رقص الباليه، وعلى الأغلب لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر في روسيا. ثمّ أصيبت بمرض سلّ حاد».

«يا له من شيء فظيع. مثل شقيقك وأمّك وأبيك. وماذا حدث بعد ذلك؟»

«لم نكن على تواصل لفترة طويلة. وآخر شيء سمعته عنها هو أن أسرتها وضعتها في مصحّة في «الغابة السوداء». لستُ متأكّداً إن كانت لا تزال على قيد الحياة. عندما قلت، 'يا له من شيء فظيع' لم أتأثر في داخلي لأنه لا توجد لديّ مشاعر قوية إزاء ذلك. لم أفكّر فيها قط. وأشكّ إن كانت هي تفكّر فيَّ. لقد أصبحنا غريبَين. أذكر أحد الأشياء الأخيرة التي قالتها لي هي أنني لم أسألها قط ماذا تفعل في حياتها، ولم أكن أسألها كيف تمضي يومها».

«إذاً»، قال فريدريش، وهو ينظر إلى ساعته، «لنعد دورة كاملة إلى السبب الذي جعلك تتّصل بي. بدأنا بأنك لا تتبادل مع الآخرين أحاديث ودية، أو أنك لا تبدي اهتماماً بالآخرين. ثم نظرنا في الجزء الذي ترغب فيه في أن تكون مثل أبي الهول. ثمّ عدنا إلى رغبتك في أن تنال حبّ هتلر واهتمامه وكم كان مؤلماً أن تراه يفضّل الآخرين عليك وينأى بنفسه عنك وأنت تراقب. ثمّ تكلّمنا عن بُعدك عن زوجتك. لنأخذ لحظة وننظر في القرب والبعد معي هنا. قلت إنك تشعر بالأمان هنا؟»

هزّ ألفريد رأسه.

«وماذا عن مشاعرك تجاهي؟»

«آمنة جداً. ومفهوم جداً».

«وتجد نفسك أنك تشعر بالقرب؟ هل تحبّني؟»

«نعم، كلاهما».

«ها هنا يكمن اكتشافنا العظيم اليوم. أظن أنك تحبني حقاً، والسبب الرئيسي في ذلك هو لأنني أبدي اهتماماً بك. إني أستعيد تعليقك السابق بأنّك لا تظن أنك تبدي اهتماماً بالآخرين. مع أن

الناس يحبون الناس الذين يهتمّون بهم. هذه هي أهم رسالة أعطيك إياها اليوم. سأقولها مرة أخرى:

الناس يحبون الناس الذين يهتمّون بهم».

ثم أضاف، «لقد أنجزنا عملاً جيداً. كان عملاً شاقاً اليوم. إنها أول جلسة لنا، وكانت استجابتك جيدة. إني آسف لأنها يجب أن تنتهي، لكنّه كان يوماً طويلاً، وبدأت طاقتي تنحسر. آمل أن تأتي لتراني مرات أخرى. أشعر بأنني أستطيع أن أساعدك».

الفصل الخامس والعشرون

أمستردام - ١٦٥٨

في السنة التالية، واصل سبينوزا - لم يعد يُعرف باسم باروخ بل سيُعرف من الآن وحتى آخر حياته باسم بنتو (وفي أعماله المكتوبة باسم بنيديكتوس) - علاقة ليلية غريبة مع فرانكو. ففي كلّ ليلة تقريباً، عندما يكون بنتو مستلقياً في سريره ذي الأعمدة الأربعة في الحجرة العليا في بيت فان دن إندن، ينتظر أن يأتيه النوم بلهفة، تتسلل صورة فرانكو إلى رأسه. كان دخوله إلى مخيلته سلساً وخفياً إلى حد كبير، ولم يحاول بنتو أن يفهم ما الذي يجعل فرانكو يتسلل كثيراً إلى أفكاره.

لكن فرانكو لم يكن يخطر على بال بنتو في الأوقات الأخرى، لأن ساعات استيقاظه تمتلئ بمحاولات فكرية تقدّم له المتعة أكثر من أيّ شيء آخر خبره في الماضي. وكلما تخيّل نفسه رجلاً عجوزاً هرماً يمعن التفكير في حياته، كان يعرف أنّه سيختار هذه الأيام بالذات بأنها أفضل الأيام في حياته، تلك الأيام التي رافق فيها فان دن إندن والطلاب الآخرين، بعد أن أصبح يتقن اللغتين اللاتينية واليونانية ويتذوق طعم المواضيع العظيمة في العالم الكلاسيكي - الكون الذري لديموقريطس، وعالم المثل لأفلاطون، والعلة الأولى

لأرسطو، والتحرر من العواطف والانفعالات للرواقيين.

كانت حياته جميلة في بساطتها. فقد كان بنتو يتفق اتفاقاً تاماً مع إصرار أبيقور على أنّ احتياجات الإنسان قليلة ويمكن إرضاؤها بسهولة. فهو يحتاج إلى غرفة وطعام وبضعة كتب وورق وحبر، ويستطيع أن يكسب الغلدرات التي يحتاج إليها بالعمل من صقل العدسات للنظارات والمناظير يومين في الأسبوع ومن تعليم اللغة العبرية إلى المجمعيين الذين كانوا يرغبون في قراءة الكتب المقدّسة بلغتها الأصلية.

لم توفّر له الأكاديمية عملاً ومسكناً فقط، وإنما أتاحت له حياة اجتماعية - في بعض الأحيان، أكثر مما كان بنتو يرغب. وكان من المفروض أن يتناول وجبة العشاء مع أسرة فان دن إندن والطلاب الذين يقيمون في الأكاديمية، لكنه كان يفضّل في أحيان كثيرة أن يأخذ طبقاً من الخبز والجبن الهولندي غير الطري وشمعة إلى غرفته ليقرأ. وقد أثار غيابه على العشاء استياء السيدة فان دن إندن التي كانت تجد فيه متحدّثاً مفعماً بالحيوية، وحاولت عبثاً أن تشجعه على زيادة جلساته الاجتماعية، حتى أنها كانت تعرض عليه أن تطهو له أطباق الكوشر التي يحبّها، لكن بنتو كان يؤكد لها أنه ليس ملتزماً بطريقة الطعام اليهودي، لكنه لا يهمه الطعام ويقنع بأبسط أنواع الطعام: الخبز، والجبن، وكأس الجعة اليومي يتبعها التدخين بغليونه الطويل المصنوع من الصلصال.

وكان بنتو يتجنّب الاختلاط بزملائه الطلاب خارج الصفّ، ما عدا ديرك الذي التحق لاحقاً بكليّة الطب، وبطبيعة الحال، كلارا ماريا المحبوبة التي نضجت قبل أوانها. لكنه بدأ يبتعد عنهما أيضاً، مفضّلاً صحبة المئتي مجلد الثقيلة المهترئة الموجودة في مكتبة فان دن إندن.

وبالإضافة إلى اهتمامه باللوحات المعروضة في محلات تجّار اللوحات الفنية في الشوارع الصغيرة المتفرعة عن دار البلدية، لم تكن لدى بنتو علاقة كبيرة بالفنون، وكان يقاوم محاولات فان دن إندن لرفع ذائقته الجمالية بالموسيقى والشعر والسرد، لكن لم تكن هناك مقاومة لشغف المدير بالمسرح. فقد كان فان دن إندن يصرّ على أنه لا يمكن تقدير المسرحيات الكلاسيكية إلّا إذا قُرئت بصوت مسموع، وكان بنتو يشارك الطلاب الآخرين في القراءات التمثيلية في الصفّ، مع أنّه كان يشعر بالخجل عندما يقرأ السطور المخصصة له بحماسة كافية. وبشكل عام، كان صديق فان دن إندن المقرّب، مدير مسرح أمستردام البلدي، يسمح للأكاديمية أن تستخدم مسرحه مرّتين في السنة لتقديم عروضها الرئيسية أمام جمهور صغير من الآباء والأصدقاء.

كان العرض سيُقدّم في شتاء ١٦٥٨، بعد أكثر من سنتين على طرده، لمسرحية «*الخصي*»، لترنتيوس، التي أسند إلى بنتو فيها دور بارمينو، الشاب الرقيق. عندما نظر إلى السطور التي سيقولها، ابتسم ابتسامة عريضة عندما وصل إلى هذه الفقرة:

إن كنت تظن أنّ الأشياء غير المؤكّدة يمكن أن تصبح مؤكدة بسبب العقل، فلن تحقق شيئاً أكثر مما لو بذلت ما بوسعك لأن تصبح مجنوناً من خلال سلامة العقل.

عرف بنتو أن حسّ الدعابة اللطيف لدى فان دن إندن هو الذي جعله يسند إليه هذا الدور. فقد كان يلوم بنتو دائماً على عقلانيته المفرطة التي لم تدع مجالاً لتطوير ذائقته الجمالية.

كان العرض أمام العامة رائعاً، فقد أدى الطلاب أدوارهم

بحماسة، وضحك الجمهور كثيراً وصفقوا طويلاً (مع أنهم لم يفهموا الحوار اللاتيني كثيراً). غادر بنتو المسرح سعيداً، شابكاً يديه بيدي صديقيه، كلارا ماريا (التي أدت دور ثايس، المحظية) وديرك (الذي قام بدور فيدريا). وفجأة خرج من الظل رجل بعينين متوحّشتين، مسعوراً يلوّح بسكين جزّار طويلة، وراح يصرخ بالبرتغالية « *Herege, herege*» (زنديق، زنديق)، واندفع نحو بنتو وطعنه طعنتين في بطنه. وتعارك ديرك مع المهاجم، وأوقعه أرضاً، وسارعت كلارا ماريا لمساعدة بنتو ووضعت رأسه بين ذراعيها. ببنيته الضعيفة، لم يكن ديرك نداً للمهاجم الذي ألقى به أرضاً وهرب بسرعة في الظلام، والسكين لا تزال في يده. وهرع فان دن إندن الذي كان طبيباً ليفحص بنتو. وعندما رأى الجرحين البليغين في المعطف الأسود الثقيل، حلّ أزراره بسرعة، ورأى قميصه الذي مزقه السكين أيضاً ملطخاً بالدم، وكان الجرحان عميقين.

مذهولاً، تمكن بنتو، بمساعدة فان دن إندن وديرك، من السير ثلاثة شوارع حتى البيت وصعد الدرج ببطء شديد إلى غرفته. وبصعوبة ابتلع منقوع الناردين الذي أعدّه الطبيب مدير المدرسة. تمدّد بنتو على السرير وجلست كلارا ماريا إلى جانبه وقد أمسكت يده، وسرعان ما استغرق في النوم ولم يستيقظ إلا بعد اثنتي عشر ساعة.

وفي اليوم التالي عمّت الفوضى في البيت. ففي وقت مبكّر من صباح اليوم التالي جاءت سلطات البلدية للحصول على معلومات تتعلق بالشخص الذي اعتدى عليه، ثم جاء خادمان معهما رسائل من آباء غاضبين ينتقدون فيها فان دن إندن، لا لأنه عرض مسرحيّة مخزية عن الجنس والتشبّه بالجنس الآخر فحسب، وإنما لسماحه أيضاً لفتاة شابّة (ابنته) بأن تؤدي دوراً في المسرحية - ودور محظية أيضاً. لكن

مدير المدرسة ظل متماسكاً، وحافظ على هدوئه - لا، بل كان أكثر من هادئ - فقد سُرَّ بهذه الرسائل وضحك في سريرته حول كيف يمكن أن تكون تيرينس قد أثارت غضب هؤلاء الآباء الكالفينيين. وسرعان ما ساعدت خفة روحه من تهدئة قلق الأسرة، وعاد مدير المدرسة إلى دروسه لتعليم اللغة اليونانية والأعمال الكلاسيكية.

أما في الغرفة في الطابق العلوي، فإن القلق أضنى بنتو ولم يكن يتحمّل الضغط الشديد في صدره. ومرّةً تلو الأخرى، بدأت تطارده رؤى الشخص الذي هاجمه، وصيحات «زنديق» والسكين اللامع، والضغط الذي أحدثه السكين وهو يخترق معطفه، وسقوطه على الأرض تحت ثقل الشخص الذي طعنه. ولكي يهدئ من روعه، استدعى سلاحه المألوف، سيف العقل، لكن الرعب الذي تملّكه في ذلك اليوم لم يشعر به من قبل.

حاول بنتو أن يتنفّس ببطء ويأخذ نفساً طويلاً ويستحضر إلى ذهنه صورة وجه مهاجمه الخائف - له لحية كثة وعينان واسعتان، وكان زبد يخرج من فمه مثل كلب مسعور - وحدّق في وجهه مباشرة حتى تلاشت الصورة. «اهدأ»، دمدم لنفسه، «لا تفكّر إلّا في هذه اللحظة. لا تبدد طاقتك على الأشياء التي لا يمكنك أن تسيطر فيها على العالم. إنك لا تستطيع أن تتحكم بالماضي. إنك خائف لأنك تتخيّل أن هذا الحدث الذي جرى في الماضي يحدث الآن، في الحاضر. عقلك هو الذي يخلق هذه الصورة. عقلك هو الذي يخلق مشاعرك حول هذه الصورة. لا تركّز إلّا على التحكم بعقلك والسيطرة عليه».

لكن كلّ هذه الصيغ المشذّبة التي كان يجمعها في دفتر ملاحظاته لم تجد نفعاً في التخفيف من دقات قلبه، وظلّ يحاول أن يهدئ نفسه بقوة العقل: «تذكّر أنّ لكلّ شيء في الطبيعة سبباً. ما أنت، يا بنتو

سبينوزا، إلّا جزء تافه من هذه الرابطة السببية الضخمة. فكّر في المسار الطويل للقاتل، سلسلة الأحداث الطويلة التي أدّت إلى إقدامه على ذلك». أيّة أحداث؟ سأل بنتو نفسه. ربّما مواعظ الحاخام التحريضية؟ لعل بؤساً في حياته الشخصية في الماضي أو الحاضر هو الذي دفعه إلى مهاجمتي؟ جالت هذه الأفكار كلها في ذهن بنتو وهو يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً.

ثمّ سمع دقة خفيفة على الباب الذي لم يكن يبعد عنه سوى خطوة واحدة، ففتحه فوراً، فوجد كلارا ماريا وديرك واقفين عند الباب، يدها تلامس يده، أصابعهما متشابكة. عندما فتح بنتو الباب سحبا يديهما في الحال ودخلا إلى الغرفة.

«بنتو»، قالت كلارا ماريا بارتباك، «إذاً أنت مستيقظ وتمشي؟ كنا قد قرعنا الباب منذ ساعة، وعندما لم تفتح، نظرنا إلى داخل الغرفة، ووجدناك تغطّ في النوم».

«نعم، من الجيد أن نراك مستيقظاً» قال ديرك، «فهم لم يلقوا القبض على المعتوه بعد، لكنني رأيته جيداً، وسأتعرف عليه عندما يلقون القبض عليه. آمل أن يسجنوه لمدة طويلة».

لم ينبس بنتو بكلمة.

أشار ديرك إلى أسفل بطن بنتو وقال: «لنلق نظرة على جرحك. فقد طلب مني فان دن إندن أن أفحصه». دنا ديرك منه وأشار إلى كلارا ماريا بأن تتركهما وحدهما.

لكن بنتو خطا خطوات إلى الخلف فوراً وهزّ رأسه وقال: «لا، لا، أنا على ما يرام. ليس الآن. أفضّل أن أبقى وحدي فترة أطول».

«حسناً، سنعود بعد ساعة». نظر ديرك وكلارا ماريا بتساؤل أحدهما إلى الآخر وغادرا الغرفة.

أحسّ بنتو الآن أنه في وضع أسوأ: تلك الأيدي التي كانت

تتلامس والتي انسحبت بسرعة لكي لا يراها - تلك النظرة الحميمة بينهما. منذ بضع دقائق فقط، كانا من أكثر الأصدقاء المقربين له، وليلة البارحة فقط أنقذ ديرك حياته، وليلة البارحة فقط أحبّ أداء كلارا ماريا في المسرحية، وكان مأخوذاً بكلّ حركة تؤديها، وكلّ إيماءة تشي بالغزل من شفتيها وارتعاشة جفنيها. وها هو يشعر الآن، بغتة، بكراهية تجاههما. ولم يكن قادراً على أن يشكر ديرك أو حتى على أن ينطق اسمه أو حتى يشكر كلارا ماريا لأنها سهرت بجانبه طوال ليلة البارحة.

«مهلاً»، دمدم بنتو لنفسه، «عد قليلاً إلى الوراء وانظر إلى نفسك من مسافة بعيدة. انظر كيف تتقلّب مشاعرك - في البداية حبّ، والآن كراهية، ثم غضب. كم هي متقلّبة عواطفنا، كم هي نزواتية. انظر كيف تقلّبت، أولاً هنا، ثمّ هناك من تصرفات الآخرين. إذا أردت أن تنجح وتزدهر، يجب أن تتغلّب على عواطفك بتثبيت مشاعرك على شيء راسخ، شيء يدوم إلى الأبد».

دقة أخرى على الباب. نفس الدقة الناعمة. هل يمكن أن تكون هي؟ ثمّ صوتها الرقيق، «بنتو، بنتو، هل يمكنني أن أدخل؟»

تحرّك الأمل والعاطفة. غمر بنتو على الفور شعور بالبهجة ونسي كل شيء يتعلق بالأبديّ والثابت، الشيء الذي لا يتغيّر. قد تعود كلارا ماريا وحدها، شاعرة بالندم. ربما أمسكت يده مرة أخرى.

«ادخلي».

دخلت كلارا ماريا وحدها تحمل بيدها رسالة وقالت: «بنتو، هناك رجل أعطاني هذه الرسالة لأسلّمها لك. شاب غريب، مضطرب، يميل إلى القِصر، وله لكنة برتغالية ثقيلة كان يراقب الشارع بحذر. أظن أنه يهودي، وهو ينتظر أن يراك أمام القناة».

انتشل بنتو الرسالة من يدها الممدودة، فتحها، وقرأها بسرعة.

راحت كلارا ماريا تراقبه بفضول شديد: لم تر بنتو قبل الآن يقرأ شيئاً بهذه اللهفة. قرأها لها بصوت مرتفع، مترجماً الكلمات البرتغالية إلى الهولندية.

بنتو، لقد سمعت ما حدث ليلة البارحة. أبناء الطائفة كلهم يعرفون ما حدث. أريد أن أراك اليوم. الأمر هام. أنا واقف الآن بالقرب من بيتك أمام العوّامة الحمراء في قناة سينغل. هل يمكنك أن تأتي؟ فرانكو

قال بنتو: «كلارا ماريا. إنه صديقي. صديقي الوحيد المتبقي من حياتي القديمة. يجب أن أذهب لأراه. أستطيع أن أهبط الدرج».

«لا، قال أبي يجب ألّا تصعد الدرج اليوم. سأطلب من صديقك أن يعود بعد يوم أو يومين».

«لكنّه يؤكد على 'اليوم' لا بدّ أن للأمر علاقة بما حدث ليلة البارحة. إن جرحي لا يعدو كونه خدشاً. يمكنني أن أفعل ذلك».

«لا، لقد وضعك أبي تحت رعايتي. إني أمنعك من الذهاب. سأحضره إلى هنا. إني واثقة بأن أبي لن يمانع ذلك».

هزّ بنتو رأسه موافقاً وقال: «شكراً، لكن احرصي أن يكون الشارع خالياً - يجب ألّا يراه أحد وهو يدخل إلى البيت. فالحرم يحظر على أيّ يهودي أن يكلّمني. يجب ألّا يراه أحد وهو يأتي لزيارتي».

بعد عشر دقائق عادت كلارا ماريا يرافقها فرانكو، وقالت: «بنتو، متى أعود لأصحبه إلى خارج البيت؟» عندما لم تسمع رداً من الرجلين اللذين راح أحدهما يحدّق في عيني الآخر، غادرت بتهذيب، وقالت: «سأكون في الغرفة المجاورة».

عندما سمع صوت إغلاق الباب، دنا فرانكو من بنتو ووضع يديه

بقوة على كتفيه، وسأله، «هل أنت على ما يرام يا بنتو؟ قالت لي إن جرحك ليس سيئاً».

«لا، يا فرانكو، مجرد خدشين هنا» - وأشار إلى بطنه - «لكن يوجد جرح عميق هنا»، وأشار إلى رأسه.

«أشعر بارتياح كبير عندما أراك».

«وأنا أيضاً. تفضل، دعنا نجلس هنا»، وأشار باتجاه السرير. جلسا وتابع فرانكو كلامه.

«في البداية انتشر الخبر بين أبناء الطائفة بأنك متّ، قصف اللّه عمرك، فذهبتُ إلى الكنيس، وكان الجميع مبتهجين - وكانوا يقولون إن اللّه استجاب لدعائهم ونفّذ عدالته بك. غمرني حزن شديد، وعندما كلّمت رجال الشرطة الذين يبحثون في الحيّ عن المجرم، عرفت أنك أصبت بجروح، وبالطبع، لم يكن جرحك هذا بيد اللّه بل بيد يهودي مجنون».

«من هو؟»

«لا أحد يعرف. أو على الأقل، لا يعترف أحد بأنّه يعرفه، لكني سمعت أنه يهودي قدم مؤخراً من أمستردام».

«نعم، إنه برتغالي. فقد صرخ *'Herege'* (زنديق) عندما هاجمني».

«سمعت أنّ محاكم التفتيش قتلت أفراد أسرته، وربما يحقد على اليهود السابقين، لأن بعض اليهود الذين كانوا في إسبانيا والبرتغال أصبحوا من أشدّ أعداء اليهود: القساوسة الذين يحصلون على ترقيات سريعة لأنهم يساعدون محاكم التفتيش على إيجاد ذرائع».

«إذاً، بدأت الشبكة السببية تزداد وضوحاً الآن».

«الشبكة السببية؟»

«فرانكو، من الجيد أن أكون معك مرة أخرى. تعجبني دائماً

اللحظات التي تتفق فيها معي وتطلب توضيحاً. إن ما أقصده ببساطة هو أن لكلّ شيء سبباً».

«حتى هذا الهجوم؟»

«نعم، كلّ شيء! فكلّ شيء يخضع لقوانين الطبيعة، ويمكننا، باستخدام عقولنا، أن نمسك بخيوط سلسلة السببيّة هذه. وأرى أن هذا لا ينطبق على الأجسام المادية فحسب، وإنما ينطبق على كلّ ما هو إنساني، وأعكف حالياً على دراسة التصرفات البشرية، والأفكار، والشهوات، كما لو كانت مسألة خطوط ومسطحات وأجسام».

«هل تريد أن تقول إنّنا نستطيع أن نعرف سبب كلّ فكرة وشهوة ونزوة وحلم؟»

هزّ بنتو رأسه.

«هل هذا يعني أننا لا نستطيع أن نكوّن أفكاراً محددة بأنفسنا؟ لا أستطيع أن أقرّر أن أدير رأسي إلى جهة ثم إلى الأخرى؟ أنه لا يوجد لدينا اختيار حرّ ولو كان بسيطاً؟»

«هذا ما أقصده. فالإنسان جزء من الطبيعة، لذلك فإنه يخضع لشبكة الطبيعة السببية. لا يستطيع شيء في الطبيعة، بما في ذلك نحن، أن يختار ببساطة أن يقدم على عمل ما بشكل نزواتي. لا يمكن أن يكون هناك ملكوت منفصل داخل ملكوت».

«لا يوجد ملكوت منفصل داخل ملكوت؟ لقد ضعت مرة أخرى».

«فرانكو، مضت سنة على لقائنا الأخير، وها أنا أبدأ بمناقشتك على الفور في مسائل فلسفية بدلاً من أن أبدأ بالسؤال عن أحوالك وعن حياتك».

«لا، لا يوجد شيء أهم من أن أناقشك في أمور كهذه. فأنا مثل

رجل يموت من العطش ووجد أمامه فجأة واحة. تستطيع الأشياء الأخرى أن تنتظر. حدّثني عن الملكوت داخل الملكوت».

«أقصد بما أن الإنسان هو جزء من الطبيعة في كلّ شيء، فمن الخطأ التفكير في أن الإنسان يعكر نظام الطبيعة بدلاً من أن يتبعها. ليس صحيحاً الافتراض أنه يمتلك، أو أيّ كيان في الطبيعة، إرادة حرة. إن كلّ ما نفعله تقرره أسباب خارجية أو داخلية. تذكّر كيف أنني أثبتّ لك سابقاً أنّ اللّه أو الطبيعة، لم يختر اليهود؟»

هزّ فرانكو رأسه.

«لذلك من الصحيح أيضاً أن اللّه لم يشأ أن يكون البشر مميزين، أن يكونوا خارج قوانين الطبيعة. وأرى أن لا علاقة لهذه الفكرة بالنظام الطبيعي، بل تأتي من حاجتنا العميقة لأن نكون مميزين، لا نفنى».

«أظن أنني بدأت أفهم ما تقصده - إنها فكرة عملاق. حرّية الإرادة ليست موجودة؟ بطبيعتي أنا شخص شكّاك. أريد أن أختلف معك. أظن أنني حرّ لأن أقرّر أن أقول، 'أريد أن أختلف معها' لكن لا توجد لديّ حجج أستطيع عرضها. عندما نلتقي في المرة القادمة، سأكون قد توصلت إلى بعض الأفكار. لكنّك كنت تتكلّم عن القاتل وعن الشبكة السببية عندما قاطعتك. أرجو أن تواصل كلامك يا بنتو».

«أظن أن قانون الطبيعة يستجيب لكل الأشياء، مهما كانت، بنفس الطريقة. فقد يكون هذا القاتل الذي أفقده حزنه على عائلته صوابه، قد سمع بأنّني كنت يهودياً سابقاً وصنّفني مع اليهود الآخرين الذين تحوّلوا إلى المسيحية وألحقوا ضرراً بعائلته».

«طريقة تفكيرك تبدو معقولة، لكن يجب أن تشمل أيضاً تأثير الآخرين الذين ربما شجّعوه على عمل ذلك».

«هؤلاء 'الآخرون' يخضعون أيضاً للشبكة السببية»، قال بنتو.

صمت فرانكو، وأومأ برأسه، «أتعرف ما أفكّر فيه يا بنتو؟»

نظر بنتو إليه رافعاً حاجبيه.

«أظن أن هذا مشروع حياتي».

«في هذا الأمر فإنّنا متفقان تماماً. وأنا موافق، موافق جداً، على تكريس حياتي لهذا المشروع. لكن ماذا كنت ستقول عن تأثير الآخرين على القاتل؟»

«أظن أن الحاخامات هم الذين حرّضوا، وشكّلوا أفكار الشخص الذي هاجمك وتصرفاته. وتدور شائعات بأنّه مختبئ الآن في قبو الكنيس. أعتقد أن الحاخامات كانوا يريدون أن يروك ميتاً لتكون عبرة لأبناء الطائفة لكي لا يتجاسر أحد على التشكيك بسلطة الحاخامات. أفكّر في أن أبلغ الشرطة عن مكان اختبائه».

«لا، يا فرانكو. لا تفعل ذلك. فكّر في العواقب. دورة الحزن، الغضب، الانتقام، العقاب، لن يكون الانتقام نهائياً وسيورطك ذلك أنت وأسرتك في نهاية الأمر. اختر مسلكاً دينياً».

بدا فرانكو مندهشاً، «دينياً؟ كيف يمكنك أن تستخدم عبارة 'ديني'؟»

فقال بنتو: «أقصد مسلكاً أخلاقياً، مسلك الاستقامة والتقوى. إذا أردت أن تغيّر دورة الألم هذه، فعليك أن تلتقي بهذا القاتل. هدئ من روعه، خفف من حزنه، حاول أن تنوّره».

هزّ فرانكو رأسه ببطء، وجلس صامتاً ليستوعب كلمات بنتو، ثمّ قال: «بنتو، لنعد إلى ما قلته سابقاً عن الجرح العميق في رأسك. ما مدى خطورة هذا الجرح؟»

«أصدقك القول يا فرانكو، فقد أصبت بالشلل من الخوف.

شعرت بأن صدري سينفجر من شدة الضيق. لم أتمكن من أهدئ نفسي مع أنني حاولت ذلك طوال الصباح».

«كيف تفعل ذلك؟»

«ما ذكرته لك - أذكّر نفسي بأن لكلّ شيء سبباً وأن ما حدث قد حدث بالضرورة».

«ماذا تعني 'بالضرورة'؟»

«بناء على جميع العوامل التي حدثت سابقاً، كان يجب أن تحدث هذه الحادثة. لم تكن هناك وسيلة لتفاديها. وأحد أهم الأشياء التي تعلّمتها هو أنه ليس من المنطقي أن نحاول التحكم بالأشياء التي لا نستطيع السيطرة عليها. وأنا مقتنع بأن هذه فكرة واقعية، وعلى الرغم من ذلك، فإن هذا الهجوم عليّ لا يبارح تفكيري». صمت بنتو للحظة، عندما نظر إلى معطفه المشقوق بالسكين، وأردف، «خطر لي الآن أن رؤية المعطف الملقى على الكرسي هناك قد يفاقم المشكلة. فالاحتفاظ به خطأ كبير. يجب أن أتخلّص منه. للحظة، خطر لي أن أعطيه لك، لكن بطبيعة الحال لا يمكن أن يراك أحد في هذا المعطف. فقد كان معطف أبي وسيعرفونه بسهولة».

«هنا أختلف معك. إن إخفاءه فكرة سيّئة. دعني أقول لك ما سمعت أبي يقوله في حالات كهذه. 'لا تتخلّص منه. لا تغلق جزءاً من عقلك، بل اعمل عكس ذلك تماماً' لذلك، فإني أقترح عليك أن تعلّقه في مكان مرئي، في مكان تستطيع أن تراه دائماً ليذكّرك بالخطر الذي يمكن أن تتعرض له».

«يمكنني أن أفهم الحكمة من هذه النصيحة، لكن تنفيذها يتطلّب شجاعة كبيرة».

«بنتو، يجب أن تحافظ على هذا المعطف في مكان مرئي. يخيّل

إليّ أنك تقلل من أهمية الخطر الذي تواجهه الآن. البارحة كدت تموت. لا بدّ أنك تخاف من الموت، أليس كذلك؟»

أومأ بنتو رأسه وقال: «نعم. على الرغم من أنني أبذل جهدي لأتغلّب على هذا الخوف».

«كيف؟ جميع البشر يخافون من الموت».

«يخافه الناس بدرجات متفاوتة. فقد بحث بعض الفلاسفة القدماء الذين أقرأ أعمالهم الآن عن السبل التي تخفف من حدة الخوف من الموت. أتذكر أبيقور؟ لقد تحدّثنا عنه ذات مرّة».

هزّ فرانكو رأسه مرة أخرى وقال: «نعم، الرجل الذي قال إن هدف الحياة هو أن يعيش المرء في حالة من الطمأنينة. ما العبارة التي قالها؟»

«*أتاراكسيا*. يرى أبيقور أن الشيء الرئيسي الذي يعكّر *أتاراكسيا* هو الخوف من الموت، وعلّم تلامذته سبلاً قويّة للتخفيف من حدة هذا الخوف».

«مثل؟»

«تتمثّل نقطة البداية عنده في عدم وجود حياة آخرة، لذلك، لا يوجد ثمة شيء يجعلنا نخاف من الآلهة بعد الموت. وقال إنه لا يمكن أن تتعايش الحياة والموت معاً أبداً. بعبارة أخرى: حيث توجد الحياة، لا يوجد الموت، وحيث يوجد الموت، لا توجد الحياة».

«يبدو هذا الكلام منطقيّاً، لكنّي لا أظن أنه يوفّر السكينة في منتصف الليل عندما يستيقظ المرء من كابوس رأى فيه الموت».

«ولدى أبيقور حجة أخرى، تدعى حجة *التناظر* التي قد تكون أقوى، تفترض أنّ حالة عدم الكينونة بعد الموت تتطابق مع حالة عدم

الكينونة قبل الولادة. وبالرغم من أننا نخاف من الموت، فإننا لم نجزع منه عندما نفكّر أننا مررنا في تلك الحالة المشابهة، لذلك لا يوجد ثمة سبب يجعلنا نخاف من الموت أيضاً».

أخذ فرانكو نفساً عميقاً وقال: «هذا الأمر يثير اهتمامي يا بنتو. إنك محق. لهذه الحجة قوّة تبعث على الشعور بالسكينة».

«لكي تكون حجة 'قوّة تبعث على السكينة' فعالة، فيجب ألّا تنطوي هذه الفكرة على أشياء جيدة أو سيئة، لطيفة أو مرعبة، لأن عقلك فقط هو الذي يجعلها كذلك. فكّر في الأمر يا فرانكو - *عقلك فقط هو الذي يجعلها كذلك*. إن هذه الفكرة تنطوي على قوّة حقيقية، وإني مقتنع تماماً بأنها المفتاح لشفاء جرحي. إن ما يجب عليّ أن أفعله هو أن أغيّر استجابة عقلي إزاء ما حدث ليلة البارحة، لكنني لم أكتشف حتى الآن السبيل إلى ذلك».

«إني مندهش كيف تستمر في فلسفة هذه المسألة وأنت لا تزال في غمرة شعورك بالذعر».

«يجب أن أعتبرها فرصة حتى أفهم. أي شيء يمكن أن يكون أهم من التعلّم بنفسك كيف تستطيع أن تخفف من حدة خوفك من الموت؟ فقد قرأت منذ بضعة أيام فقرة لفيلسوف روماني يدعى سينيكا 'لا يجرؤ الخوف أن يدخل إلى القلب الذي تطهّر من الخوف من الموت'. بعبارة أخرى، عندما تتغلب على الخوف من الموت، فإنك تتغلب على جميع المخاوف الأخرى أيضاً».

«بدأت أفهم أكثر عن افتتانك بالرعب الذي ينتابك».

«بدأت المشكلة تزداد وضوحاً، لكن الحلّ لا يزال مخفياً. أتساءل هل أخاف من الموت كثيراً الآن لأنني أشعر بالامتلاء».

«ماذا؟»

«أقصد بالامتلاء في عقلي. إذ تدور في رأسي أفكار كثيرة غير

ناضجة، وأتألم كثيراً عندما أفكّر أن من الممكن أن تولد هذه الأفكار ميتة».

«إذاً اعتن بنفسك يا بنتو. احمِ هذه الأفكار، واحمِ نفسك. وبالرغم من أنك ستصبح معلّماً عظيماً، فإنك، بشكل ما، في غاية السذاجة. يخيّل إليّ أنك لا تشعر بالحقد كثيراً إلى حدّ أنك تقلل من تقدير وجوده في الآخرين. استمع إليّ: *أنت في خطر ويجب أن تغادر أمستردام*. يجب أن تغيب عن أنظار اليهود، توارى عن الأنظار، وفكّر واكتب بالسرّ».

«أظن أن في داخلك يوجد معلّم جميل. إنك تسدي إليّ نصيحة جيّدة يا فرانكو، وقريباً، قريباً جداً، سأنفّذها. لكن جاء دورك الآن لتحدّثني عن أمور حياتك».

«ليس بعد. عندي فكرة قد تساعدك في التخفيف من حدة خوفك. عندي سؤال: هل تظن أنك ستُجرح هنا هذا الجرح العميق»، وأشار فرانكو إلى رأسه، «لو كان القاتل مجرد رجل مجنون عادي، وليس يهودياً منزعجاً منك بشيء ما؟»

هزّ بنتو رأسه، وقال: «سؤال ممتاز»، وأسند ظهره إلى عمود السرير، وأغمض عينيه، وفكّر لبضع دقائق، ثم قال: «أظن أنّني فهمت فكرتك، وهي فكرة هامة جداً. لا، أنا متأكّد أنه لو لم يكن يهودياً، لما كان الجرح، في رأيي، خطيراً جداً»

فقال فرانكو: «آه، فهذا يعني...»

«يجب أن يعني أنّ خوفي لا ينحصر بالموت فقط. وإنما له مكوّن إضافي، له صلة بمنفاي القسري من العالم اليهودي».

«أظن ذلك أيضاً. كم هو مؤلم ذلك المنفى الآن؟ عندما تحدّثنا في المرّة الأخيرة، عبّرت عن الارتياح لأنك ستترك عالم الخرافة وقلت إنك ستجد بهجة كبيرة لأنك ستنعم بالحرّية».

«بالفعل. ولا يزال هذا الشعور بالارتياح والبهجة يتملكني، لكن خلال حياتي اليقظة فقط. فأنا الآن أعيش حياتين. ففي أثناء النهار، أشعر بأنني رجل جديد خلع جلده القديم، ويقرأ باللاتينية واليونانية، وتراوده أفكار حرّة ومثيرة. أما في الليل، فأنا باروخ، يهودي جوّال تهدهدني أمّي وأختي، ويطرح الشيوخ عليّ أسئلة حول التلمود، ويتعثّر في خرائب كنيس متفحم. وكلما ابتعدت عن وعي اليقظ، عدت إلى بداياتي وتشبثت بأطياف طفولتي. قد يفاجئك ذلك يا فرانكو: فعندما أستلقي في هذا السرير، في كلّ ليلة تقريباً، أنتظر أن يأتيني النوم، فإنك تأتي لزيارتي».

«آمل أنني لست ضيفاً ثقيلاً».

«أفضل بكثير مما تتصوّر. إني أدعوك لأنك تجلب لي الراحة، وأنت ضيف مرحب بك اليوم. حتّى عندما نتبادل الحديث، فإني أشعر بالطمأنينة، بل بشيء أكثر من الطمأنينة - إنك تساعدني على التفكير. فسؤالك عن الرجل الذي هاجمني - كيف ستكون ردّة فعلي لو لم يكن يهودياً - يساعدني على أن أدرك تعقيد المحدّدات. فقد بدأت أعرف أنني يجب أن أنظر في الأحداث السابقة بعمق أكبر وأتمعن في الأفكار غير الواعية، الأفكار التي تراودني في الليل وفي النهار. شكراً لك على ذلك».

ابتسم فرانكو ابتسامة عريضة ووضع يده على كتف بنتو.

«والآن، فرانكو، حدّثني عن حياتك».

«لقد حدثت أمور كثيرة، مع أن حياتي ليست مليئة بالمغامرات كما هي حياتك. فقد وصلت أمّي وأختي بعد أن غادرت بشهر، وبمساعدة صندوق الكنيس وجدنا شقّة صغيرة غير بعيدة عن مخزنك. في أحيان كثيرة أمرّ من أمام المخزن وأرى غابرييل الذي يومئ لي لكنه لا يكلمني. أظن لأنه يعرف، كما يعرف الجميع، دوري في

طردك من الطائفة. وهو متزوّج الآن ويعيش مع أسرة زوجته. وأنا أعمل في شركة عمّي للشحن وأساعده في جرد سفنه في الميناء. وأدرس باجتهاد وأحضر دروساً لتعلم اللغة العبرية عدّة مرات في الأسبوع مع مهاجرين آخرين. إن تعلّم اللغة العبرية شيء يبعث على الملل لكنه مثير أيضاً. إنه يريحني ويتيح لي شريان حياة، إحساس بالاستمرارية مع والدي ووالده ووالد والده لمئات السنين. هذا الإحساس بالاستمرارية هو الذي يجعلني أشعر بالاستقرار كثيراً.

«وأصبح صهرك صموئيل الآن حاخاماً ويقوم بتعليمنا أربع مرات في الأسبوع، ويتناوب الحاخامات الآخرون، حتى الحاخام مورتيرا، على تعليمنا في الأيام الأخرى. وعندي انطباع من تعليقات صموئيل بأن أختك ريبيكا على ما يرام. ماذا أيضاً؟»

«وماذا عن ابن عمك جاكوب؟»

«عاد إلى روتردام، ولا أراه إلّا نادراً».

«والسؤال المهمّ: هل أنت قانع يا فرانكو؟»

«نعم، لكن نوعاً كئيباً من القناعة. فبعد أن أريتني مظهراً آخر من الحياة، حياة عقلية لا أعيشها بالكامل، أشعر براحة كبيرة عندما أعرف أنّك ستكون هناك وستظل تشاركني الأمور التي تتوصل إليها. إن عالمي أصغر، ويمكنني أن أرى منعطفاته المستقبلية. وقد اختارت لي أمّي وأختي زوجتي، فتاة في السادسة عشرة من عمرها من قريتنا في البرتغال، وسنتزوّج بعد بضعة أسابيع. وقد وافقت على اختيارهما هذا - فهي فتاة لطيفة وجميلة وتجلب الابتسامة إلى وجهي. ستكون زوجة صالحة».

«هل سيكون بوسعك أن تحدّثها عن اهتماماتك؟»

«أظن ذلك. فهي أيضاً متلهفة للمعرفة. ومثل معظم الفتيات في قريتنا، فهي لا تعرف حتى القراءة، وقد بدأت أعلّمها».

«أرجو ألّا تعلمها أشياء كثيرة. فقد يكون هناك خطر في ذلك. لكن، قل لي، هل يتحدّثون عنّي في الطائفة؟»

«حتى وقوع هذه الحادثة، لم أسمع شيئاً. يبدو أنه لم يُطلب من أبناء الطائفة أن يتجنّبوك فقط، وإنما طلب منهم أيضاً ألّا ينطقوا اسمك أيضاً، فلم أسمعه يُذكر قط، لكني بالطبع، لا أعرف شيئاً عمّا يقال من وراء الأبواب المغلقة. يمكنني أن أتخيّل ذلك فقط، لكنّي أؤمن بأن روحك تطوف فوق الطائفة وتؤثّر عليها كثيراً. فعلى سبيل المثال، يعطوننا دروساً مكثفة جداً باللغة العبرية لكي لا تتاح لأحد الفرصة لأن يطرح أي سؤال، كأن الحاخامات حريصون على ألّا يولد سبينوزا آخر».

أطرق بنتو رأسه.

«ربّما لم يكن عليّ أن أقول لك ذلك يا بنتو. كنت فظاً».

«لا يمكنك أن تكون فظاً إلّا إذا حجبت عني الحقيقة».

نقرة خفيفة على الباب، ثمّ سُمع صوت كلارا ماريا: «بنتو».

فتح بنتو الباب.

«بنتو، يجب أن أخرج بعد قليل. إلى متى سيبقى صديقك؟»

نظر بنتو بتساؤل إلى فرانكو الذي همس بأنه سيغادر بعد قليل، لأنه لا يملك عذراً يبرر به سبب غيابه عن العمل. وأجاب بنتو، «كلارا ماريا، أرجو أن تمنحينا عدة دقائق أخرى».

«سأنتظر في غرفة الموسيقى»، قالت كلارا ماريا وأغلقت الباب بهدوء.

«من هذه يا بنتو؟»

«ابنة مدير المدرسة ومعلّمتي. إنها تعلّمني اللغتين اللاتينية واليونانية أيضاً».

«معلّمتك؟ مستحيل. كم عمرها؟»

«إنها في السادسة عشرة تقريباً. بدأت تعلّمني عندما كانت في الثالثة عشرة. إنها أعجوبة، لا تشبه أي فتاة أخرى».

«يبدو أنها تنظر إليك بحبّ ورقّة».

«نعم، هكذا هو الأمر، وأنا أبادلها هذه المشاعر لكن...» تردّد بنتو، فلم يتعوّد أن يفضي لأحد عن أعمق مشاعره، «لكنها اليوم زادت من معاناتي عندما رأيتها تبدي لطفاً أكبر لصديقي وزميلي في الصفّ».

«آه، الغيرة. قد يكون هذا شيئاً مؤلماً جداً. أنا آسف يا بنتو. لكن ألم تقل لي في المرّة الأخيرة التي التقينا فيها أنك ستعيش حياة من العزلة وأنك ستتخلى عن فكرة اتخاذ رفيق؟ كنت تبدو ملتزماً بذلك تماماً أو ربما تخلّيت عن العيش حياتك وحيداً».

«التزمتُ وتخليتُ. أنا ملتزم تماماً بحياة العقل وأعرف أنّني لا أستطيع أن أتحمّل مسؤولية أسرة. وأعرف كذلك أنّه من المستحيل، من الناحية القانونية، أن أتزوج من مسيحية أو من يهودية. وكلارا ماريا كاثوليكية. كاثوليكية متشددة تؤمن بالخرافات أيضاً».

«إذاً فإنك تجد صعوبة في أن تتخلّى عن الشيء الذي لا تريده ولا تستطيع أن تحصل عليه؟»

«صحيح! أحبّ الطريقة التي تحفر فيها مباشرة حتى تصل إلى صميم سخفي ومخالفتي للمنطق».

«وتقول إنّك تحبّها؟ وإنها تفضّل صديقك المقرب؟»

«إني أحبّه أيضاً. فقد ساعدني في الانتقال بعد صدور قرار الحرم، وأنقذ حياتي ليلة البارحة. إنه رجل طيب، ويدرس ليصبح طبيباً».

«لكنّك تريد أن تريدك أنت لا هو، مع أنك تعرف أن هذا سيجعلكم أنتم الثلاثة غير سعداء».

«نعم، هذا صحيح».

«وكلّما ازدادت رغبتها تجاهلك، ازداد إحساسها باليأس لأنها لم تحصل عليك».

«نعم، لا يمكن إنكار ذلك».

«لكنّك تحبّها وتريد سعادتها. وإذا تألمت، فإنك ستعاني أنت أيضاً؟»

«نعم، نعم، ونعم. كلّ ما تقوله صحيح».

«لديّ سؤال أخير. تقول إنها كاثوليكية تؤمن بالخرافات؟ والكاثوليك يتفانون في ممارسة الطقوس والإيمان بالمعجزات. فكيف تنظر إلى أفكارك وآرائك التي تقول بأن اللّه هو الطبيعة، وإلى رفضك للطقوس والإيمان بالخرافة؟»

«لن أحدّثها عن هذه الأفكار أبداً».

«لأنها سترفضها وقد ترفضك أنت أيضاً؟»

هزّ بنتو رأسه، وقال، «كلّ كلمة تقولها صحيحة يا فرانكو. لقد كافحتُ كثيراً، وتخلّيتُ عن أشياء كثيرة لأصبح حرّاً، وها أنا أتخلّى الآن عن حرّيتي بعد أن فُتنت بكلارا ماريا. عندما أفكّر فيها، أصبح عاجزاً تماماً عن التفكير في الأفكار الأسمى الأخرى. في هذا الأمر يبدو من الواضح أنني لم أعد سيد نفسي بل أصبحت عبداً لعواطفي وانفعالاتي. ومع أن العقل يريني السبيل الأفضل، فإني أرى نفسي مرغماً على اتباع الأسوأ».

«إنها قصّة قديمة جداً يا بنتو. فالحبّ يستعبدنا دائماً. كيف ستحرّر نفسك؟»

«لا أستطيع أن أكون حرّاً إلّا إذا قطعت كلّ صلتي بالمتعة الحسّية والثروة والشهرة. وإذا لم أتبع سبيل العقل، فإني سأظل عبداً للعاطفة والانفعالات».

«على الرغم من ذلك يا بنتو»، قال فرانكو بعد أن وقف وبدأ يتهيأ للمغادرة، «فإننا نعرف أنّ العقل لا يضاهي العاطفة».

«نعم. لا تستطيع أن تقهر عاطفة إلّا عاطفة أقوى. أصبحت مهمّتي واضحة: يجب أن أتعلّم كيف أحوّل العقل إلى عاطفة».

«*تحوّل العقل إلى عاطفة*» همس فرانكو عندما أخذا يسيران باتجاه غرفة الموسيقى حيث تنتظرهما كلارا ماريا. «إنها مهمّة جسيمة. عندما نلتقي في المرة القادمة، آمل أن أسمع عن التقدّم الذي تحرزه».

الفصل السادس والعشرون

برلين - ٢٦ آذار (مارس) ١٩٢٣

أجد صعوبة في الانسجام مع عائلاتنا في بلدان البلطيق: إذ يبدو أنه يوجد في صفاتهم شيء من السلبية، ولديهم في الوقت نفسه إحساس بالفوقية، إحساس بأنهم سادة كلّ شيء، لم أره في أي مكان آخر.

أدولف هتلر عن ألفريد روزنبرغ

عزيزي فريدريش،

بكل أسف، يجب أن ألغي زيارتي القادمة. ومع أنني فعلت ذلك للمرّة الثالثة، أرجو ألّا تيأس مني. فأنا جادّ جداً في رغبتي للتشاور معك، لكن وقتي أصبح ضيقاً إلى درجة كبيرة. ففي الأسبوع الماضي طلب مني هتلر أن أحلّ محلّ ديتريش إكارت كرئيس تحرير في صحيفة *Völkischer Beobachter*. وقد أصبحت، أنا وهتلر، أكثر قرباً الآن - وهو سعيد جداً لأنني نشرت كتاب بروتوكولات حكماء صهيون. وبمساعدة متبرع كريم تحوّلت الصحيفة منذ شهر تقريباً إلى صحيفة يومية وأصبحت توزع ٣٣٠٠٠ نسخة يومياً

(وبالمناسبة، يمكنك أن تجد نسخاً منها متوفرة الآن في أكشاك بيع الصحف في برلين).

في كلّ يوم تظهر أزمة جديدة يجب الكتابة عنها. في كلّ يوم يبدو مستقبل ألمانيا في خطر. فعلينا الآن، مثلاً، أن نقرّر كيف سنتعامل مع الفرنسيين الذي غزوا الروهر ليحصلوا على مبالغ التعويضات الإجرامية. وفي كلّ يوم يجلب التضخّم المتصاعد بلادنا بأكملها إلى حافة الهاوية. هل يمكنك أن تصدّق بأنّ الدولار الأمريكي، الذي كان يساوي منذ سنة فقط ٤٠٠ مارك، أصبح يساوي هذا الصباح ٢٠٠٠٠ مارك؟ هل يمكنك أن تصدّق بأن أرباب العمل في ميونيخ بدأوا يدفعون للعمّال ثلاثة أضعاف أجرهم اليوم؟ وهل صحيح أن الوضع هو كذلك في برلين؟ فقد أصبحت الزوجة ترافق زوجها إلى مكان العمل، ويُدفع لهما الأجر في الصباح، فتهرع لتشتري طعام الفطور قبل أن ترتفع الأسعار. ثم تعود عند الظهر لتأخذ الأجر (الذي يصبح أعلى الآن) فتهرع مرة أخرى لتشتري طعام الغداء - مئة ألف مارك التي كنت قد اشتريت بها قبل يوم أربع نقانق تشتري بها الآن ثلاث فقط - ومرّة ثالثة، مرة أخرى بسعر أعلى، وفي نهاية اليوم، عندما تصبح النقود في مأمن بعد أن تغلق الأسواق إلى أن يُفتح سوق الأوراق المالية في صباح اليوم التالي. إنها فضيحة، إنها مأساة. وستزداد سوءاً. أعتقد أن هذا سيكون أعظم تضخّم مفرط في التاريخ: وسيصبح جميع الألمان فقراء، ما عدا، بالطبع، اليهود، الذين، بشكل طبيعي، يحققون أرباحاً من هذا الكابوس. فتنتفخ خزائن شركاتهم بالذهب وبالعملات الأجنبيّة.

إن حياتي كناشر محمومة جداً ومفعمة بالعمل إلى حد أنني أجد من المستحيل أن أغادر المكتب لأتناول طعام الغداء، ناهيك عن أن أستقلّ القطار للرحلة إلى برلين التي تستغرق عشرين ساعة وتكلّف

مليون مارك. أرجو أن تعلمني إن كان هناك أيّ شيء يمكن أن يحضرك إلى ميونيخ لكي نلتقي هنا. سأكون ممتناً جداً. هل فكّرت قط أن تزاول مهنتك في ميونيخ؟ يمكنني أن أساعدك: فكّر في كلّ الإعلانات المجانية التي يمكنني أن أنشرها من أجلك.

قرأ الدكتور كارل أبراهام الرسالة وأعادها إلى فريدريش، وقال: «وكيف سترُدّ؟»

«لا أعرف. أريد أن أستخدم ساعة الإشراف لديّ اليوم لمناقشتها. هل تتذكّره؟ لقد وصفت لك حديثي معه منذ بضعة أشهر».

«ناشر *بروتوكولات حكماء صهيون*؟ كيف يمكنني أن أنساه؟»

«لم أر هير روزنبرغ منذ ذلك الحين. تلقيت منه بضع رسائل فقط. لكن ها هي نسخة من صحيفته *Völkischer Beobachter* عدد البارحة. انظر إلى العنوان الرئيسي هذا فقط:

إساءة معاملة الأطفال في ماخور فيينا:
تورط العديد من اليهود

عندما ألقى نظرة على العنوان الرئيسي، هزّ الدكتور أبراهام رأسه باشمئزاز وسأل، «والبروتوكولات - هل قرأتها؟»

«لم أقرأ سوى بضعة مقتطفات وبضع مناقشات تعتبر أنها ملفقة».

«تلفيق واضح، لكنه خطير. ولا يوجد لديّ أدنى شكّ في أنّ مريضك هذا، روزنبرغ، يعرف ذلك. فرجال الدين اليهود الموثوق بهم في جاليتي قالوا لي إنّ كاتباً روسياً سيّئ السمعة يدعى سيرج نيلوس، كان يرغب في إقناع القيصر بأن اليهود يحاولون الهيمنة على

روسيا هو الذي كتبه. وبعد أن قرأ القيصر هذه *البروتوكولات*، أمر بسلسلة من المذابح الدامية».

«لذلك»، قال فريدريش، «فإن سؤالي هو كيف يمكنني أن أعالج مريضاً يرتكب أفعالاً دنيئة كهذه؟ أعرف أنه رجل خطير. كيف يمكنني أن أمارس معه *الإنقال المقابل*؟»

«أفضّل التفكير *بالإنقال المقابل* بأنه استجابة المعالج العصابية تجاه المريض. وفي هذه الحالة، تكون لمشاعرك قاعدة عقلانية. فيصبح السؤال الصحيح هو، 'كيف تعمل مع شخص هو، في إطار أيّ معيار موضوعي، شخص بغيض، حقود قادر على تدمير الكثيرين؟'»

تمعّن فريدريش في كلمات المشرف، «بغيض حقود. كلمات قوية».

«أنت محقّ، دكتور بفيستر - كانت هذه عباراتي، وليست عباراتك، وأظن أنك تلمح، وأنت محقّ في ذلك، إلى مسألة أخرى - *الإنقال المقابل* للمشرف - التي يمكن أن تتدخّل في قدرتي على تعليمك. إن كوني يهودياً يجعل من المستحيل أن أقوم شخصياً بمعالجة هذا الشخص المعادي لليهود، القاتل، لكن لنر ما إذا كان بوسعي أن أفيدك كمشرف. حدّثني أكثر عن مشاعرك تجاهه».

«مع أنني لست يهودياً، فإني أشعر بالإهانة شخصياً لمعاداته لليهود. وفي جميع الأحوال، فإن الأشخاص المقربين إليّ هنا جلّهم من اليهود - محلّلي النفسي، وأنت، ومعظم أعضاء الهيئة التدريسية في المعهد». التقط فريدريش رسالة ألفريد، وقال: «انظر. إنه يتفاخر بالكتابة عن تقدّمه في عمله، ويتوقّع أن أكون سعيداً بذلك. بل إني أشعر بالإهانة بشكل متزايد وأخاف عليك وعلى جميع الألمان

المتحضّرين. أظن أنه رجل شرّير. وربما كان قدوته ومعبوده، هتلر هذا، الشيطان بعينه».

«هذا جزء، وهناك جزء آخر فيك يريد أن تواصل رؤيته. لماذا؟»

«لقد ناقشنا هذه المسألة من قبل - اهتمامي الفكريّ بمعالجة شخص يجمعني به ماض مشترك. فأنا أعرف شقيقه طوال حياتي، وأعرف ألفريد عندما كان طفلاً صغيراً».

«لكن دكتور بفيستر، من الواضح أنك لن تتمكن من معالجته أبداً. فالمسافة وحدها تجعل ذلك أمراً مستحيلاً. وفي أحسن الأحوال لن تراه إلّا بضع جلسات في أوقات متفرقة، ولن تتمكن من سبر ماضيه بعمق أبداً».

«صحيح. يجب أن أتخلّى عن هذه الفكرة. لا بد أن هناك أسباباً أخرى».

«أذكر أنك حدثتني عن شعورك بالماضي الذي تلاشى، ولا يوجد الآن إلّا صديقك وشقيقه. لقد نسيت اسمه...»

«يوجين».

«نعم، يبقى يوجين روزنبرغ فقط وشقيقه الأصغر ألفريد الذي لست على صلة وثيقة به. ووالداك متوفيان، لا يوجد لديك أشقّاء، ولا صلات أخرى تربطك بحياتك المبكّرة - لا أشخاص ولا أماكن. يبدو لي أنّك تحاول أن تنكر الشيخوخة أو الزوال وذلك بالبحث عن شيء خالد. أرجو أن تأخذ هذا الأمر بالاعتبار خلال تحليلك الشخصي؟»

«لا، ليس بعد. لكن تعليقاتك مفيدة. فلا يمكنني أن أوقف الزمن من خلال التعلّق بيوجين أو بألفريد. نعم، دكتور أبراهام، إنك تقول إن رؤية ألفريد لا تفيدني بشيء في صراعاتي الداخلية».

«هذا أمر في غاية الأهمية، دكتور بفيستر، سأكرّرها، إن رؤية

ألفريد روزنبرغ لا *تفيدك بشيء في صراعاتك الداخلية*. لذلك يكمن المكان في تحليلك. صحيح؟»

هزّ فريدريش رأسه، مستسلماً.

«إذاً فإني أسألك مرة أخرى - لماذا تريد أن تراه؟»

«لست متأكداً. أوافق على أنّه رجل خطير، ينشر الكراهية. لكني لا أزال أرى أنه ابن جيراننا الصغير، وليس رجلاً شرّيراً. أرى أنه رجل مضلّل، وليس شيطاناً. صحيح أنه يؤمن بذلك الهراء عن العرق، ويتبع في أفكاره وتصرفاته بدقة شديدة أفكار هيوستن ستيوارت تشامبرلن، فإني لا أرى أنه مضطرب عقلياً، أو سادي، أو شخص عنيف. إنه في الواقع شخص خجول جداً، جبان، ولا يشعر بالأمان. إنه يتعلّق بطريقة سيئة بالآخرين، ويستسلم كلياً للأمل بأن يحبّه زعيمه، هتلر. ومع ذلك، يبدو أنه يدرك القيود التي تحيط به، وهو مستعد بشكل مدهش لأن يجري علاجاً ما».

«إذاً أهدافك في العلاج هي...»

«قد أكون ساذجاً، لكن أليس صحيحاً أنني إذا تمكّنت من تحويله إلى شخص يتمتع بدرجة أعلى من الأخلاق، فإنه سيصبح أقل ضرراً على العالم؟ لا بد أن ذلك سيكون أفضل مما إذا لم أفعل شيئاً. بل حتى يمكنني أن أساعده على معالجة قوّة ولاعقلانية معادته للسامية».

«آه، إذا نجحت في معالجته، فإنك ستنال جائزة نوبل التي لم يحصل عليها فرويد حتى الآن. هل لديك أفكار كيف يمكنك أن تفعل ذلك؟»

«ليس بعد - لا تزال بعيدة، ويقيناً فهي هدفي أنا، لا هدف المريض».

«وما هو هدفه؟ ماذا يريد؟»

«هدفه الواضح هو أن يتقرّب بفعالية أكبر من هتلر ومن أعضاء الحزب الآخرين. عليّ أن أهرّب إلى آرائه شيئاً أسمى من ذلك».

«هل أنت مهرّب جيّد؟»

«لست سوى مبتدئ، لكن لديّ فكرة. لقد قلت لك إنني أعطيته دروساً عن سبينوزا. الجزء الرابع من كتاب الأخلاق - الجزء المتعلق بالسيطرة على عبودية الإنسان وقوة العاطفة والانفعالات - توجد عبارة لفتت انتباهي، يقول فيها سبينوزا إن العقل لا يضاهي العاطفة وما يجب أن نفعله هو أن نحوّل العقل إلى عاطفة».

«همممم، مثير للاهتمام. كيف تنوي القيام بذلك؟»

«لا توجد في ذهني طريقة محددة. لكنّي أعرف أنّني يجب أن أزيد من خصوبة فضوله حول نفسه. ألا يوجد لدى كلّ شخص اهتمام كبير بنفسه؟ ألا يريد كلّ شخص أن يعرف كلّ شيء عن نفسه؟ أعرف ذلك. سأبذل جهدي لتضخيم الفضول الذاتي لدى ألفريد».

«طريقة مثيرة للاهتمام من تأطير العلاج يا دكتور بفيستر. إنها طريقة مبتكرة. لنأمل أن يكون متعاوناً معك، وسأبذل ما بوسعي لمساعدتك في الإشراف. لكني أتساءل ألا يوجد عيب في حجتك؟»

«ما هو؟»

«الإفراط في التعميم. فالمعالجون مختلفون. فنحن أشخاص يتصفّ سلوكنا بالغرابة. ولا يشاركنا معظم الناس الآخرين في فضولنا الشديد حول العقل. حتى الآن، أسمع منك أنّ هدفه يختلف كثيراً عن هدفك: إن ما يسعى إليه هو أن يصبح محبوباً أكثر لزملائه النازيين. لذلك ضع نصب عينيك الخطر بأنه من الممكن أن يزيد العلاج أموره سوءاً بالنسبة لنا جميعاً! دعني أوضح أكثر. فإذا نجحت في مساعدة روزنبرغ على أن يتغيّر لكي يحبّه هتلر أكثر، تكون قد جعلته أكثر قدرة على ممارسة الشرّ».

«فهمت. تتمثّل مهمّتي في مساعدته لأن يتخذ هدفاً آخر، مغايراً تماماً - لكي يفهم ويقلل من حاجته المستميتة واللاعقلانية إلى حبّ هتلر».

ابتسم الدكتور أبراهام لطالبه الشابّ، وقال: «تماماً. أحبّ حماستك يا فريدريش. من يعرف؟ فربما استطعت القيام بذلك. دعنا نبحث عن مؤتمرات مهنية ستعقد في ميونيخ لكي تتمكن من حضورها وإجراء جلسات إضافية معه هناك».

* * *

بايريوث - تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٣

على الرغم من ضغوط عمله، واصل ألفريد خطّته للقيام بزيارة إلى هيوستن ستيوارت تشامبرلن وأقنع هتلر بسهولة بأن يرافقه. وكان هتلر أيضاً معجباً جداً بكتاب تشامبرلن «*أسس القرن التاسع عشر*»، ودأب على القول، حتى آخر أيام حياته، إن تشامبرلن (بالإضافة إلى ديتريش إكارت وريتشارد فاغنر) معلّمه الفكري الأساسي.

كان تشامبرلن يعيش في بايريوث، في وانفريد، بيت فاغنر الضخم القديم، مع زوجته إيفا (ابنة فاغنر)، وكوسيما، أرملة فاغنر ذات الستة والثمانين عاماً. وكان ألفريد سعيداً جداً في تلك الرحلة ذات المئة وخمسين ميلاً إلى بايريوث. فقد كانت أول رحلة يقوم بها في سيارة هتلر المرسيدس البراقة الجديدة وفرصته لأن يستأثر باهتمام هتلر وحده لبضع ساعات.

استقبلهما خادم وقادهما إلى الطابق العلوي حيث كان تشامبرلن يجلس في كرسي للمعوّقين، يغطّي ساقيه بعناية ببطانية مزركشة بمربعات زرقاء وخضراء، يحدّق من النافذة الكبيرة المطلة على باحة

حديقة فاغنر الداخلية. وبدا تشامبرلن الذي أصيب بمرض عصبي غامض أصابه بشلل جزئي ولم يعد قادراً على التكلّم بوضوح، أكبر من سنواته السبعين بكثير: وكان جسمه ممتلئاً بالبقع، وعيناه تخلوان من أي تعبير، نصف وجهه مشوه من التشنّجات. وكان تشامبرلن الذي ركّز عينيه على وجه هتلر، يومئ بين الحين والآخر، وكان يبدو أنه يفهم الكلمات التي يقولها هتلر. ولم ينظر إلى روزنبرغ قط. انحنى هتلر إلى الأمام، وقرّب فمه من أذن تشامبرلن، وقال: «إني أثمّن كلماتك في كتابك العظيم، *أسس القرن التاسع عشر* 'لقد دخل العرق الألماني في صراع قاتل مع اليهود الذين يجب محاربتهم لا بالمدفع فحسب وإنما بكلّ سلاح متاح في الحياة والمجتمع الإنسانيين'» فهزّ تشامبرلن رأسه، وتابع هتلر كلامه، «هير تشامبرلن، أعدك بأنّي سأكون الرجل الذي سيشنّ تلك الحرب من أجلك»، ومضى يصف بإسهاب برنامجه المؤلف من خمس وعشرين نقطة، وعن تصميمه الثابت والمطلق بأن تكون أوروبا خالية من اليهود. كان تشامبرلن يهزّ رأسه بقوة من حين لآخر وينعق «نعم، نعم».

عندما غادر هتلر الغرفة ليجتمع على انفراد مع كوسيما فاغنر، أصبح روزنبرغ وحده مع تشامبرلن، وقال له إنه عندما كان في السادسة عشرة فُتن، مثل هتلر، بكتاب *أسس القرن التاسع عشر*، وإنّه هو أيضاً يدين لتشامبرلن طوال حياته. ثمّ، انحنى نحو أذن تشامبرلن كما فعل هتلر، وأسرّ له، «بدأت أكتب كتاباً آمل أن يواصل عملك للقرن القادم». ربما ابتسم تشامبرلن - فقد كان وجهه مشوّهاً إلى حدّ أنه يصعب التأكد من ذلك. وواصل ألفريد، «ستملأ أفكارك وكلماتك كلّ صفحاتي. لقد بدأت بكتابته. سيكون مشروعي لخمس سنوات - هناك أشياء كثيرة يجب أن أفعلها. لكني كتبت للتو فقرة تقول: 'ستظهر ساعات الألمان المقدّسة ثانية عندما يصبح رمز

الصحوة - الراية التي تحمل شارة الصليب المعقوف التي تدلّ على انبثاق الحياة من جديد - العقيدة المهيمنة الوحيدة للرايخ". فنخر تشامبرلن، وربما قال: «نعم، نعم».

أسند ألفريد ظهره إلى كرسيه وراح يتطلع حوله. لم يكن هتلر مرئياً في أيّ مكان. انحنى ألفريد ثانية إلى أذن تشامبرلن وقال: «معلّمي العزيز، إني بحاجة إلى مساعدتك في أمر. إنها مشكلة سبينوزا. قل لي كيف تمكن هذا اليهودي من أمستردام أن يكتب أعمالاً عظيمة يجلّها ويقدّرها أعظم المفكّرين الألمان، بمن فيهم غوته الخالد. كيف يمكن لهذا أن يكون؟» فحرّك تشامبرلن رأسه بغضب وهمهم أصواتاً لم يميّز منها روزنبرغ سوى، «*جا*، *جا*» وسرعان ما غطّ في نوم عميق.

في طريق عودتهما، تحدّث الرجلان قليلاً عن تشامبرلن، لأن ألفريد كان يفكّر في خطة أخرى: وهي أن يقنع هتلر بأنه آن الأوان لكي يتصرّف الحزب. وراح ألفريد يذكّر هتلر بالحقائق الأساسية، وقال: «الفوضى تسود ألمانيا، وقد بدأ التضخّم يخرج عن نطاق السيطرة. فمنذ أربعة أشهر، كان الدولار يساوي ٧٥,٠٠٠ مارك ألماني، وأصبح الدولار البارحة يعادل ١٥٠ مليون مارك. البارحة طلب البقال عند ناصية الشارع ٩٠ مليون مارك ألماني ثمن رطل واحد من البطاطا. وأعرف أنه بعد فترة قصيرة ستبدأ آلات الطباعة في وزارة المالية بطباعة أوراق مالية من فئة التريليون مارك».

هزّ هتلر رأسه متبرماً. فقد أعاد ألفريد على مسامعه كلّ ذلك مرات ومرات.

«وانظر إلى جميع الانقلابات العسكرية التي تجري في كل

مكان»، واصل ألفريد، «انقلاب الشيوعيين في ساكسونيا، وانقلاب جيش الرايخ في شرق بروسيا، وانقلاب كاب في برلين، وانقلاب الانفصاليين في رينيش. أما في ميونيخ وفي جميع أنحاء بافاريا فإن برميل البارود الحقيقي يمكن أن ينفجر في أي لحظة. إن ميونيخ مليئة بعدد كبير من الأحزاب اليمينية التي تعارض الحكومة في برلين، لكن من بين كلّ هذه الأحزاب، فإننا الأكثر قوة، والأفضل تنظيماً. إنه زمننا! فقد استطعت أن أثير الناس بكتابة مقالة بعد مقالة في صحيفتنا. إننا نجهّزهم لعمل كبير سيقوم به الحزب».

لم يكن يبدو أن هتلر واثق من ذلك. فأخذ ألفريد يضغط عليه، «لقد آن الأوان. إما أن تتصرّف الآن وإلّا فإنك ستخسر لحظتك».

عندما وصلت السيارة إلى مبنى مكاتب الصحيفة، لم يقل هتلر شيئاً سوى: «هناك أشياء كثيرة يجب أن نفكّر فيها يا روزنبرغ».

بعد بضعة أيام، جاء هتلر لزيارة ألفريد في مكتبه. وبابتسامة كبيرة أخذ يلوّح برسالة بعث بها هيوستن ستيوارت تشامبرلن، وراح يقرأ منها بعض الفقرات بصوت مرتفع:

٧ تشرين الأول ١٩٢٣

هير هتلر العزيز والمبجل:

لديك كلّ الحقّ في أن تُدهش لهذا التطفّل، بعد أن رأيت بأمّ عينك كم يصعب عليّ أن أتكلّم. لكنّي لا أستطيع أن أقاوم هذه الرغبة الملحة لأن أوجّه لك بضع كلمات.

إني أتساءل لماذا أنت من بين جميع الناس، أنت الرجل الاستثنائي الذي سيوقظ الشعب من غفلته ومن أعماله الروتينية الرتيبة، الرجل الذي جعلني أنام مؤخراً نوماً هادئاً ولفترة أطول منذ أن تعرضت لذلك الحادث المؤسف في شهر آب ١٩١٤ وأصبت بهذا

المرض اللعين. أظن الآن أنّني فهمت أن هذا بالتحديد ما يميّزك ويعرّفك بأنك الشخص الموقظ الحقيقي وفي الوقت نفسه مانح السلام...

إن ما جلب لي السلام يرتبط كثيراً بحركات عينيك ويديك، فعينك تفعل كما تفعل اليد تقريباً: إنها تقبض وتمسك الشخص، وتمتاز بقدرة خاصة على تركيز كلماتك على مستمع واحد في أيّ لحظة. أما يداك، فهما معبّرتان كثيراً في حركتهما إلى حدّ أنهما تنافسان عينيك. رجل مثلك يمنح روحاً مسكينة متألمة مثل هذا الشعور بالارتياح! خاصة عندما يكرّس نفسه لخدمة أرض الأجداد.

لم يتردّد إيماني بالقومية الألمانية لحظة واحدة، مع أني أعترف بأن آمالي قد وصلت إلى الحضيض. وبضربة واحدة غيّرت حالة روحي، وهي أن ألمانيا التي أنجبت هتلر في أحلك وأقسى أوضاعها دليل على حيويتها. وتقدّم أعمالك دليلاً آخر، وهو أن شخصية وأعمال الرجل تتناغمان.

الآن بدأت أنام خالي الهموم. لم يوقظني شيء آخر مرة أخرى. كان اللّه في حمايتك!

هيوستن ستيوارت تشامبرلن

«لا بدّ أنه استعاد قدرته على الكلام وقد أملى هذه الرسالة الرائعة»، قال ألفريد باذلاً جهده لإخفاء شعوره بالحسد، ثمّ أضاف بسرعة، «وهو يستحق ذلك فعلاً، هير هتلر».

«الآن، دعني أقدم لك بعض الأخبار الخقيقية»، قال هتلر، «لقد انضم إلينا إريك لوديندورف».

«ممتاز! ممتاز!» أجاب ألفريد. «فقد كان لوديندورف رجلاً

غريب الأطوار، لكنّه لا يزال يحظى باحترام الجميع لكونه ضابطاً برتبة مارشال».

وتابع هتلر، «لقد وافق على فكرتي بأن نقوم بانقلاب عسكري، ووافق على ضرورة أن نندمج مع الجماعات اليمينية الأخرى، حتى تلك الجماعات التي تناصر الملكية والانفصاليين البافاريين، وأن نقتحم الاجتماع الذي سيعقد مساء ٨ تشرين الثاني، ونخطف عدداً من المسؤولين الحكوميين البافاريين، ونرغمهم بتهديد السلاح على أن يقبلوا أن أكون زعيمهم. وفي اليوم التالي، سنتوجّه في مسيرة إلى مركز المدينة إلى وزارة الحرب، وبمساعدة الرهائن وسمعة المارشال لوديندورف، نستولي على الجيش الألماني. ثمّ سنحاكي مسيرة موسوليني إلى روما ونتوجه إلى برلين الحمراء ونسقط الحكومة الألمانية الديمقراطية».

«ممتاز! إننا في سبيلنا إلى تحقيق ذلك». كان ألفريد مبتهجاً جداً ولم يكد يكترث لتجاهل هتلر بأن ألفريد هو من اقترح عليه هذه الخطة. فقد اعتاد هتلر على الاستيلاء على أفكاره من دون أن يعترف له بالفضل في ذلك.

لكن الأمور لم تسر كما كان مخططاً لها، وفشل الانقلاب فشلاً ذريعاً. ففي مساء ٨ تشرين الثاني، ذهب هتلر وألفريد معاً لحضور الاجتماع الذي سيعقده ائتلاف الأحزاب اليمينية التي لم تجتمع أو تتشاور معاً من قبل قط، وعندما سادت الاجتماع الفوضى اعتلى هتلر إحدى الطاولات وأطلق من مسدّسه طلقة إلى السقف فعاد الهدوء إلى الاجتماع، ثم قام النازيون باختطاف مندوبي حكومة بافاريا وأخذوهم رهائن. وظنّ المختطفون أن المندوبين اقتنعوا بآراء النازيين، فلم يشدّدوا على حراستهم، فهرب الرهائن في الليل. وعلى الرغم من ذلك، فقد قبل هتلر إصرار لوديندورف على المضي

في انطلاق المسيرة الشعبية في الصباح، بأمل أن تشتعل ثورة في صفوف المواطنين. كان لوديندورف على يقين بأن رجال الجيش أو الشرطة لن يجرؤوا على إطلاق النار عليهم. عاد روزنبرغ بسرعة إلى المكتب وأعدّ العناوين الرئيسية للصحيفة التي تدعو إلى قيام ثورة شعبية. وفي وقت مبكّر من صباح ٩ تشرين الثاني ١٩٢٣، بدأ رتل مكوّن من ألف رجل، العديد منهم مسلّحون، بمن فيهم هتلر وروزنبرغ، مسيرتهم إلى وسط ميونيخ. كان يسير في الصف الأمامي هتلر والمارشال لوديندورف ببدلته العسكرية الكاملة وخوذته التي شارك فيها في الحرب العالمية؛ وهيرمان غورينغ، إحدى الشخصيات المعروفة الهامة في الحرب العالمية الذي وضع أوسمته الحربية العديدة؛ وشيوبنر ريشتر الذي سار شابكاً يده بيد صديقه المقرّب هتلر. أما روزنبرغ فكان يسير في الصفّ الثاني وراء هتلر مباشرة. وكان رودولف هيس يسير وراء روزنبرغ بالإضافة إلى بوتزي هانفستانغل (المتبرّع الذي مكّن الصحيفة من أن تصبح صحيفة يومية). وبعد بضعة صفوف، سار هينريش هيملر حاملاً علم الحزب النازي.

عندما وصلوا إلى ساحة مفتوحة، كان بانتظارهم حاجز من الجنود. صاح هتلر بهم وطالبهم بالاستسلام، ففتحوا عليهم النار، وأعقب ذلك تبادل للنيران لمدة ثلاث دقائق فتفرّق المتظاهرون على الفور. ولقي ستّة عشر نازياً وثلاثة جنود حتفهم. وتقدّم المارشال لوديندورف إلى الحاجز من دون تردّد، ودفع بنادق الجنود جانباً، فحيّاه ضابط باحترام واعتذر منه لأنه مضطر لأن يأخذه إلى حبس وقائي. وأصيب غورينغ بجرحين أسفل بطنه لكنه زحف بأمان ونُقل إلى طبيب يهودي وعالجه، ثم أُبعد من البلد بسرعة. أما شيوبنر ريشتر الذي كان يشبك ذراعيه بذراعي هتلر، فقد قُتل على الفور

وسحب هتلر إلى الأرض، فخُلع كتفه. وألقى حارسه الشخصي الذي يدعى أولريك غراف بنفسه فوق هتلر وأخذ عنه عدة طلقات، وأنقذ حياة هتلر.

ومع أن الرجل الذي كان يقف إلى جانب ألفريد قد قُتل، لم يصب ألفريد بأذى وزحف نحو الرصيف وتمكن من الهرب وسط الجموع. ولم يجرؤ على الذهاب إلى البيت أو إلى المكتب - فقد أغلقت الحكومة الصحيفة إلى أجل غير مسمى، ووضعت حرّاساً أمام مكاتب الصحيفة. وفي النهاية أقنع ألفريد امرأة مسنّة بالسماح له بأن يختبئ في بيتها خلال الأيام القليلة القادمة. وفي أثناء ذلك، كان يتجوّل ليلاً في شوارع ميونيخ لكي يعرف ماذا حلّ برفاقه. وزحف هتلر الذي كان يعاني من ألم شديد، بضعة أقدام، واستقلّ سيارة كانت بانتظاره، ورافقه طبيب من الحزب، ونُقل إلى بيت بوتزي هانفستانغل حيث عولجت كتفه، واختبأ في الغرفة العلوية. وقبل أن يُلقى عليه القبض مباشرة، كتب رسالة إلى ألفريد وطلب من السيدة هانفستانغل أن تسلّمها له. ووجدت ألفريد في اليوم التالي وسلّمته الرسالة التي فتحها على الفور ولدهشته العظيمة قرأ:

عزيزي روزنبرغ، من الآن فصاعداً عليك أن تقود الحركة.
أدولف هتلر

الفصل السابع والعشرون

رنسبرخ - ١٦٦٢

بعد بضعة أيام، تلاشى خوف بنتو. فقد ولّت أيام تسارع دقات القلب، وضيق الصدر، والرؤى التي تقتحم عقله لمحاولة قتله. شعر بالراحة وبالأمان وبدأ يتنفس بسهولة! وعندما غمره الهدوء، بدأ يلوح له وجه القاتل في مخيلته، وبناء على نصيحة فرانكو، أخذ ينظر إلى المعطف الأسود المشقوق المعلّق على جدار غرفته.

وبعد مرور عدة أسابيع على محاولة اغتياله وزيارة فرانكو له، بدأ يفكّر في آليّات التغلّب على الخوف. كيف استعاد توازنه ووقاره؟ ألم يكن ذلك لأنه فهم الأسباب التي حفّزت القاتل على قتله؟ كان بنتو ينحو إلى هذا التفسير - الذي بدا تفسيراً قوياً، معقولاً. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان الشكّ يساوره حول ارتباطه القوي بقوّة الفهم. وفي جميع الأحوال، لم يسعفه ذلك في بداية الأمر، لأن الفكرة لم تكتسب أهمية لديه إلّا بعد مجيء فرانكو. وكلّما فكّر في الأمر أكثر، تبين له أن فرانكو قدّم له شيئاً جوهرياً في شفائه. كان بنتو يدرك أنه كان في أسوأ أحواله عندما جاء فرانكو، لكنه بدأ يشعر بالتحسّن بسرعة. لكن ماذا قدّم له فرانكو بالتحديد؟ ربّما كانت مساهمته الرئيسية تكمن في تشريح عناصر الرعب وإظهار أنّ بنتو كان

مُكَدّراً ومضطرباً لأنّ الذي حاول أن يقتله يهودي. بعبارة أخرى، فقد ازداد خوفه بسبب ألمه الدفين لانفصاله عن بني ملّته. تلك الليلة تفسّر قوّة فرانكو الشافية: فلم يساعده على إبراز عملية عقلية له فحسب، وإنما قد يكون قد أظهر له، إلى درجة أكبر، وجوده المطلق - وجوده اليهودي.

كما ساهم فرانكو في انتشال بنتو من غيرته المعذّبة عندما بيّن له لاعقلانية توقه إلى شيء لا يرغب فيه حقاً، وليس من الممكن أن يحصل عليه. فاستعاد بنتو باضطراد شعوره بالطمأنينة، ولم تمض فترة طويلة حتى استعاد صداقته مع كلارا ماريا وديرك. وعلى الرغم من ذلك، فقد تجمعت غيوم داكنة في عقله مرة أخرى عندما رأى كلارا ماريا تضع حول عنقها قلادة من اللؤلؤ أهداها لها ديرك. ثم تحوّلت تلك الغيوم إلى عاصفة كبيرة، عندما أعلنا عن خطوبتهما بعد بضعة أيام. لكن هذه المرّة، انتصر العقل، وحافظ بنتو على توازنه، ولم يدع انفعالاته وعواطفه تمزّق علاقته مع صديقيه الحميمين.

وعلى الرغم من ذلك، فقد تعلّق بنتو بذاكرة اللمس إلى درجة كبيرة عندما أمسكت كلارا ماريا يده طوال الليلة التي أعقبت محاولة قتله. وتذكّر كذلك كيف أمسك فرانكو كتفه بقوة، وكيف كان يشبك يده بيد شقيقه غابرييل. أما الآن فلم تعد هناك ملامسة مع أحد، مهما تاق جسده إلى ذلك. وكانت تتسلل إلى عقله أحياناً تخيّلات وهو يعانق كلارا ماريا أو عمّتها مارثا التي كان يرى أنها جذّابة أيضاً، لكن سرعان ما كانت هذه التخيّلات تزول وتنجرف بعيداً. أما الاشتياق الذي يراوده ليلاً فكان مسألة أخرى: فلم يستطع أن يوصد أية أبواب تمنع تسللها إلى أحلامه، ولم يستطع أن يوقف التدفّق الليلي لبذرته التي كانت تلطخ في أحيان كثيرة غطاء فراشه. كان يودع كلّ ذلك، بالطبع، في أعمق سراديب الصمت، لكن هل

سيفضي بما يجري له إلى فرانكو، كان بإمكانه أن يتوقّع الردّ: «فالأمر هو هكذا دائماً - لأن الضغط الجنسي جزء من كوننا مخلوقات. إنه القوة التي تمكننا من الحفاظ على نوعنا».

ومع أن بنتو رأى حكمة في النصيحة التي أسداها إليه فرانكو بأن يغادر أمستردام، فقد ظلّ فيها عدّة أشهر. وأسفرت مهاراته اللغوية وقدراته في المنطق عن طلب عدد كبير من الطلاب في حركة المجمعيين لمساعدتهم في أن يترجم لهم بعض الوثائق العبرية واللاتينية. وبعد فترة قصيرة، أسس هؤلاء نادياً للفلسفة برئاسة صديقه سيمون دي فريس، وبدأوا يعقدون اجتماعات منتظمة يناقشون فيها أفكار بنتو.

إلّا أن دائرة الأصدقاء الممتنين المفيدة لتقديره الشخصي، بدأت تتدخل في وقته أيضاً، فأصبح يجد صعوبة للتفرغ للأفكار التي كانت تتشكّل وتتبرعم في ذهنه. فأعرب لصديقه سيمون دي فريس عن رغبته في أن يعيش حياة أكثر هدوءاً، فوجد له سيمون، بمساعدة أعضاء آخرين في نادي الفلسفة، بيتاً في رنسبرخ. ولم تكن رنسبرخ، البلدة الصغيرة التي تقع على نهر فليت وتبعد أربعين كيلومتراً عن أمستردام، مركزاً لحركة المجمعيين فقط، وإنما كانت أيضاً قريبة من جامعة ليدين حيث سيتمكن بنتو الذي أصبح الآن يتقن اللغة اللاتينية، من حضور دروس الفلسفة فيها ويستمتع برفقة الدارسين الآخرين.

أحبّ بنتو رنسبرخ كثيراً. كان البيت الذي أقام فيه مشيّداً من حجارة صلدة، وله عدة نوافذ صغيرة ذات ألواح زجاجية تطلّ على بستان تفاح معتنى به، وقد كُتب على الجدار عند المدخل شطر من قصيدة تعبّر عن سخط العديد من أعضاء حركة المجمعيين على الوضع في العالم:

واحسرتاه! لو كان البشر جميعاً عقلاء،
ولديهم نوايا حسنة أكثر
لأضحى العالم جنة
أما الآن فهو في معظمه جحيم!

كان الجزء من البيت الذي أقام فيه بنتو يتألف من غرفتين في الطابق الأرضي، غرفة يدرس فيها تضم مكتبة تتنامى بسرعة، وسريراً له أربعة أعمدة، وغرفة أصغر يعمل فيها معدات لصقل العدسات. وكان الدكتور هومان، وهو جرّاح، يقيم مع زوجته في الجزء الآخر من البيت - مطبخ وغرفة جلوس كبيرة وغرفة نوم في الطابق العلوي يمكن الصعود إليها بواسطة درج شديد الانحدار.

وكان بنتو يدفع مبلغاً ضئيلاً إضافياً لقاء طعام العشاء الذي كان يتناوله عادة مع الدكتور هومان وزوجته اللطيفة. وبعد أن يمضي أياماً طويلة منعزلاً يكتب ويصقل العدسات، كان يتطلّع أحياناً إلى صحبتهما، لكن عندما يكون مستغرقاً في فكرة ما، كان يعود إلى عادته القديمة ويتناول العشاء وحده في غرفته لأيام عديدة، يحدّق بأشجار التفاح الريانة في الحديقة الخلفية، وهو يفكّر ويكتب.

مضت سنة هادئة جداً. وفي صباح أحد الأيام في شهر أيلول، استيقظ بنتو وهو يشعر بأنه على غير ما يرام، منحرف المزاج، يشعر بقليل من الألم. لكن على الرغم من ذلك، قرّر أن يواصل خطته بالسفر إلى أمستردام ليسلّم أحد الزبائن عدسات منظار رقيقة. وكان صديقه سيمون دي فريس، سكرتير النادي الفلسفي، قد رتّب له أيضاً اجتماعاً لمناقشة الجزء الأول من عمل بنتو الجديد. أخرج بنتو من حقيبته آخر رسالة استلمها من سيمون وراح يقرأها للمرة الثانية.

صديقي المبجل - أنتظر وصولك بنفاد الصبر. أشتكي أحياناً من قدري، لأن مسافات طويلة جداً باعدت فيما بيننا. سعيد، نعم، لكن الأكثر سعادة هو الدكتور هومان الذي يسكن معك تحت نفس السقف والذي يمكنه أن يناقشك حول أفضل المواضيع، على العشاء، عند وجبة المساء، وفي أثناء نزهاتكما سيراً على الأقدام. لكن بالرغم من أنني بعيد عنك جسدياً، فإنك حاضر دائماً في عقلي، لاسيما في كتاباتك، عندما أقرأها وأقلّب صفحاتها. لكن بما أن الغموض يشوب الكثير منها بالنسبة لأعضاء نادينا، بدأنا سلسلة جديدة من اللقاءات، ونتطلع إلى أن تفسّر لنا الفقرات التي تستعصي على فهمنا لكي نفهمها بصورة أفضل بتوجيهاتك ونتمكن من الدفاع عن الحقيقة أمام هؤلاء المتدينين الذين يؤمنون بالخرافات ولصدّ الهجوم الذي يشنّه العالم كلّه.

المخلص لك،

س. ج. دي فريس

عندما طوى بنتو الرسالة، غمره شعور بالبهجة وبالقلق في آن معاً - البهجة من كلمات سيمون الطيبة لكن القلق من توقه إلى جمهور معجب به. ولا شك أن قراره بالانتقال إلى رنسبرخ كان قراراً حكيماً. لكنه تصوّر أن إمكانية الانتقال إلى أبعد من أمستردام سيكون قراراً أكثر حكمة.

سار المسافة القصيرة إلى أوخستخيست، ولقاء ٢١ نيكلاً استقلّ التركشويت الصباحي، وهو قارب سحب تجرّه خيول إلى قناة تريكفارت الصغيرة، التي حُفرت مؤخراً وتفضي مباشرة إلى أمستردام. ولقاء بضعة نيكلات أخرى كان بإمكانه أن يجلس في المقصورة، لكن بما أنه كان يوماً مشمساً جميلاً، فقد جلس على

سطح المركب وراح يعيد قراءة مقدمة بحثه «*رسالة في إصلاح العقل*» التي سيناقشها يوم غد مع أعضاء نادي الفلسفة الذي يرأسه سيمون. كان قد بدأ بحثه بشكل شخصي عن السعادة.

بعد أن علّمتني التجربة أن بيئة الحياة الاجتماعية المحيطة المعتادة تافهة وعديمة الجدوى؛ وبعد أن اتضح لي أن الأشياء التي كانت في نظري موضوعاً للخوف لا تنطوي في ذاتها لا على الخير ولا على الشر، إلّا ما يتأثر العقل بها، فقد عزمت أخيراً على البحث عمّا إذا كان يوجد شيء يكون خيراً حقيقياً قابلاً للتوصيل تزهد النفس فيما عداه ولا تتأثر بسواه، بحيث يجعلها اكتشاف هذا الخير وامتلاكه مبتهجة أبداً أعظم ابتهاج.

ثم وصف عدم قدرته على بلوغ هدفه فظلّ يتمسك بمعتقداته الثقافية التي تقول بأنّ السعادة العظمى تكمن في الثروة والمجد واللذة الحسّية. وأصرّ على أن هذه الأشياء ليست جيّدة من أجل صحته. قرأ تعليقاته بدقة حول محددات هذه الأشياء الدنيوية الثلاثة.

إن اللذة الحسّية تشغل العقل إلى حدّ تجعله هامداً، كما لو أنه بلغ أقصى درجات الخير، فيصبح عاجزاً تماماً عن التفكير بأيّ خير آخر؛ وبعد إرضاء هذه المتعة، فإن حزناً شديداً يعقبها، حزن شديد يشوش الفكر ويضعفه ويثبطه.

أما السعي إلى *الشهرة* والمجد، فهو لا يشغل العقل بدرجة أقل من اللذة، لاسيما السعي إلى الثراء إذا كنا نبحث عنه لذاته لأنه سيظهر آنذاك بمظهر الخير الأعظم، أما المجد فهو يشغل الفكر ويصرفه عن كلّ شيء آخر. ولا يعقب الثروة والمجد، كما يعقب اللذة الحسية شعور بالندم، وإنما، على العكس، كلما نلنا المزيد،

ازداد شعورنا بالبهجة، وزاد بالتالي دأبنا أكثر فأكثر على مضاعفتهما، وإذا صادف أن خابت آمالنا، فإننا نغوص في حزن عميق.

ومن مثالب المجد الأخرى أنه يرغم الساعي إليه على أن ينظم حياته بحسب ما يراه أتباعه، فيتجنّب ما يتجنّبونه عموماً، ويسعى إلى تحقيق ما يريدونه.

هزّ بنتو رأسه، قانعاً بالوصف الذي قدمه لمشكلة *المجد*. والآن إلى العلاج: فقد أبرز الصعوبات التي واجهته للتخلّي عن خير ثابت من أجل خير غير ثابت. بيد أن شيئاً من الانتباه جعله يتبين أنه لو تنازل عن تلك الأشياء من أجل تحقيق حياة جديدة، فإنه يكون قد تخلّى عن خير ثابت بطبعه، ومع أنه كان سعيداً بتقدّم أفكاره والحجج التي يقدمّها، بدأ يشعر بالضيق عندما واصل القراءة. فربما قال وكشف الكثير عن مكنونات نفسه في عدة فقرات:

لذلك أدركت أنّني أصبحت في خطر عظيم، ورأيت أنني أندفع إلى البحث بكلّ ما أوتيت من علاج، حتى لو لم يكن مؤكّداً ومشكوكاً فيه، مثل رجل مريض مصاب بمرض عضال، عندما يرى أنّ الموت أصبح يجثم فوقه وأنه سيموت لا محالة إذا لم يجد علاجاً، فيضطر إلى البحث عن علاج بكلّ ما أوتي من قوة، لأن أمله كله يتوقف عليه.

أحسّ بتدفق الدم في وجهه وهو يقرأ وبدأ يهمهم لنفسه، «هذه ليست فلسفة. إنه أمر شخصي للغاية. ماذا فعلت؟ فليست هذه إلّا مجادلة انفعالية تهدف ببساطة إلى استثارة العواطف. أصمم... لا، أكثر من أن أصمم، أقسم... بأنه في المستقبل، أنا بنتو سبينوزا بأن

تكون أبحاثه وهواجسه وتمنياته غير مرئية للآخرين. فأنا لا أكتب صدقاً إن لم أستطع أن أقنع القرّاء كليّاً بعقلانية مقولاته».

هزّ رأسه وهو يواصل قراءة الفقرات التي يصف فيها كيف أن بعض الرجال قد ضحّوا بكلّ شيء، حتى بحياتهم، سعياً للحصول على الثروة وبلوغ المجد والانغماس في الملذات الحسّية. وسأقدم الآن العلاج في جمل مقتضبة قوية.

(١) يبدو أن جميع هذه الشرور التي تنشأ من السعادة أو الشقاء تتوقف على نوعية الشيء الذي نحبّه.

(٢) عندما لا يكون الشيء محبوباً، فلن تنشأ حوله نزاعات وخلافات - فلو هلك هذا الشيء لما شعرنا بالحزن أو بالكراهية، باختصار لا تحدث أي اضطرابات في أنفسنا.

(٣) وينشأ كلّ ذلك من حبّ الأشياء الفانية، كالأشياء التي تحدثنا عنها سابقاً.

(٤) أما إذا أحببنا شيئاً أبدياً لامتناهياً فإنه سيملأ أنفسنا بهجة خالصة من كلّ حزن، لذلك يجب أن نسعى إليه ونرغب فيه بكلّ ما أوتينا من قوة.

لم يعد بإمكانه أن يكمل. فقد بدأ رأسه يخفق - لا بد أنه لم يكن على ما يرام اليوم - أغمض عينيه وغفا لما بدا ربع ساعة. وعندما فتح عينيه كان أول ما رآه مجموعة من الأشخاص يلتفون بعضهم حول بعض بإحكام يتراوح عددهم بين عشرين وثلاثين شخصاً، يسيرون بمحاذاة القناة. من هم؟ إلى أين هم ذاهبون؟ لم يستطع أن يشيح بنظره عنهم عندما اقترب المركب منهم ثم تجاوزهم. وفي المحطّة التالية، حيث كانت المسافة إلى بيت سيمون

دي فريس في أمستردام لا تزال تبعد مسيرة ساعة على الأقل، حيث سيمضي الليلة، فوجئ بأن حمل حقيبته، وقفز من المركب، وعاد مسرعاً نحو تلك المجموعة.

عندما اقترب منهم لاحظ أنّ الرجال الذين يرتدون ثياب الطبقة العاملة الهولندية، يعتمرون جميعاً الطاقية اليهودية. نعم، لا بدّ أنهم يهود، لكنهم من يهود الأشكناز، لذلك لن يعرفوه. اقترب منهم. توقّفت المجموعة عند ساحة بجانب ضفتي القناة وتحلّقوا حول زعيمهم الذي لا ريب أنه حاخامهم والذي بدأ ينشد عند حافة الماء. اقترب بنتو من المجموعة ليسمع ما يقوله. امرأة مسنّة، قصيرة وبدينة، غطّت كتفيها بقماشة سوداء سميكة، رمقت بنتو لبضع دقائق، ثمّ دنت منه ببطء. نظر بنتو إلى وجهها المجعّد. كانت لطيفة جداً، تبدو مثل أمّ إلى حد أنه ظنها أمّه. لكن لا، فقد ماتت أمّه في سن أصغر مما هو الآن. وستكون هذه المرأة العجوز في عمر أمّها. اقتربت منه أكثر وسألته، « *Bist an undzeriker?* (هل أنت واحد منّا؟»)

مع أن بنتو كان قد تعلّم بضع كلمات من لغة الإيدش من خلال معاملاته التجارية مع اليهود الأشكنازيين، فقد فهم سؤالها لكنه لم يستطع أن يجيبها. أخيراً، همس وهو يهزّ رأسه، «سيفارديم».

«آه، *ir zayt an undzeriker. Ot iz a matone fun Rifke*» («إذاً أنت واحد منّا. ها هنا، هذه هدية من ريفكه») ومدّت يدها إلى جيب مئزرها، وأعطته قطعة كبيرة من الخبز الطازج، وأشارت إلى القناة.

أومأ لها شاكراً، وعندما ابتعد، ضرب بنتو على جبينه ودمدم قائلاً، «*تاشليخ*. مدهش. إنه روش *هاشناه* (رأس السنة العبرية) - كيف نسيت ذلك؟» كان يعرف مراسم *تاشليخ* جيداً. فمنذ قرون يقيم اليهود صلاة روش *هاشناه* على ضفاف مياه جارية تنتهي بأن يلقوا

قطع الخبز في الماء. وتذكّر الكلمات في العهد القديم: «سيشفق *علينا الرب مرة أخرى، سيدوس آثامنا، ويرمي كلّ معاصينا في أعماق البحر*» (سِفْر ميخا ٧-١٩).

اقترب أكثر ليسمع ما يقوله الحاخام الذي راح يحثّ الرجال المتحلقين حوله، والنساء الواقفات في دائرة خارجية، على أن يتذكّروا الأشياء التي فعلوها وندموا عليها خلال السنة الماضية، وكلّ أفعالهم وتصرفاتهم التي تتسم بالقسوة، وأفكارهم الدنيئة، وحسدهم وكبرياءهم وذنوبهم، وطلب منهم أن يلقوا بها، وبالأفكار الحقيرة والتافهة كما يرمون الخبز الذي لديهم الآن. ورمى الحاخام قطعة الخبز التي بيده في الماء، وعلى الفور حذا الآخرون حذوه. دسّ بنتو يده بسرعة في جيبه الذي وضع فيه قطعة الخبز، لكنه سحبها بسرعة. فلم يشأ أن يشارك في أيّ طقوس، فضلاً عن أنه عابر سبيل وأصبح بعيداً عن القناة أيضاً. وأخذ الحاخام يرتل الصلوات والأدعية بالعبرية، وراح بنتو يدمدم الكلمات معه لاشعورياً. بصورة عامة، كانت طقوساً مبهجة ومعقولة، وعندما استدار الجمع ليسيروا باتجاه كنيسهم، أومأ له عدد منهم وقالوا: «غوت يونتيف دير» («عطلة سعيدة لك»). فردّ عليهم بابتسامة، «غوت يونتيف دير» («عطلة سعيدة لكم»).

أحبّ وجوههم. كانوا يبدون أناساً طيبين. ومع أنّ مظهرهم كان يختلف عن مظهره السيفارديم، فقد كانوا لا يزالون يشبهون الأشخاص الذين كان يعرفهم عندما كان طفلاً. بسيطون لكن وقورون. يغمرهم شعور بالطمأنينة والراحة لأنهم مع بعضهم. لقد اشتاق إليهم. نعم، اشتاق إليهم.

عندما سار إلى بيت سيمون وهو يقضم قطعة الخبز التي أعطتها له ريفكه، بدأ بنتو يفكّر في هذه التجربة. من الواضح أنه كان يقلل

من أهمية قوّة الماضي. تتعذر إزالته، لا يمكن محوه. فهو يلوّن الحاضر ويؤثّر في المشاعر وفي والتصرفات كثيراً. وفهم بوضوح أكثر من أي وقت مضى، كيف أن الأفكار والمشاعر الكامنة في اللاوعي هي جزء من الشبكة المسببة. لقد اتضحت له أشياء عديدة: القوّة الشافية التي استمدّها من فرانكو، وطقوس التاشليخ القوية الجميلة، حتى الطعم المميّز لقطعة خبز ريفكه التي راح يمضغها ببطء كأنه يريد أن يمتصّ ويتذوّق كلّ حبة فيها. والأكثر من ذلك، كان متيقناً بأنّ في عقله تقويماً غير مرئي: فعلى الرغم من أنه كان قد نسي روش *هاشاناه*، فإن جزءاً من عقله تذكّر أنّ اليوم يشير إلى بداية سنة جديدة، ربما كانت هذه المعرفة المخفية هي سبب الوعكة التي ألمّت به طوال اليوم. عندما راودته هذه الفكرة، تلاشت كلّ أوجاعه وإحساسه بالتثاقل، فراح يغذّ الخطى متجهاً إلى أمستردام وإلى بيت سيمون دي فريس.

الفصل الثامن والعشرون

مكتب فريدريش،
٣ أوليفيير بلاتس، برلين - ١٩٢٥

لأنّكم لستم أنتم، أيها السادة، الذين يمكنكم أن تصدروا حكماً علينا، لأن هذا الحكم تصدره محكمة التاريخ الأبديّة. . . تعلنون أننا مذنبون ألف مرة: ستبتسم إلهة محكمة التاريخ الأبديّة وستمزّق ادعاءات المدّعي العام وقرار المحكمة، لأنها تعلن براءتنا.

- أدولف هتلر، السطور الأخيرة من خطاب محاكمته في ميونيخ ١٩٢٤

في ١ نيسان ١٩٢٥، عادت الصحيفة إلى الظهور كصحيفة يومية. ومن الذي أعيد تعيينه كرئيس تحرير، بالرغم من كلّ التماساتي ومناقشاتي؟ - إنه روزنبرغ، الضيّق الأفق، الذي لا يطاق، والذي يهزأ بالأساطير، نصف اليهودي المعادي للساميّة، والذي أكرر حتى الآن، بأنه أضرّ بالحركة أكثر مما فعل أيّ رجل آخر باستثناء غوبلز.

- إرنست (بوتزي) هانفستانغل

«ملاحظة هتلر أدهشتني تماماً. انظر، يا فريدريش، أريدك أن تراها بأمّ عينك. إني أحملها في محفظتي طوال الوقت. أحتفظ بها الآن في مغلف - بدأ يهترئ».

أخذ فريدريش الرزمة بحذر، فتح المغلف، وأخرج الرسالة.

عزيزي روزنبرغ، من الآن فصاعداً عليك أن تقود الحركة.
أدولف هتلر

«إذاً، أُرسلت لك هذه الرسالة بعد الانقلاب الفاشل مباشرة - قبل سنتين؟»

«بعده بيوم. كتبها في ١٠ تشرين الثاني ١٩٢٣»

«حدّثني أكثر عن ردّة فعلك».

«كما قلت، كنت مذهولاً. لم أكن أتصوّر أنه سيختارني لأحلّ محله».

«تابع».

هزّ ألفريد رأسه وقال: «أنا...». غصّ لحظة، ثمّ تمالك نفسه وأضاف، «لقد ارتعش جسدي كلّه. تملكتني الحيرة. كيف يمكن لشيء كهذا أن يحدث؟ فلم يذكر هتلر شيئاً عن قيادتي للحزب قط قبل هذه الرسالة - ولم يذكر شيئاً عنها بعد أن كتبها!»

لم يتحدّث هتلر عنها قط، لا قبل ولا بعد. حاول فريدريش أن يستوعب تلك الفكرة الغريبة لكنه واصل التركيز على انفعالات ألفريد. التدريب الذي أجراه في التحليل النفسي جعله صبوراً أكثر. فقد كان يعرف أن كلّ شيء سيظهر في حينه. «ثمة انفعال قوي في صوتك يا ألفريد. من المهم متابعة المشاعر. كيف كانت مشاعرك؟»

«لقد انهار كلّ شيء بذلك الانقلاب. فقد تشتت الحزب.

وأصبح زعماء الحزب إما في السجن مثل هتلر، وإما خارج البلاد، مثل غورينغ، أو تواروا عن الأنظار، مثلي. وحظرت الحكومة الحزب وأغلقت صحيفة *Völkischer Beobachter* بشكل دائم، ولم تعد إلى الصدور إلّا منذ بضعة أشهر، وعدت إلى عملي القديم».

«أريد أن أسمع عن كلّ ذلك، لكن في هذه اللحظة، عد إلى مشاعرك حول الرسالة. افعل ما فعلناه من قبل: تخيّل المشهد عندما فتحت الرسالة لأول مرة، ثمّ قل لي ماذا يجول في رأسك».

أغمض ألفريد عينيه وركّز. «الفخر. فخر عظيم - فقد اختارني *أنا، أنا من بين الآخرين* - لقد منحني عباءته. إنها تعني كلّ شيء. لذلك فإني أحملها معي. لم أكن أعرف أنه كان يثق بي ويقدّرني إلى هذه الدرجة. ماذا هناك أيضاً؟ بهجة عظيمة. ربّما كانت أكثر اللحظات افتخاراً في حياتي. لا، ليس ربّما كانت أشدّ اللحظات فخراً. لقد أحببته كثيراً بسبب ذلك. ثمّ... ثمّ...»

«ثمّ ماذا يا ألفريد؟ لا تتوقّف».

«ثمّ انقلب كلّ شيء إلى خراء! تلك الرسالة. كلّ شيء! فقد تحوّلت أعظم بهجتي إلى أعظم... أعظم وباء في حياتي».

«من بهجة إلى وباء. حدّثني عن هذا التحوّل». كان فريدريش يعرف أن تعليقاته غير ضرورية. كان ألفريد يكاد ينفجر حتى يتكلّم.

«ستستغرق الإجابة بالتفصيل كلّ الوقت المخصص لي اليوم، فقد حدثت أشياء كثيرة جداً». نظر ألفريد إلى ساعته.

«أعرف أنّك لا تستطيع أن تقول لي كلّ ما جرى خلال السنوات الثلاث الأخيرة، لكنّي أحتاج على الأقل إلى سماع لمحة عامة قصيرة إذا كان عليّ أن أفهم معاناتك حقاً».

نظر ألفريد إلى السقف المرتفع في مكتب فريدريش الواسع واستجمع أفكاره. «كيف يمكنني صياغتها؟ في جوهرها، كلفتني هذه

الرسالة بمهمّة مستحيلة. فقد كُلفت بقيادة مجموعة من الرجال الحقودين الذين يتآمر كلّ واحد منهم على الآخر لكي يصل إلى السلطة، ولدى كلّ واحد منهم خططه الشخصية، ويسعون إلى هزيمتي. وتفكيرهم ضحل وأغبياء، ويشعرون بالتهديد من تفوق ذكائي، وليسوا قادرين على فهم كلماتي. وكلّهم يجهلون المبادئ التي يناضل الحزب من أجلها».

«وهتلر؟ الذي طلب منك أن تقود الحزب. ألم يدعمك؟»

«هتلر؟ إنه شخص محيّر تماماً وقد جعل حياتي أكثر صعوبة. ألا تتابع ما يجري في حزبنا؟»

«آسف، لم أكن أتابع الأحداث السياسية، فلا أزال منهمكاً بالتطورات الجديدة في مجال اختصاصي وبجميع المرضى الذين يأتون لزيارتي - الذين معظمهم جنود سابقون. بالإضافة إلى ذلك، فمن الأفضل أن أسمع كلّ شيء من وجهة نظرك».

«سألخّص. كما قد تعرف، فقد حاولنا في عام ١٩٢٣ إقناع قادة الحكومة البافارية بالانضمام إلينا في مسيرة إلى برلين مثل مسيرة زحف موسوليني إلى روما. لكن الانقلاب الذي خططنا له فشل فشلاً ذريعاً. ورأى الجميع أن ما حدث سيّئ للغاية. فقد كان سيّئ التخطيط والتنفيذ، وتفكك في أول مقاومة واجهها. وعندما كتب هتلر تلك الرسالة لي، كان مختبئاً في الغرفة العلوية في بيت بوتزي هانفستانغل، لأنه كان مطلوباً لاعتقاله وربما كان سيُرحّل أيضاً. وعندما سلّمتني السيدة هانفستانغل الرسالة، وصفت لي ما حدث. فقد جاءت ثلاث سيارات شرطة إلى البيت، فجنّ جنون هتلر وراح يلوّح بمسدّسه، وقال إنه سيطلق النار على نفسه قبل أن يسمح لهؤلاء الخنازير أن يأخذوه. ولحسن الحظ، كان زوجها قد علّمها مصارعة الجوجوتسو اليابانية، ولم يكن هتلر، بكتفه الجريحة، يستطيع

مجاراتها. فأخذت السيدة فرو هانفستانغل المسدس من يده وألقت به في برميل فيه مئتا كيلوغرام من الطحين. وبعد أن خربش بسرعة رسالة لي، اقتيد هتلر خانعاً إلى السجن، وظن الجميع أن عمله قد انتهى. لقد انتهى هتلر - وأصبح أضحوكة في البلاد.

«أو هكذا بدا. لكنّ في أدنى حالاته بانت عبقريته الحقيقية. فقد حوّل الفشل الذريع إلى ذهب صاف. سأكون صادقاً: فقد عاملني كالخراء. لقد دُمّرتُ بسبب ما فعله لي، وبالرغم من ذلك، فإنني، في هذه اللحظة، ازددت قناعة أكثر من أي وقت مضى بأنّه رجل أرسله القدر».

«وضّح لي ذلك يا ألفريد».

«جاءت لحظة خلاصه أثناء المحاكمة. فقد أقرّ جميع المشاركين الآخرين في الانقلاب بخنوع بأنهم أبرياء من تهمة الخيانة. فحُكم على بعضهم أحكاماً خفيفة - فقد حُكم مثلاً على هيس بالسجن لمدة سبعة أشهر. وتمّت تبرئة البعض، مثل المارشال المنبوذ لوديندورف، وأُطلق سراحه على الفور. أما هتلر وحده فقد أصرّ على الاعتراف بتهمة الخيانة، وفي أثناء محاكمته أذهل القضاة والحاضرين ومراسلي جميع الصحف الكبرى في ألمانيا بخطاب مذهل استمر أربع ساعات. كانت تلك أعظم لحظاته - لحظة جعلته بطلاً في عيون جميع الألمان. لا بد أنك تعرف ذلك؟»

«نعم. فقد نقلت جميع الصحف وقائع المحاكمة، لكنني لم أقرأ الخطاب في حقيقة الأمر».

«بخلاف جميع الضعفاء الآخرين الذين أقرّو بأنهم غير مذنبين، فقد أعلن هتلر بأنه مذنب عدة مرات. فقد قال: إذا كان إسقاط حكومة مجرمي تشرين الثاني (نوفمبر) هذه التي طعنت الجيش الألماني البطل في الظهر خيانة عظمى، *فأنا مذنب*. وإذا كانت

الرغبة في استعادة الجلالة المجيدة لأمّتنا الألمانيّة خيانة، *فأنا* مذنب. وإذا كانت الرغبة في استعادة شرف الجيش الألماني خيانة، *فأنا* مذنب. فتأثر القضاة كثيراً بالكلمة التي قالها، وهنّأوه، وصافحوه، وأرادوا تبرئته، لكنّهم لم يستطيعوا لأنه أصرّ على الاعتراف بتهمة الخيانة. وفي النهاية، حكموا عليه بالسجن في أقل السجون حراسة في لاندسبرغ لمدة خمس سنوات لكنهم طمأنوه بأنهم سيصدرون عفواً بحقه قريباً. وهكذا، في مساء يوم استثنائي، انتقل فجأة من كونه سياسياً تافهاً وأضحوكة إلى شخصية وطنية تحظى باحترام الجميع».

«نعم، فقد لاحظت أن اسمه أضحى معروفاً لدى الجميع الآن. شكراً لإطلاعي على كلّ هذه المعلومات. هناك شيء عالق في رأسي أريد أن أعود للتحدّث عنه - وهو المصطلح القوي الذي قلته 'وباء' ماذا حدث بينك وبين أدولف هتلر؟»

«*ما الذي لم يحدث*؟ آخر شيء حدث - السبب الحقيقي لوجودي هنا - هو أنه أهانني على الملأ. انتابته إحدى نوبات غضبه الشديدة، وفي حالة من الغضب الشديد اتّهمني بقسوة بالعجز، وبعدم الولاء، وبكلّ الجرائم الواردة في التقويم. لا تسألني عن مزيد من التفاصيل. فقد نسيتها ولا أتذكّر إلّا شذرات منها، كما يتذكّر المرء كابوساً عابراً. لقد مرّ على ذلك أسبوعان، ولم أبرأ منه بعد».

«أرى كم أنت غاضب. ما الذي سبّب كلّ هذا الغضب؟»

«سياسة الحزب. فقد قرّرتُ أن أرشّح بعض المرشّحين في الانتخابات البرلمانية لسنة ١٩٢٤. فمن الواضح أن مستقبلنا يكمن في ذلك الاتّجاه. فقد أثبت الانقلاب الكارثي أنه لا يوجد لدينا خيار إلّا المشاركة في النظام البرلماني. فقد كان حزبنا في حالة يرثى لها وإلّا لتلاشى تماماً. فمنذ حظر حزب العمال القومي الاشتراكي

الألماني (الحزب النازي)، اقترحت أن ينضم أعضاء حزبنا إلى حزب آخر بقيادة المارشال لوديندورف. ناقشت هذا الأمر مطوّلاً مع هتلر في إحدى زياراتي العديدة إلى سجن لاندسبرغ. وطوال أسابيع رفض أن يتخذ قراراً لكنه أعطاني أخيراً السلطة لأقرّر. هكذا هو - فنادراً ما اتّخذ قراراً يتعلق بالسياسة، بل يترك الأمر إلى مرؤوسيه ليتصارعوا عليه. فاخترت المرشحين بنفسي، وأبلينا بلاء حسناً في الانتخابات. لكن، بعد ذلك، عندما حاول لوديندورف أن يهمشه، شجب هتلر قراري علناً وقال إنه لا يوجد أحد يمكن أن يتكلّم باسمه - وبذلك سحب السلطة كلّها منّي».

«يبدو أن غضبه عليك غضب مرحّل - أي أنه لم يكن بالاتجاه الصحيح وتدفّق من مصادر أخرى، خاصة خشيته من أن يفقد سلطته».

«نعم، نعم، يا فريدريش. تماماً. فلا يشغل بال هتلر الآن سوى شيء واحد، وشيء واحد فقط - مكانته كزعيم. لا شيء آخر، ويقيناً لا تهمه مبادئنا الأساسية كثيراً. فمنذ أن صدر عفو بحقه بعد ثلاثة عشر شهراً في سجن لاندسبرغ، تغيّر كثيراً. وبدأت تظهر عليه نظرة بعيدة، كما لو أنه يرى ما لا يستطيع الآخرون أن يروه، كما لو أنه يتجاوز المسائل الدنيوية. وأصبح الآن يصرّ على أن يناديه الجميع 'الفوهرر' - لا شيء سوى ذلك. وبدأ يبتعد عني أكثر وأكثر كثيراً».

«أتذكّر أنك تحدّثت خلال لقائنا الأخير عن شعورك عندما بدأ يبتعد عنك، وكم كنت حزيناً عندما كنت تراه يتقرّب من الآخرين - هل كان غورينغ هو من تحدّثت عنه؟»

«نعم، تماماً. لكنّ الأمر أصبح أسوأ بكثير الآن. ففي الأماكن العامة أصبح يبتعد عن الجميع. وهذا المغفل غورينغ هو السبب الرئيسي في المشكلة. فهو ليس متزلفاً وفاسداً ويسبّب الشقاق

فحسب، إنما إدمانه على المخدّرات علناً أمر يدعو إلى الخزي. وقيل لي إنه في أثناء الاجتماعات العامة يخرج كلّ ساعة قنينة الحبوب ويبتلع عدداً منها. حاولت أن أطرده من الحزب لكن هتلر لم يوافق على ذلك. في الواقع، غورينغ هو السبب الرئيسي الآخر لوجودي هنا اليوم. ومع أنه لا يزال خارج البلد، فقد سمعت من مصادر موثوقة بأن غورينغ ينشر الإشاعة الشريرة بأنّ هتلر تعمّد أن يختارني لقيادة الحزب في غيابه لأنه يعرف تماماً أنّني المرشّح غير المناسب تماماً. بعبارة أخرى، سأكون أحمق جداً إذا لم يكن موقع هتلر وقوته مهدّدين. لا أعرف ماذا يجب أن أفعل». استند ألفريد إلى الخلف على كرسيه، ووضع يديه فوق عينيه، وقال: «أحتاج إلى مساعدتك. أتخيّل دائماً أنني أتحدّث إليك».

«ماذا تتخيّل أنك تقول أو تفعل؟»

«هنا لا أعود أتذكّر شيئاً. لا أستطيع أن أعود إلى تلك الفترة البعيدة».

«حاول أن تتخيّل أنني أتحدّث معك بطريقة تخفف حدّة ألمك. قل لي، ما الشيء المثالي الذي يجب أن أقوله؟» كانت هذه إحدى الوسائل المفضّلة لدى فريدريش لأنها تفضي دائماً إلى تعميق العلاقة بين المعالج والمريض.

«لا أستطيع، لا أستطيع أن أفعل ذلك. يجب أن أسمع منك».

عندما رأى اضطراب ألفريد وأنه لم يعد يستطيع أن يفكّر بعمق، عرض عليه فريدريش أن يساعده بقدر ما يستطيع. «ألفريد، هذا ما كنت أفكّر فيه عندما كنت تتكلّم. أولاً، أشعر بثقل العبء الذي تحمله. إنها قصّة رعب. كما لو كنت في جحر أفعى يعاملك الجميع فيه بظلم وبقسوة. ومع أنني أستمع بدقة، فلم أسمع أيّ تأكيد من أيّ مصدر».

زفر ألفريد بصوت عال وقال: «لقد فهمت. كنت أعرف أنك ستفهم. لا أحد غيرك يصدّق أي شيء أفعله. لقد اتّخذت القرار الصحيح المتعلق بالانتخابات، والآن ينفذ الفوهرر ما كنت قد اقترحته له. لكني لا أسمع أبداً، أبداً أي ثناء أو مديح».

«لم تسمع مديحاً من أحد طوال حياتك؟»

«يوجد مديح من زوجتي، هيدفيغ - لقد تزوّجت مرة أخرى في الآونة الأخيرة - لكن مديحها غير مهمّ. كلمات هتلر وحدها هي التي تهمني».

«دعني أسألك شيئاً يا ألفريد. هذه الإساءة التي توجّه إليك، الإشاعات الدنيئة، خطاب هتلر الطويل المهين، انعدام التقدير التام - لماذا تتحمّل كلّ ذلك؟ ما الذي يبقيك حبيساً، تطلب المزيد؟ لم لا تعتني بنفسك بشكل أفضل؟»

هزّ ألفريد رأسه كما لو كان يتوقّع سماع سؤال كهذا، وقال: «لا أحبّ أن أبدو شخصاً عادياً، لكني يجب أن أعيش. فأنا بحاجة إلى نقود. ماذا يمكنني أن أفعل غير هذا؟ فأنا معروف بأنني صحفي راديكالي، ولا توجد لديّ فرص عمل أخرى. إن دراستي كمهندس لن تجد لي عملاً. هل ذكرت لك سابقاً أن مشروع أطروحتي كان تصميم محرقة جثث؟»

عندما هزّ فريدريش رأسه، واصل ألفريد كلامه، «حسناً، أخشى أن أحداً في بافاريا الكاثوليكية لم يعد يريد بناء المزيد من محارق الجثث. لا، لا توجد لديّ خيارات عمل أخرى».

«لكن أن تجعل من نفسك عبداً لهتلر، وأن تتحمّل كلّ هذه الإساءات، وأن تدع تقديرك لنفسك كلّه يعلو ويهبط وفق مزاجه ليس وصفة جيّدة من أجل استقرارك النفسي وصحتك. لماذا حبّه لك يعني الكثير بالنسبة لك؟»

«لا أنظر إلى الأمر بهذه الطريقة. فأنا لا أسعى إلى حبّه فقط، بل إلى ما يفعله أيضاً. إن علة وجودي هي تنقية العرق. أعرف في صميم قلبي أن هذا هو عملي في الحياة. فإذا أردت أن ترتقي ألمانيا ثانية، وإذا أردت ألمانيا خالية من اليهود وأوروبا خالية من اليهود، فعليّ أن أبقى إلى جوار هتلر. فمن خلاله فقط، أستطيع أن أنفّذ هذه الأمور».

نظر فريدريش إلى الساعة. لا يزال هناك متسع من الوقت، لأنهما رتّبا جلسة مزدوجة وجلسة مضاعفة أخرى غداً. «ألفريد، عندي فكرة حول تغيّر سلوك هتلر تجاهك. أظن أنّ لذلك علاقة بتغيير سلوكه، اتخاذه موقفاً حالماً. يبدو أنه يحاول أن يعيد خلق نفسه، لأن يصبح أكبر من الحياة. وأظن أنه يريد أن ينأى بنفسه عن جميع الذين كانوا يعرفونه عندما كان إنساناً عادياً. ربما كان ذلك يكمن وراء النأي بنفسه عنك».

فكّر ألفريد ملياً في تلك الفكرة وقال: «لم أقلها بهذه الطريقة تماماً. لكنّي أظن أنه توجد حقيقة كبيرة في ما تقوله. فقد أصبحت عنده مجموعة جديدة، وأصبح علينا نحن جميع الذين أصبحنا خارج المجموعة أن نبذل جهداً كبيراً حتى يسمعنا. وباستثناء غورينغ فقط، فقد استبعد الحرس القديم كله. وهناك شخص جديد خبيث جداً، يدعى جوزيف غوبلز، أظن أنه سيصبح أهم شخصية عندما تزداد حركتنا قوة. لا يمكنني احتماله، والشعور متبادل بيننا. في الوقت الراهن، يعمل غوبلز محرّراً في صحيفة يومية نازية في برلين، وسيدير قريباً انتخابات الحزب النازي كلها. وهناك شخص آخر مطلع على بواطن الأمور: رودولف هيس. إنه موجود منذ فترة وقادة فرقة *الصاعقة* في الانقلاب العسكري. لكنه دخل إلى حياة هتلر بعدي بكثير. كان ينزل في زنزانة قريبة من زنزانة هتلر في سجن لاندسبرغ

وكان يزوره يومياً. وبما أنه كان يخطّط للعمل في شركة أبيه، فقد تدرّب هيس على الاختزال وبدأ يكتب كلّ ما يمليه عليه هتلر من كتاب *كفاحي*. أعترف بأنّني أحسد هيس. كنت سأكون سعيداً لو دخلت السجن لأنني كنت سأتمكن من رؤية هتلر كلّ يوم. لقد أنهى المجلد الأول في السجن، وأظن أنّ هيس قام بتحريره - معظمه سيّئ للغاية. فأنا أكبر مثقّف في الحزب وأفضل كاتب من دون منازع - لو طلب مني أن أحرّره، لجعلته أفضل بكثير. من المؤكد أنني كنت سأزيل عدداً كبيراً من الفقرات التي يندم الآن علناً لأنه كتبها - لاسيّما ذلك الفصل الغريب عن مرض السفلس. لكنه لم يطلب مني ذلك أبداً».

«لماذا لم يطلب منك؟»

«توجد لديّ بعض الأمور التي لا أستطيع أن أبوح بها لأحد إلّا لك. أولاً، أظن أنه كان يعرف أنني لن أكون محرّراً نزيهاً لأنه سرق منّي كلّ الأفكار. كما ترى، قبل أن يودع السجن، كنت الفيلسوف الرسمي للحزب. في الواقع، كانت بعض الصحف اليسارية تنشر بانتظام بيانات مثل «إن هتلر هو لسان حال روزنبرغ» أو «هتلر يأمر ما يريده روزنبرغ». لقد أثار ذلك حنقه إلى ما لا نهاية، ويريد الآن أن يوضّح بجلاء شديد أنّه هو المؤلف الوحيد لإيديولوجية الحزب وأنه لا يوجد لديّ أي دور في هذا العمل. وهو يوضح ذلك في كتابه «*كفاحي*». لقد حفظت هذا السطر عن ظهر قلب: 'خلال فترات التقدّم الإنساني الطويلة قد يحدث بين الحين والآخر أن يكون السياسي العملي والفيلسوف السياسي شخصاً واحداً'. إنه يريد أن ينظر إليه الجميع بأنه ينتمي إلى هذا النوع النادر من الزعماء».

أرخى ألفريد ظهره في كرسيه وأغمض عينيه للحظة.

«تبدو أكثر ارتياحاً يا ألفريد».

«التحدّث إليك يساعدني كثيراً»

«هل يمكننا أن نستكشف ذلك. بأي طريقة أساعدك؟»

«إنك تقدّم إليّ طرائق جديدة لأنظر من خلالها إلى ما جرى لي. إن التحدّث إلى شخص مثقف وذكي أمر يدعو إلى ارتياح كبير. فأنا محاط بكل هذه الضحالة».

«يبدو كما لو أن هذا المكان، هذه الطريقة في الكلام تمنحك شعوراً بالراحة من عزلتك. صحيح؟»

هزّ ألفريد رأسه.

«نعم»، تابع فريدريش، «وأنا سعيد لأن أقدّم لك ذلك. لكن هذا لا يكفي. أتساءل عمّا إذا كانت هناك طريقة أستطيع فيها أن أمنحك شيئاً أهم من الشعور بالارتياح. شيئاً أكثر عمقاً وأكثر ديمومة».

«أنا مستعد لكل ذلك. لكن كيف؟»

«دعني أحاول. سأبدأ بطرح سؤال. هناك مشاعر سلبية كثيرة تأتي إليك من هتلر ومن آخرين كثيرين. سؤالي هو: ما الدور الذي تقوم به في كلّ هذا؟»

«لقد تطرقت للتو إلى ذلك. مرة بعد أخرى، أكرر أنني مكروه بسبب تفوّق ذكائي. فلديّ عقل معقّد، ولا يستطيع معظم الأشخاص متابعة تعقيدات أفكاري. وهذا ليس ذنبي، لكنهم يخشونني. وبما أن أنهم لا يستطيعون فهم أفكاري تماماً، فإن الكثير منهم يشعرون بأنهم أغبياء، فيهاجمونني كأن ذلك ذنبي أنا».

«لا، ليس هذا ما أريد أن أصل إليه. أحاول أن أصل حقاً إلى السؤال 'ما الذي تريد أن تغيّره في نفسك؟' لأن هذا ما أحاول أن أفعله - مساعدة مرضاي على أن يتغيّروا. إن ردّك بأنّ مشكلتك ناجمة عن عقلك المتفوّق تقودنا إلى طريق مسدود لأن من الطبيعي

أنك لا تريد أن تضحي بأيّ جزء من عقلك المتفوّق. لا أحد يريد ذلك».

«لم أفهم قصدك يا فريدريش».

«ما أقصده هو أنّ العلاج ينطوي على التغيير، وإني أحاول أن أساعدك على تحديد ما الذي تريد أن تغيّره في نفسك. فإذا كنت تقول إنّ جميع مشاكلك ناجمة عن الآخرين، فلن يكون لديّ أيّ تأثير علاجي سوى أن أحاول أن أهدئ من روعك وأن أساعدك على أن تتعلّم كيف تتحمّل الإساءة أو أن أقترح عليك أن تبحث عن شركاء آخرين». جرّب فريدريش طريقة أخرى تكاد تكون مثمرة دائماً. «دعني أصوغها هكذا - ما هي نسبة المشاكل التي تواجهها بسبب الآخرين؟ هل هي ٢٠ أم ٥٠ أم ٧٠ أم ٩٠ في المئة؟»

«لا توجد طريقة لقياس ذلك».

«طبعاً، لكنني لا أتوقّع جواباً دقيقاً. بكل بساطة أريد أكثر تقديراتك وحشية. مازحني في هذا الأمر يا ألفريد».

«حسناً، لنقل ٩٠ في المئة».

«جيّد. وهذا يعني أنّ نسبة ١٠ في المئة من هذه الأحداث العصيبة التي تزعجك أنت المسؤول عنها. يمكن لذلك أن يوجهنا. علينا أنا وأنت أن نستكشف هذه النسبة لنرى ما إذا كان بإمكاننا أن نفهم ثمّ نغيّره. أأنت معي يا ألفريد؟»

«ينتابني الآن ذلك الشعور الغريب بالدوار الذي ينتابني كلّما تحدّثت معك».

«ليس بالضرورة أن يكون هذا شيئاً سيئاً. إن عملية التغيير تجعل المرء يشعر بعدم التوازن في معظم الأحيان. إذاً لنعد إلى عملنا. لنفحص نسبة الـ١٠ في المئة تلك. أريد أن أعرف ما الدور الذي تقوم به لتجعل الآخرين يعاملونك بهذه الطريقة المهينة».

«لقد ذكرت ذلك. قلت لك إنه حسد الشخص العادي من الشخص الذي يتمتع بمخيلة محلقة وفكر عميق».

«إن قيام الناس بإساءة معاملتك بسبب تفوّقك يعود إلى فئة الـ٩٠ في المئة. دعنا نبقى مركّزين على الـ١٠ في المئة - الجزء الذي يتعلق بك. تقول إنهم يستبعدونك، يكرهونك، وإنك ضحيّة الشائعات. ماذا تفعل حتى تجلب على نفسك كلّ ذلك؟»

«لقد بذلت كلّ ما بوسعي لأقنع هتلر بالتخلّص من النفايات، العقول الصغيرة - أمثال غورينغ، وشترايشر، هيملر، وروم - لكن عبثاً».

«لكن يا ألفريد، إنك تتكلّم عن تفوّق الدم الآري، ومع ذلك فإن هؤلاء الرجال أنفسهم، إذا انتصر هتلر، فإنهم سيصبحون الحكّام الآريين. كيف يمكن أن يحدث ذلك إذا كانوا جزءاً من الدم الآري؟ لا بدّ أن تكون لديهم بعض جوانب القوة، بعض المزايا؟»

«إنهم بحاجة إلى تثقيف وتنوير. سيضم الكتاب الذي أكتبه حالياً التعليم والتثقيف الذي يحتاج إليه زعماؤنا الآريون في المستقبل. لو دعمني هتلر، لتمكّنت من رفع سوية تفكيرهم ونقّيتها».

شعر فريدريش بالذهول. كيف أخفق في تقدير قوّة مقاومة ألفريد؟ حاول مرة أخرى. «في آخر مرّة التقينا فيها يا ألفريد، قلت كيف أن الآخرين في مكتبك كانوا يشيرون إليك بأنك 'أبو الهول' وكيف أقنعك انتقاد ديتريش إكارت بأن تجري بعض التغييرات الهامّة في نفسك. أتذكر؟»

«أصبح ذلك ضرباً من الماضي. لقد انتهت تلك القصّة وتأثير ديتريش إكارت. لقد مات منذ عدّة أشهر».

«يؤسفني أن أسمع ذلك. خسارة كبيرة بالنسبة لك؟»

«مشاعر مختلطة. إني أدين له بالكثير، لكن علاقتنا تدهورت عندما قرّر هتلر أنّ إكارت مريض جداً وضعيف جداً لا يمكنه الاستمرار في العمل كرئيس تحرير للصحيفة، وعيّنني مكانه. لم يكن ذلك خطئي، لكن إكارت لامني على ذلك. ومع أنّني بذلت قصارى جهدي، فلم أتمكن من إقناعه بأنّني لم أتآمر عليه. وعندما اقترب من الموت، خفّت درجة حقده تجاهي. وفي زيارتي الأخيرة، أشار إليّ بأن أقترب من سريره وهمس في أذني، 'اتبع هتلر. إنه سيرقص. لكن تذكّر أنا من وضع اللحن'. وبعد موته سمّاه هتلر 'النجم القطبي' للحركة النازية. لكن هتلر، كما فعل معي، لم يعترف قط بأنه علّمه أيّ شيء محدد».

انحسرت طاقة فريدريش، لكنّه استمرّ في المحاولة. «لنعد إلى النقطة التي كنت أحاول أن أوضحها. عندما عملت مع إكارت، قلت لي إنّك كنت تريد أن تجري تغييرات على نفسك، أن تكون أبو هول أقل، أن تتكلم بلباقة مع الآخرين...»

«كان ذلك آنذاك. أما الآن فلا توجد لديّ النية لأن أضعف نفسي لأتملّق وأداهن العقول الأدنى مستوى. في الواقع، فإني أجد الآن أن الفكر مستهجن. أن تلك الفكرة بالذات هي عالم صغير من القضية العظيمة التي يجب أن نواجهها كأمّة: *الضعفاء لا يتساوون مع الأقوياء*. فإذا قلّل الأقوياء إرادتهم وقوّتهم، إذا تخلّوا عن قدرهم كحكّام، أو لوّثوا سلالتهم ودمهم بالزواج المختلط، فإنهم يقوّضون العظمة الحقيقية للشعب».

«ألفريد، إنك لا ترى العالم إلّا من ناحية القوي أو الضعيف. لا بد أن هناك سبلاً أخرى لرؤية...»

«التاريخ كلّه»، قاطعه ألفريد، وقد أصبح صوته أقوى، «هو قصّة الأقوياء والضعفاء. دعني أتكلّم بصراحة. إنّ مهمّة الرجال الأقوياء

مثل هتلر، ومثلي، ومثلك يا فريدريش، تكمن في زيادة ازدهار العرق الآري المتفوّق. إنك تقترح رؤية التاريخ بـ 'طرق أخرى'. لا شكّ أنك تشير إلى طرق الكنيسة التي تحاول أن تحرّرنا من روابط الدم وخلق الفرد المستقل الذي لا يعدو كونه شيئاً مجرداً يعوزه التناقض الكامل أو الفعالية؟ إن أفكار المساواة كلها ليست سوى تخيلات وتناقض مع الطبيعة».

كان فريدريش يرى ألفريد مختلفاً اليوم - ألفريد روزنبرغ، المذهبي النازي، الداعية لعقيدة، المتكلّم في الاجتماعات النازية الحاشدة. لم يحبّ ما رآه لكنه، كما بردّة فعل، واصل أداء دوره. «أذكر أننا في أول مرّة الأولى تكلّمنا فيها كشخصين بالغين، قلت إنّك تستمتع كثيراً بالأحاديث الفلسفية. وقلت لي إنه لم تتح لك فرص لتفعل ذلك منذ سنوات».

«هذا صحيح. ولا يزال».

«إذاً، هل يمكنني أن أطرح بعض الأسئلة الفلسفية حول تعليقاتك؟»

«أرحب بذلك».

«إن كلّ ما كنت تناقشه هذا الصباح يستند إلى افتراض أساسي وهو أن العرق الآري متفوق وأنه يجب أن تُبذل جهود عظيمة وصارمة لتحسين نقاء ذلك العرق. صحيح؟»

«تابع».

«إن سؤالي هو، ببساطة، ما هو دليلك؟ لا يوجد عندي شكّ في أن أي عرق، إذا سئُل، سيقول إنه متفوق».

«دليل؟ انظر حولك إلى الألمان العظام. استخدم عينيك، أذنيك. استمع إلى بتهوفن، باخ، برامز، فاغنر. اقرأ غوته، شيلر، شوبنهاور، نيتشه. انظر إلى مدننا، إلى هندستنا المعمارية، وانظر إلى

الحضارات العظيمة التي بناها أجدادنا الآريون ثم انهارت في النهاية بعد أن تلوّثت بالدم السامي الأدنى».

«أظن أنّك تستشهد بهيوستن ستيوارت شامبرلن. لقد قرأت الآن بعض أعماله وبصراحة لست مقتنعاً بالدليل الذي يقدّمه، الذي لا يتضمّن أكثر من الادّعاء برؤية آريين ذوي عيون زرق أو شعر أشقر أحياناً في لوحات تصوّر فيها محاكم مصرية أو هندية أو رومانية. هذا ليس دليلاً. والمؤرخون الذي سألتهم قالوا إن شامبرلن اختلق التاريخ الذي يدعم ادّعاءاته الأصلية. أرجوك يا ألفريد، أعطني أدلّة جوهرية تدعم حججك. أعطني أدلّة يحترمها كانط أو هيغل أو شوبنهاور».

«دليل، تقول؟ مشاعر دمي هي دليلي. نحن الآريين الحقيقيين نثق بعواطفنا، ونعرف كيف نسخّرها حتى نستعيد مكانتنا الشرعية كحكّام».

«أسمع عواطف وانفعالات، لكنني لم أسمع بعد أي دليل. ففي مجال عملي، إننا نبحث عن أسباب العواطف الجياشة. دعني أحدّثك عن نظرية في الطب النفسي يبدو أنها ذات صلة كبيرة بمناقشتنا. فقد كتب ألفريد أدلر، وهو طبيب من فيينا، الكثير عن المشاعر بالدونية الشائعة التي تنجم ببساطة عن نموّ الفرد كإنسان وتتملكه مشاعر العجز، والضعف والتبعية لفترات طويلة. وهناك أشخاص كثيرون لا يحتملون هذا الشعور بالدونية ويعوّضون عنه بتطوير عقدة الشعور بالعظمة، التي هي بكل بساطة الجانب الآخر من العملة نفسها. ألفريد، أعتقد أن هذه الدينامية هي التي ربما تعمل في داخلك. فقد تحدّثنا عن عدم سعادتك عندما كنت طفلاً، وأنك لم تكن تشعر بأنك في البيت في أيّ مكان، وأنك غير محبوب وتسعى لأن تحقق نجاحاً، في جزء منه، حتى 'تريهم' - هل تتذكّر؟»

لم يحر ألفريد جواباً، بل جلس يحدّق فيه. واصل فريدريش كلامه، «أظن أنّك ترتكب نفس الخطأ كما فعل اليهود، الذين اعتبروا أنفسهم طوال ألفي سنة أنهم شعب متفوّق، وأنهم شعب اللّه المختار. وقد اتفقنا، أنت وأنا، على أنّ سبينوزا هدم هذه الفكرة، ولا يوجد عندي شكّ في أنه لو كان حيّاً، فإن قوّة منطقه ستهدم الفكرة التي تجادل فيها عن الشعب الآري أيضاً».

«لقد حذّرتك من الدخول في هذا المجال اليهودي. ما الذي يعرفه التحليل النفسي عن العرق والدم والروح؟ لقد حذّرتك، والآن أخشى أنّك قد أُفسدت».

«وقلت لك إنّ هذه المعرفة وهذه الطريقة جيّدة جداً وقويّة جداً بحيث لا يمكن أن تكون الملكية الوحيدة لليهود. لقد استخدمت أنا وزملائي مبادئ هذا الحقل من المعرفة لنقدم مساعدة هائلة لكتائب وفيالق من الجرحى الآريين. وأنت جريح أيضاً يا ألفريد، لكن على الرغم من أمنياتك الخاصّة، فلن تدعني أساعدك».

«وكنت أظن أنّني أتعامل مع *Übermensch* (الإنسان الأعلى). كم كنت مخطئاً» وقف ألفريد، وانتزع من جيبه مغلفاً فيه أوراق نقدية من المارك الألماني، ووضعه بدقّة شديدة في زاوية طاولة مكتب فريدريش، وسار نحو الباب.

«سأراك غداً في نفس الوقت»، قال فريدريش من ورائه.

«ليس غداً»، صاح ألفريد من الممر، «ولا إلى الأبد! وسأحرص على أن تغادر أفكار اليهود هذه أوروبا مع اليهود أنفسهم».

الفصل التاسع والعشرون

رنسبرخ وأمستردام - ١٦٦٢

عندما بدأ بنتو يمشي بتثاقل باتجاه أمستردام، أبعد تفكيره عن الماضي، وعن تلك الصور التي تشي بالحنين للاحتفال برأس السنة العبرية (روش هاناناه) مع عائلته عندما كان اليهود الأشكناز يؤدون شعائر «*تشليخ*» بجانب مياه جارية، وركّز على التفكير في ما سيأتي في المستقبل. وبعد ساعة تقريباً سيرى سيمون مرة أخرى، سيمون الكريم العزيز، أكثر أنصاره حماسة وتأييداً له. وقال بنتو لنفسه من الجيد أن بيت سيمون قريب من بيته فيتمكن من زيارته بين الحين والآخر، ومن الجيد أيضاً أن بيت سيمون لم يكن في مكان قريب جداً، لأنه كان يبدي في أحيان كثيرة رغبة في أن يكون قريباً جداً منه، وتبادر إلى ذهنه مشهد زيارة سيمون الأخيرة إلى رنسبرخ.

«بنتو»، قال سيمون، «على الرغم من أننا نعيش بالقرب من بعضنا، فإنك تتهرب مني. لاطفني يا صديقي، وأخبرني كيف تمضي يومك. لنأخذ البارحة مثلاً».

«كان البارحة مثل أي يوم آخر، فقد بدأت يومي بتجميع وكتابة الأفكار التي راودتني وجمعها عقلي في أثناء الليل، ثمّ باشرت عملي في طحن العدسات وصقلها في الساعات الأربع التالية».

«ماذا تفعل بالتحديد؟ حدّثني عن مراحل العمل خطوة خطوة».

«بدلاً من أن أخبرك، سأريك. لكن ذلك سيستغرق وقتاً».

«أريد فقط أن أشاركك حياتك».

«تعال معي إلى الغرفة الأخرى».

في المختبر أشار بنتو إلى لوح زجاج كبير، وقال: «أبدأ من هنا. لقد أحضرت البارحة من مصنع الزجاج الذي لا يبعد عن هنا سوى كيلومتر واحد»، والتقط منشار معادن، «إنه حادّ لكن ليس حاداً جداً. أمسحه الآن بالزيت وحصى الماس». ثمّ قطع بنتو قطعة دائرية حجمها ثلاثة سنتيمترات. «الخطوة التالية هي أن أطحن هذه القطعة بالمنحنى والزاوية الصحيحين. أولاً، سأثبّتها في مكانها». وضع بنتو قليلاً من الزفت الأسود بعناية شديدة ليثبّت القطعة في مكانها. «والآن سأستخدم المخرطة لطحنها بالفلسبار والكوارتز». بعد عشر دقائق من الطحن، وضع بنتو الزجاج المطحون في قالب على قرص خشبي يدور بسرعة. «وأخيراً تنتهي العملية بطحنه ليصبح ناعماً. إني أستخدم مزيجاً من الياقوت وأكسيد القصدير. سأفعل البداية فقط حتى لا تشعر بالملل من عملية الطحن الطويلة والمضجرة».

ثم التفت إلى سيمون وقال: «أصبحت تعرف الآن كيف أمضي أوقاتي في فترة الصباح، وأصبحت تعرف أيضاً من أين تأتي النظارات».

فأجاب سيمون، «عندما كنت أراقبك يا بنتو، كان عقلي منقسماً إلى قسمين. فمن ناحية، أرجو أن تعرف أنّني معجب جداً بمهاراتك وبطريقتك الفذة، ومن الناحية الأخرى، وهو الجزء الأعظم الذي يشغل عقلي، يصرخ بصوت عال، 'اترك هذا العمل للحرفيين. فلكلّ مجتمع في أوروبا صنّاعه. ويوجد عدد كبير منهم، لكن أين يمكن أن يوجد في العالم بنتو سبينوزا آخر؟' افعل فقط ما تستطيع أن تفعله يا

بنتو. أَنهِ المشروع الفلسفي الذي ينتظره العالم بأجمعه. كلّ هذه الضجة، هذا الغبار، هذا الهواء الملوث، هذه الروائح، كلّ هذا الوقت الثمين المهدور. أرجوك، أتوسل إليك للمرة الثانية، دعني أحرّرك من عبء هذه الحرفة. دعني أقدّم لك راتباً مدى حياتك - اطلب المبلغ الذي تريد - حتى تتفرغ تماماً للفلسفة. فأنا قادر على عمل ذلك، ولا تتصور مقدار البهجة التي تمنحني إياها لو سمحت لي أن أقدّم لك هذه المساعدة».

«سيمون، إنك رجل كريم. وأنت تعرف أنّني أحبّك كثيراً. لكن احتياجاتي قليلة ويمكن تلبيتها بسهولة، والمبلغ الزائد عن حاجتي سيشتت انتباهي بدلاً من أن يساعدني على التركيز أكثر. والأهم من ذلك - يا سيمون، قد لا تصدّق ذلك، لكن صدّقني - فإن طحن العدسات جيّد للتفكير. نعم، فأنا أركّز بقوة على المخرطة، وعلى الزاوية، وعلى نصف قطر الزجاج، وعلى الصقل بدقة شديدة، وبينما أقوم بذلك، تنبت الأفكار وتتبرعم في خلفية عقلي بسرعة إلى درجة أنني غالباً ما أنهي عدسة وأكتشف أن، يا للعجب، حلولاً جديدة للمسائل والحجج الفلسفية الشائكة التي تجول في رأسي أصبحت جاهزة. ويبدو أنه لا تعود هناك حاجة إلى الأنا، أو على الأقل إلى الأنا الواعية. إنها لا تشبه ظاهرة المشاكل التي تجد حلولاً لها في الأحلام التي ذكرها عدد من المفكرين القدماء. وبمعزل عن هذا، فإن علم البصريات يسحرني. فأنا أستنبط حالياً طريقة مختلفة تماماً لطحن عدسات المناظير الدقيقة التي أرى أنها ستشكّل تقدّماً كبيراً».

انتهى الحديث بأن أمسك سيمون بيدي بنتو طويلاً وقال: «لن تفلت مني. لن أتخلّى عن محاولاتي لتسهيل عملك. أرجو أن تعلم بأنّ عرضي لك سيظل سارياً طوال حياتي».

في تلك اللحظة، قال بنتو لنفسه من الجيّد أن بيت سيمون لم يكن قريباً جداً من بيته.

في أمستردام، كان سيمون جوستين دي فريس جالساً على مقعد على ضفة قناة سينغل، ينتظر صديقه. كان منزل سيمون، ابن تاجر ثري، لا يبعد كثيراً عن منزل فان دن إندن الواسع بطوابقه الأربعة الذي تبلغ مساحته ضعفيْ مساحة البيوت المجاورة المواجهة للقناة. ولم يكن سيمون صديقاً مقرباً لبنتو فقط، وإنما كان يشبهه في المظهر أيضاً - ضامر الجسم، له قسمات رقيقة جميلة، وشخصية تشي بأبهة عظيمة.

عندما بدأت الشمس تميل إلى الغروب وتتحوّل السماء البرتقالية المتوهجة إلى لون رمادي فاحم، بدأ سيمون يذرع المكان أمام بيته قلقاً بسبب تأخر صديقه. فقد كان من المفروض أن يصل القارب منذ ساعة. وفجأة لمح بنتو يسير بجانب قناة سينغل، فلوّح له سيمون بذراعيه، وهرع لاستقباله، وأصرّ على أن يحمل عنه حقيبة بنتو الثقيلة التي تضم دفاتر ملاحظات وعدسات صُقلت حديثاً. عندما أصبحا داخل البيت، قاد سيمون ضيفه مباشرة إلى المائدة التي وضع عليها خبز الجاودار والجبن والفطيرة اللذيذة التي يُطلق عليها «فطيرة السيدات العجائز»، المليئة بأنواع التوابل الطازجة.

بينما كان سيمون يعدّ القهوة، بدأ يحدّث بنتو عن برنامج يوم الغد الذي أعدّه له. «سيلتقي أعضاء نادي الفلسفة هنا في حوالي الساعة ١٩:٠٠. وأتوقّع أن يحضر اثنا عشر عضواً، أرجو أن يكونوا قد قرأوا جميعهم الصفحات العشر التي أرسلتها إليّ. لقد نسختُ منها نسختين وطلبت منهم أن يقرأوها في يوم واحد ثم يمرّروها إلى الآخرين. وبعد الظهر سأقدّم لك هدية من نادي الفلسفة، وأنا واثق

بأنك لن ترفضها. فقد وجدت بعض الكتب الهامة عند بائعيْ كتب - مكتبة أبراهام دي ويس، ومكتبة لوبيرت ميندرتز - وسنذهب معاً لتختار فيهما من قائمة رائعة لفيرجيل وهوبز وإقليدس وشيشرون».

لم يرفض بنتو هذه الهدية، بل لمعت عيناه، وقال: «سيمون، أشكرك. أنت كريم جداً».

نعم، كانت لدى بنتو نقطة ضعف واحدة اكتشفها سيمون، وهي أن بنتو يعشق الكتب - لا قراءة الكتب فحسب، وإنما الحصول عليها أيضاً. ومع أنه كان يرفض دائماً قبول الهدايا الأخرى بتهذيب شديد، لم يكن يستطيع أن يرفض كتاباً هاماً. وكان سيمون وأعضاء النادي الآخرون يقدمون له كتباً هامة ملأت رفوف مكتبته التي تمتد على الجدار بجانب غرفة الجلوس في بيته في رنسبرخ. وعندما كان النوم يجافيه، كان بنتو ينهض في ساعة متأخرة من الليل، ويتوجّه إلى رفوف المكتبة، ويحدّق في الكتب ويبتسم. ومن حين لآخر، كان يعيد ترتيب الكتب، أحياناً بحسب حجمها أو موضوعها أو بالترتيب الأبجدي، ويتنشق أحياناً أخرى رائحة الكتب أو يداعبها بأصابعه مستمتعاً بوزنها أو بملمس أغلفتها المتنوعة فوق راحة يده.

«لكن قبل أن نذهب لشراء الكتاب»، تابع سيمون كلامه، «ستكون هناك مفاجأة. زائر! آمل أن يكون مرحباً به. تفضل، اقرأ هذه الرسالة التي وصلت الأسبوع الماضي».

فتح بنتو رسالة ملفوفة بإحكام ومربوطة بخيط قنب. كان السطر الأول مكتوباً باللغة البرتغالية، فعرف على الفور خطّ فرانكو. «صديقي العزيز، لقد مرّ زمن طويل». ولدهشة بنتو انتقلت الرسالة من البرتغالية إلى الكتابة بلغة عبرية ممتازة. «لديّ أشياء كثيرة أريد أن أناقشها معك. أولها أنني أصبحت الآن طالباً جدّياً وأباً. لا أستطيع

أن أكتب المزيد هنا، وأملي الوحيد هو أن يتمكّن صديقك من ترتيب طريقة يمكننا أن نلتقي من خلالها».

«متى وصلت هذه الرسالة يا سيمون؟»

«منذ أسبوع تقريباً. كان الشخص الذي سلّمني الرسالة بارعاً في التخفي، فاندفع بسرعة عبر الباب عندما فتحته. وسلّمني الرسالة على الفور، ثمّ فتح الباب قليلاً وتفحص الشارع بدقة ليتأكد من أن أحداً لم يره، وانسلّ بسرعة وخرج. ولم يذكر اسمه، لكنه قال إنّك قلت له إنني نقطة التواصل معك. أظن أنه نفس الشخص الذي زارك بعد محاولة اغتيالك؟»

«نعم، اسمه فرانكو، لكن حتى هذا يجب أن يبقى في طيّ الكتمان. إنه يقوم بمجازفة كبيرة - تذكّر أن *الحرم* المفروض عليّ يحظر على أيّ يهودي أن يكلّمني. إنه صلتي بالماضي، وأنت صلتي به. كم أنا مشتاق لرؤيته».

«جيّد. لقد سمحت لنفسي أن أخبره بأنك ستأتي إلى أمستردام اليوم، فلمعت عيناه بهجة، واقترحت عليه أن يأتي إلى هنا كي يراك صباح الغد».

«وماذا كان ردّه؟»

«قال إنه توجد عقبات، لكنه سيبذل كل ما بوسعه ليأتي إلى هنا قبل الظهر».

«شكراً يا سيمون».

في صباح اليوم التالي، سمع صوت قرع عال على الباب تردّد صداه في أرجاء البيت. عندما فتح سيمون الباب، انسلّ فرانكو الذي يرتدي عباءة لها قلنسوة تغطّي رأسه ومعظم وجهه، إلى داخل البيت. قاده سيمون إلى بنتو الذي كان ينتظر في الردهة الأمامية المواجهة للقناة، وتركهما وغادر. ابتسم فرانكو ابتسامة عريضة عندما

أمسك بكتفي بنتو بكلتا يديه وقال: «آه، يا بنتو، كم أنا سعيد برؤيتك».

«وأنا سعيد برؤيتك أيضاً. اخلع عباءتك لأراك جيداً يا فرانكو»، قال بنتو ودار حوله، «حسناً، حسناً، حسناً. لقد تغيّرت: لقد ازداد وزنك؛ وامتلأ وجهك، وأصبحت تبدو أكثر بهجة. لكن بتلك اللحية وبهذه الملابس السوداء - فإنك تبدو مثل طالب تلمودي. وإلى أي مدى يشكل مجيئك إلى هنا خطراً؟ وكيف حالك بعد أن أصبحت زوجاً؟ وأباً؟ وهل أنت سعيد في حياتك؟»

فقال فرانكو ضاحكاً: «أسئلة كثيرة، عن أي سؤال تريد أن أجيب أولاً؟ أظن السؤال الأخير. ألم يكن صديقك أبيقور سيعتبره السؤال الرئيسي؟ نعم، أنا سعيد جداً. لقد تغيّرت حياتي كثيراً نحو الأفضل. وأنت يا بنتو؟ هل أنت سعيد؟»

«أنا سعيد أيضاً أكثر من أي وقت مضى. قد يكون سيمون قد أخبرك، فأنا أعيش في رنسبرخ، قرية صغيرة، وأعيش كما أريد - وحدي لا توجد أشياء كثيرة تلهيني. أفكّر، أكتب، ولا يحاول أحد أن يطعنني. ماذا يمكن أن يكون أفضل من هذا؟ وماذا عن أسئلتي الأخرى؟»

«ابني وزوجتي هما نعمة حقيقية. زوجتي توأم روحي التي كنت أتمناها - وبدأت تصبح الآن توأم روحي المتعلّمة. وأنا أعلّمها الآن أن تقرأ البرتغالية والعبرية، ونتعلّم الهولندية معاً. وماذا سألت أيضاً؟ آه، عن ملابسي؟» مسّد فرانكو لحيته وقال: «قد يكون ذلك صدمة لك، فأنا حالياً طالب في مدرستك القديمة، بيريرا *يشيباه*. وقد منحني الحاخام مورتيرا راتباً كبيراً من الكنيس لكي لا أحتاج إلى العمل عند عمّي أو عند أي شخص آخر».

«هذا شيء يندر حدوثه».

«سمعت إشاعة بأنّه عرض عليك ذات يوم راتباً كهذا. ربما بتحوّل القدر تحوّل هذا الراتب إليّ. لعله كافأني لأنني خنتك».

«وما الذي جعل الحاخام مورتيرا يمنحك هذا الراتب؟»

«عندما سألته لماذا أستحقه؟ فاجأني. فقد قال إن المكافأة هي الطريقة التي يتبعها، والطريقة التي تتبعها الطائفة اليهودية، من أجل تكريم أبي بسبب سمعته العطرة، وسمعة سلالته الطويلة من الأسلاف الأحبار، كان ذلك أكثر بكثير مما تخيّلت، لكنّه أضاف أيضاً أنّني طالب لي مستقبل واعد وقد أحذو حذو أبي ذات يوم».

«و. . .» أخذ بنتو نفساً عميقاً، وقال: «وماذا كان ردّك للحاخام؟»

«الامتنان. بنتو سبينوزا، لقد جعلتني متعطشاً للمعرفة، فغصت في دراسة التلمود والتوراة بمتعة كبيرة».

«فهمت. . . حسناً. لقد حققت أشياء كثيرة. فاللغة العبرية التي كتبت بها في رسالتك ممتازة جداً».

«نعم، أنا راض عن نفسي، وبهجتي في التعلّم تزداد يوماً بعد يوم».

سادت فترة قصيرة من الصمت. فتحا كلاهما فميهما ليتكلّما في نفس الوقت، ثمّ توقّفا. وبعد فترة صمت قصيرة أخرى، سأله فرانكو، «بنتو، عندما رأيتك في المرّة الأخيرة بعد ذلك الهجوم كنت تتألم كثيراً. هل شفيت بسرعة؟»

هزّ بنتو رأسه وقال: «نعم، ويعود الفضل لك أيضاً. يجب أن تعرف أنني لا أزال أعلّق معطفي المشقوق القديم حتى الآن في رنسبرخ ليكون أمامي. كانت نصيحة ممتازة».

«خبّرني عن حياتك».

«آه، ماذا يمكنني أن أقول؟ أطحن الزجاج لفترة نصف يوم،

وأمضي ما تبقى من اليوم في التفكير والقراءة والكتابة. لا أعرف الكثير عما يجري في الخارج، لأني أعيش كليّة في عقلي».

«وتلك الفتاة الشابّة التي قادتني إلى غرفتك؟ الفتاة التي سببت لك الكثير من الألم؟»

«إنها على وشك الزواج من صديقي ديرك».

سادت فترة صمت قصيرة، ثم سأل فرانكو، «و. . .؟ حدثني أكثر».

«لا نزال أصدقاء، لكنّها فتاة كاثوليكية مؤمنة وسيعتنق ديرك الكاثوليكية. أتصوّر أن صداقتنا ستهتز عندما أنشر أفكاري المتعلقة بالدين».

«وهاجسك حول قوّة عواطفك وانفعالاتك؟»

«آه. . .»، قال بنتو بتردّد، «حسناً، منذ أن رأيتك آخر مرّة، فإني أستمتع بالهدوء».

أعقب ذلك فترة صمت قصيرة أيضاً، كسرها أخيراً فرانكو.

«إنك تلاحظ شيئاً مختلفاً بيننا اليوم».

هزّ بنتو كتفيه، بحيرة، وقال: «ماذا تقصد؟»

«أعني فترات الصمت. لم تكن تحدث في أحاديثنا فترات صمت. كانت هناك دائماً أشياء كثيرة نريد أن نقولها - كنا نتكلّم من دون توقّف. لم تكن هناك لحظة صمت بيننا قط».

هزّ بنتو رأسه.

تابع فرانكو، «كان أبي، بارك اللّه اسمه، يقول دائماً إنه عندما لا يكون هناك حديث عن شيء كبير، فلا يوجد شيء آخر يمكن التحدّث عنه. هل توافق على ذلك يا بنتو؟»

«كان أبوك رجلاً حكيماً. شيء كبير؟ ما رأيك؟»

«من دون شكّ فإن الأمر يتعلّق بمظهري وحماستي لدراسة

التعاليم اليهودية. أظن أنّ هذا زعزعك وجعلك لا تعرف ماذا تقول».

«نعم، توجد حقيقة في كلماتك. لكني... لا أعرف تماماً ماذا أفعل لـ...».

«بنتو، لم أعتد على أن أسمعك تتلعثم وتبحث عن الكلمات. وإذا سمحت لي أن أتكلّم باسمك، فإني أظن أن 'شيئاً كبيراً' يعني عدم موافقتك على خط دراساتي، وفي الوقت نفسه، فإن قلبك يهتمّ بي، وتتمنى أن تحترم قراري ولا تقول شيئاً يزعجني».

«أحسنت يا فرانكو. لم أتمكن من إيجاد الكلمات المناسبة. تعرف أنّك تجيد هذا كثيراً».

«هذا؟»

«أقصد فهمك للفروق الدقيقة لما يقال وما لا يقال بين الناس. إنك تفاجئني بحدّة ذكائك».

أطرق فرانكو رأسه وقال: «شكراً يا بنتو. إنها موهبة منحني إياها أبي المبارك. فقد تعلّمت عند ركبتيه».

صمت مرة أخرى.

«أرجوك يا بنتو، حاول أن تشاركني بأفكارك عن لقائنا اليوم حتى الآن».

«سأحاول. أوافق، ثمة شيء مختلف اليوم. لقد تغيّرنا، وأشعر بصعوبة غير معتادة على التغلب على ذلك. يجب أن تساعدني في تحديدها».

«من الأفضل أن نتحدّث عن كيف تغيّرنا فقط. من وجهة نظرك، أقصد».

«قبل الآن، كنت أنا المعلّم وأنت التلميذ الذي يوافق على آرائي ويريد أن يمضي حياته في المنفى معي. أما الآن فقد تغيّر كلّ ذلك».

«هل لأنني بدأت دراسة التوراة والتلمود؟»

هزّ بنتو رأسه وقال: «لا يتجاوز الأمر الدراسة: فقد كانت كلماتك 'دراسة مبهجة' وكنت محقاً في تشخيصك لقلبي. خشيت أن أسيء إليك أو أن أقلّل من بهجتك».

«أتظن أن طرقنا بدأت تفترق؟»

«ألا ترى ذلك؟ بالتأكيد، الآن، حتى لو لم تكن مثقلاً بأعباء الأسرة، ألا تزال تريد أن تمضي معي في طريقي؟»

تردّد فرانكو وفكّر طويلاً قبل أن يجيب، «ردّي يا بنتو هو نعم ولا، أظن أنني لن أتبع طريقتك في الحياة. ومع ذلك، فإن دربينا لم يفترقا».

«كيف يمكن أن يكون ذلك؟ فسّر لي أرجوك».

«لا أزال أتذكّر كلّ تلك المناقشات حول الخرافة الدينية التي كنت تثيرها في المناقشات معي ومع جاكوب. ففي ذلك أنا أتفق معك».

«لكنك تجد الآن بهجة كبيرة في دراساتك للنصوص الخرافية؟»

«لا، هذا غير صحيح. أجد بهجة في عملية الدراسة نفسها، وليس دائماً بمحتوى ما أدرسه. أنت تعرف أيها المعلّم أن هناك فرقاً بين الاثنين».

«أرجوك يا معلّم، فسّر لي ذلك»، أحسّ بنتو الآن بارتياح شديد، وابتسم ابتسامة عريضة ومدّ يده ليلمس شعر فرانكو.

بادله فرانكو الابتسامة، توقّف لحظة ليستمتع بلمسة بنتو، ثم تابع كلامه، «أقصد 'بالعملية' أنني أحبّ أن أنخرط في الدراسة الفكريّة. فأنا أستمتع بدراسة اللغة العبرية وأجد متعة عندما ينفتح أمامي العالم القديم برمّته. أجد أن دراسة التلمود مثيرة أكثر مما كنت أتصوّر. منذ أيام قليلة ناقشنا قصّة الحبر يوهانون . . .»

«أيّ قصّة عنه؟»

«القصّة التي تقول إنه عالج حبراً آخر بأن أعطاه يده، ثمّ، عندما مرض هو نفسه، زاره حبر آخر وسأله، 'هل تتحمل هذه الآلام؟' فأجاب الحبر يوهانون، 'لا أتحملها هي ولا ثوابها'، وعندها عالج الحبر الآخر يوهانون بإعطائه يده».

«نعم، أعرف هذه القصّة، وكيف وجدت أنها قصة مثيرة للاهتمام؟»

«في أثناء مناقشتنا أثرنا أسئلة كثيرة. منها مثلاً، لماذا لم يعالج الحبر يوهانون نفسه بكل بساطة؟»

«وبالطبع ناقش الطلاب فكرة أن السجين لا يستطيع أن يحرّر نفسه، وأنّ ثواب المعاناة يقبع في العالم الآخر».

«نعم، أعرف أنك تعرف هذا النوع من القصص، بل ربّما يكون مملاً بالنسبة لك، أما بالنسبة لشخص مثلي، فإني أجد متعة في مثل هذه المناقشات. ففي أي مكان آخر يمكن أن تتاح لي فرصة مناقشة أمور للبحث عن الذات كهذه؟ فقد قال بعض الطلاب في الصفّ شيئاً، واختلف معهم البعض الآخر، وتساءل آخرون لماذا استخدمت بعض الكلمات بينما كان من الممكن أن تكون كلمة أخرى أكثر وضوحاً. ويشجّعنا معلّمنا على دراسة وتدقيق كلّ معلومة صغيرة ترد في النصّ».

وواصل فرانكو كلامه، «ولنأخذ مثالاً آخر، فقد ناقشنا في الأسبوع الماضي قصّة تدور حول حاخام مشهور كان على فراش الموت، يعاني آلاماً شديدة، لكنه لم يفارق الحياة وظل على قيد الحياة بفضل صلوات طلابه وزملائه الحاخامات ودعواتهم له. لكن خادمته أشفقت عليه وألقت جرّة من السطح فتحطّمت وأحدثت

ضجيجاً هائلاً، فأجفلوا وتوقّفوا عن الصلاة والدعاء له، عندها مات الحاخام».

«آه، نعم - الحاخام *يهوداه هاناسي*. وأنا متأكّد أنكم ناقشتم أسئلة من قبيل هل فعلت الخادمة الشيء الصحيح أم أنها كانت مذنبة بارتكاب جريمة قتل، وهل كان الحاخامات الآخرون يفتقرون إلى مشاعر الرحمة في إبقائه على قيد الحياة وفي تأخير وصوله إلى العالم الآخر البهيج».

«أستطيع أن أتخيّل ردّك على هذا يا بنتو. فأنا أذكر تماماً موقفك حول الإيمان بالحياة الآخرة».

«تماماً. فالمسلّمة الأساسية للعالم الآخر خاطئة. وعلى الرغم من ذلك لم يكن طلاب صفّك منفتحين لمساءلة هذه المسلّمة».

«نعم، أوافقك الرأي، فهناك قيود كثيرة. لكن على الرغم من ذلك، فإن الجلوس مع آخرين لساعات ومناقشة أمور ثقيلة كهذه، امتياز، متعة. ويعلّمنا معلّمنا كيف نتجادل. فإذا كانت فكرة تبدو شديدة الوضوح، فإنه يعلّمنا أن نسأل لماذا قالها مؤلفها - فقد تكمن فكرة أعمق تحت ثنايا الكلمات. فعندما نكون على قناعة تامة بفهمنا، فإننا نتعلّم كيف نبحث عن المبدأ الأساسي الذي يقبع وراءه. وإذا كانت هناك فكرة لا تمت بصلة للموضوع، فإننا نتعلّم أن نسأل لماذا أدرجها مؤلفها. باختصار، يا بنتو، فإن دراسة التلمود تعلّمني كيف أفكّر، ولعل ذلك ينطبق عليك أيضاً. قد تكون دراستك للتلمود هي التي شحذت فكرك وجعلته دقيقاً هكذا».

هزّ بنتو رأسه وقال: «لا أستطيع أن أنكر أن هناك فائدة في ذلك يا فرانكو. وعندما أعود بذاكرتي إلى الماضي، فإنني كنت أفضّل أن أتبع طريق مداورة أقل، وأكثر عقلانية. فعلى سبيل المثال، يصل

إقليديس إلى الفكرة مباشرة من دون مواربة ومن دون أن يعكّرها بقصص غامضة ومتناقضة في أحيان كثيرة».

«إقليديس؟ مخترع الهندسة الرياضية؟»

هزّ بنتو رأسه.

«سأحتفظ بإقليديس لتعليمي الدنيوي في المرة القادمة. أما الآن، فإن التلمود يقوم بالمهمة. فأولاً، أنا أحبّ القصص لأنها تضيف حياة وعمقاً إلى الدروس. الجميع يحبّون القصص».

«لا يا فرانكو، ليس الجميع! انظر في إثباتك لما قلته. إنه استنتاج غير مبرّر أعرف شخصياً أنه غير صحيح».

«آه، أنت لا تحبّ القصص، ولا حتى عندما كنت طفلاً؟»

أغمض بنتو عينيه وقال: «'عندما كنت طفلاً، كنت أتكلّم كطفل، كنت أفكّر كطفل، كنت أعقلن الأمور كطفل. . .'».

قاطعه فرانكو وواصل بنفس النبرة، «'وعندما أصبحتُ رجلاً، وضعت الأساليب الطفولية خلفي'. بولس، إلى المؤمنين في كورنتوس، ١».

«مدهش! أصبحت الآن سريعاً جداً يا فرانكو، شديد الثقة بنفسك. أصبحت مختلفاً عن ذلك الشاب الأشعث، الجاهل الذي جاء بالقارب من البرتغال».

«جاهل في التعاليم اليهودية. لكن لا تنس أننا أُجبرنا، نحن الذي اضطررنا إلى تغيير ديننا، على دراسة التعاليم الكاثوليكية بالكامل. فقد قرأت كلّ كلمة من العهد الجديد».

«لقد نسيت ذلك. هذا يعني أنك بدأت شيئاً من تعليمك الثاني. هذا جيّد. توجد كثير من الحكم في العهدين القديم والجديد. لا سيما في بولس. في جملتين فقط يعبّر فيهما عن رأيي بدقة حول

القصص: *’لكن عندما يأتي ما هو كامل، ينتهي كلّ ما هو محدود‘*»

صمت فرانكو، مكرّراً لنفسه، «’محدود‘؟ ’كامل‘؟»

«’الكامل‘»، قال بنتو، «هو الحقيقة الأخلاقيّة، و ’المحدود‘ هو الغلاف - في هذه الحالة القصّة التي لا تعود ضرورية عندما تقول الحقيقة».

«لست متأكداً من أنني أقبل بولس نموذجاً للعيش. فحياته، كما يعلّمونها، تبدو غير متوازنة. قاسية جداً، متعصّبة جداً، عديمة البهجة، فهو يلعن جميع المتع الدنيوية. بنتو، أنت قاس جداً على نفسك. لماذا تنبذ متعة قصّة جيّدة، إنها متعة تبدو لطيفة جداً، شاملة جداً؟ أيّ ثقافة لا توجد فيها قصص؟»

«أتذكّر شابّاً كان ضدّ قصص المعجزات والنبوءات. أتذكّر شابّاً مضطرباً وقلقاً ومتمرّداً كان ضدّ أرثوذكسيّة يعقوب. أتذكّر ردود أفعاله أثناء الصلاة في الكنيس. فمع أنه لم يكن يجيد العبرية، كان يتتبع الترجمة البرتغالية للتوراة وكان حانقاً كثيراً من قصص التوراة ووصف كل الصلوات اليهودية والكاثوليكية بأنها جنون وهراء. وأتذكّره يسأل، ’لماذا انتهى عصر المعجزات؟ لماذا لم يأت الربّ بمعجزة لإنقاذ أبي؟‘ وكان الشابّ نفسه يتعذّب لأن والده ضحّى بحياته في سبيل التوراة المليئة بالمعتقدات الخرافية والمعجزات والنبوءات».

«نعم، كلّ هذا صحيح. أتذكّر».

«إذاً أين هي تلك المشاعر الآن يا فرانكو؟ إنك لا تتحدّث الآن إلّا عن البهجة في دراستك للتوراة والتلمود. ومع ذلك فإنك تقول إنّك لا تزال تؤمن بأفكاري التي تنتقد الخرافات. كيف يمكن أن يكون ذلك؟»

«بنتو، إنه نفس الرد - فعملية الدراسة ذاتها هي التي تمنحني

البهجة، فأنا لا آخذ المحتوى بجدية كبيرة. أنا أحبّ القصص، لكنّي لا أعتبر أنها حقيقة تاريخية. إني أركّز على الجانب الأخلاقي فيها، على الرسائل التي تبعث بها الكتب المقدّسة حول الحبّ وعمل الخير واللطف والسلوك الأخلاقي، أما ما تبقى فإني أضعه خارج عقلي. وهناك قصص، وهناك قصص. فبعض القصص التي تحكي عن المعجزات، كما تقول، هي عدوة العقل. لكن هناك قصص أخرى تجذب انتباه الطالب، وأجدها مفيدة في دراستي وفي التعليم الذي بدأته. هناك شيء واحد أعرفه جيداً - وهو أن الطلاب سيظلون مهتمين دائماً بالقصص، بينما لن يكون هناك طابور طويل من الطلاب المتشوّقين لتعلّم أشياء عن إقليديس والهندسة الرياضية. عندما ذكرت أنني أعلّم ذكّرني بشيء كنت متلهفاً لأقوله لك! فقد بدأت أعلّم عناصر اللغة العبرية، واحزر من هو أحد طلابي. كن مستعدّاً للصدمة - الشخص الذي أراد أن يقتلك!»

«أوه! قاتلي! يا لها من صدمة حقاً! أنت معلّم قاتلي! بماذا يمكنك أن تخبرني؟»

«اسمه إسحاق راميرز، وكانت تخميناتك حول ظروفه صحيحة. فقد تعرضت عائلته لترهيب محاكم التفتيش، وقُتل والداه، وقد حزن عليهما حزناً شديداً. وقصّته تشبه قصتي وهذا ما جعلني أتطوّع لتعليمه، والأمور تسير على ما يرام حتى الآن. لقد أسديت إليّ نصيحة قوية حول كيف يجب أن أعتبره ولم أنسها أبداً. هل تذكر ذلك؟»

«أتذكّر أنني قلت لك بألّا تخبر الشرطة عن مكانه».

«نعم، لكنك قلت بعد ذلك شيئاً آخر. قلت 'اسلك مساراً دينياً' أتذكر؟ وقد حيّرني ذلك».

«ربّما لم أكن واضحاً. أنا أحبّ الدين، لكنّي أكره الخرافة».

هزّ فرانكو رأسه، وقال: «نعم، هكذا فهمتك - بأنّني يجب أن أبدي فهماً وعطفاً وتسامحاً. صحيح؟»

هزّ بنتو رأسه.

«إذاً يوجد في التوراة أيضاً قانون أخلاقي، لا القصص التي تتناول المعجزات فقط».

«لا ريب في ذلك يا فرانكو. إن القصّة المفضّلة لديّ في التلمود هي التي تحكي عن كافر اقترب من الحاخام هيليل وقال له إنه مستعد لاعتناق اليهودية إذا علّمه الحاخام التوراة كلّه وهو واقف على قدم واحدة، فأجابه هيليل، 'الشيء الذي تكرهه، لا تفعله لجارك. هذه هي التوراة كلّها - وما تبقى مجرد تفاسير. اذهب وادرسها'».

«إنك تفعل مثل القصص...»

فتح بنتو فمه ليجيب، لكن فرانكو صحّح نفسه بسرعة وقال: «... أو على الأقل قصّة واحدة. قد تكون القصص بمثابة أداة للذاكرة. فهي فعالة للكثيرين منّا أكثر من الهندسة الرياضية العارية».

«أفهم ما ترمي إليه يا فرانكو، ولا يوجد عندي شكّ في أنّ دراستك تشحذ عقلك. لقد بدأت تتحوّل إلى منافس كبير في الجدال. ومن الواضح أن هذا جعل الحاخام مورتيرا يختارك. سأناقش هذا المساء بعض كتاباتي مع أعضاء نادي الفلسفة، وكم كنت أتمنى أن تكون حاضراً. سأكون مهتماً بانتقاداتك أكثر من أي شخص آخر».

«سيشرفني أن أقرأ أيّ شيء من كتاباتك. بأي لغة تكتب؟ فقد بدأت لغتي الهولندية تتحسّن».

«باللغة اللاتينية، للأسف. لنأمل أن يكون ذلك جزءاً من دراستك الثانية، لأني لا أظن أنها سترى ترجمة إلى اللغة الهولندية أبداً».

«لقد تعلّمت أساسيات اللغة اللاتينية أثناء تدريبي الكاثوليكي».

«اجعل تعلم اللاتينية هدفك. فقد درس الحاخام ميناسيه والحاخام مورتيرا اللغة اللاتينية جيداً وقد يسمحان لك أن تفعل ذلك، بل قد يشجّعانك على دراستها».

«مات الحاخام ميناسيه العام الماضي، وأظن أن المرض بدأ يشتد على الحاخام مورتيرا».

«يا لها من أخبار حزينة. لكن مع ذلك ستجد أشخاصاً آخرين يشجعونك. ربّما تكون هناك وسيلة يمكنك أن تمضي فيها سنة في يشيباه *الفينيسي*. إنها هامة: اللغة اللاتينية تفتح عالماً جديداً كاملاً . . .»

نهض فرانكو فجأة وهرع نحو النافذة ليلقي نظرة فاحصة على ثلاثة رجال مرّوا في الشارع واختفوا بسرعة. عاد وقال: «آسف يا بنتو - ظننت أنّني رأيت أحداً من أبناء الطائفة. أحسّ بتوتر شديد إذا ما رآني أحد هنا».

«نعم، لم نصل إلى سؤالي المتعلق بالمجازفة. قل لي، إلى أي مدى مجازفتك كبيرة يا فرانكو؟»

أطرق فرانكو رأسه، وقال: «إنها عظيمة جداً - كبيرة جداً إلى حد أنني لا أستطيع أن أخبر زوجتي بها. لا أستطيع أن أخبرها بأنني أعرّض للخطر كلّ ما جاهدنا لبنائه في هذا العالم الجديد. إنها مجازفة أخاطر بها من أجلك فقط، لا من أجل أي شخص آخر يمشي فوق هذه الأرض. يجب أن أغادر بسرعة، فلا يوجد عندي سبب أقدّمه لزوجتي أو لحاخاماتي لتبرير غيابي. كنت أفكّر أنه إذا رآني أحد، يمكنني أن أكذب وأقول إنّ سيمون طلب مني أن أعطيه دروساً باللغة العبرية».

«نعم، وأنا فكّرت في ذلك أيضاً. لكن أرجو ألّا تذكر اسم

سيمون، لأن الجميع يعرفون أنه على تواصل معي، على الأقل في الأوساط غير اليهودية. من الأفضل أن تذكر لهم اسم شخص آخر قد تكون قد التقيت به هنا، ربّما بيتر دايك، أحد أعضاء نادي الفلسفة».

تنهّد فرانكو وقال: «من المحزن أن أدخل أرض الكذب. إنها أرض لم أطأها منذ خيانتي لك يا بنتو. لكن قبل أن أذهب، أرجو أن تحدّثني قليلاً عن التقدّم الذي أحرزته في مجال الفلسفة. عندما أتعلّم اللغة اللاتينية، أرجو أن يريني سيمون أعمالك. أما الآن، اليوم، فإن كلّ ما حصلت عليه هو كلمتك المنطوقة. إن أفكارك تسحرني. لا أزال مندهشاً مما قلته لي ولجاكوب».

رفع بنتو ذقنه بتساؤل.

«في المرّة الأولى التي التقينا فيها قلت إن اللّه كامل، تام، لا يعتريه أي قصور، وليس بحاجة إلى تمجيد منّا».

«نعم، هذا هو رأيي، وكانت تلك كلماتي».

«ثمّ أتذكّر تعليقك التالي لجاكوب - وهي عبارة جعلتني أحبّك. فقد قلت، 'أرجو أن تسمح لي أن أحبّ اللّه بطريقتي'».

«نعم، وأين وجه حيرتك؟»

«بفضلك أعرف أن اللّه ليس كائناً مثلنا. ولا مثل أيّ كائن آخر. لقد قلتَ ذلك بشكل قاطع - وكانت تلك الضربة القاضية لجاكوب - بأن اللّه هو الطبيعة. لكن قل لي، علّمني. كيف يمكنك أن تكون عاشقاً للطبيعة؟ كيف يمكنك أن تحبّ شيئاً وليس كائناً؟»

«أولاً، فرانكو، إني أستخدم مصطلح 'الطبيعة' بطريقة خاصة. فأنا لا أقصد الأشجار أو الغابات أو العشب أو المحيط أو أيّ شيء ليس من صنع الإنسان. وإنما أقصد كلّ شيء موجود: الوحدة التامة الضرورية المطلقة. و'بالطبيعة' فإني أشير إلى اللانهائي، الموحّد، الكامل، العقلاني، المنطقي. السبب الجوهري لجميع الأشياء.

وكلّ شيء موجود، بلا استثناء، يعمل بحسب قوانين الطبيعة. لذلك عندما أتحدّث عن حبّ الطبيعة، فإني لا أقصد الحبّ الذي تكنّه لزوجتك أو لطفلك. بل أتحدّث عن نوع مختلف من الحبّ، الحبّ الفكريّ. وباللاتينية فإني أشير إليه بعبارة «*Amor dei intellectualis*».

«حبّ اللّه بالعقل؟»

«نعم، حبّ فهم أكبر قدر من الطبيعة أو اللّه. استيعاب وفهم مكان كلّ شيء متناه في علاقته بالأسباب المتناهية. فهم، بقدر ما هو ممكن، قوانين الطبيعة الشاملة».

«إذاً عندما تتحدّث عن اللّه المحبّ، فإن ما تقصده هو فهم قوانين الطبيعة».

«نعم، إن قوانين الطبيعة ليست سوى اسم آخر، أكثر عقلانية، لقوانين اللّه الأبدية».

«إذاً فإنه يختلف عن الحبّ البشري العادي في أنّه يشمل شخصاً واحداً فقط؟»

«تماماً. وحبّ شيء لا يتغير وأبدي يعني أنك لا تخضع لتقلبات ونزوات روح الذي نحبه أو محدوديته. إنها تعني أيضاً أنّنا لا نحاول أن نكمل أنفسنا في شخص آخر».

«بنتو، إذا كنت قد فهمتك جيداً، فإنه يجب أن يعني أيضاً أننا يجب ألّا نتوقّع أي حبّ بالمقابل».

«تماماً. فلا يمكننا أن نتوقّع شيئاً بالمقابل. إننا نستمدّ مهابة مبهجة من نظرة، فهماً متميّزاً لرحابة خطة الطبيعة المعقّدة اللامتناهية».

«مشروع آخر مدى الحياة؟»

«نعم، يمتلك اللّه أو الطبيعة عدداً لامتناهياً من الخصائص

والصفات التي لن أستطيع فهمها تماماً إلى الأبد. لكن إدراكي المحدود يمنحني رهبة وبهجة عظيمتين، بل أحياناً بهجة جذلى».

«دين غريب، إذا استطعنا أن ندعوه ديناً»، وقف فرانكو، وأضاف «يجب أن أغادر الآن وأنا ممتلئ بالحيرة. لكن عندي سؤال أخير: فأنا أتساءل، هل إنك تؤلّه الطبيعة أم تطبّع اللّه؟»

«عبارة جميلة يا فرانكو. أحتاج إلى وقت، وقت كثير حتى أعدّ ردّي على سؤالك هذا».

الفصل الثلاثون

برلين - ١٩٣٦

أسطورة القرن العشرين - ذلك الشيء الذي لا يستطيع أحد أن يفهم ما كتبه ذلك البلطيقي الضيّق الأفق الذي يفكّر بطريقة معقّدة إلى درجة مخيفة.

- أدولف هتلر

ستجد قلّة من أعضاء الحزب القدامى الذين قرأوا كتاب روزنبرغ. أنا نفسي ألقيت عليه نظرة سريعة فقط. وفي جميع الأحوال، فإني أرى أنه كُتب بأسلوب شديد الغموض.

- أدولف هتلر

«سيغموند فرويد يحصل على جائزة غوته».

مُنحت جائزة غوته، أعظم جائزة علمية (أكاديمية) وأدبية في ألمانيا، إلى فرويد في ٢٨ آب ١٩٣٠، وهو يوم عيد ميلاد غوته، في فرانكفورت، في سياق احتفالات عظيمة. وقد ابتهجت *Isrealitische Gemeindezeitung* (صحيفة المجتمع الإسرائيلي) بالعزف بآلات الصنج النحاسية والأبواق. وبلغت قيمة الجائزة النقدية ١٠٠٠٠

مارك. . . ومن المعروف أنّ عدداً من العلماء البارزين رفضوا التحليل النفسي الذي وضعه اليهودي سيغموند فرويد جملة وتفصيلاً. وسيتقلب غوته العظيم المعادي للسامية في قبره إذا اكتشف أنّ يهودياً نال جائزة تحمل اسمه.

- ألفريد روزنبرغ في صحيفة الحزب النازي *Völkischer Beobachter*

«قائدي *الفوهرر*، أرجو أن تلقي نظرة على هذه الرسالة عن نائب القائد روزنبرغ التي أرسلها الدكتور غيبارت، كبير الأطباء في عيادة هوهينليشين».

أخذ هتلر الرسالة من يد رودولف هيس وتفحّصها بعينيه، مركّزاً بشكل خاص على الفقرات التي وضع هيس تحتها خطاً.

وجدت صعوبة بالغة في الاتصال بنائب القائد روزنبرغ. وبما أنني طبيب، فقد تكوّن لديّ، قبل كل شيء، الانطباع بأنّ شفاءه المتأخّر. . . يعزى بقدر كبير إلى عزلته النفسية. . . على الرغم من جهودي، إذا كان بإمكاني أن أقول ذلك، الحثيثة لبناء جسر، لكنها أُجهضت كلها. . . بسبب الأسلوب الذي تشكّلت فيه نفسية نائب القائد ومن مكانته الخاصّة في الحياة السياسية. . . ولا يمكنه أن يتخلص من هذا الكبت إلّا إذا فتح عقله للذين يحقّ لهم، على الأقل، التحدّث إليه على قدم المساواة، ولديهم إمكانيات فكريّة متقاربة، لكي يتمكن من استعادة الهدوء والتصميم اللازمين ليؤدي عمله، ويعيش حياته اليومية.

في الأسبوع الماضي، سألته إن كان قد أفضى بأعمق أفكاره إلى أحد، فأجاب، بشكل غير متوقّع، نعم وذكر اسم فريدريش بفيستر،

أحد أصدقاء الطفولة في إستونيا. وعلمت أنّ فريدريش بفيستر هذا هو هير أوبيرليوتننانت بفيستر، طبيب مرموق يعمل في مستشفى ويهرماتشت في برلين. هل أستطيع أن أطلب منكم أن تصدروا أمراً فورياً لأن يتسلم مهامه كطبيب ليشرف على نائب القائد روزنبرغ؟

أعاد هتلر الرسالة إلى هيس وقال: «لا يوجد شيء يفاجئني في هذه الرسالة، لكن احرص على ألّا يراها. وأصدر على الفور أمراً بنقل هير أوبيرليوتننانت بفيستر. إن روزنبرغ لا يطاق. كان دائماً هكذا. كلّنا نعرف ذلك. لكنّه مخلص، ولا يزال الحزب بحاجة إلى مواهبه».

كان هيملر قد أسّس عيادة هوهينليتشين التي تبعد مئة كيلومتر شمال برلين للعناية بالقادة النازيين المرضى وكبار ضبّاط فرقة الحماية (SS)، وكان ألفريد قد أمضى فيها ثلاثة أشهر عندما أصيب باكتئاب تهيّجي في عام ١٩٣٥. وبدأ يعاني الآن، في سنة ١٩٣٦، من نفس الأعراض المزعجة: الإعياء، سرعة الغضب، والاكتئاب. ولم يعد قادراً على التركيز على عمله في رئاسة تحرير صحيفة *Beobachter*، وانكفأ على نفسه تماماً لعدّة أسابيع، ونادراً ما كان يكلّم زوجته وابنته.

عندما أُدخل إلى المستشفى، حُوّل إلى الدكتور غيبارت ليجري له فحوص طبية شاملة، لكنه أصرّ على عدم رفض الإجابة عن الأسئلة المتعلقة بحالته النفسية أو بحياته الشخصية. كان كارل غيبارت طبيب هيملر الشخصي وصديقه الحميم وعالج أيضاً قادة نازيين آخرين (ما عدا هتلر الذي كان ثيودور موريل، طبيبه الشخصي، يلازمه باستمرار). لم يكن لدى ألفريد شك في أن أيّ كلمة يقولها لغيبارت سينقلها مباشرة إلى جميع أعدائه النازيين. ولهذا

السبب بالتحديد، كان ألفريد يرفض أن يتحدّث إلى أيّ طبيب نفساني. محرجاً ومضجراً من الجلوس صامتاً أمام نظرات ألفريد المحدّقة التي ترشح بالازدراء، أراد الدكتور غيبارت أن يحوّل مريضه المزعج إلى طبيب آخر، فبذل جهداً كبيراً لكتابة رسالته إلى هتلر الذي كان، لأسباب غير مفهومة، يقدّر روزنبرغ كثيراً ويسأل عن صحته بين الحين والآخر.

لم يتدرّب الدكتور غيبارت على الطب النفسي، ولم يكن يهتمّ بعلم النفس، لكنّه أدرك بسهولة مظاهر خلاف شديد بين القادة - التنافس الدائم بينهم، والاحتقار المتبادل، والتآمر بلا هوادة، والتنافس على السلطة، والسعي للحصول على رضاء هتلر. كانوا يختلفون حول كلّ شيء، لكن غيبارت اكتشف شيئاً مشتركاً يجمع بينهم كلّهم، وهو كراهيتهم لألفريد روزنبرغ. وبعد بضعة أسابيع من رؤية ألفريد كلّ يوم، عرف سبب كراهيتهم له.

مع أن ألفريد قد يكون قد شعر بذلك، لكنه ظل صامتاً وأمضى أسبوعاً تلو أسبوع في عيادة هوهينليتشين يقرأ الأعمال الكلاسيكية الألمانيّة والروسية، ويرفض المشاركة في أي حديث مع العاملين في العيادة أو مع أيّ مريض من المرضى النازيين الآخرين. وفي صباح أحد الأيام، في أسبوعه الخامس في العيادة، تملّكه شعور بانزعاج شديد، فقرّر أن يتمشّى قليلاً في حديقة العيادة. وعندما وجد أنه مرهق ولم يستطع حتى أن يعقد رباط حذائه، أخذ يلعن نفسه ويصفع خدّيه بقوة ليوقظ نفسه. كان عليه أن يفعل شيئاً كي يوقف انحداره إلى يأس لا شفاء منه.

وفي يأسه هذا استدعى إلى ذاكرته وجه فريدريش. فلا بد أن فريدريش يعرف ما يجب عليه أن يفعله. ما الذي سيقترح أن يفعله؟ لا ريب في أنه سيحاول فهم سبب هذا الاكتئاب اللعين. وتخيّل

ألفريد الكلمات التي سيقولها له فريدريش: «متى بدأ كلّ هذا؟ دع عقلك يفكّر بحرية، وعُد إلى بداية انحدارك. لاحظ كلّ الأفكار، كلّ الصور التي تجري في عقلك، لاحظها جيداً. سجّلها إذا استطعت».

حاول ألفريد أن يفعل ذلك. أغمض عينيه ولاحظ الاستعراض الذي يمرّ أمام عقله. عاد بالزمن إلى الوراء ورأى مشهداً يتجلّى أمامه.

حدث ذلك منذ عدّة سنوات خلت. كان جالساً إلى طاولة المكتب التي اشتراها له هتلر في مكتب الصحيفة. يحرر الصفحة الأخيرة من عمله العظيم Der Mythus des 20. Jahrhunderts (أسطورة القرن العشرين)، يضع قلمه الأحمر، ويبتسم ابتسامة عريضة بزهو المنتصر، ويرتّب المخطوطة التي يبلغ عدد صفحاتها سبعمئة صفحة ويلفّ حولها رباطين مطاطيين سميكين، ويضمّها إلى صدره بمحبّة.

نعم، تذكّر أجمل لحظاته، حتّى الآن، دمعة، ربّما دمعتان، سالتا على وجهه. أحسّ ألفريد بالتعاطف مع تلك النفس الأصغر، الشابّ الذي يعرف أن كتابه *الأسطورة* سيدهش العالم كلّه. كانت فترة مخاض طويلة ومرهقة - عشر سنوات من العمل في أيام الأحد، بالإضافة إلى الساعات الطويلة خلال الأسبوع التي كان من الممكن أن يمضيها مع نفسه وأسرته - لكن هذا العناء يستحق ذلك. نعم، نعم - يعرف أنّه أهمل زوجته وابنته، لكن هذا ليس مهماً بالمقارنة مع تأليف كتاب سيشعل العالم، كتاب سيقدّم فلسفة جديدة مغايرة للتاريخ تقوم على أساس الدم والعرق والروح، تقدير جديد لحركة الجماهير والفنّ والهندسة المعمارية والأدب والموسيقى، والأهم من كل ذلك، إنشاء قاعدة جديدة للقيم من أجل الرايخ في المستقبل.

مدّ ألفريد يده إلى المنضدة بجانب السرير وتناول نسخته

الشخصية من كتاب «الأسطورة» وراح يقلّب صفحاته كيفما اتفق. وذكّرته بعض الفقرات بالمكان الذي كان مصدر إلهامه. فعندما كان يزور كاتدرائية كولون، وبينما كان يتفرج على رسومات صلب المسيح على الزجاج المعشّق ومجموعة الشهداء الضعفاء الهزيلين، خطرت له الفكرة - وهي أن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية لم تكن تعارض اليهودية. فعلى الرغم من أن الكنيسة صرّحت بأنها تعادي اليهود، فهي في الواقع تشكل القناة الرئيسيّة التي تصيب من خلالها الأفكار اليهودية جسم الفكر الألماني الصحّي بالمرض. قرأ الكلمات التي كتبها بمتعة كبيرة:

عاش الألمان العظماء بانسجام مع الطبيعة وقدّروا عالياً بنية أجسامهم الجميلة وجمالهم الرجولي. لكن العداء المسيحي للجسد والأفكار العاطفية المتعلقة بحفظ حياة الأطفال المصابين بعيوب والسماح للمجرمين والمصابين بأمراض وراثية بتكاثر عيوبهم ونقلها إلى الجيل التالي قوّض ذلك. فنجم عن تلوّث نقاوة العرق تشظٍّ في الشخصية، وفقدان الإحساس بالاتّجاه وبالفكر، وعدم اليقين الداخلي. لم يولد الشعب الألماني في الخطيئة وإنما ولد في النبالة... ويجب إنهاء العهد القديم باعتباره كتاباً يقدّم تعاليم دينية إلى الأبد، وستنتهي معه آخر محاولة فاشلة في الألفية والنصف الأخيرة لجعلنا كلّنا يهوداً روحيين... روح النار - البطولي يجب أن يحلّ محل عملية الصلب.

نعم، قال لنفسه، فقرات كهذه هي التي خلقت كتاب *أسطورة القرن العشرين* الذي أدرج في قائمة دليل الكتب المحظورة في الكنيسة الكاثوليكية عام ١٩٣٤. لكن هذه ليست مصيبة - وإنما نعمة من اللّه لأنها زادت مبيعات الكتاب. فقد بيعت منه أكثر من ثلاثمئة

ألف نسخة، ويأتي الآن كتابي «الأسطورة» في المرتبة الثانية بعد كتاب «كفاحي» وها أنا الآن - مفلس عاطفياً.

وضع ألفريد الكتاب جانباً، وأسند رأسه إلى وسادته، وغاص في بحر التأملات. *لقد جلب لي كتابي «الأسطورة» بهجة كبيرة لكنه جلب لي أيضاً هذا العذاب! فقد استخدم المراجعون الأدبيون الأغبياء عبارة unbegreiflich (غير مفهوم). لماذا لم أردّ عليهم؟ لماذا لم أردّ عليهم؟ لماذا لم أسألهم في طبعة شعبية عمّا إذا كان خطر ببالهم قط أنّ كتابتي قد تكون دقيقة جداً ومعقّدة جداً لا تفهمهما أدمغة الحشرات؟ لماذا لم أذكّرهم بنتائج الصدامات بين العقول المتوسّطة والأعمال العظيمة: دائماً المفكرون الأدنى مرتبة يهاجمون المفكّرين المتفوّقين. ما الذي يريده عامة الناس؟ إنهم يسعون إلى سوقيّة يوليوس شترايخر الغبية. حتى هتلر يفضّل نثر شترايخر. إنه يلوي الخنجر كلما ذكّرني بأن الممسحة التي يصدرها شترايخر، صحيفة «دير شتورمر» تفوق مبيعاتها مبيعات صحيفتي «بيوباتشتر».*

وعندما أفكّر في أنه لم يقرأ ولا زعيم نازي واحد كتابي «الأسطورة»! كان هيس هو الوحيد الذي قال لي معتذراً إنه بذل جهده لقراءته لكن لم يفهم لغته النثرية الصعبة. أما الآخرون فإنهم حتى لم يذكروا لي الكتاب على الإطلاق. تخيّل - أكثر الكتب مبيعاً، وأبناء الزنى الحسودون هؤلاء يتجاهلونني. لكن لماذا يجب أن أنزعج من ذلك؟ ماذا يمكنني أن أتوقّع من كلّ ذلك؟ المشكلة هو هتلر، دائماً هتلر، فكلما فكّرت في الأمر أكثر، ازداد يقيني بأن انحداري بدأ في اليوم الذي سمعت فيه أنّ غوبلز يخبر الجميع بأن هتلر رمى كتاب «الأسطورة» بعد أن قرأ بضع صفحات منه وقال، «من يستطيع أن يفهم هذا الكلام؟» نعم، تلك كانت لحظة الجرح

القاتل. في النهاية فإن حكم هتلر هو المهم. لكن إذا لم يحبّه، فلماذا أمر بأن تباع في جميع المكتبات، وأدرجه في قائمة القراءة الأساسية في بطاقة الحزب النازي الرسمية؟ حتى إنه أمر (شبيبة هتلر) بقراءته. لماذا يفعل ذلك، وفي الوقت نفسه، يرفض رفضاً قاطعاً أن يربط نفسه بكتابي؟

يمكنني أن أفهم موقفه العام. أعرف أنّ الدعم الكاثوليكي لا يزال أمراً بالغ الأهمية بالنسبة لموقعه كفوهرر، وبالطبع، لا يمكنه أن يؤيد عملاً معادياً للمسيحية بصراحة تامة. عندما كنّا شباناً، في عشرينات القرن العشرين، كان هتلر يتفق مع موقفي المعادي للدين بحماسة شديدة. أعرف أنه لا يزال يفعل ذلك. عندما يكون معي فإنه يفوقني في ذلك - فكم مرّة سمعته يقول إنه سيشنق القساوسة إلى جانب الحاخامات؟ إني أتفهم موقفه العام. لكن لماذا لا يقول شيئاً مؤكداً، أيّ شيء، لي على انفراد؟ لماذا لا يدعوني مرّة واحدة إلى الغداء لنتبادل حديثاً خاصاً؟ قال لي هيس إنه عندما اشتكى رئيس أساقفة كولون لهتلر من كتاب «الأسطورة»، أجابه هتلر، «لا توجد لي علاقة بالكتاب، وروزنبرغ يعرف ذلك جيداً. وقد قلت له إنني لا أريد أن أعرف أشياء وثنيّة من قبيل طائفة وتان وأشباهها». وعندما ألحّ رئيس الأساقفة، قال له هتلر، «إن روزنبرغ هو الدوغماتي في حزبنا»، ثمّ وبّخ رئيس الأساقفة لأنه رفع مبيعات الكتاب بسبب هجومه الشرس. وعندما اقترحت أن أستقيل من الحزب إذا كان كتابي يسبب له إحراجاً، تجاهل الفكرة بكل بساطة - مرة أخرى من دون أن يقترح أن نلتقي وحدنا. وبالرغم من ذلك فإن هتلر يلتقي بهيملر على انفراد طول الوقت، مع أن هيملر كان يعادي الكاثوليكية بصراحة وبعدائية أشدّ مني.

أعرف أنه لا بدّ أنه يكنّ لي شيئاً من الاحترام. فهو يعرض عليّ

منصباً وراء الآخر: مهام دبلوماسية في لندن، ثمّ في النرويج، ثمّ رئيس التثقيف الأيديولوجي في الحزب النازي وجبهة العمل الألمانية، وفي جميع المنظمات ذات الصلة. مناصب هامة. لكن لماذا أعرف عن المهام الموكلة إليّ بالبريد فقط؟ لم لا يدعوني إلى مكتبه، ويصافحني ويجلس معي ويكلّمني؟ هل أنا بغيض إلى هذه الدرجة؟

نعم، لا ريب في ذلك: هتلر هو المشكلة. أكثر من أيّ شيء في العالم أريد أن يبدي اهتماماً بي. وأكثر من أيّ شيء آخر، فإني أخشى غضبه. فأنا أدير أكثر الصحف تأثيراً في ألمانيا، وأنا مسؤول عن التعليم الروحي والفلسفي لجميع النازيين. لكن هل أكتب المقالات الضرورية؟ ألقي المحاضرات الضرورية؟ أخطّط المناهج؟ أشرف على تعليم جميع الألمان الشباب؟ لا، نائب القائد روزنبرغ منهمك في التفكير لماذا لم يحظ بابتسامة أو بإيماءة محبّة، أو لا سمح اللّه، بدعوة إلى الغداء من أدولف هتلر!

إني أشعر بالقرف من نفسي. يجب أن يتوقّف كلّ ذلك!

نهض ألفريد ومشى إلى طاولة المكتب في غرفته. دسّ يده في حقيبته واستلّ منها ملفّاً عليه كلمة «**لا**» (يوجد لديه ملفان، واحد موسوم بكلمة «**نعم**» يضم المراجعات الإيجابية ورسائل المعجبين ومقالات صحيفة؛ وملف «**لا**» الذي توجد فيه جميع المقالات والآراء المضادّة). كان ملف «**نعم**» مهترئاً، وفي مرات عديدة في الأسبوع ،كان ألفريد يقرأ المراجعات الإطرائية ورسائل المعجبين التي كانت بمثابة منشط يومي - كما لو كان يتناول فيتامينات في الصباح. أما الآن فقد خبا تأثير هذا المنشط. ولم تعد التعليقات في الملف «**نعم**» تُحدث فيه ذلك التأثير الذي سرعان ما يتبخّر. أما الملف «**لا**»، فقد أصبح أرضاً مجهولة - كهفاً نادراً ما يزوره. لكن

اليوم! سيكون اليوم نقطة التحوّل! سيواجه شياطينه وجهاً لوجه. عندما مدّ ألفريد يده إلى الملف الذي لم يفتحه، تخيّل الرسائل والمقالات التي تريد أن تجد فيه مأوى لها. ارتسمت على شفتيه ابتسامة، تلك الابتسامة الأولى التي اصطنعها منذ أسابيع، مقدّراً روح الدعابة لديه. أخرج مقالة لا على التعيين - آن الأوان ليتغلّب على هذه الحماقة. الرجل الشجاع يُجبر نفسه على قراءة الأشياء المؤلمة كلّ يوم حتى لا تعود مؤذية. ألقى نظرة عليها - رسالة من هتلر مؤرّخة في ٢٤ آب ١٩٣١:

عزيزي هير روزنبرغ: إني أقرأ في الصفحة الأولى من صحيفة Völkischer Beobachter، العدد ٢٣٥/٢٣٦، مقالة بعنوان «هل ينوي ويرث أن يأتي؟» تنحو المقالة إلى عدم الابتعاد عن الشكل الحالي للحكومة. وأنا شخصياً أجوب أنحاء ألمانيا لأحقق عكس ذلك تماماً. هل لي أن أطلب منك أن لا تطعنني صحيفتي في ظهري بمقالات غير حكيمة من الناحية التكتيكية؟

مع التحيات الألمانية،
أدولف هتلر

غمرته موجة من اليأس. كان قد مضى على هذه الرسالة خمس سنوات، لكنها لا تزال تؤثّر فيه كثيراً، لا تزال تؤلمه. فالجروح الورقية التي أحدثها له هتلر لن تلتئم أبداً. هزّ ألفريد رأسه بقوة ليجلي فكره. فكّر في هذا الرجل الذي يدعى هتلر، قال لنفسه. فهو مجرد رجل. أغمض عينيه، وترك أفكاره تتدفّق.

لقد عرّفت هتلر على عمق الثقافة الألمانيّة. أريته ضخامة الآفة اليهودية. صقلت أفكاره المتعلقة بالعرق والدم. تمشّينا، أنا وهو،

في الشوارع نفسها، وجلسنا في المقاهي ذاتها، ولم تتوقف أحاديثنا، وعملنا معاً في كتابة مقالات الصحيفة، وحتى أننا رسمنا معاً ذات يوم. لكن كلّ ذلك توقّف الآن. فلم أعد أستطيع إلّا أن أرمقه بدهشة، مثل دجاجة تحدّق في صقر. كنت شاهداً على جمعه أعضاء الحزب المشتتين عندما غادر السجن، وحتى مشاركته في الانتخابات البرلمانية، وحتى بنائه ماكينة الدعاية التي لم يشهد لها العالم مثيلاً من قبل - ماكينة اخترعت البريد المباشر وشنّت حملة لا هوادة فيها، حتى توقفت الانتخابات. رأيته وهو ينفض عنه النسبة السيئة من الأصوات التي لم تتجاوز ٥ في المئة في السنوات القليلة الأولى، ثم بدأت تتحسّن حتى عام ١٩٣٠، وعندما أصبح حزبه ثاني أكبر حزب في ألمانيا حصل على ١٨ في المئة من الأصوات. وفي سنة ١٩٣٢ نشرت عناوين بارزة ضخمة أعلنت فيها أنّ النازيين أصبحوا أضخم حزب، وحصلوا على ٣٨ في المئة من الأصوات. يقول البعض إن غوبلز هو العقل المدبر، لكنّي أعرف أنّه كان هتلر. كان هتلر وراء كلّ شيء. لقد غطّيت كلّ خطوة من الخطوات لتمهيد الطريق أمام صحيفة الحزب. رأيته يطير من مدينة إلى مدينة ويظهر في جميع الأقاليم في اليوم نفسه ويقنع عامة الناس بأنه أوبيرمينش (سوبرمان)، قادر على أن يكون في كل مكان في نفس الوقت. كنت معجباً بشجاعته وعدم خوفه وهو ينظم اجتماعات في وسط أحياء خطيرة يسيطر عليها الشيوعيون ويأمر أعضاء فرقة العاصفة التي شكّلها لمهاجمة البلاشفة في الشوارع. رأيته يرفض نصيحتي ويرشّح نفسه ضدّ هيندينبيرغ سنة ١٩٣٢. ولم يحصل إلّا على ٣٧ في المئة من الأصوات، لكنّه أثبت لي أنه محق في ترشحه: فقد كان يعرف أن أحداً لا يستطيع أن يهزم هيندينبيرغ، لكن الانتخابات جعلت اسمه مألوفاً. وبعد بضعة أشهر وافق على ائتلاف حكومة هتلر/بابين

وسرعان ما أصبح مستشاراً. لقد تتبعت كلّ خطوة سياسية خطاها، ولا أزال لا أعرف كيف فعل ذلك.

وحريق الرايخستاغ (مبنى البرلمان الألماني). أذكر كيف ظهر في مكتبي بعينين متوحّشتين في الساعة الخامسة صباحاً، وهو يصرخ «أين الجميع؟» وطلب مني أن أقوم بتغطية واسعة في الصحيفة بأن الشيوعيين هم الذين أضرموا النار في الرايخستاغ. لا أزال لا أصدق أنه كانت للشيوعيين يد في هذا الحريق، لكن هذا لا يهم - وبضربة عبقري استخدم الحريق لحظر الحزب الشيوعي واستلام سلطة مطلقة بزعامة شخص واحد. لم يحصل قط على أصوات الأغلبية، ولم ينل قط أكثر من ٣٨ في المئة من الأصوات، وها هو الآن - حاكم مطلق! كيف فعل ذلك؟ لا أزال لا أعرف!

طرقات على الباب قطعت سلسلة أحلام ألفريد، ثم دخل الدكتور غيبارت يتبعه فريدريش بفيستر. «لديّ مفاجأة لك، نائب القائد، روزنبرغ. لقد أحضرت لك صديقاً قديماً قد يفيدك في علاج حالتك. سأترككما لتناقشا ذلك وحدكما».

حدّق ألفريد في فريدريش طويلاً قبل أن يقول له: «لقد خنتني. لقد حنثت بوعدك لي بالحفاظ على السرية. كيف عرف أنني أنا وأنت...».

استدار فريدريش في الحال، ومن دون كلمة أو نظرة إلى ألفريد، خرج من الغرفة.

مذعوراً، ارتمى ألفريد على السرير، أغمض عينيه، وحاول أن يتنفس ببطء.

بعد بضع دقائق، عاد فريدريش مع الدكتور غيبارت الذي قال: «طلب مني الدكتور بفيستر أن أخبرك كيف اخترته. ألا تذكر، يا

نائب القائد روزنبرغ، حديثنا منذ ثلاثة أو أربعة أسابيع، عندما سألتك إن كنتَ قد عرّيت نفسك بالكامل لأي شخص؟ وكانت كلماتك بدقة، 'صديق من إستونيا، يعيش الآن هنا، الدكتور فريدريش بفيستر'»

هزّ ألفريد رأسه ببطء وقال: «لا أتذكّر حديثنا بوضوح لكني لا أذكر أنني استخدمت اسمه».

«لقد ذكرته في الحقيقة. وإلا كيف كان بإمكاني أن أعرف؟ أو أن أعرف أنّه في ألمانيا؟ الأسبوع الماضي، عندما ازداد شعورك بالاكتئاب ورفضت أن تكلّمني، قرّرت أن أحاول أن أعرف مكان صديقك، لأنه خيّل إليّ أنّ زيارة منه قد تكون مفيدة، وعندما عرفت أنّه في الجيش، طلبت من الفوهرر أن يصدر أمراً بنقله إلى عيادة هوهينليشين».

فقال فريدريش: «هل تمانع بأن تخبر نائب القائد روزنبرغ ماذا كان ردّي؟»

«بأنّك كنت تعرفه منذ الطفولة في إستونيا».

«و. . . .»، قال فريدريش.

«لا يوجد أكثر من ذلك. . . ما عدا أنّك تأسف لأنك تركت مرضى كثيرين يعتمدون عليك لكن لا شيء يمكن أن يأخذ أسبقية على تنفيذ أوامر الفوهرر».

«هل لي أن أجري حديثاً قصيراً خاصّاً مع نائب القائد روزنبرغ قبل أن تغادر الجناح هذا الصباح؟»

«طبعاً. سأنتظرك في قسم الممرضات».

عندما أُغلق الباب، قال فريدريش: «هل من أسئلة أخرى يا نائب القائد روزنبرغ؟»

«ألفريد، من فضلك يا فريدريش. أنا ألفريد. نادني ألفريد».

«حسناً. هل من أسئلة أخرى يا ألفريد؟ إنه ينتظر».

«هل ستصبح طبيبي؟ أؤكد لك أنني أرحّب بذلك وفق الشروط القديمة. أما الآن، فكيف يمكنني أن أفضي إليك؟ أنت في الجيش وقد أمرت بأن ترفع له تقاريرك عني».

«نعم، أفهم معضلتك. كان سينتابني نفس الشعور لو كنت في مكانك». جلس فريدريش على الكرسي بجانب السرير وفكّر لبضع لحظات، ثمّ نهض وغادر الغرفة، وقال: «سأعود بعد دقيقة»، وسرعان ما عاد مع الدكتور غيبارت.

«سيدي»، قال مخاطباً الدكتور غيبارت، «تتمثل الأوامر الصادرة لي في رعاية نائب القائد روزنبرغ، وطبعاً فإني سأنفّذ هذه الأوامر بكلّ ما بوسعي. لكن هناك مشكلة، فإننا صديقان قديمان، وقد تبادلنا منذ زمن هواجسنا الحميمة. وإذا كان عليّ أن أساعده، فمن الضروري أن تكون لدينا خصوصية وسرّية كاملتين. يجب أن أكون قادراً على أن أعده بسريّة مطلقة. أعرف أنّ الملاحظات اليومية في الجدول الطبي إلزامية، لذلك فإني أطلب أن يُسمح لي أن أدوّن الملاحظات التي تصف حالته الصحية فقط».

«أنا لست طبيباً نفسانياً، دكتور بفيستر، لكنّي أستطيع أن أفهم ضرورة السرّية في هذه الحالة. فهذا إجراء غير عادي، لكن لا شيء يأخذ أسبقية على شفاء نائب القائد روزنبرغ وعودته إلى عمله الهام. أوافق على طلبك». حيّا الرجلين وغادر.

«هل هذا يطمئنك يا ألفريد؟»

أومأ ألفريد وقال: «نعم».

«وهل لديك أسئلة أخرى؟»

«أنا راضٍ. على الرغم من النهاية السيئة للقائنا الأخير فلا تزال

لديّ ثقة غريبة بك. أقول 'غريبة' لأنني في الحقيقة لا أثق عملياً بأحد. وأنا بحاجة إلى مساعدتك. في السنة الماضية، مكثت في هذا المستشفى ثلاثة أشهر في حالة مشابهة - ثقب أسود عميق. لم أستطع الخروج منه. أحسست بأنني انتهيت. لم يغمض لي جفن. ومع أنني كنت مرهقاً فإنني لم أهدأ عن الحركة، لم أستطع أن أرتاح».

«حالتك هذه - ندعوها 'اكتئاب تهيّجي' - وهو يتلاشى دائماً بعد فترة تتراوح بين ثلاثة وستّة أشهر تقريباً. يمكنني أن أساعدك في تقصير هذه المدة».

«سأكون ممتنّاً إلى الأبد. كلّ شيء - حياتي كلها - في خطر».

«لنبدأ عملنا. إنك تعرف أسلوبي ولعلك لن تفاجأ عندما تسمعني أقول إنّ أول مهمة أمامنا هي إزالة كلّ العقبات التي تعيق عملنا معاً. وأنا، مثلك، لدي هواجس. دعني أستجمع أفكاري».

أغمض فريدريش عينيه لبضع لحظات وبدأ يقول: «من الأفضل أن أصفّي الأجواء وأقول ما يتبادر إلى ذهني فقط. تساورني شكوك مقلقة عن عملنا معاً. إننا مختلفان تماماً. فأنا أميل إلى أن أفهم، أن أكشف جذور الصعوبات المخفية - هذا هو الاعتقاد الأساسي في أسلوب التحليل النفسي. المعرفة الكاملة تزيل الصراعات وتعزّز الشفاء. أما معك، فإني أشعر بالقلق لأنّني لا أستطيع أن أسلك هذا المسار. آخر مرّة، عندما حاولت أن أستكشف مصادر الصعوبات التي تواجهك، غضبت واتخذت موقفاً دفاعياً واندفعت خارج مكتبي. لذلك، فإني أشعر بالقلق من أن أكون أنا نفسي، أو على الأقل هذا المنهج، سيفيدانك».

نهض ألفريد واقفاً وراح يذرع غرفته.

«هل أزعزعك بصراحتي؟»

«لا، إنها أعصابي فقط. لا أستطيع أن أجلس لمدّة طويلة. أقدّر

صراحتك وصدقك. لا يكلّمني أحد بهذه الصراحة. أنت صديقي يا فريدريش».

حاول فريدريش أن يهضم هذه الكلمات. تأثر رغماً عنه، وكان غاضباً لأنه حُوّل فجأة إلى عيادة هوهينليتشين. لأن تحويله المفاجئ هذا يعني أن عليه أن يتخلّى عن الكثير من مرضاه الذين تركهم في وسط علاجهم ولم يستطع أن يحدد لهم موعداً معيناً لعودته، ولم يكن سعيداً أيضاً برؤية ألفريد روزنبرغ مرة أخرى. فقبل ستّ سنوات، رأى ظهر ألفريد روزنبرغ وهو يندفع خارجاً من مكتبه يهمهم تهديدات شرّيرة عن الجذور اليهودية التي تقبع في مهنته، وأحسّ بالارتياح لأنه لم يعد يراه. كما حاول أن يقرأ كتاب «*أسطورة القرن العشرين*»، لكنه، شأن الآخرين، وجد لغته غير مفهومة. فهو أحد تلك الكتب الأكثر مبيعاً التي اشتراها الجميع، لكن لم يقرأها أحد. والقلة القليلة التي قرأته أثار فزعها. *ربما كان ألفريد يعاني، ويقول بحزن إنني صديقه الوحيد، لكنّه رجل خطير - خطير على ألمانيا، خطير على الجميع.*

إن الأفكار في كتابيْ *أسطورة القرن العشرين* و*كفاحي* تسير في خط متواز - تذكّر عندما قال له ألفريد إن هتلر سرق أفكاره. الكتابان أثارا تقززه - خسيسان، جديران بالازدراء. ومخيفان إلى درجة جعلته يفكّر في الهجرة، وكتب إلى كارل يونغ ويوجين بليولير يسألهما عمّا إذا كان هناك مكان شاغر له في مستشفى زيوريخ حيث تدرّب. لكن رسالة التجنيد اللعينة تلك جاءت تهنئه على تعيينه برتبة عقيد في الجيش الألماني (*الفيرماخت*). كان عليه أن يتصرّف قبل الآن. فقد كان أستاذه هانز ماير الذي قرأ منذ عدة سنوات كتاب «*كفاحي*» في عطلة نهاية الأسبوع، وحدس بقدوم الكارثة، حذّره ونصح جميع مرضاه اليهود بمغادرة البلد فوراً. وهاجر هو نفسه إلى لندن بعد شهر.

إذاً ما العمل؟ فقد نحّى فريدريش جانباً الفكرة الساذجة بأنه يستطيع أن يساعد ألفريد ليصبح شخصاً أفضل - الأمر وبدت تلك حماقة من حماقات الشباب. ومن أجل عمله المهني (ولمصلحة زوجته وابنيه الصغيرين)، لم يكن هناك سوى خيار واحد فعال: إطاعة الأوامر، وأن يبذل كلّ ما بوسعه ليخرج ألفريد من المستشفى بأسرع وقت ممكن ليعود إلى أسرته وإلى مرضاه في مركز عمله في برلين. عليه أن يدفن ازدراءه إزاء مريضه وأن يتصرف بمهنية واحتراف. كانت خطوته الأولى تتمثل في وضع إطار واضح للعلاج.

قال: «إني متأثر جداً بتعليقك حول صداقتنا، لكن قولك إنني صديقك الوحيد يثير قلقي. فكلّ شخص بحاجة إلى أصدقاء وإلى أشخاص يأتمنهم على أسرارهم. ينبغي أن نحاول معالجة عزلتك: لا ريب في أنها تؤدي دوراً كبيراً في مرضك. أما بالنسبة إلى عملنا معاً، فدعني أشاطرك بعض المخاوف الأخرى. يصعب التعبير عنها، لكن من الضروري أن أفعل ذلك. فأنا أيضاً لديّ أمور تتعلق بالسرّية. فكما تعرف، أصبح التساؤل عن موقف أي حزب جريمة جنائية، وأصبح كلّ من يتكلم مراقباً، ولا شكّ في أن المراقبة ستزداد مع الوقت. هكذا هو الأمر دائماً في الأنظمة الاستبدادية. وأنا، مثل معظم الألمان، لا أتّفق مع كلّ عقائد الحزب النازي. وبالطبع، فإنك تعرف حق المعرفة أن هتلر لم يحصل على أغلبية الأصوات. في آخر مرة التقينا فيها - مضى على ذلك سنوات عديدة - أظن ستّ سنوات - اندفعتَ خارجاً من مكتبي في حالة، إذا سمحت لي أن أقول ذلك، غضب. في هذه الحالة لا يمكنني أن أثق بأنك تحترم خصوصيتي. وهذا سيجعلني مقيداً وأقل فعّالية في عملي معك. أنا واضح هنا، لكني أظن أنّك فهمت قصدي: يجب أن تسير السريّة في كلا الاتجاهين. أقسم لك بشرفي الشخصي

والمهني أن كلّ ما تقوله هنا سيبقى هنا. وأنا أريد منك نفس التأكيد».

جلس الرجلان صامتين لفترة من الوقت حتى قال ألفريد: «نعم، أفهم. أعدك بأن تبقى جميع تعليقاتك طيّ الكتمان. وأستطيع أن أفهم كيف أنه لا يمكنك أن تشعر بالأمان إذا انتابتني حالة من الغضب وعدم السيطرة على نفسي».

«صحيح. لذلك يجب أن نعمل بأمان أكثر ونبذل كلّ ما بوسعنا لكي نشعر كلانا بالأمان؟»

ألقى فريدريش نظرة متفحصة على مريضه. لم يكن ألفريد حليق الذقن. هالتان سوداوان تحت عينيه تشهدان على ليالٍ مؤرقة، وأثارت قسماته الحزينة غرائز فريدريش كطبيب. خفّف من غلواء كراهيته واجعله يعود إلى عمله. «قل لي يا ألفريد، ما هو هدفنا؟ أريد أن أساعدك. ما الذي تريد أن تحصل عليه مني؟»

تردّد ألفريد لعدة لحظات، ثمّ قال: «جرّب هذه الفكرة. في الأسابيع الماضية قرأت كثيراً»، وأشار إلى كومة الكتب التي تملأ الغرفة، «لقد عدت إلى قراءة الأعمال الكلاسيكية، لا سيّما غوته. هل تتذكر عندما حدّثتك عن مشاكلي مع وكيل مدير المدرسة إبشتاين قبل أن أتخرّج من المدرسة الثانوية؟»

«أنعش ذاكرتي».

«بسبب كلمة معادية لليهود ألقيتها عندما كنت رئيس الصفّ، كان عليّ أن أحفظ عن ظهر قلب بعض الفقرات من سيرة غوته الذاتية».

«أوه نعم، نعم - بدأت أتذكّرها كلّها. بعض الفقرات عن سبينوزا. لقد طلبوا منك أن تفعل ذلك لأن غوته كان شديد الإعجاب بسبينوزا».

«كنت خائفاً من ألّا أتخرّج من المدرسة فحفظتها عن ظهر قلب. حتى أنني أستطيع أن أرددها الآن، لكن للاختصار اسمح لي أن ألخّص لك النقاط الرئيسية: فقد كتب غوته أنه كان يمرّ في حالة من القلق، وأن قراءة سبينوزا منحته مسكّناً رائعاً ومهدئاً لانفعالاته. فقد قدّم أسلوب سبينوزا الرياضي توازناً رائعاً لأفكاره المضطربة وقاده إلى الهدوء وإلى أسلوب في التفكير أكثر انضباطاً جعله يثق بالاستنتاجات التي توصل إليها والشعور بالتحرر من تأثير الآخرين».

«أحسنت يا ألفريد. وماذا عني وعنك؟...»

«حسناً، هذا ما أريده منك. أريد أن أحصل على ما حصل عليه غوته من سبينوزا. أحتاج إلى كلّ هذه الأشياء. أريد مسكّناً لعواطفي. أريد...»

«هذا جيّد. جيّد جداً. توقّف للحظة. دعني أدوّن هذا». فتح فريدريش قلمه الحبر، الهديّة التي قدمها له أستاذه المشرف، وكتب «مهدئ للانفعالات». تابع ألفريد كلامه بينما راح فريدريش يسجّل ملاحظاته: «التحرر من تأثير الآخرين. التوازن. الهدوء، طريقة منضبطة في التفكير».

«جيّد، يا ألفريد. سيكون من الجيّد لكلينا أن نعود إلى سبينوزا. والأكثر من ذلك، فإن محاولة تطبيق أفكاره قد تكون ملائمة لعقل له ميول فلسفية مثلك. وقد تبعدنا أيضاً، عن النقاط المثيرة للجدل. لنلتق غداً في نفس الموعد، وخلال ذلك سأعود إلى العمل وإلى بعض القراءة. هل لي أن أستعير كتاب السيرة الذاتية لغوته من عندك؟ وهل لا تزال لديك نسختك من كتاب *الأخلاق*؟»

«نفس النسخة التي اشتريتها عندما كنت في العشرين من عمري. يقولون إن غوته كان يحمل كتاب *الأخلاق* في جيبه طوال سنة كاملة.

لم أضعه أنا في جيبي. في حقيقة الأمر لم أفتحه منذ سنوات، وبالرغم من ذلك لم أستطع أن أرمي به».

مع أن فريدريش كان متلهفاً ليغادر قبل بضع دقائق، عاد وجلس، وقال: «بدأت أرى العمل الذي سأقوم به. سأحاول أن أحدد الفقرات والأفكار التي ساعدت غوته والتي قد تساعدك أيضاً. لكنّي أظن أنني يجب أن أعرف أكثر عن السبب الذي عجّل في حدوث حالة نوبة اليأس هذه».

وصف له ألفريد التحليل الذاتي الذي قام به في وقت مبكر من ذلك اليوم، وحدّث فريدريش بأنه لم يعد يشعر بالبهجة من النجاحات التي يحققها، وكيف أن كتابه «*أسطورة القرن العشرين*» أعظم إنجازاته، سبّب له عذاباً كبيراً. حكى له كلّ شيء، وكيف أن كلّ شيء كان يعزى إلى هتلر بشكل خاص، وأنهى ألفريد كلامه: «وأكثر من أي وقت مضى، بدأت أرى الآن كيف أن إحساسي بذاتي يتوقّف كلية على رأي هتلر بي. يجب أن أتغلّب على هذا الشعور، فأنا عبد لرغبة أن أنال موافقته».

«أتذكّر معاناتك من ذلك في لقائنا الأخير. قلت لي كيف أن هتلر يفضّل صحبة الآخرين ولم يدخلك قط ضمن دائرته الداخلية».

«خذ الآن هذا الشعور واضربه بعشرة أضعاف، بمئة ضعف. إنها لعنة تغلغلت في كلّ ثنايا عقلي. يجب أن أتخلص منها».

«سأبذل كل ما بوسعي. دعنا نرى ما الذي سيقدمه لنا بنيديكتوس سبينوزا».

بعد ظهر اليوم التالي، دخل فريدريش إلى غرفة ألفريد. هذه المرة حيّاه مريض حليق يرتدي ثياباً أفضل مما كان يرتديها في المرة الماضية. فنهض واقفاً وقال: «آه يا فريدريش، كم أنا مشتاق لأن

نبدأ. ففي الساعات الأربع والعشرين الأخيرة لم أفكّر إلّا في لقائنا اليوم».

«تبدو أكثر إشراقاً وبهجة اليوم».

«نعم. أشعر بأنني في حال أفضل مما كنت منذ أسابيع. كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ مع أن لقاءاتنا انتهت مرتين بشكل سيّئ، وبالرغم من ذلك، فقد وجدت فائدة من رؤيتك. كيف تفعل ذلك يا فريدريش؟»

«لعلّي أجلب الأمل؟»

«هذا جزء. لكن يوجد شيء آخر».

«أظن لأن لذلك علاقة كبيرة بحاجتك الإنسانية إلى الرعاية والتواصل مع الآخرين. لنُدرج ذلك في قائمة عملنا - إنها مسألة هامة. لكن لنركّز الآن على خطة عملنا. لقد اخترت بضع فقرات من سبينوزا أظن أن لها علاقة بموضوعنا. لنبدأ بهاتين العبارتين».

فتح نسخته من كتاب *الأخلاق* وقرأ:

يمكن أن يتأثر أشخاص مختلفون بنفس الشيء بطرق مختلفة.

ويمكن للشخص نفسه أن يتأثر بنفس الشيء بطرق مختلفة في أوقات مختلفة.

ملاحظاً نظرة ألفريد المشوّشة، أوضح فريدريش، «أقول ذلك كنقطة بداية لعملنا. إذ يقول سبينوزا ببساطة إن كلّ واحد منّا قد يتأثّر بطريقة مختلفة إزاء شيء خارجي مماثل. فقد تكون ردّة فعلك إزاء هتلر مختلفة تماماً عن ردّة فعل أشخاص آخرين. فقد يحبّه آخرون ويكرّمونه ويبجّلونه كما تفعل أنت، لكن سعادتهم وتقديرهم لذاتهم تستند بالكامل إلى تجربتهم وخبرتهم معه. أليس كذلك؟»

«ربما. لكن لا توجد لدي وسيلة تمكّنني من معرفة تجارب الآخرين الداخلية».

«إني أمضي معظم حياتي في استكشاف هذه المنطقة وأرى أدلة كثيرة تدعم فرضية سبينوزا. فعلى سبيل المثال، أجد لدى مرضاي استجابات متفاوتة تجاهي حتى في أول زيارتهم لي. فلا يثق البعض بي، بينما يثق آخرون بي على الفور، ويوجد أشخاص آخرون يظنون أنني أترصد بهم لألحق بهم ضرراً. وفي كلّ حالة، أعتقد أنني أعاملهم بنفس الطريقة. كيف يمكن تفسير ذلك؟ بالافتراض فقط أن هناك عوالم داخلية مختلفة تدرك شيئاً واحداً».

هزّ ألفريد رأسه، وقال: «لكن ما علاقة ذلك بحالتي؟»

«جيّد. لا تدعني أحيد عن الموضوع؟ إني أشير فقط إلى أن علاقتك بهتلر هي *إلى حدّ ما*، وظيفة من وظائف عقلك. نقطتي بسيطة. يجب أن نبدأ بهدف تغيير نفسك، بدلاً من أن نحاول تغيير سلوك هتلر».

«أقبل هذا، لكني سعيد لأنك أضفت *'إلى حدّ ما'* لأن هتلر يشكل أهمية كبيرة بالنسبة للجميع. حتى غورينغ، قال لي في لحظة صدق غير معهود، 'إنّ جميع المحيطين بهتلر إمّعات، يؤيدون كل ما يقوله، لأن الذين يقولون «لا» ستراهم مدفونين تحت التراب'».

أومأ فريدريش.

وتابع ألفريد، «لكنّك أقنعتني بأنّ له تأثيراً كبيراً فيّ، وأريد أن تساعدني على تغيير ذلك. هل يوجد لدى سبينوزا اقتراح يساعد في هذا الأمر؟»

«لنلق نظرة على ما يقوله حول تحرر المرء من تأثير الآخرين»، قال فريدريش وهو يمسح بعينيه الملاحظات المدونة أمامه، «فهذا أحد الأشياء التي تعلّمها غوته من سبينوزا. ها هنا فقرة ذات صلة،

في الباب الرابع، بعنوان 'عبودية الإنسان': 'عندما يكون الإنسان فريسة لانفعالاته، لا يكون سيّد نفسه، بل يخضع لسلطان القدر' وهذا يصف ما يجري لك يا ألفريد. فأنت فريسة عواطفك وانفعالاتك، تنتابك موجات من القلق والخوف واحتقار الذات. هل هذا صحيح؟»

أومأ ألفريد.

«ويتابع سبينوزا بالقول إنه إذا كان تقديرك لذاتك يستند إلى حبّ الآخرين، فإنك ستكون في حالة قلق دائم لأن هذا الحبّ متقلّب وغير ثابت. وهو يشير إلى ذلك 'بتقدير الذات الفارغ'».

«مثل متناقض مع أي شيء؟ ما هو تقدير الذات الكامل؟»

«أصرّ غوته وسبينوزا على ضرورة ألّا نربط مصيرنا بشيء يحمل بذور الفساد أو يكون متقلّباً. بل على العكس، فقد حثّ سبينوزا على ضرورة أن نحبّ شيئاً لا يحمل بذور الفساد ويكون أبدياً».

«وهو؟»

«وهو اللّه أو تصوّر سبينوزا عن اللّه الذي يعادل الطبيعة تماماً. تذكّر عبارة سبينوزا التي أثّرت كثيراً في غوته: 'من يحبّ اللّه حقاً يجب ألّا ينتظر اللّه أن يحبّه لقاء ذلك'. ويقول إنّنا نكون حمقى إذا أحببنا اللّه وتوقعنا كسب محبته بالمقابل. إن إله سبينوزا ليس مخلوقاً ذا أحاسيس. فإذا كنّا نحبّ اللّه، فإننا لا نستطيع أن نحصل على حبّه بالمقابل، لكنّنا نحصل على خير آخر».

«ما هو هذا الخير الآخر؟»

«شيء يشير إليه سبينوزا بأنه أعلى درجات النعيم - *Amor Dei Intellectualis*. اسمع هذه الفقرة من كتاب الأخلاق:

في الحياة، يجب أن نبلغ الفهم أو العقل قبل أي شيء آخر. .

ففيه تقبع أعلى درجة من درجات سعادة الإنسان. حقاً إن النعيم أو السعادة ما هي إلّا قناعة الروح التي تنشأ من المعرفة الحدسية للّه.

وتابع فريدريش كلامه، «كما ترى أن إحساس سبينوزا الديني هو حالة الرهبة التي يختبرها المرء عندما يقدّر مخطط قوانين الطبيعة الهائل. ويعتنق غوته هذه الفكرة بالكامل».

«أحاول أن أفهم ما تقوله يا فريدريش، لكنّي أحتاج إلى شيء ملموس، شيء أستطيع أن أستخدمه».

«لا أظن أنني مرشد جيّد. لنعد إلى طلبك الأصلي: 'أريد ما حصل عليه غوته من سبينوزا'».

ألقى فريدريش نظرة على ملاحظاته، ثم قال: «هذا ما قلت إنك تريده: 'راحة البال، التوازن، الاستقلال والتحرر من تأثير الآخرين، وطريقة تفكير هادئة ومنضبطة تؤدّي إلى وضوح رؤية العالم'. بالمناسبة، لديك ذاكرة ممتازة. ليلة البارحة أعدت قراءة تعليقات غوته عن سبينوزا في السيرة الذاتية، وقد استشهدت به بدقّة شديدة. فمع أنه يعتبر سبينوزا روحاً رائعة نبيلة عاش حياة نموذجية، ويقول إن الفضل في تغيير حياته يعود إلى سبينوزا، فإنه للأسف، لم يقدّم لنا أي تفاصيل محددة عن الطريقة التي ساعده بها سبينوزا».

«إذاً، أين يضعنا كلّ ذلك؟»

«هذا ما أقترحه. دعني أعرض بعض التخمينات حول الطريقة التي أثّر بها سبينوزا فيه. أولاً، ضع نصب عينيك أنّ غوته كان قد كوّن بعض الأفكار المماثلة لأفكار سبينوزا قبل أن يتعرف على سبينوزا - كلّ ما يتصل بالطبيعة، الفكرة بأن الطبيعة ذاتية التنظيم، ولا شيء وراءها أو فوقها. لذلك أحسّ غوته بتأكيد أكبر عندما قرأ سبينوزا. فقد بلغ الرجلان حالة من البهجة الشديدة عندما أدركا أن

كلّ شيء مرتبط بالطبيعة. وتذكّر أنه، بالنسبة إلى سبينوزا، فإن اللّه يوازي الطبيعة. وهو لا يشير إلى الإله المسيحي أو اليهودي فقط، وإنما إلى دين عقلاني شامل لا يعود بموجبه أيّ مسيحي أو يهودي أو مسلم أو هندوسي بحاجة إلى إله».

«ممم، لم أكن أعرف أن سبينوزا كان يريد التخلص من جميع الأديان. أمر مثير للاهتمام».

«كان شمولياً. كان يتوقّع أن تتلاشى الأديان التقليدية بينما تسعى أعداد أكبر وأكبر من البشر إلى فهم الكون الأكمل. لقد تحدّثنا عن بعض هذه المسائل منذ سنوات. كان سبينوزا العقلاني الأسمى. لقد رأى جدولاً لانهائياً من السببيّة في العالم. بالنسبة له لا يوجد كيان يدعى الإرادة أو قوة الإرادة، فلا شيء يحدث عرضاً. بل إن كلّ شيء هو نتيجة شيء سبقه، وكلّما فهمنا هذه الشبكة المسبّبة أكثر، ازددنا تحرراً. هذا الرأي حول كون منظّم تسيّره قوانين يمكن التنبؤ بها، مستمدّة رياضياً، عالم ذو قوّة تعليلية لانهائية، هو الذي منح غوته ذلك الإحساس بالهدوء والسكينة».

«يكفي يا فريدريش، لم أعد أحتمل، فقد أصبح رأسي يدور. يتملكني الفزع من هذا التنظيم الطبيعي. هذا أمر غامض للغاية».

«إني أتابع فقط بحثك عن كيف تمكّن غوته من الاستفادة من سبينوزا، ورغبتك في أن تجني الفائدة ذاتها. فلا توجد طريقة واحدة في عمل سبينوزا. إنه لا يقدم وسيلة واحدة كالاعتراف، أو التنفيس عن الانفعالات المكبوتة، أو التحليل النفسي. على المرء أن يتبعه خطوة فخطوة حتى يفهم رؤياه الشاملة عن العالم والسلوك والأخلاق».

«أنا معذّب بسبب هتلر. كيف يقترح أن أخفّف عذابي هذا؟»

«لقد اتّخذ سبينوزا الموقف بأنّنا نستطيع أن نتغلّب على العذاب

وعلى جميع العواطف والانفعالات الإنسانية إذا فهمنا العالم كأنه نُسج من المنطق. إن اعتقاده بهذا قوي جداً إلى درجة أنه يقول» - قلّب فريدريش الصفحات - «'سأعتبر تصرفات ومشاعر البشر كما لو كانت مسألة خطوط ومسطحات وأجسام'».

«وأنا وهتلر؟»

«إني متأكّد أنه كان سيقول إنّك تخضع للانفعالات التي تدفعها أفكار غير ملائمة عوضاً عن الأفكار التي تتدفّق من سعي حقيقي لفهم طبيعة الواقع».

«وكيف يمكن للمرء أن يتخلّص من هذه الأفكار غير الملائمة؟»

«يقول بوضوح إن العاطفة تتوقّف عن كونها عاطفة ما إن نشكّل فكرة أوضح عنها - أي، الرابطة المسبّبة التي تنطوي عليها العاطفة أو الانفعال».

صمت ألفريد واسترخى في كرسيه، وزمّ شفتيه كما لو أنه تذوّق حليباً مختّراً، ثم قال: «ثمة شيء مزعج في كلّ هذا. شيء مقلق للغاية. أظن أنني بدأت أرى اليهودي في سبينوزا - شيء مترهل، وضعيف، وواهٍ، ومعادٍ للألمان. إنه ينكر الإرادة ويعتبر العاطفة في مرتبة أدنى، بينما نأخذ نحن الألمان المعاصرين وجهة نظر معاكسة. إن العاطفة والإرادة ليستا شيئين يمكن التخلص منهما. فالعاطفة هي قلب وروح الشعب الذي يعتبر أن ثالوثه هو الشجاعة، والولاء، والقوة الجسدية. نعم، لا شكّ في ذلك: يوجد في سبينوزا شيء مناهض للألمان».

«ألفريد، إنك تستبق النتائج بسرعة كبيرة. تذكّر كيف رميت كتاب *الأخلاق* لأن الصفحات القليلة الأولى كانت مليئة بالبديهيات والتعاريف الغامضة؟ لكي نفهم سبينوزا، كما فهمه غوته، يجب أن نتآلف مع لغته خطوة خطوة، نظرية تلو النظرية، نتبع بناء وجهات

نظره. أنت شخص مثقف. أنا متيقن من أنك أمضيت سنوات من البحث التاريخي لكتابة كتابك «*أسطورة القرن العشرين*». ومع ذلك، فإنك ترفض أن تمنح سبينوزا، أحد أعظم العقول في التاريخ، أكثر من نظرة عابرة على عناوين فصول كتابه. لقد غاص المثقّفون الألمان العظام في أعماق عمله. امنحه الوقت الذي يستحقّه».

«أنت تدافع دائماً عن اليهود».

«إنه لا يمثّل اليهود. إنه يتبنّى العقل المطلق. لقد نبذه اليهود».

«لقد حذّرتك من الدراسة مع اليهود منذ فترة طويلة. حذّرتك من ولوج هذا الميدان اليهودي. حذّرتك من خطرهم العظيم».

«يمكنك أن تطمئن نفسك. لقد مضى الخطر. لقد غادر جميع اليهود في معهد التحليل النفسي البلاد. كما فعل ألبرت آينشتاين، وكما فعل العلماء اليهود الألمان العظام الآخرون، بالإضافة إلى كبار الكتّاب الألمان غير اليهود - مثل توماس مان ومئتين وخمسين كاتباً من أفضل كتّابنا. هل ترى حقاً أن هذا يزيد بلدنا قوة؟»

«إن ألمانيا تزداد قوّة ونقاء كلّما غادرها يهودي أو من يحبّ اليهود».

«هل تصدّق هذا القدر من الكراهية...»

«إنها ليست مسألة كراهية. إنها مسألة حفظ العرق. بالنسبة لألمانيا، فإن المسألة اليهودية لا تُحلّ إلّا عندما يغادر آخر يهودي الفضاء الألماني الأكبر. لا أتمنى لهم الأذى. فقط أريدهم أن يعيشوا في مكان آخر».

كان فريدريش يأمل أن يجبر ألفريد على أن ينظر إلى عواقب أهدافه. أحسّ بعدم الجدوى بعد هذا التدني، لكنه لم يتمالك نفسه، وقال: «ألا ترى أي ضرر في اجتثاث ملايين الناس وعمل... وماذا عنهم؟»

«يجب أن يرحلوا إلى مكان آخر - روسيا، مدغشقر، أيّ مكان».

«استخدم عقلك! أنت تعتبر نفسك فيلسوفاً. . . ».

«هناك أشياء أسمى من العقل: الشرف، الدم، الشجاعة».

«انظر إلى نتائج ما تقترحه يا ألفريد. إني أحثّك على أن تستجمع شجاعتك لتنظر، لتنظر حقاً، في العواقب الإنسانية التي ستؤدي إليها اقتراحاتك. لكن لعلك تعرف عند مستوى ما. قد يكون هياجك الشديد ناجماً عن الجزء في دماغك الذي يعرف الرعب. . . »

سُمع طرق على الباب. وقف ألفريد، مشى نحو الباب، فتحه، وفوجئ برؤية رودولف هيس.

«طاب يومك، نائب القائد روزنبرغ. الفوهرر هنا يريد أن يزورك. عنده أخبار لك وينتظر حضورك إلى قاعة الاجتماعات. سأنتظر في الخارج وأرافقك».

تجمّد ألفريد للحظة. ثمّ وقف بانتصاب أكثر. سار نحو خزانة الملابس التي أخرج منها بدلته العسكرية النازية، ثم استدار نحو فريدريش - وبدا أنه كاد يُفاجأ عندما رأى أنه لا يزال موجوداً. «هير أوبيرليوتنانت بفيستر، اذهب إلى غرفتك. انتظرني هناك».

ارتدى بدلته العسكرية بسرعة وانتعل حذاءه العسكري الطويل، وخرج إلى هيس. سارا بصمت إلى الغرفة التي ينتظر فيها هتلر.

نهض هتلر ليحيّي ألفريد، بادله التحية، وأشار إليه بأن يجلس، وأشار إلى هيس بأن ينتظر في الخارج.

«تبدو في حالة جيّدة، يا روزنبرغ. لا يبدو أنك مريض في المستشفى. أنا مرتاح لذلك».

تمتم ألفريد الذي شعر بالاضطراب من رقة هتلر، عبارات شكر.

«لقد أعدت للتو قراءة مقالتك في الصحيفة التي كتبتها السنة الماضية حول منح جائزة نوبل للسلام لكارل فون أوسيزكي. إنها قطعة صحفية رائعة يا روزنبرغ. أفضل بكثير من المقالات الباهتة التي تُنشر في صحيفتنا أثناء غيابك. نبرة الكرامة والغضب الملائمة الموجّهة إلى لجنة نوبل التي تقدم ثمن السلام إلى مواطن يقبع في السجن في بلده بتهمة الخيانة. إني أتّفق مع موقفك تمام الاتفاق. إنها حقاً إهانة وهجوماً صارخاً على الرايخ الذي يتمتع بالسيادة. أرجو أن تحضّر نعي أوسيزكي، فهو لا يحتمل معسكر الاعتقال، وقد تتاح لنا فرصة جيدة للإعلان عن موته بعد فترة وجيزة.

«لكن هدف زيارتي لك اليوم ليس للاستفسار عن صحتك وتقديم تحياتي لك فحسب، وإنما لأنقل لك خبراً أيضاً. لقد أعجبني كثيراً الاقتراح الذي ذكرته في المقالة بأنه ليس على ألمانيا أن تتحمّل غطرسة استوكهولم وأنّ علينا أن نقيم جائزة ألمانية تعادل جائزة نوبل التي فاحت رائحتها الآن. لقد أصدرتُ قراراً وأنشأتُ لجنة اختيار لتنظر في مرشّحين للجائزة القومية الألمانية للفنون والعلوم، وكلّفت موللر إرفورت بتصميم ميدالية مرصّعة بالماس. وستُقدم جائزة قيمتها ١٠٠,٠٠٠ رايخ مارك. أريدك أن تكون أول من يعرف أنّني رشّحتك للحصول على الجائزة القومية الألمانية الأولى. ها هي نسخة من البيان العام الذي سأصدره بعد فترة قصيرة».

أخذ ألفريد الصفحة وراح يقرأ بنهم:

ستكون الحركة الاشتراكية القومية ووراءها الشعب الألماني كله، راضياً تماماً بأن الفوهرر اختار ألفريد روزنبرغ باعتباره واحداً من أقدم رفاقه في السلاح والأكثر إخلاصاً لمنحه الجائزة القومية الألمانية.

«شكراً. شكراً لك، ماين فوهرر. شكراً لأعظم لحظات حياتي فخراً».

«ومتى ستعود إلى العمل؟ الصحيفة بحاجة إليك».

«غداً. أصبحت في صحة تامة الآن».

«لا بد أن الطبيب الجديد، صديقك، صانع معجزات. ينبغي أن نوصي بترقيته».

«لا، لا - لقد تماثلت إلى الشفاء قبل مجيئه. إنه لا يستحقّ أي شكر. في واقع الأمر، تدرّب في ذلك المعهد الذي يديره ذلك اليهودي فرويد في برلين وهو يذرف دموعاً لأن جميع الأطباء النفسانيين اليهود غادروا البلاد. حاولت، لكني لا أظن أنني أستطيع أن أُخرج منه ذلك اليهودي. يجب أن نراقبه. قد يكون بحاجة إلى إعادة تأهيل. والآن سأعود إلى العمل. *هايل ماين فوهرر*!»

سار ألفريد بخفة إلى غرفته وبدأ يحزم أغراضه بسرعة. وبعد بضع دقائق، نقر فريدريش على بابه.

«ألفريد، هل ستغادر؟»

«نعم، سأغادر الآن».

«ما الذي حدث؟»

«ما حدث هو أنني لم أعد بحاجة إلى خدماتك، هير أوبيرليوتنانت بفيستر. عد فوراً إلى مكان عملك في برلين».

الفصل الحادي والثلاثون

فوربرخ - كانون الأول (ديسمبر) ١٦٦٦

عزيزي بنتو،

وعد سيمون بأن يسلّمك هذه الرسالة خلال أسبوع، إلّا إذا أخبرته بغير ذلك، فإني سأزورك في فوربرخ في وقت متأخر من صباح ٢٠ كانون الأول. عندي أمور كثيرة أودّ أن أشاطرك إياها وأريد أن أعرف الكثير عمّا تفعله في حياتك. أنا في شوق شديد إليك! إنّي أخضع لمراقبة شديدة إلى حدّ أنني لم أجرؤ على زيارة سيمون لأبعث رسالة لك. أرجو أن تعرف أنك، مع أننا لم نلتق منذ فترة طويلة، تقبع في مكان قريب جداً من قلبي كلّ هذه السنوات. فلا يمرّ يوم لا أرى فيه وجهك الوضاء، ولا أسمع فيه صوتك في عقلي.

ربما عرفت أنّ الحاخام مورتيرا مات بعد فترة ليست طويلة من زيارتي الأخيرة لك، وأنّ زوج أختك، الحاخام صموئيل كاسيريس الذي ألقى كلمة التأبين، مات بعد عدة أسابيع. وتعيش أختك ريبيكا مع ابنها دانيال الذي بلغ الآن السادسة عشرة من عمره ويستعد للدراسة ليصبح حاخاماً. وأصبح شقيقك غابرييل الذي أصبح يُعرف الآن باسم أبراهام تاجراً ناجحاً ويسافر كثيراً إلى باربادوس للتجارة.

وأنا الآن حاخام! نعم، حاخام! وحتى فترة قريبة كنت مساعداً للحاخام أبوب الذي أصبح الآن كبير الحاخامات. تعيش أمستردام حالياً تحت سعير جنون، فلا أحد يتكلّم عن شيء إلّا عن قدوم المسيح المنتظر، ساباتاي زيفي. وعلى نحو غريب، وسأوضح لك ذلك لاحقاً، أن هذا الجنون الذي أثير حوله مكنني من زيارتك. ومع أنّ الحاخام أبوب لا يزال يترصد كلّ حركة أقوم بها، لم يعد الأمر يهمني الآن. أعانقك، وقريباً ستعرف كلّ شيء.

فرانكو (المعروف أيضاً باسم الحاخام بنيتيز)

قرأ بنتو رسالة فرانكو مرة ثانية ثمّ ثالثة. لوى وجهه عندما قرأ العبارة الغريبة المثقلة بالاحتمالات «لم يعد الأمر يهمني الآن؟» ماذا يعني ذلك؟ ولوى وجهه أيضاً عندما ذكر المسيح المنتظر الجديد. كان ساباتاي زيفي يملأ الأخبار. فقد تلقى البارحة رسالة من هنري أولدينبرغ، سكرتير الجمعية الملكية البريطانية للعلوم، عن قدوم المسيح المنتظر. أحضر بنتو رسالة أولدينبرغ، وأعاد قراءة الفقرات المتعلقة بذلك:

تنتشر إشاعة على نطاق واسع بأنّ الإسرائيليين الذين تشتت شملهم منذ أكثر من ألفي سنة، سيعودون إلى أرض وطنهم. عدد قليل في المناطق المجاورة يصدّقون ذلك، لكن الكثيرين يتمنون حدوث ذلك... أنا متلهف لسماع ما الذي سمعه اليهود في أمستردام عن هذا الأمر، ومدى تأثرهم بهذا الإعلان البالغ الأهمية.

بدأ بنتو يذرع الغرفة وهو يفكّر. كانت غرفته ذات الأرضيّة المبلطة أوسع من غرفته في رنسبرخ، وكانت مكتبته التي ازداد عدد

الكتب فيها الآن على ستّين مجلداً كبيراً، تشغل أحد جدرانه الأربعة، وكان معطفه السميك الممزق بالسكين لا يزال معلّقاً بجانب النافذتين الصغيرتين على الجدار الآخر، أما الجداران الآخران فقد زُيِّنا بلوحات رسمت عليها طواحين بالإضافة إلى اثني عشر منظراً طبيعياً جميلاً عن هولندا بريشة عدد من الرسامين الهولنديين جمعها الرسام دانييل تيدمان، صاحب البيت الذي يقيم فيه بنتو، وهو كذلك عضو في نادي الفلسفة ومعجب بفلسفته. فقد غادر بنتو بلدة رنسبرخ منذ ثلاث سنوات بإلحاح من دانيال واستأجر غرفة في بيت الرسام دانييل تيدمان في فوربرخ، القرية الجميلة التي لا تبعد سوى ميلين اثنين عن مقرّ الحكومة في لاهاي. وكان يعيش في فوربرخ أيضاً أحد معارفه البارزين، كريستيان هيغنز، الفلكي المرموق الذي كثيراً ما أثنى على عدسات بنتو.

صفع بنتو جبينه وهو يتمتم، «ساباتاي زيفي! مجيء المسيح المنتظر! يا له من جنون! ألن تكون هناك نهاية لمثل هذه السذاجة الحمقاء؟» بضعة أشياء كانت تثير غضب بنتو أكثر من الاعتقادات التنجيمية اللاعقلانية، وكانت سنة ١٦٦٦ تطفح بمثل هذه التنبؤات الخيالية. إذ يعتقد عدد كبير من المسيحيين الذين يؤمنون بالخرافات بأن الفيضان العظيم حدث بعد ١٦٥٦ من الخلق، وأن مجيئاً ثانياً أو حدثاً آخر من شأنه أن يغيّر العالم سيقع سنة ١٦٥٦. وعندما مضت تلك السنة بهدوء، حوّلوا توقّعاتهم إلى سنة ١٦٦٦، وهي السنة التي أوليت أهمية كبيرة لأن سِفْر الرؤيا يذكر اسم الوحش أو رقم اسمه ٦٦٦ (وهنا لا بد من الحكمة: «فمن كان فهيماً، يحسب رقم الوحش لأنه رقم إنسان، وهو ٦٦٦» - الرؤيا- ١٣- ١٨). لذلك توقّع الكثيرون مجيء المسيح الدجال في سنة ٦٦٦. وعندما لم تتحقق هذه النبوءة، حدد الأنبياء الذين جاؤوا بعد ذلك التاريخ المنذر بسوء

العاقبة بعد ألف سنة، أي سنة ١٦٦٦ - وهو تاريخ أُصبغت عليه مصداقية أكبر بعد اندلاع حريق لندن الكبير قبل ثلاثة أشهر.

لم يكن اليهود أقل سذاجة. فقد كان الذين يؤمنون بقدوم المسيح، لاسيما في صفوف المارانوس، يتوقّعون قدومه الوشيك، ويعتقدون بأنه سيأتي ويجمع كلّ اليهود المشتتين ويعيدهم إلى الأرض المقدّسة، وكان وصول الحبر ساباتاي زيفي يعني للكثيرين أن اللّه استجاب لدعواتهم وصلواتهم.

في يوم الجمعة، اليوم المحدد لزيارة فرانكو، كان بنتو مشتت الفكر من الضجيج المنبعث من سوق فوربرخ الذي يضجّ بالحركة والذي لا يبعد عن غرفته أكثر من ثلاثين متراً. كان هذا أمراً غريباً - فقد كان يركّز عادة على عمله وتفكيره على الرغم من الجلبة والضوضاء التي تأتي من الخارج - لكن وجه فرانكو ظل يلوح في مخيلته. فبعد نصف ساعة من إعادة قراءة نفس الصفحة من كتاب *أبكتيتوس*، توقف بنتو وأغلق الكتاب، وأعاده إلى رف المكتبة. فقد ترك نفسه في هذا الصباح يستغرق في أحلامه.

رتّب الغرفة، وسوّى الوسادات، ومهّد البطانيات الممدودة على السرير ذي الأعمدة الأربعة. تراجع بضع خطوات ليبدي إعجابه بما فعله وقال لنفسه، *ذات يوم سأموت على هذا السرير*. كان ينتظر وصول فرانكو بلهفة شديدة وتساءل إن كانت الغرفة جيدة التدفئة. وعلى الرغم من أنه لم يكن يهتمّ كثيراً بدرجة حرارة الغرفة، فقد توقّع أن يشعر فرانكو بالبرد بعد رحلته هذه. فجمع ملء ذراعين من الحطب من كومة الحطب وراء البيت، لكنه تعثّر أثناء دخوله إلى البيت، فتناثرت قطع الخشب على الأرض. أعاد جمعها، وحملها إلى غرفته، ثم انحنى وأشعل النار في الموقد. نقر دانييل تيدمان الذي سمع صوت قطع الخشب تسقط على الأرض، على بابه عدة

نقرات خفيفة. «صباح الخير. هل تشعل المدفأة؟ ألست على ما يرام؟»

«المدفأة ليست من أجلي يا دانييل. إني أنتظر زائراً من أمستردام».

«أمستردام؟ لا بد أن يكون جائعاً عندما يصل. سأطلب من مدبرة المنزل أن تعدّ القهوة ومزيداً من الطعام للعشاء».

أمضى بنتو معظم فترة الصباح وهو ينظر من نافذته. وفي منتصف النهار، عندما رأى فرانكو، هرع إلى خارج البيت مبتهجاً وعانقه وقاده إلى غرفته. ما إن أصبحا داخل البيت، حتى رجع خطوة إلى الوراء لينظر إلى فرانكو بإعجاب الذي كان يرتدي ثياب مواطن هولندي عادي، ويعتمر قبعة طويلة ذات حواف واسعة، ويرتدي معطفاً سميكاً طويلاً، وسترة مزرّرة حتى الرقبة لها ياقة مربّعة بيضاء، وبنطالاً ضيقاً حتى الركبة، وكلسات. وكان شعره ممشطاً، ولحيته القصيرة مشذّبة بعناية. جلسا معاً صامتين على سرير بنتو يبتسم أحدهما للآخر.

«اليوم صمت»، قال بنتو بلغة برتغالية مألوفة من السنوات الماضية، «لكن هذه المرّة، فأنا أعرف السبب. ببساطة توجد أشياء كثيرة يجب أن نتحدّث عنها».

وأضاف فرانكو «إن البهجة العظيمة تتغلب على الكلمات أيضاً».

قطع صمتهما الحلو نوبة سعال بنتو القصيرة. كان البلغم الذي بصقه في منديله يشوبه اللونان البني والأصفر.

«هذا السعال مرة أخرى يا بنتو. هل أنت مريض؟»

لوّح بيده ليبعد قلق صديقه، وقال: «لقد سكن سعالي والاحتقان في صدري، ولا يبتعدا عن البيت كثيراً. وفي ما يتعلق بأمور حياتي

الأخرى، فهي على ما يرام. فالمنفى يروق لي، وبالطبع فإن اليوم استثناء، وأنا ممتنّ لعزلتي. وأنت يا فرانكو، أم أنني يجب أن أقول الحاخام فرانكو بنيتيز، لأنك تبدو مختلفاً عليّ كثيراً، أنيق جداً. . . هولندي إلى درجة كبيرة».

«نعم، الحاخام أبوب، على الرغم من أنه قبالي وأخرويّ، فإنه يريدني أن أرتدي ثياب أي هولندي عادي، ويصرّ على أن أشذّب لحيتي. أظن أنّه يفضّل أن يكون هو اليهودي الملتحي الوحيد في الطائفة».

«وكيف وصلت إلى هنا في هذا الوقت المبكّر من أمستردام؟»

«جئت البارحة بالمركب من أمستردام إلى لاهاي وأمضيت الليلة فيها عند عائلة يهودية».

«هل أنت عطشان؟ قهوة؟»

«ربّما فيما بعد، أما الآن فأنا متعطش لشيء واحد فقط - وهو التحدّث إليك. أريد أن أعرف عن كتاباتك وأفكارك الجديدة».

«سأتحدّث بسهولة أكبر إذا أرحت عقلي أولاً. فسطر واحد في رسالتك أقلقني كثيراً». سار بنتو إلى طاولة مكتبه، وأحضر رسالة فرانكو، ونظر إليها. «ها هي '*وعلى الرغم من أنّ الحاخام أبوب لا يزال يترصد كلّ حركة أقوم بها، لم يعد الأمر يهمني الآن*' ما الذي حدث يا فرانكو؟»

«إن ما حدث هو الذي كان يجب أن يحدث بحكم *الضرورة* - وأظن أنّني أستخدم عبارتك 'بحكم *الضرورة*' بشكل صحيح، بمعنى أن الأشياء لم يكن بالإمكان أن تحدث غير ذلك».

«لكن ماذا؟»

«لا تفزع يا بنتو. لأول مرة لسنا في عجلة من أمرنا. فلدينا وقت حتى الساعة الثانية بعد الظهر عندما يتعين عليّ أن أستقلّ القارب

لأعود إلى ليدين حيث سأزور بعض العائلات اليهودية. لدينا وقت كاف لنحكي قصّة حياتي وقصّة حياتك. سنحكي كلّ شيء، وسيكون كلّ شيء على ما يرام، لكن من الأفضل أن تُحكى القصص من بدايتها لا من نهايتها ونرجع إلى الوراء. كما ترى فأنا لا أزال أحبّ القصص وأصرّ على أن تقدّرها أكثر».

«نعم، أتذكّر فكرتك الغريبة بأنّني أستمتع بالقصص. حسناً، لن تجد الكثير منها» - لوّح بنتو بيده نحو رفوف مكتبته.

اقترب فرانكو من رفوف الكتب وألقى نظرة على عناوين الرفوف الأربعة المكدسة بالكتب، وقال: «ما أجملها يا بنتو. كم أتمنى أن أمضي شهوراً هنا لأقرأ كتبك وأتحدّث عنها. لكن انظر هنا!» وأشار فرانكو إلى أحد الرفوف، «ما الذي أراه أمام عيني؟ ألا أرى أعظم حكواتي في جميع العصور؟ أوفيد، هوميروس، فيرجل؟ في واقع الحال، إني أسمعهم يهمسون لي»، ومال فرانكو نحوها بأذنه، «إنهم يتوسلون، ’نرجوك، نرجوك اقرأنا- فلدينا حكمة، لكن أستاذنا غير الراضي يتجاهلنا».

انفجر بنتو ضاحكاً، ثم نهض وعانق صديقه وقال: «فرانكو، كم اشتقت إليك. كلّمني بهذه الطريقة فقط. فجميع الآخرين يبجّلون حكيم فوربرخ».

«نعم. بنتو، نعرف أنا وأنت أنه ليس للحكيم أي دور في الأسلوب التبجيلي الذي يُعامل به».

أطلق بنتو ضحكة عالية أخرى وقال: «كيف تجرؤ على أن تبقي الحكيم ينتظر؟ هيا ابدأ قصّتك».

جلس فرانكو بجانب بنتو وقال: «عندما التقينا آخر مرّة في بيت سيمون، كنت على وشك أن أبدأ دراستي للتلمود والتوراة وكنت متحمساً لعملية التعليم».

«'دراسة مبهجة' كانت العبارة التي قلتها».

ابتسم فرانكو، وقال: «نعم العبارة التي استخدمتها بالتحديد - لكنّي لم أتوقّع منك أكثر من ذلك. ومنذ ثلاث أو أربع سنوات، سألت القيّم العجوز على الكنيس، أبراهيم، الذي كان مريضاً وعلى فراش الموت، عن ذكرياته عنك، فأجاب، 'إن باروخ دي إسبينوزا لا ينسى شيئاً. إنه يحفظ كلّ شيء' نعم، كنت سعيداً جداً لأن أتعلم، وكانت شهيتي وميولي شديدة الوضوح فاعتبرني الحاخام أبوب أفضل طالب عنده ومدّد فترة حصولي على الراتب لأتمكّن من متابعة دراساتي الربّانية. لقد كتبت لك عن ذلك. هل استلمت رسالتي؟»

هزّ بنتو رأسه وقال: «لقد استلمتها لكني كنت حائراً، لا بل مشدوهاً، لا لحبّك للتعلّم - الذي أفهمه، والذي نشترك فيه أنا وأنت. لكن إذا أخذنا بالاعتبار مشاعرك القوية حول مخاطر وقيود ولاعقلانية الدين، فلماذا اخترت أن تصبح حاخاماً؟ لماذا تنضمّ إلى أعداء العقل؟»

«لقد انضممت إليهم لنفس السبب الذي جعلك تتركهم».

رفع بنتو حاجبيه، ثمّ ابتسم قليلاً بأنه فهم.

«أظن أنك فهمت يا بنتو. فأنا وأنت نودّ أن نغيّر اليهودية - أنت من الخارج، وأنا من الداخل!»

«لا، لا، يجب أن أختلف معك هنا. ليس هدفي أن أغيّر الديانة اليهودية. إن هدفي إلى العالمية الجذرية يكمن في التخلص من جميع الأديان وإقامة دين شامل يسعى فيه كلّ البشر إلى بلوغ السعادة من خلال فهم الطبيعة بالكامل. لكن سنتكلم عن ذلك لاحقاً. إن استكشاف الكثير من الروافد سيعيق تفسيرك للسبب الذي جعل مراقبة الحاخام أبوب لم تعد تهمك».

«لذلك، بعد دراساتي» تابع فرانكو، «طوّبني الحاخام أبوب وباركني وعيّنني مساعداً له. في السنوات الثلاث الأولى سارت الأمور على ما يرام. وكنت أقف معه جنباً إلى جنب في جميع الصلوات اليومية التي يقيمها، وقد خفّفت من أعبائه لأنني كنت أتولى أداء مراسم أعياد البلوغ والزواج. وسرعان ما ازدادت ثقته بي وأصبح يرسلني أكثر فأكثر إلى أبناء الطائفة الذين يرغبون في الحصول على الإرشادات والنصائح. لكن الفترة الذهبية، الفترة التي كنا ندخل فيها إلى الكنيس يداً بيد، مثل أب وابنه، لم تطل كثيراً. وسرعان ما بدأت الغيوم الداكنة تلوح في الأفق».

«بسبب قدوم ساباتاي زيفي؟ أذكر أن الحاخام أبوب من أشد المؤمنين بقدوم المسيح المخلّص».

«حتى قبل ذلك. لم تعد الأمور تسير على ما يرام عندما بدأ الحاخام أبوب يعلّمني الأمور المتعلقة بالقبالة».

«آه نعم. طبعاً. وأتصوّر أن ذلك حدث عندما لم تعد طالباً سعيداً».

«تماماً. بذلت قصارى جهدي، لكن سذاجتي بلغت أقصى حدّ لها. حاولت أن أقنع نفسي بأنّ هذا النصّ هو وثيقة تاريخية مهمّة ينبغي لي أن أدرسها بعناية. أفلا ينبغي لرجل دين أن يتعرّف على أساطير ثقافته وعلى ثقافات الآخرين؟ لكن، بنتو، رنّ صوتك وطريقتك الحادّة في انتقاد التوراة في أذني، وبدأت أدرك التناقضات والأسس المبنية على أسس واهية التي تقوم عليها *القبالة*. وبالطبع أصرّ الحاخام أبوب على أنه لا يعلّمني أساطير - وإنما يعلّمني التاريخ، حقائق، الحقيقة الحيّة، كلمة الله. ومهما حاولت إخفاء مشاعري، وبرزت عدم حماستي بوضوح. شيئاً فشيئاً، ويوماً بعد يوم، بدأت ابتسامته المحبّة تتلاشى، ولم يعد يمسك بذراعي عندما

نسير معاً، وبدأ يزداد بعداً، وازدادت خيبة أمله بي. وعندما أخبره أحد تلاميذي بأنّني استخدمت كلمة '*استعارة*' للإشارة إلى وصف لوريا «الخلق الكوني» وفق المعتقدات القبلانية، وبّخني أمام الجميع وقيّد واجباتي. وأظن أنّه وضع بعد ذلك مخبرين في جميع الصفوف التي أعلّم فيها، وعيّن جواسيس لينقلوا له كلّ تحركاتي ونشاطاتي».

«الآن فهمت لماذا لم تستطع أن تتّصل بسيمون لمراسلتي».

«نعم، مع أنّ زوجتي حصلت مؤخراً على ترجمة سيمون إلى الهولندية في اثنتي عشرة صفحة عن بعض أفكارك المتعلقة بالتحكم بالانفعالات والسيطرة عليها».

«زوجتك؟ ظننت أنك لا تستطيع أن تشارك...»

«ضع نقطة هنا. تحلّ بالصبر. سنعود إلى ذلك بعد قليل، لكن، دعني أتابع تسلسل أحداثي الشخصي، فقد كانت مشاكلي المتعلقة بالقبالة مزعجة جداً. لكن الأزمة الحقيقية مع الحاخام أبوب تتعلق بالمسيح المنتظر المفترض، ساباتاي زيفي».

«ماذا يمكنك أن تحدثّني عنه؟»

«أظن أنك لم تقرأ *الزوهار* منذ فترة طويلة، لكن لا شكّ في أنك تتذكر التنبؤات بقدوم المسيح المنتظر».

«نعم، أتذكّر محادثتي الأخيرة مع الحاخام مورتيرا الذي يؤمن بأنّ النصوص المقدّسة تتنبأ بقدوم المسيح المنتظر عندما يصبح اليهود في أسوأ أحوالهم. وتبادلنا حديثاً غير ودي عن هذه المسألة، عندما سألته، 'لو كنا حقاً شعب اللّه المختار، فلماذا يجب أن نبلغ أسوأ أحوالنا قبل أن يأتي المسيح المنتظر؟' وقلت آنذاك إنك ترجح أنّ فكرة المسيح المنتظر وضعها بشر لمواجهة يأسهم، فاستشاط غضباً لأنني تجرأت على أن أشكّ في كلام اللّه».

«بنتو، هل تصدق بأنّني أحنّ إلى أيام الحاخام مورتيرا الجيّدة؟

فالحاخام أبوب متطرّف جداً في معتقداته حول مجيء المسيح المنتظر، وبالمقارنة بينهما، يبدو أنّ الحاخام مورتيرا كان مستنيراً أكثر. بالإضافة إلى ذلك، فقد زادت بعض المصادفات التي حدثت من حماسة الحاخام أبوب وتعصبه. هل تذكر النبوءة الواردة في «*الزوهار*» عن تاريخ ميلاد المسيح المنتظر؟»

«أذكر تسعة خمسة - اليوم التاسع من الشهر الخامس».

«وانظر، يقال إن ساباتاي زيفي ولد في التاسع من شهر *آف* (آب) في سميرنا بتركيا سنة ١٦٢٦، وفي العام الماضي أعلن ناثان، القبالي الغزّاوي، أن ساباتاي هو المسيح المنتظر. وتنتشر إشاعات بالمعجزات التي اجترحها. ويقال إن زيفي يتمتع بشخصية قوية ذات تأثير كبير، فارع الطول مثل شجرة أرز، جميل، ورع وناسك. ويقال إنه يصوم لفترات طويلة ويرتل المزامير بصوت رخيم طوال الليل. ويبدو أنه يخرج عن طوره في الأماكن التي يزورها ويهين الحاخامات ويهدد سلطتهم الراسخة. وقد طرده الحاخامات في سميرنا لأنه تجاسر وذكر اسم الرب من فوق منبر الكنيس، وطرده الحاخامات في سالونيكا لأنه عقد مراسم زواج معتبراً نفسه العريس والتوراة عروساً له. لكن يبدو أنه انزعج من موقف الحاخامات تجاهه، فراح يجوب الأرض المقدّسة وجمع أعداداً غفيرة من المريدين. وبعد فترة قصيرة، انتشر خبر مجيء المسيح المنتظر مثل إعصار في أرجاء العالم اليهودي. ورأيت بأمّ عيني يهود أمستردام وهم يرقصون في الشارع عندما سمعوا هذا الخبر، وباع الكثيرون أو تبرعوا بأغراضهم الدنيوية وأبحروا للانضمام إليه في الأرض المقدّسة. ولم يقع الجهلة فقط تحت تأثيره، وإنما عدد كبير من مواطنينا البارزين - حتى إسحاق بيريرا المعروف عنه بالحذر طوال عمره، تخلّص من ثروته وذهب لينضم إليه. وبدلاً من أن يعيد سلامة العقل، احتفل الحاخام

أبوب وزاد من مشاعر الحماسة تجاه هذا الرجل إلى درجة الحمّى. هذا على الرغم من أنّ عدداً من الحاخامات في الأرض المقدّسة هدّدوا ساباتاي زيفي بأن يقيموا حدّ *الحرم* عليه».

وضع بنتو الذي أغمض عينيه يديه على رأسه وقال متنهداً: «الحمقى، الحمقى».

«انتظر. لم تسمع الأسوأ بعد. فمنذ ثلاثة أسابيع تقريباً وصل مسافر من الشرق وقال إنّ السلطان العثماني استاء كثيراً من أعداد اليهود الذين أخذوا يتدفقون إلى الشرق للانضمام إلى المسيح المنتظر، فاستدعى ساباتاي زيفي إلى قصره وخيّره إما الشهادة وإما اعتناق الإسلام. وماذا كان قرار ساباتاي زيفي؟ لقد اختار المسيح المنتظر على الفور أن يعتنق الإسلام».

«اعتنق الإسلام! أليس كذلك؟» بدت الدهشة على وجه بنتو، «بسهولة شديدة. انتهى جنون المسيح المنتظر؟»

«سيخيّل إلى المرء أنه فعل ذلك! سيظن المرء أنّ أتباع المسيح المنتظر سيدركون أنهم خُدعوا، لكن لم يكن الأمر كذلك على الإطلاق - وبدلاً عن ذلك، فقد أقنع ناثان والآخرون أتباعه بأنّ اعتناقه الإسلام ليس إلّا جزءاً من خطّة إلهية، فتبعه مئات، بل حتى آلاف اليهود وتحوّلوا إلى الإسلام».

«وماذا حدث بعد ذلك بينك وبين الحاخام أبوب؟»

«لم أعد أستطيع أن أتمالك نفسي، فرحت أحثّ أبناء رعيتي علناً على أن يثوبوا إلى جادة الصواب، وأن يكفّوا عن بيع بيوتهم وممتلكاتهم، وأن ينتظروا على الأقل سنة واحدة قبل أن يهاجروا إلى الأرض المقدّسة. فغضب الحاخام أبوب وأوقفني عن عملي وهدّدني بأن يفرض عليّ حدّ *الحرم*»

«*الحرم*؟ *الحرم*؟ يا فرانكو، يجب أن أقول ملاحظة هنا - شيء تعلّمته منك».

«وهو؟» نظر فرانكو إلى بنتو باهتمام شديد.

«إن كلماتك ونبرتك في الكلام لا تتوافقان».

«كلماتي ونبرتي؟»

«إنك تصف هذه الأحداث الخطيرة - فقد وبّخك الحاخام أبوب على الملأ، ولم يعد يحبّك، وأرسل جواسيس لمراقبتك، وقيّد حرّيتك، والآن *الحرم*. ومع ذلك، مع أن الرعب تملكك عندما رأيت *الحرم* الذي فرضوه عليّ، لم أر أي علامة حزن على وجهك، ولم أسمع نبرة خوف في كلماتك. في الحقيقة تبدو - ماذا؟ تكاد تكون مبتهجاً. من أين جاء عدم اكتراثك هذا؟»

«إنك دقيق الملاحظة يا بنتو، فلو تحدّثنا قبل شهر من الآن، لما وجدتني مغتبطاً هكذا. لكن منذ فترة قصيرة، خطر لي حلّ. فقد قرّرت أن أهاجر! وستهاجر معي ما لا يقل عن خمس وعشرين أسرة يهودية تؤمن بطريقتي كيهودي، وسيبحرون معي بعد ثلاثة أسابيع، إلى *العالم الجديد*، إلى جزيرة كيوراكاو الهولندية، حيث سنقيم معبداً خاصاً بنا ونتبع طريقتنا في الحياة الدينية. البارحة زرت عائلتين في لاهاي لم تعودا من رعايا الحاخام أبوب منذ سنتين، ويرجح أن تنضما إليّ أيضاً. وهذا المساء آمل أن أقنع أسرتين أخريين بالانضمام إليّ».

«كيوراكاو؟ تبعد عن نصف العالم؟»

«صدّقني يا بنتو، فأنا مفعم بالأمل حول مستقبلنا في العالم الجديد، وأنا حزين جداً أيضاً عندما أفكّر أننا، أنا وأنت، لن نلتقي مرة أخرى بعد الآن. البارحة، عندما كنت في طريقي إليك بالمركب، حلمت، وهذه ليست المرة الأولى، بأنّك جئت لتزورنا في *العالم*

الجديد ثمّ تقرر أن تبقى معنا باعتبارك حكيمنا ومفكرنا. لكنّي أعرف أنّه حلم. سعالك واحتقان أنفك يقولان لي إنّك لا تستطيع أن تقوم بهذه الرحلة، وقناعتك بحياتك تقول لي إنّك لن تقوم بها».

نهض بنتو واقفاً وراح يذرع الغرفة. «أنا حزين جداً إلى حدّ أنني لا أستطيع أن أبقى جالساً. وعلى الرغم من أنّ لقاءاتنا نادرة بحكم الضرورة، فإن وجودك في حياتي في غاية الأهمية. إنّ فكرة الوداع الدائم صدمة قوية بالنسبة لي، خسارة كبيرة، لا أجد كلمات أعبّر بها عن نفسي. وفي الوقت نفسه، فإن حبّي لك يثير أفكاراً أخرى. الأخطار! كيف ستعيش؟ ألا يوجد يهود وكنيس للتو في كيوراكاو؟ كيف سيقبلونك؟»

«الخطر موجود دائماً لليهود. فطالما تعرضنا للاضطهاد - إن لم يكن على أيدي المسيحيين أو المسلمين، فعلى أيدي أحبارنا. إن أمستردام هي البقعة الوحيدة في العالم القديم التي توفر لنا درجة من الحرّية، لكن الكثيرين يتوقعون نهاية لهذه الحرّية. أعداء متعدّدون يزدادون قوّة: لقد انتهت الحرب مع الإنكليز لكن من المرجح أنها توقفت لفترة قصيرة، لويس الرابع عشر يهدّدنا، وقد لا تستطيع حكومتنا الليبرالية أن تقاوم طويلاً مؤيدي الملكية الهولندية الذين يريدون إقامة حكم ملكي. ألا تشاطرني هذه المخاوف، يا بنتو؟»

«نعم! إلى حدّ أنني وضعت جانباً كتاب *الأخلاق*، وأكتب حالياً كتاباً أدوّن فيه آرائي الدينية والسياسية. فللسلطات الدينية تأثير على الهيئات الحاكمة وتتدخّل الآن كثيراً في السياسة ويجب إيقاف ذلك. يجب أن يظل الدين والسياسة منفصلين أحدهما عن الآخر».

«حدّثني أكثر عن مشروعك الجديد يا بنتو».

«معظمه مشروع قديم. هل تذكر النقد التوراتي الذي قلته لك ولجاكوب؟»

«كلّ كلمة».

«إني أدوّنها على الورق وسأضم كلّ هذه الأفكار وأفكاراً كثيرة أخرى تجعل أيّ شخص عقلاني يشكّ في المصادر الإلهية للكتب المقدّسة ويقبل في النهاية بأنّ كلّ شيء يحدث إنما يحدث وفق قوانين الطبيعة الشاملة».

«إذاً ستنشر نفس الأفكار التي جلبت عليك *الحرم*؟»

«لنناقش ذلك لاحقاً. أما الآن، يا فرانكو، لنعد إلى خططك. فهنا تكمن ضرورة أكبر».

«بدأت مجموعتنا تؤمن أكثر فأكثر بأن أملنا الوحيد يقبع في *العالم الجديد*. وقام تاجر منّا بزيارتها واختار أرضاً اشتريناها من شركة جزر الهند الغربية الهولندية. ونعم، أنت على حقّ: فهناك جالية يهودية في كيوراكاو. لكنّنا سنعيش في أرضنا في الطرف الآخر من الجزيرة، نتعلّم الزراعة، ونخلق نوعاً مختلفاً من المجتمع اليهودي».

«وأسرتك؟ ما رأيها بهذا الانتقال؟»

«زوجتي سارة وافقت على الذهاب لكن بموجب بعض الشروط».

«بعض الشروط؟ هل تستطيع زوجة يهودية أن تضع شروطاً؟ ما هي هذه الشروط؟»

«سارة امرأة حازمة. إنها توافق على الذهاب إذا وافقت على أن آخذ آراءها بجديّة وهي أن تغيّر اليهودية أسلوبها في التعامل مع المرأة».

«لا يمكنني أن أصدّق ما أسمعه. كيف ننظر إلى المرأة؟ لم أسمع هراء كهذا من قبل».

«لقد طلبت مني أن أناقش هذا الموضوع بالذات معك».

«هل كلّمتها عنّي؟ ظننت أنك أبقيت تواصلك معي سرّاً حتى عنها».

«لقد تغيّرت. لقد تغيّرنا. لا توجد لدى أحدنا أسرار عن الآخر. هل يمكنني أن أنقل كلماتها لك؟»

هزّ بنتو رأسه بحذر.

تنحنح فرانكو وراح يتكلّم بنبرة أعلى: «السيد سبينوزا، هل توافق على أنّ من العدل أن تُعامل المرأة كمخلوق أدنى مرتبة في كلّ شيء؟ ففي الكنيس علينا أن نجلس في قسم منفصل عن الرجال وفي مقاعد سيئة و...»

«سارة»، قاطعه بنتو، وبدأ على الفور يؤدي دوره التمثيلي، «طبعاً تجلسن أنتن النساء ونظراتكن الشهوانية في مكان منفصل. هل يصحّ أن ينصرف انتباه الرجال عن اللّه؟»

«أعرف ردّها تماماً»، قال فرانكو، مقلّداً إياها، «هل تقصد أنّ الرجال شبه وحوش يتهيجون دائماً ويفقدون صوابهم لمجرد وجود امرأة - نفس المرأة التي ينامون بجانبها طوال الليل. وأن مجرّد رؤية وجوهنا سيبدّد ويشتت حبّهم للّه. هل تستطيع أن تتصوّر كيف يجعلنا ذلك نشعر؟»

«أيتها المرأة الحمقاء - بالطبع يجب أن تكوني بعيدة عن مجال رؤيتنا! إنّ وجود عينيك المغريتين ورموشك المرفرفة والتعليقات الضحلة تخالف التأمل الديني».

«إذاً، بما أن الرجال ضعفاء ولا يستطيعون التركيز على الصلاة، فهو ذنب المرأة، لا ذنبهم هم؟ قال لي زوجي إنّك قلت له إنه لا يوجد شيء خيّر أو سيّئ لكن العقل هو الذي يجعله هكذا. أليس هذا صحيحاً؟»

هزّ بنتو رأسه بتردّد.

«إذاً ربما يجب تهذيب عقل الرجل. ربما يجب أن يضع الرجال غماء البغال على عيونهم بدلاً من أن يطلبوا أنّ تضع المرأة حجاباً! هل أوضحت فكرتي، أم أواصل؟»

بدأ بنتو يجيب، لكنه توقّف، ثم قال وهو يهزّ رأسه، «تابع».

«نظل نحن النساء سجينات في البيت ولا يعلّموننا اللغة الهولندية لذلك يظل ذهابنا إلى السوق أو التحدّث مع الآخرين محدوداً. ونتحمل عبء قدر غير متساو من العمل في الأسرة، بينما يجلس الرجال معظم اليوم يتناقشون في مسائل التلمود. ويعارض الحاخامات علناً تعليمنا لأننا، كما يقولون، أقلّ ذكاء، وإذا علّمونا التوراة، فإنهم يعلموننا ترهات لأننا نحن النساء لا نستطيع فهم التعقيدات فيه».

«في هذا الأمر فأنا أتّفق مع الحاخام. هل تعتقدين حقاً بأنّ لدى النساء والرجال مستوى متساوياً من الذكاء؟»

«اسأل زوجي. فهو واقف بجانبك. اسأله إن كنت لا أتعلّم بسرعة وأفهم بعمق مثله».

رفع بنتو ذقنه مشيراً إلى فرانكو الذي ابتسم، وقال: «إنها تقول الحقيقة يا بنتو. فهي تتعلّم وتفهم بسرعة كبيرة، بل ربما أسرع مني. وأنت تعرف امرأة مثلها. أتذكر تلك الفتاة الشابّة التي علّمتك اللغة اللاتينية، التي وصفتها أنت نفسك بأنها أعجوبة؟ حتى أن سارة تؤمن بأنه يجب أن تعتبر المرأة واحدة من «*المنيان*»، النصاب المؤلف من عشرة رجال لإقامة الصلاة، وأن يطلب منها أن تقرأ وترتل من «*البيما*» (المنبر)، بل وحتى أن تصبح حاخاماً».

«تقرأ من *البيما*؟ تصبح حاخاماً؟ هذا شيء أبعد من الخيال! إذا كانت النساء قادرات على المشاركة في السلطة، يمكننا أن نعود إلى التاريخ لنبحث عن حالات كهذه. لكن لا توجد أي منها، لا توجد

حالات عن نساء حكمن بالتساوي مع الرجال، ولا توجد حالات حكمت فيها نساء رجالاً. ولا يمكننا أن نخلص إلّا إلى نتيجة واحدة وهي أنّ لدى النساء ضعفاً كامناً فيهن».

هزّ فرانكو رأسه وقال: «ستقول سارة - وهنا أتفق معها - بأنّ دليلك ليس دليلاً على الإطلاق. والسبب هو أنه لا توجد مشاركة في السلطة...»

نقرة على الباب قطعت حديثهما، ودخلت مدبرة المنزل تحمل صينية مثقلة بالطعام، وقالت: «السيد سبينوزا، هل لي أن أخدمك؟»

أومأ بنتو، وبدأت تضع أطباق الطعام التي ينبعث منها البخار على طاولة بنتو. التفت إلى فرانكو وقال: «إنها تسأل إن كنّا مستعدين لتناول طعام الغداء. نستطيع أن نأكل هنا».

نظر فرانكو، مندهشاً، إلى بنتو وأجاب بالبرتغالية، «بنتو، كيف يخطر لك أنّني أستطيع أن أتناول هذا الطعام معك؟ هل نسيت؟ إنني حاخام!»

الفصل الثاني والثلاثون

برلين، هولندا - ١٩٣٩-١٩٤٥

«يكاد يكون ألفريد» يكاد روزنبرغ أن يصبح مثقفاً، صحفياً، سياسياً - لكن يكاد فقط.

- جوزيف غوبلز

لماذا يذرف العالم دموع التماسيح على المصير الذي تستحقه كثيراً أقليّة يهودية صغيرة؟. . . إسأل روزفلت، إسأل الشعب الأمريكي: هل أنتم مستعدون لاستقبال سجناء الشعب الألماني هؤلاء وروح المسيحية الكونية؟ إننا مستعدون لإعطاء كلّ واحد منهم تذكرة مجّانية بالباخرة وورقة نقدية من ألف مارك لنفقات السفر، لو استطعنا أن نتخلّص منهم.

- أدولف هتلر

مع أن ألفريد لم يصب باكتئاب شديد آخر، فإنه لم يشعر بالراحة مع نفسه قط، وكان تقديره لنفسه طوال حياته يتأرجح بقوة: فإمّا منتفخ وإما فارغ، وذلك بحسب قربه أو بعده من أدولف هتلر.

لم يحبّه هتلر قط؛ لكنه، على الرغم من ذلك، كان مقتنعاً بأن

مهارات ألفريد مفيدة للحزب، وظلّ يلقي على عاتقه المسؤوليات التي كانت دائماً إلى جانب مهمّة ألفريد الأساسية كرئيس تحرير لصحيفة الحزب (*Völkischer Beobachter*)، «صحيفة الحزب النازي النضالية» التي ازدهرت وكبرت بتوجيهات ألفريد ودأبه: ففي أربعينات القرن العشرين كانت توزع يومياً أكثر من مليون نسخة. وكان هتلر يفضّل شخصياً رسوم الكاريكاتير المعادية لليهود الفظّة التي تنشرها صحيفة *Der Stürmer*، أما *Beobachter* فكانت صحيفة الحزب الرسمية، لذلك دأب هتلر أو نائبه رودولف هيس على قراءتها يومياً.

كانت تربط ألفريد علاقة ودّية مع هيس الذي تمكن من خلاله الوصول إلى هتلر. لكن ذلك انتهى بطيش في ١٠ أيار ١٩٤١، عندما توجّه هيس، بعد أن تناول فطوراً فاخراً مع روزنبرغ، إلى المطار، ولأسباب لا تزال مجهولة للمؤرخين، استقلّ طائرة من طراز بي إف ١١٠ إلى اسكتلندا وهبط بالمظلّة من الطائرة، فأسره البريطانيون على الفور وسُجن مدى حياته. فتولّى مارتن بورمان منصب هيس كنائب، وكما قال ألفريد، فقد أصبح «دكتاتور غرفة مكتب هتلر». وفي مناسبات نادرة، كان بورمان يسمح بمقابلة الفوهرر للحلقة المقربة فقط - التي لم تكن تشمل ألفريد روزنبرغ.

وعلى الرغم من ذلك، لم يستطع أحد إنكار النجاح الباهر الذي حققه ألفريد من كتابه «*أسطورة القرن العشرين*». وفي عام ١٩٤٠ بيعت أكثر من مليون نسخة من الكتاب واحتل المرتبة الثانية في قائمة الكتب في ألمانيا بعد كتاب هتلر «*كفاحي*». وكان ألفريد مثقلاً بواجبات ومهام أخرى: فقد كانت مهمته كمسؤول للتثقيف الأيديولوجي للحزب النازي برمّته تتطلّب عقد اجتماعات كثيرة وإلقاء خطابات لم تكن تبتعد كثيراً عن المبادئ التي أوردها في كتابه: تفوُّق

العرق الآري، الخطر اليهودي، نقاء الدم، أخطار التنشئة الملوّثة، وضرورة المجال الحيوي لألمانيا، والأخطار التي يشكّلها الدين. ويتصدى بلا هوادة للتهديدات التي يشكّلها اليهود على الرايخ، وظل يصرّ على ضرورة حلّ المسألة اليهودية بالتخلّص من جميع اليهود في أوروبا. وفي عام ١٩٣٩، عندما تبين أنه لا يوجد بلد سيقبل اليهود الألمان والبولونيين والتشيكيين، اقترح نقل اليهود الأوروبيين إلى محمية (بالتأكيد ليس دولة) خارج أوروبا - مثل مدغشقر أو غويانا. ولفترة من الزمن اقترح تهجيرهم إلى ألاسكا، لكنه سرعان ما قرّر أن مناخها قاس جداً عليهم.

وفي عام ١٩٣٩ دعا هتلر روزنبرغ ليعقد اجتماعاً معه.

«روزنبرغ، أحمل بيدي بياني الرسمي المتعلق بجائزتك القومية الألمانيّة. لا بد أنك تتذكّر حديثنا حول ترشيحك - عندما قلت إنه أكثر الأيام فخراً في حياتك. وقد صدّقت بنفسي على هذه العبارة بالقول 'إن صراع روزنبرغ المتفاني للحفاظ على نقاء الفلسفة الاشتراكية القومية جدير بالتقدير. ولن تقدّر عمق تأثير هذا الرجل على المؤسسة الفلسفية للرايخ الاشتراكي القومي إلّا الأجيال القادمة».

اتسعت حدقتا ألفريد: كان مذهولاً من الهبة التي منحه إياها هتلر.

«وقررت اليوم أن أعيّنك في منصب أنت أهل له. لقد قرّرت رسمياً إنشاء هوهي شول (*Hohe Schule*)، جامعة الحزب النازي النخبوية. ستصبح رئيسها».

«لي الشرف العظيم ماين فوهرر. لكنّي لم أسمع شيئاً عن أي خطط لإنشاء هوهي شول من قبل».

«ستكون مركزاً متقدّماً للبحوث والتعليم الإيديولوجي يقع

مركزها في شمال بافاريا. إني أتصوّر قاعة تتسع لثلاثة آلاف شخص، ومكتبة فيها خمسمئة ألف مجلد، ولها عدة فروع في مختلف مدن الرايخ».

أخرج ألفريد دفتر ملاحظاته وقال: «هل لي أن أكتب عن هذا الموضوع في الصحيفة؟»

«نعم. سيعطيك سكرتيري ملخصاً عنه. سيكون هناك إعلان مقتضب عن إنشائها وعن تعيينك في الوقت المناسب. مهمّتك الأولى - وهذا ليس للنشر» - هنا خفّض هتلر صوته - «تتمثّل في إنشاء مكتبة للجامعة. قم بإنشائها بسرعة. فوراً. الكتب متوفرة الآن. أريدك أن تستولي على جميع محتويات المكتبات اليهودية والماسونية في البلدان المحتلة».

غمرت ألفريد الفرحة: فقد خصّه هتلر بهذه المهمّة. وسرعان ما انطلق أتباع روزنبرغ لنهب المكتبات اليهودية في أرجاء أوروبا الشرقية، وإرسال آلاف الكتب النادرة منها إلى فرانكفورت، حيث كان أمناء المكتبات يختارون أفضل الكتب لوضعها في مكتبة هوهي شول. وكان هتلر يخطّط أيضاً لإنشاء متحف للشعوب المنقرضة، وسيتم انتقاء كتب ثمينة أخرى لعرضها فيه. ولم تمض فترة طويلة حتى توسعت مهمة ألفريد لتشمل الأعمال الفنية بالإضافة إلى الكتب. وباهتمام جرو متعطّش، كتب رسالة بمناسبة عيد ميلاد الفوهرر الخمسين:

هايل ماين فوهرر:

رغبة مني لأُدخِل على نفسك، سيدي الفوهرر، قدراً من البهجة في عيد ميلادك، فإني أسمح لنفسي أن أرسل لكم صور بعض اللوحات القيّمة التي استولى عليها عناصر المهمات الخاصة، نزولاً

عند أمركم، من بين المجموعات الفنية اليهودية التي لا يوجد لها مالك في الأراضي المحتلة. وتمثّل هذه الصور إضافة إلى مجموعة الثلاث وخمسين قطعة فنية الأكثر قيمة التي أضيفت إلى مجموعتكم منذ فترة.

أرجوك، سيدي الفوهرر، أن تمنحني الفرصة أثناء مثولي أمامكم لأقدّم لكم تقريراً شفوياً حول مدى عملية الاستيلاء على هذه الأعمال الفنّية ونطاقها. وأرجو أن تتقبلوا مني تقريراً خطياً مقتضباً عن تقدّم عملية احتجاز الأعمال الفنية ومداها، الذي سيكون بمثابة أساس لهذا التقرير الشفوي التالي، وأن تقبلوا أيضاً ثلاث نسخ من كتالوغ الصور المؤقت الذي يعرض أيضاً جزءاً بسيطاً من المجموعة التي بحوزتكم. وسأسمح لنفسي في أثناء اجتماعكم بي، أن أقدّم لكم، سيدي الفوهرر، عشرين ملفاً آخر من الصور، راجياً أن تبعث هذه المشاركة القصيرة للأعمال الفنية الجميلة الأقرب إلى قلبكم شعاعاً من الجمال والبهجة في حياتكم المبجلة.

في عام ١٩٤٠، أبلغ هتلر الحزب النازي كله رسمياً عن تشكيل الفرقة *التابعة لنائب القائد* روزنبرغ (ERR) - التي تتمثل مهمتها في مصادرة جميع الأعمال الفنية والكتب التي يملكها اليهود الأوروبيون لكي يستخدمها الرايخ. ووجد روزنبرغ نفسه يرأس منظمة ضخمة تتحرّك مع فرق الجيش في المناطق المحتلة بهدف حماية الأملاك اليهودية ذات القيمة العالية لألمانيا والاستيلاء عليها.

كان ألفريد في قمة السعادة. فهذه أعظم مكافأة ينالها. وعندما كان يجوب شوارع براغ ووارسو مع أفراد فرقته، كان يردد:

القوّة! أخيراً، القوّة! أن أمتلك قرار حياة وموت المكتبات اليهودية والمعارض الفنية في أوروبا، وأن تصبح لديّ أيضاً أوراق

مساومة مع غورينغ الذي أصبح فجأة لطيفاً جداً معي، والذي تسعى يداه الجشعتان إلى نهب الأعمال الفنية في كل مكان. أما الآن فأنا أحتل الصدارة. أختار الأعمال الفنية للفوهرر قبل أن يختطفها غورينغ ويضمها إلى مجموعته الخاصّة. يا لهذا الجشع! كان يجب التخلص من غورينغ منذ زمن طويل. لماذا يتحمّل الفوهرر خيانة التقاليد والعقيدة الآرية هذه.

أثار الاستيلاء على المكتبات اليهودية في بولندا وتشيكوسلوفاكيا شهية ألفريد لوضع يده على أعظم كنوزها قاطبة، وهي مكتبة متحف رنسبرخ. ووضع ألفريد مكتبة سبينوزا نصب عينيه، وراح يكتب في الصحيفة بتعطّش عنواناً بعد عنوان عن انتصار التقدّم النازي على الجبهة الغربية. «*لا شيء يستطيع أن يوقف هجومنا الخاطف*» قالت الصحيفة. بلد إثر بلد يسقط ويخضع لسلطة هتلر، وسرعان ما سيأتي دور هولندا. فعلى الرغم من أن هذا البلد الصغير وقف على الحياد في الحرب العالمية الأولى ويأمل أن يفعل ذلك في الحرب الجديدة، فإن لدى هتلر أفكاراً مختلفة. وفي ١٠ أيار ١٩٤٠، اجتاحت القوّات النازية هولندا بكلّ قوتها. وبعد أربعة أيام، قصف لوفتواف مدينة روتردام الصناعية قصفاً مكثفاً، ودمّر ميلاً مربّعاً كاملاً في مركز المدينة، وفي اليوم التالي، استسلمت القوّات الهولندية. كان ألفريد في بهجة عارمة وهو يعدّ العناوين البارزة التي ستتصدر الصفحة الأولى من الصحيفة، ويكتب مقالاً عن حرب هولندا التي دامت خمسة أيام فقط، وكتب مقالة افتتاحية عن عدم التمكّن من صدّ الهجوم النازي الخاطف.

دُهش العاملون في الصحيفة من سلوك ألفريد - فلم يره أحد منهم من قبل يبتسم ابتسامة عريضة كهذه. هل يعقل أن يكون هذا نفس ألفريد روزنبرغ الذي يفتح قناني الشمبانيا في المكتب، ويصبّ

مشروباً للجميع، ويعلن بصوت مرتفع أنه يشرب نخب الفوهرر أولاً، ثمّ نخب ذكرى ديتريش إكارت؟

قبل بضعة أسابيع، قرأ ألفريد مصادفة عبارة لألبرت آينشتاين: «إن سرّ الإبداع هو أن تعرف كيف تخفي مصادرك». في البداية شهق ألفريد - «تضليل صفيق، نفاق يهودي نموذجي» - واستنكرها. لكن مقولة آينشتاين ظلت تراوده لبضعة أيام لأسباب مجهولة. هل هي المفتاح لحلّ مشكلة سبينوزا؟ ربّما أفكار بنتو سبينوزا «الأصلية» ليست أصلية تماماً. وقد تكون الأصول الحقيقية لأفكاره مستترة بين طيات صفحات المئة وواحد وخمسين كتاباً التي تضمها مكتبته الشخصية.

أصبحت فرقة ERR، فرقة السلب التي يرأسها ألفريد، على استعداد لتنفيذ مهامها في هولندا في شهر شباط ١٩٤١. سافر ألفريد بالطائرة إلى أمستردام وحضر اجتماعاً لعناصره نظّمه فيرنر شوير، الضابط الألماني المسؤول عن تصفية المنظمات الماسونية والمنظمات المرتبطة بها في هولندا. كان النازيون يكرهون الماسونية، بأعضائها من اليهود وغير اليهود على حدّ سواء. فقد ادّعى هتلر في كتابه «كفاحي» أن الماسونية «أذعنت» لليهود وهي القوّة الرئيسية وراء هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى. وحضر الاجتماع أيضاً اثنا عشر عنصراً تابعاً للضابط شوير «المختصين بأعمال التصفية في المنطقة»، وخصّص لكلّ عنصر منهم المنطقة المسؤول عنها. وقبل بدء الاجتماع طلب شوير موافقة ألفريد على التعليمات التي وضعها ليوزعها على عناصر التصفية. إذ يتعين تدمير جميع السلع والمواد التي تحمل شعار الماسونية وإتلافها: نظّارات، تماثيل نصفية، لوحات، شارات، مجوهرات، سيوف، دوائر، أختام، مجارف، مطارق، الشمعدانات ذات الأذرع السبع،

والسدسيات. بالإضافة إلى تحطيم وإتلاف جميع السلع الخشبية التي تحمل شعارات ثابتة أو حرقها، وتمزيق المآزز الجلدية الماسونية إلى مربعات ومصادرتها. ابتسم ألفريد وهو يقرأ ذلك، وأدخل عليها تصحيحاً واحداً فقط وهو يجب تمزيق المآزر الجلدية إلى ستّ عشرة قطعة قبل مصادرتها. ووافق على البنود الأخرى، وأثنى على شوير لحرصه ومثابرته في العمل.

وعندما ألقى نظرة على قائمة المواقع التي يجب مصادرتها، سأل، «هير شوير، أرى أن بيت سبينوزا في رنسبرخ مدرج في هذه القائمة. لماذا؟»

«جمعية سبينوزا كلّها تمتلئ بالماسونيين».

«هل يعقدون اجتماعات ماسونية في بيت سبينوزا؟»

«لا، بحسب علمي. لم نعثر بعد على أماكن تُعقد فيها اجتماعات في رنسبرخ».

«أفوّضك بأن تلقي القبض على جميع الماسونيين المشتبه فيهم، أما بيت سبينوزا فاتركه لفرقتي. سأزور بيت سبينوزا شخصياً لمصادرة المكتبة، وإذا وجدت شيئاً يمتّ بصلة إلى الماسونية، سأسلّمه لك شخصياً».

«نعم سيادة نائب القائد؟ طبعاً. هل تحتاج إلى مساعدة؟ سأكون سعيداً بتكليف بعض رجالي».

«شكراً، رجالي على أهبة الاستعداد».

«هل لي يا سيادة نائب القائد أن أسأل لماذا يعتبر هذا الموقع هاماً جداً حتى لفت اهتمامك شخصياً؟»

«قد تكون مكتبة سبينوزا وأعماله بصورة عامة هامة لمكتبة هوهي شول. سأتكفل أنا بمكتبته شخصياً. وقد نعرضها أيضاً في متحف الشعوب المنقرضة الذي سينشئه الفوهرر».

بعد يومين، عند الساعة ١١ ظهراً، وصل روزنبرغ مع كبير مساعديه، أوبيريشسلتر شيمير، إلى رنسبرخ في سيارة ليموزين مرسيدس تتبعها سيارة ليموزين أخرى وشاحنة صغيرة تحمل أفراداً من فرقة ERR وصناديق فارغة. ثم أمر ألفريد جنديين بحراسة بيت الحارس المجاور للمتحف، وأمر جنديين آخرين بإلقاء القبض على رئيس جمعية سبينوزا الذي كان يقيم في الشارع المجاور. كان باب المتحف موصداً، وبعد فترة قصيرة جُلب الحارس، جيرارد إيغموند، وفتح الباب. مشى ألفريد في الردهة نحو المكتبة. لم تكن كما يتذكّرها - فلا تتكدس الكتب فيها كما كان من قبل. أحصى عدد الكتب بصمت. ثمانية وستّون.

«أين الكتب الأخرى؟» سأل ألفريد.

بدا الذهول والخوف على وجه الحارس الذي هزّ كتفيه.

«الواحد والتسعون كتاباً الأخرى»، قال ألفريد، شاهراً مسدّسه.

«أنا لست سوى الحارس. لا أعرف شيئاً عن ذلك».

«من يعرف؟»

في تلك اللحظة دخل رجاله معهم يوهانز ديديريك بيرينس دي هان، رئيس جمعية سبينوزا، رجل مسنّ يرتدي ثياباً أنيقة، وقور، له عثنون بيضاء، ويضع نظارات ذات إطار فولاذي. التفت إليه ألفريد، ملوّحاً بمسدّسه إلى نصف المكتبة الفارغة. «لقد جئنا من أجل المكتبة، لنضعها في مكان آمن. أين الواحد والتسعون كتاباً الأخرى؟ أتظن أنّنا أغبياء؟»

أخذ بيرينس دي هان يرتعش، لكنه لم ينبس بكلمة واحدة.

تجوّل ألفريد في أنحاء الغرفة، ثم قال: «هير المشرف على المكتبة، أين هي قصيدة آينشتاين التي كانت معلّقة هناك؟» ونقر ألفريد بمسدّسه على بقعة في الجدار.

هنا بدا بيرينس دي هان مرتبكاً تماماً. فهزّ رأسه وهو يتمتم، «لا أعرف شيئاً عما تقوله. لم أر في حياتي قصيدة معلقة هناك».

«منذ متى أنت مسؤول هنا؟»

«منذ خمس عشرة سنة».

«ذلك الحارس، ذلك العار البدين الأشعث الذي كان يعمل هنا في أوائل العشرينات. الذي كان يتصرّف وكأنه صاحب هذا المكان. أين هو؟»

«ربما تقصد أبراهام. مات منذ مدة طويلة».

«رجل محظوظ. للأسف. كنت أتوق للقائه مرة أخرى. هل توجد عندك أسرة، هير المشرف على مكتبة سبينوزا؟»

هزّ بيرينس دي هان رأسه.

«عندك خياران: إمّا أن تقودنا إلى الكتب، وتعود على الفور إلى أسرتك وإلى مطبخك الدافئ، وإمّا ألّا تخبرنا، وسيمضي وقت طويل بارد قبل أن تراهم مرة أخرى. سنجد الكتب، أؤكد لك، حتى لو فككنا هذا المتحف لوحاً لوحاً ولم نترك فيه شيئاً سوى كومة من الأخشاب والأحجار. وسنبدأ ذلك الآن».

لم يصدر أي ردّ من بيرينس دي هان.

«ثمّ سنفعل الشيء نفسه بالبيت المجاور. ثمّ ببيتك أنت. سنجد الكتب - أؤكد لك».

فكّر بيرينس دي هان للحظة، ثمّ، بشكل غير متوقّع، التفت نحو إيغموند وقال: «قدهم إلى الكتب».

«وأريد القصيدة أيضاً»، أضاف ألفريد.

«لا توجد قصيدة»، ردّ بيرينس دي هان.

قادهم الحارس نحو باب مجاور فيه خزانة مخفية في المخزن

حيث خُزِنت باقي الكتب من دون ترتيب ووضع فوقها غطاء من قماش الخيش مغطّى بآنيّة فخارية وجرار فيها أنواع المربيات.

عبأ الجنود الكتب والأشياء الأخرى القيّمة - صور سبينوزا، ولوحة تصوّر مشهداً من القرن السابع عشر، وتمثالاً نصفياً برونزيّاً لسبينوزا، وطاولة قراءة صغيرة - في الصناديق الخشبية وحملوها إلى شاحنتهم. وبعد ساعتين، كان الناهبون والكنوز في طريقهم إلى أمستردام.

«لقد شاركتُ في عمليات كثيرة كهذه، أيها النائب روزنبرغ»، قال شيمير وهما في طريق عودتهما، «لكني لم أنفذ أياً منها بمثل هذه الكفاءة. إنه امتياز لي أن أراك تقوم بذلك. كيف عرفت أنّ الكتب ناقصة؟»

«أعرف أشياء كثيرة عن المكتبة. ستكون ثمينة جداً لمكتبة هوهي شول. إنها ستساعدنا في حلّ مشكلة سبينوزا».

«مشكلة سبينوزا؟»

«شرحُها بالتفصيل الآن معقّد جداً. لنقل إنها كذبة يهودية كبيرة في الفلسفة استمرّت قروناً. أنوي أن أوليها اهتمامي الشخصي. أرسل الكتب مباشرة إلى مكتب فرقة ERR في برلين».

«وأنا معجب بالطريقة التي عاملت بها الرجل العجوز. من دون إراقة دماء. بكفاءة. استسلم بسهولة».

نقر ألفريد على جبينه، وقال: «أظهر قوّتك. أظهر معرفتك المتفوّقة وتصميمك. إنهم يدّعون أنّ لديهم أفكاراً عظيمة لكنهم يرتجفون عندما يسمعون أن بيتهم سيصبح أنقاضاً، فما إن قلت له لن ترى مطبخاً دافئاً، حتى انتهت اللعبة. هذا هو السبب الذي يجب أن يجعلنا ننتصر ونسود في أوروبا كلّها».

«وماذا عن القصيدة؟»

«ليست قيّمة مثل الكتب. من الواضح أنه كان صادقاً: فلا يسلّم أحد هذه المكتبة الثمينة ثم يعرّض نفسه للخطر من أجل بضعة سطور من الشعر الركيك خربشها أحدهم على قصاصة ورق. أظن أنها ليست من ممتلكات المتحف لكن الحارس علّقها بنفسه».

جلس الرجلان الهولنديان يعتصرهما الحزن في مطبخ الحارس. أطلق بيرينس دي هان تنهيدة وقد وضع رأسه بين يديه، «لقد خنّا الأمانة الموكلة إلينا. كنّا أوصياء على الكتب».

«لم يكن لديك خيار آخر»، قال إيغموند، «أولاً، كانوا سيحطمون المتحف ثمّ سيحطمون هذا البيت، ولن يجدوا الكتب فقط وإنما كانوا سيجدونها أيضاً».

ظلّ بيرينس دي هان يتنهد.

«ماذا كان سبينوزا سيفعل؟» سأل الحارس.

«لا يمكنني إلّا أن أتخيّل أنه سيختار الفضيلة. فإذا كان الاختيار بين إنقاذ مواد ثمينة وإنقاذ شخص، علينا أن ننقذها».

«نعم، أتفق معك. حسناً، لقد ذهبوا. هل أخبرها بأن كلّ شيء انتهى الآن؟»

هزّ بيرينس دي هان رأسه. صعد إيغموند إلى الطابق العلوي، وباستخدام عمود طويل، نقر ثلاث نقرات على زاوية سقف غرفة النوم. وبعد دقيقتين فُتح باب سرّي، وأُسقط سلّم، وهبطت امرأة يهودية مذعورة متوسطة العمر تُدعى سلما دي فريس كوهين.

«سلما»، قال إيغموند، «ارتاحي. لقد ذهبوا. أخذوا كلّ ما له قيمة وسيذهبون الآن لنهب ما تبقى من بلدنا».

«لماذا جاؤوا إلى هنا؟ ماذا كانوا يريدون؟» سألت سلما.

«مكتبة سبينوزا كلّها. لا أعرف سبب أهميتها لهم. إنه لغز

حقيقي. كان بإمكانهم أن يسحبوا بسهولة كتاباً لرامبرانت من بين عشرات الكتب في متحف ريكز في أمستردام الذي تتجاوز قيمته جميع تلك الكتب مجتمعة. لكن لديّ شيء لك. كتاب واحد لم يجدوه. كان هناك كتاب لسبينوزا مترجم إلى الهولندية، عنوانه إثيكا (الأخلاق)، كنت قد خبأته في بيت ابني. لم يعرفوا عن هذا الكتاب، وسأحضره لك غداً. لعلك تحبّ أن تقرأه - إنه كتابه الأساسي».

«ترجمة هولندية؟ كنت أظن أنه هولندي».

«نعم، لكن المفكرين كانوا يكتبون باللغة اللاتينية في تلك الأيام».

«هل أنا في مأمن الآن؟» سألت سلما التي كانت لا تزال ترتجف، «هل الوضع آمن لأحضر أمّي إلى هنا؟ هل أنت، نفسك، في مأمن؟»

«لا أحد آمن تماماً مع هذه الوحوش المنفلتة. لكنّك في أكثر البلدات أماناً في هولندا كلّها. لقد ختموا أبواب ونوافذ المتحف بشريط، وألغوا جمعية سبينوزا، ووضعت الحكومة الألمانيّة يدها على هذا البيت. لكني أشكّ كثيراً أن يعودوا إلى هذا المتحف الخاوي. لم يعد هناك شيء آخر له أهمية هنا. ومع ذلك، لكي تكوني في مأمن تام، أريد أن أنقلك إلى مكان آخر لمدّة شهر. فقد تطوّعت عدة عائلات في رنسبرخ للاختباء عندهم. لديك أصدقاء كثيرون في رنسبرخ. في هذه الأثناء يجب أن أركّب دورة مياه في غرفتك قبل أن تأتي أمّك في الشهر القادم».

عندما وصلت الكتب إلى برلين، أمر ألفريد رجاله بتسليمها فوراً إلى وزارة الداخلية التي يرأسها هو أيضاً. وفي صباح اليوم التالي

تناول قهوته في مكتبه، جلس، وراح يحدّق بها، مستمتعاً بوجود هذه الأعمال الثمينة ورائحتها - الكتب التي أمسكها سبينوزا بيديه. ولساعات راح يلمسها ويتمعن في عناوينها. كان بعض المؤلفين مألوفين بالنسبة له - فيرجيل، هوميروس، أوفيد، قيصر، أرسطو، تاسيتوس، بترارك، بليني، شيشرون، ليفي، هوراس، أرسطو، إبكتيتوس، سينيكا ، ومجموعة من خمسة مجلّدات لأعمال ميكافيللي. أوه، قال نادباً، *لو درست في الجمنازيوم، لتمكنت من قراءة هذه الكتب. فلم أتعلّم اللاتينية أو اليونانية - إنها مأساة حياتي*. ثمّ، بصدمة مفاجئة، أدرك أنه لا يوجد ولا كتاب واحد بينها يستطيع أن يقرأه: فلم يكن هناك أي كتاب باللغة الألمانية أو الروسية. كان هناك كتاب *Discours de la méthode* (*مقال عن المنهج*) لديكارت، لكنه لا يجيد الفرنسية. معظمها غريب عليه تماماً: عدد منها مكتوب بالعبرية، لعلها العهد القديم وتفسيرات وتعليقات عن التوراة، وهناك الكثير من المؤلفين الذين لم يسمع بهم في حياته، مثل نيزوليوس، وجوزيفوس، وباجنينوس. ومن الرسومات كانت بعضها أعمال حول البصريات (هايغنس، ولونغومونتانوس)، وأخرى عن التشريح (ريولان) أو عن الحساب والرياضيات. كان ألفريد يتوقّع أن يعثر على أدلّة تقوده إلى المصادر التي استقاها سبينوزا من الإشارات التي وضعها على النصوص أو الهوامش، وأمضى ما تبقى من اليوم في تصفّح كلّ صفحة من كلّ كتاب على حدة. لكن عبثاً - لم يكن فيها أي أثر لسبينوزا. وبعد الظهر، جثمت فوقه الحقيقة القاسية: فهو يفتقر إلى المعرفة التي تمكّنه من معرفة شيء عن سبينوزا في طيات هذه الكتب. يجب أن يطلب مشورة من المختصين في الأعمال الكلاسيكية.

أما هتلر فكانت لديه خطط أخرى له. فبعد وصول المكتبة بفترة

وجيزة، غزا أربعة ملايين ونصف مليون جندي نازي روسيا. وكان هتلر قد عيّن روزنبرغ وزيراً للرايخ مسؤولاً عن المناطق الشرقية المحتلّة وطلب منه أن يعدّ خطّة رئيسية للاستيلاء على مساحة واسعة غرب روسيا يقطنها ثلاثون مليون روسي، حتى يستوطنها الألمان. لذلك، كان يتعين طرد خمسة عشر مليون روسي وترحيلهم، والسماح ببقاء الخمسة عشر مليون الآخرين شريطة أن يصبحوا «ألماناً» خلال ثلاثين سنة.

كانت لدى ألفريد آراء قوية عن روسيا. فقد كان يرى أنه ليس من الممكن إلحاق هزيمة بروسيا إلّا بواسطة الروس أنفسهم، وأن على الألمان بلقنة البلد وإنشاء قوّات محاربة من الأوكرانيين الذين سيتحرّكون ضدّ البلاشفة.

هذا التعيين الرفيع الذي بدا في البداية انتصاراً لروزنبرغ، سرعان ما تحوّل إلى كارثة. فعندما قدّم خططه إلى هتلر، لم يوافق القادة العسكريون: غورينغ وهيملير وإريك كوش، بقوة عليها وتجاهلوا أو قوّضوا كلّ اقتراحاته. وتركوا عشرات الآلاف من أسرى الحرب الأوكرانيين يموتون في المعسكرات والملايين من المدنيين يتضورون جوعاً بعد أن أمروا بشحن محاصيل القمح والمواد الغذائية كلها إلى ألمانيا. وظل روزنبرغ يتذمر ويشتكي إلى هتلر إلى أن أجابه أخيراً بفظاظة:

«توقّف عن التدخّل في الشؤون العسكرية. إن انشغالك بالقضايا الأيديولوجية جعلك لا تعرف شيئاً عن الأمور اليومية الجارية».

صاحب الكتاب الأكثر مبيعاً الذي بلغت مبيعاته مليون نسخة، ورئيس تحرير صحيفة الحزب النازي الرئيسية، الذي تبوأ منصباً حكومياً رفيع المستوى بعد آخر: رئيس الإيديولوجية والتثقيف

النازي، رئيس فرقة ERR، وزير الرايخ للمناطق الشرقية المحتلّة، وعلى الرغم من ذلك، فقد كان دائماً موضع سخرية الحلقة الداخلية النازية وكرههم له. كيف تمكّن روزنبرغ من جمع كلّ هذه المناصب الرفيعة؟ إن اللغة المبهمة، غير المفهومة، تجعل الآخرين يعتبرون كاتبها أحياناً شخصاً يتمتع بدرجة كبيرة من الذكاء بصورة غير واقعية. وربّما لهذا السبب، ظلّ هتلر يكلف روزنبرغ بالعديد من المهام الصعبة.

وفي النهاية، عندما بدأ الروس يصدّون القوّات الألمانيّة ويستعيدون أراضيهم التي احتُلت، لم يعد منصب ألفريد وزيراً للرايخ للمناطق الشرقية المحتلة فعالاً، فقدّم استقالته. وكان هتلر مشغولاً جداً فلم يجبه.

لم يتحقّق أمله في إجراء دراسة معمّقة لمكتبة سبينوزا. وسرعان ما بدأ الحلفاء يقصفون برلين بعنف. وعندما دُمِّر بيت لا يبعد عن بيته سوى مئتي متر، أصدر ألفريد أمراً بنقل المكتبة إلى فرانكفورت لحمايتها.

واستمرت الصحيفة التي يرأسها ألفريد *Völkischer Beobachter* «الصحيفة المناضلة في ألمانيا النازية» تناضل حتى النهاية، ولم يتوقف ألفريد عن تبجيل هتلر بخنوع على صفحاتها. وفي أحد أعدادها الأخيرة (٢٠ نيسان (أبريل) ١٩٤٥) احتفل روزنبرغ بمناسبة عيد ميلاد هتلر السادس والخمسين، وقال إن أدولف هتلر «رجل القرن». وبعد عشرة أيام، عندما أصبح الجيش الروسي الزاحف على مقربة من مخبأ هتلر تحت الأرض، تزوّج الفوهرر إيفا براون، ووزّع كبسولات من السيانيد على المدعوين إلى حفل الزفاف، وكتب وصيته، وأطلق على نفسه النار بعد أن ابتلعت زوجته السيانيد. وبعد أربع وعشرين ساعة، في نفس المخبأ، قتل غوبلز وزوجته أطفالهما

الستةّ بالمورفين والسيانيد، ثمّ انتحر هو وزوجته معاً. وعلى الرغم من ذلك، فقد استمرت مطابع الصحيفة تدور حتى استسلم الألمان في ٨ أيار (مايو) ١٩٤٥. وعندما اجتاح الروس مكاتب الصحيفة، وجدوا عددين مؤرخين قبل موعد صدورهما. وكان العدد الذي لم يوزّع بعد المؤرخ في ١١ أيار ١٩٤٥، يضم دليل نجاة بعنوان «العيش في الحقول والغابات الألمانيّة».

بعد موت هتلر، هرب ألفريد مع الزعماء النازيين الآخرين الذين ظلوا أحياء إلى فلينزبيرغ، حيث جمع الأدميرال دوينيز، رئيس الدولة الجديد، حكومته. وأمل ألفريد أن يطلب منه، وهو نائب الزعيم الناجي، الانضمام إلى الوزارة. لكن أحداً لم يعر وجوده أيّ انتباه.

وأخيراً، بعث رسالة استسلام صاغها بعناية كبيرة إلى الفيلد مارشال مونتغومري. لكن حتى الإنكليز لم يقدّروا أهميته، وانتظر نائب القائد، روزنبرغ، بفارغ الصبر في فندقه طوال ستّة أيام قبل أن يصل أفراد الشرطة العسكرية البريطانية وألقوا القبض عليه. وبعد فترة قصيرة، سُلِّم إلى القوات الأمريكية وأُبلغ بأنه اختير، بالإضافة إلى مجموعة صغيرة من كبار مجرمي الحرب النازيين، للمثول أمام المحكمة العسكرية الدولية لنورمبرغ.

كبار مجرمي الحرب النازيين! بالفعل. رفرفت ابتسامة على شفتي ألفريد.

في غضون ذلك، في رنسبرخ، وفي اليوم الذي انتصر فيه الحلفاء، هبطت سلما دي فريس كوهين وأمّها العجوز، صوفي، السلّم من غرفتهما الصغيرة، ولأول مرة منذ سنوات خرجتا إلى نور الشمس، وسارتا بجانب البيت حتى مدخل بيت سبينوزا، ووقّعتا

على دفتر الزوار - أول توقيع بعد أربع سنوات: «في ذكرى الزمن الذي سُمح لنا أن نختفي خلاله هنا بامتنان. إلى بيت سبينوزا والأشخاص الذين أحاطونا برعايتهم الممتازة وأنقذوا حياتنا من تهديد الألمان».

الفصل الثالث والثلاثون

فوربرخ - كانون الأول (ديسمبر) ١٦٦٦

توجّه بنتو إلى مدبرة المنزل، ودمدم لها بالهولندية وهو يهزّ رأسه بأنّهما لن يتناولا طعام الغداء.

عندما غادرت الغرفة، صاح بنتو، «كوشر! ألا تزال تتناول طعام كوشر؟»

«طبعاً يا بنتو، ماذا تظن؟ فأنا حاخام».

«وأنا فيلسوف محتار. توافق على أنّه لا يوجد إله غيبي لديه أمنيات أو طلبات، أو يبتهج أو يغضب، أو حتى أنه يدرك رغباتنا أو صلواتنا، أو حتى وجودنا ذاته؟»

«بكل تأكيد، أوافقك على ذلك».

«وتوافق على أنّ التوراة كله - بما في ذلك سِفْر اللاويين وكتب الشريعة وجميع القواعد الغامضة المتعلقة بالطعام التي تفرضها - ليست سوى مجموعة من الكتابات الدينية والقانونية والأسطورية والسياسية التي جمعها عزرا منذ ألفيْ سنة؟»

«بالفعل».

«وأنّك ستنشئ ديناً يهودياً جديداً أكثر تنويراً؟»

«هذا ما آمل أن أفعله».

«لكن بسبب القوانين التي تعرف أن بشراً هم الذين وضعوها، ألا يمكنك أن تتناول معي طعام الغداء؟»

«أنت مخطئ هنا يا بنتو»، دسّ فرانكو يده داخل حقيبته، وأخرج منها صُرّة وقال: «الأسرة التي زرتها في لاهاي أعدّت لي طعاماً. شاركني في وجبة طعام يهودية».

كان في الصُّرّة التي فتحها فرانكو سمك رنغة مدخّن، وخبز، وجبن، وتفاحتان. تابع بنتو كلامه، «لكن، فرانكو، أسألك للمرة الثانية، لماذا تلتزم بالطعام الكوشر؟ كيف يمكنك أن تغلق عقلك العقلاني؟ أنا لا أستطيع. يؤلمني أن أرى رجلاً بهذه الدرجة من الذكاء يخضع طائعاً لمثل هذه القوانين الاعتباطية. فرانكو، أرجوك، أتوسل إليك، وفّر عليّ الجواب المعهود بأنك تريد أن تحافظ على إحياء التقاليد التي مضى عليها أكثرِ من ألفيْ سنة».

ازدرد فرانكو لقمة من سمك الرنغة، وأخذ رشفة ماء، وفكّر بضع لحظات، ثم قال: «أؤكد لك مرة أخرى أنّني، مثلك - مثلك يا بنتو - لا أوافق على اللاعقلانية في ديننا. تذكر كيف كنت أناشد أبناء رعيتي بأن يحتكموا إلى العقل عندما كنت أحدّثهم عن المسيح المنتظر الدجّال. وأنا مثلك أريد تغيير ديننا، لكني لست مثلك، فأنا أرى أنه يجب تغييره من الداخل. في الواقع، من خلال رؤية ما جرى لك، توصلت إلى قناعة بأنه لا يمكن تغييره إلّا من الداخل. وإذا أردت أن أتمكن من تغيير اليهودية وأبعد رعيتي عن التفسيرات الغيبية، يجب عليّ أن أكسب ثقتهم أولاً. عليّ أن أجعلهم يعتبرونني واحداً منهم، وهذا يشمل أن أتناول الطعام الكوشر. وبما أنني حاخام في طائفتي، من الضروري - بل يجب - أن يشعر أيّ يهودي في العالم يأتي لزيارتي ويأكل في بيتي بالراحة».

«وتنفّذ كلّ القوانين الأخرى والطقوس والشعائر الأخرى؟»

«نعم، فأنا ألتزم بممارسة طقوس يوم السبت. وأضع تعويذة، وأرتل الأدعية والصلوات عند الطعام، وبالطبع، فأنا أقود الصلوات العديدة التي تقام في الكنيس - أي، حتى فترة قريبة. بنتو، أنت تعرف أنّ على الحاخام أن ينغمس تماماً في الحياة الدينية من أجل رعيته. . .»

فقاطعه بنتو، «هل تفعل ذلك لتكسب ثقة الناس فقط؟»

تردّد فرانكو للحظة، ثم قال: «ليس هذا فقط. سيكون من الخداع أن أقول ذلك. في أحيان كثيرة، عندما أؤدي واجباتي الدينية، فإني لا ألقي بالاً لمضمون ومعنى الكلمات، وأغوص في الطقوس وفي موجة المشاعر اللطيفة التي تغمرني. فالتراتيل تلهمني وتنقلني إلى عالم آخر. وأنا أحبّ شِعرية المزامير من بين جميع القصائد (*البيوتيم*). أحبّ الإيقاع، الجناس، وتثير أشجاني أناشيد الرثاء التي تحكي عن الشيخوخة ومواجهة الموت والحنين للخلاص».

وتابع فرانكو كلامه، «لكن هناك شيء أهمّ من ذلك بكثير، فعندما أقرأ وأنشد التراتيل العبرية مع جميع أبناء الرعية فإني أشعر بالأمان. أشعر بأنني في بيتي، مندمج تماماً مع بني قومي. وأعرف أنهم يشاركونني كلهم المشاعر باليأس نفسها وتغمرني نفس مشاعر الحبّ إزاء كلّ شخص. ألم تغمرك هذه المشاعر يا بنتو؟»

«أنا متأكّد من أن هذا الشعور كان ينتابني عندما كنت شاباً يافعاً. أما الآن، فلم أشعر بذلك منذ سنوات عديدة. وأنا لست مثلك، فلم أكن أستطيع تجاهل معنى الكلمات. كان عقلي يقظاً باستمرار، وعندما كبرت وبدأت أدقق في المعنى الحقيقي للتوراة، بدأ تواصلي مع الطائفة يخبو ويتلاشى».

«كما ترى»، شبك فرانكو ذراعه بذراع بنتو، «هنا بالتحديد،

يوجد اختلاف أساسي بيننا. فأنا لا أوافق على أن تخضع جميع المشاعر للتفكير المنطقي. فهناك مشاعر جديرة بأن تكون مساوية للعقل. خذ الحنين إلى الماضي مثلاً. فعندما أؤمّ الصلاة، فإني أتواصل مع ماضيّ، مع أبي وجدّي، ونعم، يا بنتو، فإني أجرؤ على قول ذلك، فإني أفكّر في أسلافي الذين رددوا نفس العبارات منذ ألفيْ سنة، وصلّوا نفس الصلوات، وأنشدوا نفس التراتيل. في تلك اللحظات، أفقد غروري، وانفصالي عن الآخرين، وأصبح جزءاً، جزءاً صغيراً جداً، من جدول مجتمع متواصل. هذه الفكرة تمنحني شيئاً لا يقدّر بثمن - كيف يمكنني أن أصفه؟ - تواصل، اتّحاد مع الآخرين مريح إلى درجة كبيرة. أنا أحتاج إلى ذلك. أتخيّل أنّ الجميع يحتاجون إليه».

«لكن، فرانكو، ما فائدة هذه المشاعر؟ ما فائدة الابتعاد كثيراً عن الفهم الحقيقي؟ بعيداً عن المعرفة الحقيقية للرب؟»

«فائدة؟ ماذا عن البقاء والاستمرار؟ ألم يعش الإنسان دائماً في نوع من مجتمع، حتى لو كان عائلة؟ كيف يمكننا أن نعيش من دون ذلك؟ ألا تغمرك البهجة عندما تكون في مجتمع أو طائفة أبداً؟ ألا تشعر بأنك جزء من مجموعة؟»

بدأ بنتو يهزّ رأسه لكنه تمالك نفسه بسرعة، وقال: «لقد انتابني هذا الشعور بشكل غريب، قبل يوم من لقائنا الأخير. فعندما كنت متوجّهاً إلى أمستردام رأيتُ مجموعة من يهود الأشكنازيم تمارس طقوس التشاليخ. كنت في القارب لكني وجدت نفسي أقفز منه بسرعة عند المحطة التالية، ورحت أجري للحاق بهم، ورحّبت بي امرأة عجوز تدعى ريفكه وأعطتني قطعة خبز. لا أعرف لماذا التصق اسمها في رأسي. وعندما استمعت إلى الصلاة، أحسست بسرور دافئ يسري في كياني ويجذبني بصورة غير اعتياديّة إلى الطائفة

برمّتها. لكني بدلاً من أن ألقي قطعة الخبز التي أعطتني إياها ريفكه في الماء، رحت أمضغها ببطء. كانت لذيذة جداً. لكن عندما واصلت طريقي، تلاشى هذا الشعور الدافئ بالحنين بسرعة. كان هذا الشعور بمثابة رسالة تذكير أخرى بأنه كان *للحرم* الذي فُرض عليّ تأثير عليّ أكبر بكثير مما كنت أظن. أما الآن، أخيراً، فقد تلاشى ألم النبذ، ولم أعد أشعر بالحاجة إلى الاندماج في الطائفة على الإطلاق».

«لكن، بنتو، أخبرني: كيف تستطيع، كيف تعيش في هذه العزلة؟ فأنت بطبعك لست شخصاً بارداً، منكفئاً. أنا متأكد من ذلك لأننا عندما نكون معاً، أشعر بهذه الرابطة القوية - من طرفك ومن طرفي. أعرف أنه يوجد حبّ بيننا».

«نعم، وأنا أشعر أيضاً بهذا الحبّ وأقيّمه كثيراً»، حدّق بنتو في عينيْ فرانكو قليلاً، ثمّ نظر بعيداً، «العزلة. إنك تسأل عن عزلتي. تمرّ أوقات أعاني منها، وأندم كثيراً لأنّني لم أستطع أن أشاركك أفكاري. عندما أحاول تفسير أفكاري، أحلم في أحيان كثيرة بأنني أناقشها معك».

«بنتو، من يعرف - قد تكون هذه فرصتنا الأخيرة. أرجوك تحدّث عنها الآن. حدّثني على الأقل عن بعض الاتّجاهات الرئيسية التي اتخذتها».

«نعم، أريد أن أفعل ذلك، لكن كيف أبدأ؟ سأبدأ بنقطة انطلاقتي - ماذا أنا؟ ما هو صميمي، جوهري؟ ما الذي يجعلني أنا؟ ما الذي يجعلني هذا الشخص وليس شخصاً آخر؟ عندما أفكّر في الكينونة، حقيقة أساسية تبدو بديهية: أنا، مثل أي شيء حيّ، أسعى جاهداً لأثابر في كياني. أقول إن هذا *conatus*، الرغبة في الاستمرار في الازدهار، هو المحرك الذي يدفع جهود الشخص وأعماله».

«إذاً فإنك تبدأ بالفرد المنعزل الوحيد وليس بالقطب المعاكس للمجتمع الذي أعتبره أساسياً؟»

«لكنّي لا أتصوّر أن الإنسان مخلوق يحبّ العزلة. لكن لديّ فقط رؤية مختلفة حول فكرة التواصل. فأنا أسعى إلى التجربة السعيدة التي لا تنبع من التواصل كثيراً وإنما من فقد الانفصال».

هزّ فرانكو رأسه بحيرة، وقال: «ها قد بدأتَ يا بنتو، وبدأت تشوشني. أليس التواصل وفقد الانفصال هو الشيء نفسه؟»

«يوجد فرق بسيط غير ملحوظ، لكنه جوهري. دعني أحاول أن أفسّر. كما تعرف، ففي أساس تفكيري تقبع الفكرة بأنه من خلال *المنطق* وحده يمكننا أن نفهم شيئاً من جوهر الطبيعة أو اللّه. أقول 'شيئاً' لأن الوجود الفعلي للّه هو لغز يتجاوز قدرتنا على التفكير. فاللّه مطلق، لامتناهٍ، وبما أننا لسنا سوى مخلوقات محدودة، فإن رؤيتنا محدودة. هل هذا واضح؟»

«حتى الآن».

«لذلك»، واصل بنتو، «لكي نزيد من قدرتنا على الفهم، يجب أن نحاول أن ننظر إلى هذا العالم *sub specie aeternitatis* - من منظور *الأبدية*. بعبارة أخرى، يجب أن نتغلّب على العوائق التي تحول دون معرفتنا التي تنجم عن ارتباطنا بذاتنا». صمت بنتو قليلاً، ثم أضاف، «فرانكو، تبدو على وجهك نظرات تساؤل».

«لقد تهت. كنت ستفسّر لي فقدان الانفصال. ما الذي جرى؟»

«اصبر يا فرانكو. سيأتي ذلك. أولاً يجب أن نؤسس خلفية لذلك. كما كنت أقول، لكي أنظر إلى العالم من منظور *الأبدية يجب أن* أتخلّى عن هويتي - أي عن ارتباطي بذاتي - وأن أنظر إلى كلّ شيء من المنظور الكافي والحقيقي المطلق. عندما أستطيع أن أفعل ذلك، لن أعود أشعر بأنه توجد حدود بين نفسي وبين الآخرين.

وعندما يحدث ذلك، سيغمرني فيض من هدوء عظيم، ولن أعود أتأثر بأيّ حدث يرتبط، حتى لو كان موتي. وعندما يبلغ الآخرون هذا المنظور، فإن أحدنا سيصادق الآخر، ونريد للآخرين ما نريده لأنفسنا، ونتصرّف بدرجة عالية من النبالة والأريحية. هذه التجربة المباركة والبهيجة هي نتيجة *فقد الانفصال بدلاً من التواصل*. لذلك فإنك ترى أن هناك فرقاً - الفرق بين أن يلتفّ الناس حول بعضهم سعياً للدفء والأمان إزاء الأشخاص الذين تجمعهم نظرة مستنيرة وسعيدة مشتركة إزاء الطبيعة أو اللّه».

فقال فرانكو الذي ما زالت نظرات الحيرة ترتسم على وجهه، «أحاول أن أفهم، لكن ذلك ليس سهلاً لأنني لم أمرّ في تجربة كهذه يا بنتو. أن تفقد هويتك الخاصّة بك - هذا أمر يصعب تخيّله. إن التفكير في ذلك يسبب لي صداعاً. تبدو فكرة منعزلة جداً - وباردة جداً».

«منعزلة، لكن، للمفارقة، من الممكن أن تربط هذه الفكرة البشر كلّهم معاً - فهي في الوقت نفسه «بعيدة عن، وجزء من». وأنا لا أقترح أو أفضّل العزلة التامة. في الواقع، لا يساورني شكّ في أننا إذا استطعنا، أنا وأنت، أن نلتقي ونتبادل الحديث كل يوم، فإن سعينا الحثيث ليفهم أحدنا الآخر سيزداد إلى درجة كبيرة. يبدو أن هناك تناقضاً ظاهرياً لو قلنا إنّ الناس يكونون مفيدين جداً أحدهم للآخر عندما يسعى كلّ واحد منهم إلى تحقيق مصلحته الخاصّة. لكنهم عندما يكونون أشخاصاً يتمتعون برجاحة عقل، يكون الأمر كذلك. فالأنا المستنيرة تؤدّي إلى منفعة متبادلة. نشترك جميعاً في القدرة على التفكير بشكل منطقي، وستتحقق جنة دنيويّة حقيقية عندما يحلّ التزامنا بفهم الطبيعة، أو اللّه، محلّ جميع انتماءاتنا الأخرى، سواء أكانت دينية أم ثقافية أم قومية».

«بنتو، إن كنت قد فهمتُ معنى ما تقصده، فإني أخشى أن هذا النوع من الجنة لا يزال بعيداً ألف سنة. وأتساءل أيضاً إن كنت أنا، أو أي شخص لا يفكر بالطريقة التي يفكّر بها عقلك ولا توجد لديه سعة تفكيرك وعمقه، سيتمكن من إدراك هذه الأفكار وفهمها فهماً تاماً».

«لا أشكّ في أنها تحتاج إلى بذل جهد. فجميع الأشياء الرائعة تكون صعبة ونادرة. وعلى الرغم من ذلك، فهناك حلقة من المجمعيين والفلاسفة الآخرين الذين يقرأون كلماتي ويفهمونها، لكن هناك عدد آخر يكتبون لي رسائل كثيرة يطلبون فيها مني مزيداً من التوضيح. لا أتوقّع أن تُقرأ أفكاري وتفهم من قبل العقول غير المستعدة. بل على العكس، سيكون الكثيرون مشوّشين أو مرتابين، لذلك فإني لا أنصحهم بقراءة أعمالي. فأنا أكتب باللغة اللاتينية من أجل العقل الفلسفي، وآمل أن تتمكن بعض العقول التي أؤثّر عليها من أن تؤثّر على عقول أخرى بالمقابل. فعلى سبيل المثال، من بين الذين يراسلونني حالياً، المتقاعد المعروف يوهان دي ويت، وهنري أولدينبرغ، سكرتير الجمعية الملكية البريطانية. لكن إذا كنت تفكر في أنّ أعمالي لن تُنشر ليقرأها جمهور أوسع، فقد تكون على حقّ. فقد تنتظر أفكاري ألف سنة أخرى».

لاذ الرجلان بالصمت إلى أن أضاف بنتو، «إذاً بعد كلّ ما قلته عن اعتمادي على العقل، فإنك تفهم الآن لماذا أمتنع عن قراءة الصلوات وترديدها من دون النظر في معناها؟ لا يمكن أن يكون هذا الشرخ الداخلي جيّداً لصحتك العقلية. لا أعتقد بأنّ الطقوس تستطيع أن تتعايش مع عقل مفكّر عقلاني يقظ. أرى أنهما خصمان لدودان».

«لا أعتبر الطقوس خطيرة جداً يا بنتو. تذكّر أنني لُقّنت معتقدات وطقوس الكاثوليكية واليهودية معاً، وعكفت في السنتين الماضيتين

على دراسة الإسلام أيضاً. وكلما قرأت أكثر، ازددت دهشة كيف أن كلّ دين، من دون استثناء، يلهم الإحساس بالمجتمع، ويستخدم الطقوس والموسيقى، ويضع أساطير مليئة بقصص تحكي عن أحداث إعجازية. وتعد جميع الأديان، من دون استثناء، معتنقيها بحياة أبديّة، لكن بشرط أن يعيشوا وفق طريقة محددة. أليس من الرائع أن تظهر الأديان منفصلة في بقاع مختلفة من العالم، ومع ذلك فإن أحدها لا يشبه الآخر؟»

«وما الفكرة التي ترمي إليها؟»

«فكرتي يابنتو، هي أنه إذا كانت الطقوس والشعائر، ونعم، الخرافة أيضاً تتغلغل بعمق في طبيعة البشر ذاتها، إذاً، ربّما كان من الشرعي أن نخلص إلى أنّنا، نحن البشر، نحتاج إليها».

«أنا لا أحتاج إليها. فالأطفال يتطلّبون أشياء لا يتطلّبها الكبار في السن. وكان الإنسان منذ ألفي سنة يتطلب أشياء لا يتطلبها الإنسان في يومنا هذا. أظن أن سبب الإيمان بالخرافة في جميع هذه الثقافات يكمن في أن الإنسان القديم كان يخاف من نزوات الطبيعة الغامضة وتقلباتها. كان يفتقر إلى المعرفة التي قد تزوّده بالشيء الذي يحتاج إليه وهو تفسيرها. وفي تلك الأزمنة القديمة، أدرك الإنسان شكلاً واحداً متاحاً من التفسير - العالم الغيبي - وهو الصلاة وتقديم القرابين وقوانين الكوشر و...»

«و؟ هيا تابع يا بنتو - وما الوظيفة التي يقدمها التفسير؟»

«التفاسير تهدئ النفس. تخفّف ألم الشك وعدم اليقين. لقد أراد الإنسان القديم أن يستمر في الحياة، كان يخاف من الموت، يقف عاجزاً أمام أشياء كثيرة في بيئته من حوله، ومنحته هذه التفاسير الإحساس، أو على الأقل الوهم، بالسيطرة. فقد توصل إلى أنه إذا

كان كلّ ما يحدث ناجماً عن سبب خارق للطبيعة، عندها يمكن إيجاد وسيلة لاسترضاء عالم ما وراء الطبيعة».

«بنتو، إننا لا نختلف على ذلك. طرقنا هي المختلفة فقط. إن تغيير طريقة التفكير القديمة قدم الدهر عملية بطيئة. لا يمكنك أن تفعل كلّ شيء على الفور. يجب أن يكون التغيير، حتى من الداخل، بطيئاً».

«أنا على يقين بأنك محقّ في ذلك، لكنني متيقن أيضاً بأن الكثير من هذا البطء سببه تشبّث الحاخامات والقساوسة بالسلطة. هذا الأمر ينطبق على الحاخام مورتيرا، وينطبق اليوم على الحاخام أبوب. في المرة الماضية، اعترتني رعشة عندما حكيت لي كيف أنه أضرم لهيب الإيمان بساباتاي زيفي. لقد عشت بين أولئك الذين يؤمنون بالخرافة طوال فترة شبابي، وعلى الرغم من ذلك، فقد صدمني هذا الجنون بتصديق زيفي. كيف يمكن لليهود أن يصدّقوا هراء كهذا؟ يبدو أن من المستحيل المبالغة في تقدير قدرتهم على اللاعقلانية. ففي مكان ما في هذا العالم، يولد غبي مع كلّ رمشة عين».

قضم فرانكو آخر قطعة من من تفاحته، ابتسم ابتسامة عريضة، ثم سأله: «بنتو، هل لي أن أُبدي ملاحظة فرانكو؟»

«آه، أجمل ما أختتم به حديثي! أي شيء يمكن أن يكون أفضل من ذلك. دعني أعدّ نفسي»، وأسند بنتو ظهره إلى المسند، وأضاف، «أظن أنني على وشك أن أتعلّم شيئاً عن نفسي».

«قلت إنّنا يجب أن نحرّر أنفسنا من عبودية الانفعالات والعاطفة، ومع ذلك، فقد تجاوزت انفعالاتك اليوم ذلك بكثير. ومع أنك غفرت للرجل الذي حاول أن يقتلك، فإنك منفعل جداً إزاء الحاخام أبوب والذين قبلوا المسيح المنتظر الجديد».

هزّ بنتو رأسه، وقال: «نعم، هذا صحيح».

«سأمضي أبعد من ذلك - كنت أيضاً متفهماً للقاتل اليهودي أكثر من آراء زوجتي. أليس كذلك؟»

هزّ بنتو رأسه مرة أخرى، هذه المرة بحذر أكبر، وقال: «استمر أيها المعلّم».

«قلت لي ذات مرّة إنّه لا يمكن فهم الانفعالات الإنسانية إلّا بمثابة خطوط ومسطحات وأجسام. صحيح؟»

إيماءة أخرى.

«إذاً هل نحاول أن نطبّق هذا المبدأ على ردّك الانتقادي للحاخام أبوب وأتباع ساباتاي زيفي المغفّلين؟ ولزوجتي، سارة؟»

بدا بنتو متسائلاً، وقال: «ما قصدك يا فرانكو؟»

«أطلب منك أن تحوّل أدوات الفهم لديك إلى انفعالات. تذكّر كلماتك لي عندما كنتُ غاضباً جداً من القاتل. 'كلّ شيء، كلّ حقيقة، *bar none* (من دون استثناء) قلت 'لها سبب، ويجب أن نفهم أن كلّ شيء يحدث *بالضرورة*' هل أملك هذا الحقّ؟»

«ذاكرتك رائعة يا فرانكو».

«شكراً. لذلك دعنا نطبّق نفس المنهج العقلاني اليوم».

«تعرف أنّني لا أستطيع أن أرفض هذه الدعوة بينما تدّعي في الوقت نفسه أنّ السعي وراء العقل هو مبرر وجودي».

«جيّد. هل تتذكّر مغزى القصّة التلمودية عن الحاخام يوهانون؟»

أومأ بنتو وقال: «لا يستطيع السجين أن يحرّر نفسه. لا ريب أنك تريد أن تقول إنني أستطيع تحرير الآخرين، لكنّي لا أستطيع أن أحرّر نفسي؟»

«تماماً. لعلي أستطيع أن أرى بعض الأشياء المتعلقة ببنتو سبينوزا التي لا يستطيع أن يراها بنفسه».

ابتسم بنتو، وقال: «ولماذا رؤيتك أحدّ من رؤيتي؟»

«تماماً كما وصفت منذ بضع دقائق: لأن ذاتك تقف حاجزاً في الطريق وتحجب رؤيتك. خذ مثلاً، تعليقاتك القاسية عن المغفّلين في أمستردام الذين آمنوا بالمسيح المنتظر الدجّال. حقدك الانفعالي وسذاجتهم هي *بالضرورة* كذلك. قد لا تكون مختلفة. وبنتو، لديّ بعض الأفكار حول مصادر سلوكهم وسلكوك».

«و..؟ تابع».

«قبل كلّ شيء، من الجدير بالاهتمام أننا، أنا وأنت، نشهد نفس الأحداث، ومع ذلك فلدينا استجابات مختلفة تجاهها. دعني أستشهد بكلامك، 'إنّ عقلنا هو الذي يجعلها كذلك'، صحيح؟»

«مرة أخرى صحيح».

«أنا شخصياً لست متفاجئاً أو مندهشاً من سذاجة عامة المارانوس». تكلّم فرانكو الآن بهدوء وباقتناع كبيرين، «فهم *بالضرورة* يؤمنون بالمسيح المنتظر. *بالطبع*، نحن المارانوس نقبل فكرة قدوم المسيح المنتظر! ألم نواجه باستمرار في عقيدتنا الكاثوليكية فكرة أن يسوع الإنسان هو أكثر من كونه مجرد إنسان، إنسان أُرسل إلى الأرض يحمل رسالة؟ *وبالطبع*، لم يغضب المارانوس من تغيير ساباتاي زيفي دينه بالإكراه. ألم نتعرض نحن المارانوس لتغيير ديننا قسراً أصلاً؟ والأهم من ذلك، فقد تعرّض عدد كبير منّا لتجربة شخصية عندما عدنا إلى ديننا الأصلي وأصبحنا يهوداً أفضل».

«صحيح، صحيح، صحيح، يا فرانكو. أترى كم سأشتاق للتحدّث معك! فأنت تساعدني على تحديد المناطق التي لم تتحرّر فيّ. أنت على حقّ: فكلماتي عن ساباتاي زيفي، والحاخام أبوب، والحمقى المغفّلين لا تتوافق مع العقل. فالرجل الحرّ لا تزعج

صفاءه مشاعر الازدراء أو الاستياء هذه. لا يزال أمامي عمل كثير حتى أتمكّن من التحكم بانفعالاتي».

«قلت لي ذات مرّة إنّ العقل لا يرقى إلى مستوى الانفعالات وإنّ سبيلنا الوحيد لتحرير أنفسنا من الانفعالات والعاطفة هو أن نجعل العقل هو العاطفة».

«أظن أنّني أعرف ما ترمي إليه - وهو أنّني حوّلت العقل الذي يستحيل تمييزه أحياناً عن اللاعقل».

«تماماً. لاحظت أن غضبك واتهاماتك المشاكسة لا تظهر إلّا عندما يكون العقل مهدّداً».

«العقل والحرّية كلاهما»، أضاف بنتو.

تردّد فرانكو لحظة، مختاراً كلماته بعناية، وقال مستدركاً، «رأيت انفعالاتك تظهر مرة أخرى: عندما كنّا نناقش موضوع مكانة المرأة وحقوقها. أظن أنّ حججك التي تؤكد على تدني ذكاء المرأة تفتقر إلى تفكيرك الصارم المعتاد. فقد قلت مثلاً إنّ المرأة لم تشارك في الحكم، وتجاهلت وجود ملكات قويات في التاريخ - مثل كليوباترا في مصر، وإليزابيث في إنكلترا، وإيزابيلا في إسبانيا و. . .»

«نعم، نعم، لكن الوقت ثمين اليوم، ولا يمكننا أن نتحدّث عن كلّ هذه الأمور. لنتحدّث عن العقل والحرّية، فأنا لا أشعر بالرغبة الآن في التحدّث عن موضوع المرأة».

«ألن توافق على الأقل أن هذا موضوع آخر يجب أن تبحث فيه في المستقبل؟»

«ربّما. لست متأكّداً».

«إذاً اسمح لي بأن أقدم تعليقاً أخيراً، وسننتقل إلى مواضيع أخرى»، ودون أن ينتظر ليسمع منه ردّاً، أسرع فرانكو بالقول: «من

الواضح أن لدينا أنا وأنت مواقف متباينة جداً حول المرأة، وأظن أنّ لديّ فكرة عن الشبكة السببية لهذا الأمر. هل يهمك أن تسمعها؟»

«يجب أن أسمعك، لكنّي أشعر بشيء من التردّد لأسمعك حتى النهاية».

«سأتابع في جميع الأحوال - لدقيقة فقط. أظن أنها تنبع من تجاربنا المتباينة مع النساء. فأنا لديّ علاقة محبّة قوية مع أمّي والآن مع زوجتي وابنتي، وأظن أنّ مواقفك تجاه المرأة هي *بالضرورة* سلبية بسبب علاقتك بهن في الماضي. فمما أخبرتني به، كانت تجاربك معهن كئيبة: فقد ماتت أمّك وأنت طفل صغير، وماتت أيضاً أمهاتك اللاحقات - أختك الأكبر سنّاً، ثمّ زوجة أبيك. وجميع أبناء الطائفة يعرفون كيف تصرفت أختك ريبيكا بقسوة تجاهك. فقد سمعت أنها رفعت دعوى ضدك تطعن بوصية والدك لكي لا تتمكن من الحصول على عقاره؛ وهناك كلارا ماريا، المرأة الوحيدة التي أحببتها والتي جرحت مشاعرك واختارت شاباً آخر، ولم أسمعك قط تذكر تجربة إيجابية واحدة مع أيّ امرأة».

ظلّ بنتو صامتاً، هزّ رأسه لبضع لحظات، وهضم كلمات فرانكو ببطء، ثمّ قال: «والآن لننتقل إلى المواضيع الأخرى. أولاً، هناك شيء لم أقله لك - وهو إلى أي مدى أنا معجب بشجاعتك في التعبير عن أفكارك لأبناء رعيتك في حثّهم على الاعتدال. وإن معارضتك العلنية للحاخام أبوب تستند إلى ما أسميه أفكاراً 'وافية' - يقودها العقل لا الانفعالات. وأودّ أن أسمع المزيد عن رؤيتك لليهودية الجديدة التي تأمل في أن تقيمها. فربما حوّلت مسار المناقشة قبل قليل».

كانا يعرفان أن الوقت يمضي بسرعة، فقال فرانكو بسرعة: «آمل أن أنشئ نوعاً مختلفاً من اليهودية يقوم على أساس حبّ بعضنا لبعض

وتقاليدنا المشتركة. أريد أن أقيم صلوات دينية لا يوجد فيها ذكر للغيبيات وتستند إلى إنسانيتنا المشتركة، نستمد الحكمة من التوراة والتلمود التي تفضي إلى عيش حياة مليئة بالحب والأخلاق. ونعم، سنتبع الشريعة اليهودية لكن في خدمة التواصل والحياة الأخلاقية، لا لأنها أمر إلهي. ويتخلّل كلّ ذلك روح صديقي، باروخ سبينوزا. وعندما أخطّط للمستقبل، فإني أتخيّلك أحياناً أباً لنا. إن حلمي هو أن أبني معبداً ترسل إليه ابنك».

مسح بنتو دمعة سالت على خدّه، وقال: «نعم، لدينا عقل واحد إذا كنت تؤمن بأننا يجب أن نستخدم طقوساً كافية لمناشدة ذلك الجزء من طبيعتنا الذي لا نزال نحتاج إليه، وألّا تكون كثيرة لكي لا نصبح عبيداً لها».

«هذه هي رؤيتي بالفعل. وليس من المفارقة أنك تحاول تغيير الديانة اليهودية من الخارج، وأنا أغيّرها من الداخل، ويُفرض علينا كلانا *الحرم*. فقد فُرض عليك، ولا شكّ في أن دوري قادم».

«أتّفق مع الجزء الثاني من كلامك - المفارقة بأنه سيُفرض علينا كلانا *الحرم* - لكني أظن أنك أسأت فهمي، دعني أقول مرة أخرى إنني لا أهدف إلى تغيير اليهودية. فأنا آمل أنّ يؤدي تبنّي العقل بالكامل إلى اقتلاع الأديان كلها، بما فيها الديانة اليهودية». نظر بنتو إلى الساعة، وقال: «للأسف، حان الوقت يا فرانكو - الساعة الثانية تقريباً - وسيصل التريكشويت(*) بعد قليل».

عندما سارا باتجاه القارب، قال فرانكو: «عندي شيء أخير يجب أن أقوله لك - ذلك الكتاب الذي تزمع كتابته لانتقاد التوراة؟»

«نعم؟»

(*) قارب يجره حصان.

«أحبّك كثيراً لأنك ستكتبه، لكن أرجوك يا صديقي، توخى الحذر. فلا تضع اسمك على الكتاب. أنا أصدّق كلّ ما تقوله، لكن لن يستمع إليه أحد بعقلانية. ليس الآن، ليس في حياتنا».

استقلّ فرانكو التريكشويت. أرخى الربان المرساة، وشُدّت الحبال على الخيول، وأخذت تبتعد عن الرصيف. حدّق بنتو في المركب طويلاً. وكلّما صغر حجمه وهو يتجه نحو الأفق، لاح له الحرم أكبر. وعندما لم يبق أثر لفرانكو أخيراً، ابتعد بنتو عن الرصيف ببطء، وعاد إلى ذراعَي العزلة.

الخاتمة

في عام ١٦٧٠، أنهى بنتو البالغ من العمر ثمانية وثلاثين عاماً، كتابه «*رسالة في اللاهوت والسياسية*». وتنبأ ناشره الذي كان محقاً تماماً، بأن الكتاب سيثير مشاكل كثيرة، فنشره من دون اسم الكاتب، وباسم دار نشر وهمية في مدن وهمية. وسرعان ما حظرت السلطات المدنية والدينية بيع الكتاب، لكن نسخاً كثيرة منه كانت قد وزّعت سراً.

وبعد بضعة أشهر انتقل سبينوزا من فوربرخ إلى لاهاي، حيث عاش بقيّة حياته، فاستأجر في البداية غرفة علوية بسيطة في بيت الأرملة فان دير ويرف، ثمّ انتقل بعد بضعة أشهر إلى حي أرخص قليلاً، واستأجر غرفة واسعة في بيت الرسّام هيندريك فان دير سبيك. وعاش سبينوزا حياة هادئة - هذا ما أراده ووجده في لاهاي حيث أمضى أيامه في قراءة الأعمال الكلاسيكية في مكتبته، وكتب كتابه *الأخلاق* وعمل في طحن الزجاج وصقل العدسات. وفي المساء، كان يدخّن غليونه ويتجاذب أطراف الحديث مع فان دير سبيك وزوجته وأطفالهما السبعة. وعندما يكون منهمكاً في كتابته لم يكن يغادر غرفته لأيام متواصلة. وفي أيام الأحد، كان يرافق أحياناً أسرة هيندريك فان دير سبيك إلى كنيسة نيو كيرك القريبة ويستمع إلى الموعظة.

وبدأ ينتاب سبينوزا سعال دائم يتخلله لعاب ملوث بالدم في

أحيان كثيرة، وبدأ جسده يزداد ضعفاً من سنة إلى أخرى. لعل استنشاق غبار الزجاج من عمله في العدسات عرّض رئتيه للخطر، لكن يرجح أنه كان مصاباً بالسلّ مثل أمّه وأفراد أسرته الآخرين. وفي ٢٠ شباط (فبراير) ١٦٧٧، أحسّ سبينوزا بوهن شديد، فأرسل في طلب الطبيب الذي أوصى السيدة فان دير سبيك بأن تسلق له دجاجة ويشرب مرقها. فنفذت تعليمات الطبيب، وفي صباح اليوم التالي تحسّنت صحته. وبعد ظهر ذلك اليوم، ذهب أفراد الأسرة إلى الكنيسة، وعندما عادوا بعد ساعتين، وجدوا بنتو سبينوزا الذي لم يكن يتجاوز الرابعة والأربعين من عمره، ميتاً.

عاش سبينوزا فلسفته: وبلغ مرحلة «تفوق العقل»، وحرّر نفسه من عبودية العواطف والانفعالات المقلقة، وواجه نهاية حياته بصفاء. لكن على الرغم من هذه الحياة والموت الهادئين، فقد ترك وراءه صخباً شديداً لا يزال تأثيره مستمراً حتى اليوم، فهناك الكثيرون الذين يبجّلونه، وكثيرون آخرون ينتقدونه ويخالفونه بحدّة.

ومع أن سبينوزا لم يترك وصية، فقد طلب من صاحب بيته، عندما يموت، أن يشحن الطاولة التي يكتب عليها وكلّ محتوياتها على الفور إلى ناشره، Rieuwertsz، في أمستردام. واحترم فان دير سبيك رغبة سبينوزا: فحزم طاولة المكتب وشحنها بالقارب إلى أمستردام. وكان في أدراج الطاولة المقفلة كتاب *الأخلاق* ومخطوطات ورسائل غير منشورة ثمينة أخرى.

وبدأ أصدقاء بنتو العمل على الفور على تحرير المخطوطات والرسائل تلك. وتنفيذاً لتعليمات سبينوزا، فقد أزالوا من الرسائل كلّ المواد الشخصية المتعلقة بسبينوزا، ولم يتركوا إلّا المحتوى الفلسفي.

وبعد وفاته ببضعة أشهر، نُشرت أعمال سبينوزا (تضم كتاب

الأخلاق، والعمل غير المنتهي *«الرسالة السياسية»* و *«رسالة في إصلاح العقل»* ومختارات من رسائل سبينوزا، بالإضافة إلى *«خلاصة في قواعد اللغة العبرية»* و *«رسالة حول قوس قزح»*) باللغتين الهولندية واللاتينية دون أن تحمل اسم المؤلف، وباسم ناشر وهمي، ومدينة وهمية. وكما هو متوقّع، حظرت دولة هولندا الكتاب بسرعة بموجب مرسوم رسمي، متّهمة إياه بالازدراء والتجديف والإلحاد.

عندما انتشر خبر وفاة سبينوزا، ظهرت أخته ريبيكا التي ابتعدت عنه طوال إحدى وعشرين سنة، وادّعت أنها هي وابنها دانيال هما الوريثان الوحيدان القانونيان لبنتو سبينوزا. وعندما قدّم لها فان دير سبيك قائمة بممتلكات سبينوزا والديون المترتبة عليه، عدلت عن ذلك: فقد كانت الديون المترتبة على بنتو من الإيجار، ونفقات الدفن، وديون الحلاق والعطّار تتجاوز بكثير قيمة ممتلكاته. وبعد ثمانية أشهر، أقيم مزاد علني لبيع ممتلكاته (خاصة مكتبته ومعدات صقل العدسات)، لكن إيرادات المزاد كانت أقلّ بكثير من مبلغ ديونه. ولكي لا ترث ديونه، أسقطت ريبيكا الادّعاءات قانونياً المتعلقة بالعقار واختفت ثانية من التاريخ. وسدد صهر صديق بنتو سيمون دي فريس جميع التزامات بنتو الأساسية. (كان سيمون الذي توفي قبل عشر سنوات، سنة ١٦٦٧، قد تعهّد بأن يترك عقاره بكامله لبنتو، لكن بنتو رفض ذلك وقال إن ذلك غير منصف لعائلة سيمون وإنّ النقود ستلهيه عن عمله. فاقترحت عائلة سيمون أن تقدّم لبنتو سبينوزا مبلغاً سنوياً قدره خمسمئة غلدر، لكنه لم يقبله أيضاً، وقال إنه أكثر مما يحتاج إليه. وقبل أخيراً أن يحصل على مبلغ سنوي صغير قدره ثلاثمئة غلدر).

أدار المزاد على ممتلكات سبينوزا ي. فان دن هوف، الكاتب بالعدل الذي ترك قائمة مفصّلة بالمئة وتسعة وخمسين كتاباً الموجودة

في مكتبة سبينوزا، تضم معلومات دقيقة ومفصلة عن تاريخ، واسم ناشر وشكل وقياس كلّ كتاب. وفي عام ١٩٠٠، حاول جورج روزنثال، رجل الأعمال الهولندي، أن يستخدم القائمة التي وضعها الكاتب بالعدل ليجمع كتب الفيلسوف وإعادتها إلى متحف سبينوزا في رنسبرخ. وبُذلت عناية كبيرة لشراء نفس الطبعات ونفس التواريخ والمدن، لكن، بطبيعة الحال، لم تكن نفس الكتب التي أمسكها سبينوزا بين يديه. (في الفصل ٣٢ أتخيّل مشهداً لا يدرك فيه ألفريد روزنبرغ هذه الحقيقة). وفي النهاية تمكّن جورج روزنثال من جمع ١١٠ كتب من أصل الـ ١٥٩ كتاباً التي تشكل مجموعة سبينوزا الأصلية. وتبرّع أيضاً بـ ٣٥ كتاباً آخر تعود إلى ما قبل القرن السابع عشر، بالإضافة إلى أعمال عن حياة سبينوزا وفلسفته.

دُفن سبينوزا تحت بلاطة داخل كنيسة نيو كيرك، مما جعل الكثيرين يظنون أنه اعتنق المسيحية في وقت متأخّر. لكن إذا أخذنا بالاعتبار مشاعر سبينوزا بأن «فكرة أن اللّه قد اتخذ طبيعة الإنسان تبدو متناقضة مثل القول بأن الدائرة تتخذ طبيعة المربع»، لذلك، فإن تحوّله إلى المسيحية يبدو أمراً مستبعداً تماماً. ففي هولندا الليبرالية في القرن السابع عشر، لم يكن دفن أشخاص من غير البروتستانت داخل الكنائس أمراً نادراً. حتى الكاثوليك الذين كانوا مكروهين في هولندا البروتستانتية أكثر بكثير من اليهود، كانوا يُدفنون أحياناً داخل الكنيسة. (في القرن التالي، تغيّرت هذه السياسة، ولم يعد يُدفن فيها إلّا الأثرياء والشخصيات البارزة) وبحسب التقاليد السائدة، كان المدفن الذي دُفن فيه سبينوزا مستأجراً لعدد محدود من السنين، وعندما لم تعد تتوفر أموال كافية لصيانة القبر، ربما بعد عشر سنوات، أُخرجت عظامه من القبر ونُثرت في باحة الكنيسة التي تزيد مساحتها على نصف هكتار بجانب الكنيسة.

وبعد سنوات كثيرة، بدأت هولندا تتحدّث عن سبينوزا، وازدادت أهميته إلى حدّ أنّ صورته طُبعت على الورقة النقدية من فئة الألف غلدر هولندي حتى دخول اليورو عام ٢٠٠٢. ومثل جميع صور سبينوزا، فإن الصورة المطبوعة على الورقة النقدية تلك مستمدة من أوصاف قليلة مكتوبة، لأنه لم تُرسم أيّ لوحة لسبينوزا في أثناء حياته.

ووضعت لوحة لسبينوزا في باحة كنيسة نيو كيرك في عام ١٩٢٧ لإحياء ذكرى مرور مئتين وخمسين سنة على وفاته. وشارك في الاحتفال عدد من المتحمّسين اليهود في فلسطين الذين أرادوا استعادة باروخ سبينوزا كيهودي. وكُتب على اللوحة باللغة اللاتينية: «يغطّي هذا التراب عظام بنيديكتوس سبينوزا التي دفنت في الكنيسة الجديدة».

وفي فلسطين، في الوقت الذي أزيح فيه الستار عن هذه اللوحة تقريباً، ألقى جوزيف كلواسنر، المؤرخ المشهور والمرشّح لاحقاً للانتخابات الرئاسية الأولى بعد إقامة إسرائيل، كلمة في الجامعة العبرية قال فيها إنّ اليهود ارتكبوا خطيئة شنيعة بطردهم سبينوزا، ودعا إلى نبذ فكرة أن سبينوزا زنديق. واختتم كلمته بالقول، «إلى سبينوزا، اليهودي، نصيح... من قمة جبل المشارف، من ملجئنا الجديد - الجامعة العبرية في القدس - *أُلغي قرار الحرم*! لقد أُلغي الخطأ الذي ارتكبه الدين اليهودي ضدّك، ومهما كان إثمك فإنه سيُغفر. فأنت أخونا، أنت أخونا، أنت أخونا!»

وفي عام ١٩٥٦، في الذكرى الثلاثمئة لطرد سبينوزا وحرمانه الكنسي، خرج هير هـ. ف. ك. دوغلاس، واحد من كبار المعجبين بسبينوزا الهولنديين، بفكرة إقامة حفل تأبيني آخر بجانب اللوحة التي نصبت عام ١٩٢٧. وكان هير دوغلاس يعرف أنّ بن غوريون، رئيس

وزراء إسرائيل، من بين المعجبين كثيراً بسبينوزا، فطلب دعمه فقدمه له بحماسة، وعندما شاع الخبر في إسرائيل، تعهّد أعضاء منظمة إنسانية يهودية في حيفا، يرون أن سبينوزا هو سلف الإنسانية اليهودية، بتقديم حجرة بازلتية سوداء في هذه المناسبة. وحضر عدد كبير حفل إزاحة الستار، بالإضافة إلى ممثلين حكوميين من هولندا وإسرائيل. ولم يحضر بن غوريون حفل إزاحة الستار، لكنه زار النصب في حفل رسمي بعد ثلاث سنوات.

وضمّت اللوحة الجديدة التي وضعت إلى جانب تلك التي وضعت سنة ١٩٢٧، صورة نافرة لرأس سبينوزا وتحتها كلمة واحدة «*Caute*» (*الحذر*) التي وجدت على ختم خاتم سبينوزا، وكُتب تحت اللوحة الكلمة العبرية (*أمخا*)، أي «شعبك».

واعترض بعض الإسرائيليين على محاولات بن غوريون الرامية إلى استعادة سبينوزا إلى الديانة اليهودية. واستشاط غضب أعضاء الكنيست الأرثوذكس لفكرة تكريم سبينوزا، ودعوا إلى توبيخ بن غوريون ووزيرة الخارجية، غولدا مايير، لأنهما طلبا من السفير الإسرائيلي في هولندا أن يحضر حفل إزاحة الستار.

وكان بن غوريون قد تطرّق إلى موضوع طرد سبينوزا في مقال سابق، وقال: «يصعب لوم الطائفة اليهودية في القرن السابع عشر في أمستردام لأن موقفها لم يكن مستقراً... وكان من حق الطائفة اليهودية آنذاك أن تدافع عن تماسكها. أما الآن، فلا يحق للشعب اليهودي أن ينبذ سبينوزا الخالد من مجتمع إسرائيل»، وقال إن اللغة العبرية لا تكتمل من دون أعمال سبينوزا. وبعد نشر هذا المقال بفترة قصيرة، نشرت الجامعة العبرية المجموعة الكاملة لأعمال سبينوزا باللغة العبرية.

وأراد عدد من اليهود أن يناشد بن غوريون الحاخامية في

أمستردام لإلغاء قرار *الحرم*، لكنّه رفض وكتب: «لم أسع إلى إلغاء *الحرم*، لأنني أعتبر أن *الحرم* باطل ولاغ أصلاً. . . وهناك شارع في تل أبيب يحمل اسم سبينوزا، ولا يوجد شخص عاقل واحد في هذا البلد يمكن أن يفكّر في أن *الحرم* لا يزال سارياً».

قامت فرقة ERR التي يرأسها روزنبرغ بمصادرة مكتبة رنسبرخ سبينوزا سنة ١٩٤٢. ووصف نائب القائد شيمر، رئيس الفرقة في هولندا، عملية المصادرة في تقريره في سنة ١٩٤٢ (الذي أصبح لاحقاً وثيقة رسمية من وثائق محكمة نورمبرغ): «لقد صودرت مكتبات جميعة سبينوزا (سوسيتاس سبينوزانا) في دن هاغ ومن بيت سبينوزا في رنسبرخ أيضاً. عُبئت في ثمانية عشر صندوقاً، وتضم أيضاً أعمالاً ثمينة مبكّرة ذات أهمية كبيرة بغية كشف *مشكلة سبينوزا*. ولم تكن محاولة مدير متحف سبينوزانا، بادعاءاته الكاذبة التي كشفناها، إخفاء المكتبة عنّا، من دون مبرر».

نُقلت مكتبة رنسبرخ التي نُهبت إلى فرانكفورت مع أكبر مخزون من الكتب الثمينة تم نهبه في التاريخ العالمي. وبقيادة روزنبرغ، سرقت الفرقة التي يرأسها أكثر من ثلاثة ملايين كتاب من ألف مكتبة. وعندما تعرضت فرانكفورت لقصف قوات التحالف الشديد عام ١٩٤٤، نقل النازيون الكتب المنهوبة بسرعة إلى مواقع تخزين أخرى تحت الأرض. وأُرسلت مكتبة سبينوزا، بالإضافة إلى آلاف الكتب غير المصنّفة الأخرى، إلى منجم ملح في هانغن بالقرب من ميونيخ. وفي نهاية الحرب، نُقلت جميع كنوز هانغن إلى مستودع أوفينباتش الأمريكي المركزي، حيث بدأ جيش صغير من أمناء المكتبات والمؤرخين البحث عن أصحاب تلك الكتب الأصليين. ووجد أخيراً ديرك ماريوس غراسوينكل، وهو مؤرشف هولندي، كتب سبينوزا ونقل المجموعة بكاملها (باستثناء حفنة من الكتب) إلى

هولندا على متن السفينة الهولندية *ماري روتردام*. ووصلت الكتب إلى رنسبرخ في آذار (مارس) ١٩٤٦، وعرضت مرة أخرى في متحف سبينوزا حيث يمكن رؤيتها حتى يومنا هذا.

خلال فترة الشهر التي كان ألفريد ينتظر فيها محاكمته، ظل في زنزانة انفرادية في سجن نورمبرغ، لا يلتقي به أحد سوى محاميه، وهو طبيب عسكري أمريكي وطبيب نفساني. ولم ير أحداً من النازيين الآخرين حتى يوم ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٥، يوم بدء المحاكمة، عندما جُمعوا أمام الهيئة القضائية وفرق المدّعين العامين من الولايات المتحدة، وبريطانيا العظمى، وروسيا، وفرنسا. وخلال الأحد عشر شهراً التالية، جُمعوا في القاعة نفسها ٢١٨ مرة.

قُدِّم للمحاكمة أربعة وعشرون متّهماً، إلّا أنه لم يمثل أمام المحكمة سوى اثنين وعشرين متهماً. لأن المتهم الثالث والعشرين، روبرت لاي، شنق نفسه بمنشفة في زنزانته قبل أسبوعين، في حين كان سيُحاكم المتهم الرابع والعشرون، مارتن بورمان، «الدكتاتور رئيس مكتب هتلر» غيابياً، مع أنه كان يُعتقد بأنه قُتل عندما اجتاح الروس برلين. أُجلس المتّهمون في أربعة مقاعد خشبية رتّبت في صفّين، ووقف وراءهم صفّ من الجنود المسلّحين في حالة استعداد. وكان ألفريد الثاني يجلس في المقعد الأمامي إلى اليمين، أما في مقدمة المقعد إلى اليسار، فكان يجلس غورينغ هيس، وجوشيم فون ريبينتروب، وزير الخارجية النازي؛ والفيلد مارشال ويلهيلم كيتيل، القائد الأعلى للجيش. وخلال أشهر الاعتقال التي سبقت المحاكمة، أُوقف غورينغ عن تناول الدواء، وخسر خمسة وعشرين باونداً من وزنه، وبدا دمثاً ومرحاً الآن.

وإلى يمين ألفريد، جلس إيرنست كالتينبرانير، أعلى ضابط رتبة

في قوات الحماية ظلّ على قيد الحياة. وجلس إلى يساره هانز فرانك، الحاكم العام لبولندا المحتلّة؛ ويلهيلم فريك، حامي الرايخ لبوهيميا مورافيا. وفي نهاية المقعد، جلس يوليوس شترايخر، محرّر صحيفة دير شتورمر (*المهاجم*). لا بدّ أن ألفريد كان مرتاحاً لأنه لم يجلس إلى جانب شترايخر الذي كان يعتبره شخصاً بغيضاً.

وفي الصفّ الثاني، جلست شخصيات بارزة مثل الأدميرال دونيتز، رئيس الرايخ بعد انتحار هتلر وقائد الحملة البحرية، والفيلد مارشال ألفريد جودل. وكانا كلاهما يحتفظان بهيئة عسكرية متغطرسة، ثم جلس فريز سوكيل، رئيس برنامج السخرة النازي، ثم آرثر سيس إنكارت، مفوّض الرايخ لدى هولندا، ثمّ ألبرت سبير، صديق هتلر المقرّب والمهندس المعماري - الرجل الذي كان ألفريد يكرهه بقدر كراهيته لغوبلز، ويليه والثر فانك الذي حوّل بنك الرايخ إلى مستودع للأسنان الذهبية والأشياء الثمينة الأخرى التي تم الاستيلاء عليها من ضحايا معسكر الاعتقال؛ وبالدور فون شيراتش، رئيس برنامج الشباب النازي. أما المتّهمان الآخران في الصفّ الخلفي فكانا رجلَي أعمال نازيين غير معروفين كثيراً.

استغرق اختيار كبار مجرمي الحرب النازيين شهوراً. وبالطبع، لم يكن هؤلاء يشكلون الحلقة الداخلية الأصلية لهتلر. لكن بعد انتحار هتلر وغوبلز وهيملر، أصبح هؤلاء الرجال يمثّلون النازيين المعروفين. وأخيراً، دخل ألفريد روزنبرغ تلك الحلقة الداخلية. وانسجاماً مع شخصيته، حاول غورينغ الذي يحتل المرتبة الثانية في القيادة بعد هتلر، السيطرة على المجموعة، باستخدام طرفة عين مغرية حيناً أو نظرة تخويف حيناً آخر، وأذعن له عدد كبير منهم. وعندما رأى فريق الادعاء أن غورينغ قد يؤثّر على شهادة المتّهمين الآخرين، اتّخذ خطوات سريعة بأن فصل غورينغ عنهم. وفي البداية

طلبوا من غورينغ أن يتناول طعامه وحده في أثناء استراحات الغداء خلال فترة المحاكمة، بينما كان المتّهمون الآخرون يجلسون إلى طاولات تتسع لثلاثة أشخاص. وللتقليل من تأثير غورينغ أكثر، فرضوا على جميع المتّهمين حبساً انفرادياً أكثر صرامة. وكعادته، رفض ألفريد المشاركة في الفرص الاجتماعية القليلة المتبقية المتاحة - أثناء وجبات الطعام، وأثناء التوجّه إلى قاعة المحكمة، أو التعليقات همساً أثناء المداولات. ولم يُخفِ الآخرون كراهيتهم له التي كان يبادلهم نفس الشعور: فهؤلاء الرجال هم الذين كان يعتبرهم مسؤولين عن فشل المؤسسة الأيديولوجية النبيلة التي صمّمها هو والفوهرر بدقة شديدة.

بعد بضعة أيام من المحاكمة، شاهد جميع أعضاء المحكمة فيلماً صادماً كان قد صوّره جنود أمريكيون بعد تحرير معسكرات الاعتقال، لم يُحذف منه ولا تفصيل مرعب: وأصيب جميع أعضاء المحكمة بالذهول مما رأوه من صور غرف الغاز، وأفران حرق الجثث، المكدسة بجثث نصف محروقة، وجبال من الجثث المتعفنة، وتلال ضخمة من الأشياء والأغراض التي أُخذت من الموتى: نظارات، أحذية أطفال رضع، شعر بشري. وركّز مصوّر أمريكي عدسته على وجوه المتّهمين وهم يشاهدون الفيلم. وبدا على وجه روزنبرغ الأبيض الرعب، وأشاح بعينيه عن الشاشة على الفور. وبعد الفيلم، أصرّ، هو وجميع المتّهمين النازيين الآخرين، على أنّه لم يكن يعرف شيئاً عن حدوث أشياء كهذه على الإطلاق.

هل هذا صحيح؟ إلى أي مدى كان يعرف عن إعدامات اليهود الجماعية في أوروبا الشرقية؟ ماذا كان يعرف عن معسكرات الموت؟ أخذ روزنبرغ هذا السرّ معه إلى القبر، ولم يترك أثراً على الورق، ولا إثباتاً جازماً. (حتى توقيع هتلر لم يظهر على أي وثيقة تتعلّق

بالمعسكرات)، وبالطبع، لم يكتب ألفريد قط شيئاً عن تلك المعسكرات في صحيفة *Beobachter*، لأن السياسة النازية كانت تمنع بوضوح التكلّم علناً عن وجود تلك المعسكرات. وسارع روزنبرغ وأعلن للمحكمة بأنه رفض حضور مؤتمر وانسي الهام في كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢، الذي حضره كبار البيروقراطيين النازيين والذي وصف فيه راينارد هيدريش خطط *الحلّ النهائي*. لكن روزنبرغ أرسل مساعده ألفريد ماير بدلاً عنه. لكن ماير كان مساعده المقرّب لسنوات عديدة، لذلك لا يمكن تصديق أنهما لم يتحدّثا عن مؤتمر وانسي.

وفي اليوم السابع عشر من المحاكمة، قدّم الادّعاء كإثبات فيلماً مدته أربع ساعات بعنوان «*الخطّة النازية*» جُمع من أفلام دعائية نازية مختلفة ومن أفلام نشرات الأخبار. وبدأ الفيلم بلقطات من فيلم ليني ريفينستاهل «*انتصار الإرادة*»، الذي ظهر فيه روزنبرغ مرتدياً بدلته الحزبية الرسمية الأنيقة، وهو يلقي كلمة حماسية. ولم يُخفِ ألفريد والمتّهمون الآخرون متعتهم بهذه الرحلة القصيرة التي أعادتهم إلى أيام مجدهم.

وعندما كان المتّهمون الآخرون يُستجوبون في قاعة المحكمة، كان ألفريد شارد الذهن. وكان يرسم أحياناً وجوه الأشخاص الموجودين في قاعة المحكمة. وفي بعض الأحيان كان يحوّل سمّاعات الترجمة للاستماع إلى مداولات المحكمة بالترجمة الروسية، فكان يبتسم ابتسامة متكلّفة ويهزّ رأسه للأخطاء الكثيرة التي ترد في الترجمة. وحتى أثناء استجوابه، كان ينصت إلى الترجمة الروسية ويحتجّ علناً على الأخطاء الكثيرة في الترجمة الفورية.

وخلال فترة المحاكمة كلها، عاملت المحكمة روزنبرغ بجديّة أكثر مما عامله النازيون أنفسهم. ووصفته المحكمة في أحيان كثيرة

بأنه المنظّر الإيديولوجي القيادي للحزب النازي، الرجل الذي رسم مخطّط الدمار الأوروبي، ولم ينكر روزنبرغ هذه التهم أبداً. وقد يتخيّل المرء ردود فعل غورينغ المختلطة: السخرية من أهمية روزنبرغ المفترضة في الرايخ الثالث، ومن الناحية الأخرى، كان يضحك لأن روزنبرغ لم يكن يدرك حقيقة أنه كان يدقّ مسامير نعشه بنفسه.

وخلال شهادة الدفاع الطويلة، أثارت نبرة روزنبرغ المراوغة والمتحذلقة، ولغته المعقّدة، حفيظة المدّعين العامين كثيراً. وبخلاف هتلر، لم يقتنعوا بادعائه أنه رجل عميق التفكير، ربّما لأن المحامين في نورمبرغ كانت لديهم نتائج اختبارات مُعامل الذكاء التي أجراها الطبيب النفساني الأمريكي اللوتينانت ج. م. غلبرت. فقد وضعت الدرجة ١٢٤ من مُعامل ذكاء روزنبرغ في مرتبة متوسطة بين المتّهمين الواحد والعشرين. (جاء يوليوس شترايخر، رئيس تحرير صحيفة هتلر المفضّلة، في المرتبة ١٠٦) ومع أن روزنبرغ حافظ على ابتسامته المتعالية التي تدرّب عليها طويلاً، لم يعد يخدع أحداً بأنه يفكّر أفكاراً عميقة لا يمكنهم فهمها.

وكتب كبير المستشارين الأمريكيين، قاضي المحكمة العليا في الولايات المتحدة، روبرت ج. جاكسون، «إن روزنبرغ، الكاهن الأكبر صاحب فكرة 'الجنس المتفوّق' هو الذي أدخل عقيدة الكراهية التي كانت الدافع لإبادة اليهود، وهو الذي وضع نظرياته المتعلقة بالكفار موضع التطبيق ضدّ البلدان الشرقية المحتلة. وأضافت فلسفته الغامضة أيضاً السأم إلى قائمة الأعمال الوحشية النازية الطويلة».

وفي مجموعة رسائله، كشف توماس دود، المحامي التنفيذي الأمريكي في المحكمة (ووالد السناتور كريستوفر دود)، عن مشاعره تجاه روزنبرغ: «لقد مضى يومان آخران. لقد استجوبت ألفريد روزنبرغ هذا الصباح وأظن أنّني قمت بعمل جيد... كان أصعب

شخص يمكن استجوابه - وغد كذاب مراوغ، لم أر مثله في حياتي. في الواقع فأنا أكرهه - إنه رجل ملفّق، منافق بكل معنى الكلمة».

وعلّق السير ديفيد ماكسويل، كبير المدّعين العامّين البريطاني بالقول، «الدليل الوحيد الذي قُدّم هو الزعم بأن روزنبرغ لا يؤذي ذبابة، وأنّ الشهود لم يروه وهو يؤذي ذبابة. كان روزنبرغ بارعاً في التعابير المجازية، متحذلقاً بيروقراطياً، وكان يبدو أن جمله التي لا تنتهي تدور وتدور، وتتشابك، وتلتصق بعضها ببعض، مثل شرائط سباغيتي غُليت إلى درجة عالية جداً».

واختتم البيان الختامي الذي قدّمه المدّعي العام الروسي، الجنرال رودينكو، بهذه الكلمات: «على الرغم من الجهود التي بذلها روزنبرغ للتلاعب بالحقائق والأحداث التاريخية، فهو لا يستطيع أن ينكر أنّه المنظّر الرسمي للحزب النازي الذي وضع منذ ربع قرن، الأسس 'النظرية' للدولة الهتلرية الفاشية، التي أفسدت طوال هذه الفترة ملايين الألمان أخلاقياً، وأعدّتهم 'فكرياً' لارتكاب الجرائم البشعة التي ارتكبها الهتلريون».

كان لدى روزنبرغ دفاع فعّال واحد ممكن- وهو أنّ زملاءه النازيين لم يأخذوه بجدية قط وتجاهلوا جميع السياسات التي اقترحها المتعلقة بالبلدان الشرقية المحتلّة. لكن نظرته المتضخّمة عن ذاته لم تمكّنه من الاعتراف علناً بعدم أهميته وتفاهته. بل اختار أن يراوغ ساعة بعد ساعة. وكما قال أحد المراقبين في نورمبرغ، «لم يكن بالإمكان فهم ما كان يقوله أكثر من قبض حفنة من سحابة».

وبخلاف المتّهمين الآخرين، لم ينكر روزنبرغ التهم الموجهة إليه قط. وفي النهاية ظل المؤمن الحقيقي الوحيد. فلم يتنكر لهتلر ولعقيدته العنصرية. «لم أر في هتلر طاغية»، قال روزنبرغ للمحكمة، «لكن مثل الملايين العديدة من الاشتراكيين القوميين، وثقت به

شخصياً بقوّة تجربته طوال أربع عشرة سنة. لقد خدمتُ أدولف هتلر بإخلاص، ومهما كان ما فعله الحزب خلال تلك السنوات، فإني أدعم ذلك أيضاً». وفي حديث مع متهم آخر، دافع عن هتلر إلى درجة أكبر بكثير: «مهما عدت بذاكرتي إلى كلّ ما جرى، فإني لا أزال أعتقد بأنه لا يوجد عيب واحد في شخصية ذلك الرجل».
وواصل إصراره بصواب عقيدته: «إن ما حفّزني طوال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة هو فكرة أنني لم أكن أريد أن أخدم الشعب الألماني فحسب، وإنما أن أخدم أيضاً أوروبا كلّها - بل في حقيقة الأمر، العرق الأبيض بكامله». وقبل موته بفترة قصيرة، أعرب عن أمله بأن لا تذهب فكرة الاشتراكية القومية طي النسيان وأن «تولد من جديد» بواسطة جيل جديد زادته المعاناة قوة».

كان يوم ١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٦، يوم الحساب. فقد كانت المحكمة قد عقدت ٢١٨ جلسة، وفي الأسابيع الستّة الماضية رفعت جلساتها عندما كان الخبراء القانونيون منهمكين في مداولاتهم المطوّلة. وفي صباح ١ تشرين الأول، عرف كلّ متهم، وفق ترتيب جلوسه، حكم المحكمة عليه. فبرّأت ثلاثة متّهمين - شاخت، وفون بابن، وفريتزش - وأطلقت سراحهم على الفور، ووجد الآخرون مذنبين ببعض التهم أو كلّها.

وفي مساء ذلك اليوم، عرف كلّ متهم مصيره. وكان ألفريد سادس رجل يواجه المحكمة: «المتهم ألفريد روزنبرغ، استناداً إلى التهم الواردة في قرار الاتهام، أصدرت المحكمة عليك حكماً بالموت شنقاً».

وسمع عشرة متّهمين آخرين أحكاماً مماثلة: غورينغ، وفون ريبينتروب، وكيتيل، وكالتنبرانر، وجودل، وفرانك، وفريك، وسترختر، وسيس - إنكوارت، وسوكيل. وحُكم على مارتن بورمان

بالإعدام غيابياً، وحكم على السبعة الآخرين أحكاماً بالسجن لفترات متفاوتة.

ونُفِّذت أحكام الإعدام في وقت مبكّر من صباح ١٦ تشرين الأول ١٩٤٦. وبعد إصدار الحكم، كان يقف حارس عسكري خارج كلّ زنزانة ليراقب السجين النزيل فيها على مدار الساعة من خلال فتحة صغيرة في باب الزنزانة. وقبل يوم تنفيذ الإعدام، بدأ المتّهمون يسمعون أصوات المطارق في أثناء نصب ثلاث مشانق في باحة السجن.

وفي الساعة الحادية عشرة من ليل ١٥ تشرين الأول، أي قبل ليلة واحدة من تنفيذ الإعدام، سمع الحارس الذي يحرس زنزانة غورينغ يئن ويرتعش في سريره. فهرع قائد المعسكر ومعه طبيب إلى زنزانته، لكن غورينغ كان قد فارق الحياة. وكانت قطع الزجاج في فمه شاهداً على أنه قضم كبسولة سيانيد. فقد وزعت مئات كبسولات الانتحار على القادة النازيين، لكن كيف تمكّن غورينغ بالرغم من عمليات التفتيش الشديدة والعديدة على جسده وأغراضه من إخفاء تلك الكبسولة التي أنهت حياته، ظل لغزاً. ولم يعرف المتّهمون الآخرون بموت غورينغ. فحل فون ريبينتروب محل غورينغ وأصبح أول متهم يُدعى لتنفيذ حكم الإعدام فيه. كان الحرّاس يدخلون كلّ زنزانة، الواحدة تلو الأخرى، وينادون اسم السجين، ثم يرافقون المتهم إلى الملعب الذي كان ضباط الأمن الأمريكيون يستخدمونه قبل يومين للعب كرة السلة. وفي ١٦ تشرين الأول، نصبت في الملعب ثلاث سقالات خشبية مطلية باللون الأسود. واستُخدمت مشنقتان بالتناوب، أما الثالثة فقد نصبت للاحتياط. ووضعت ألواح خشبية أسفل قاعدة السقالة كي لا يرى الناس الشخص المشنوق عندما يسقط وهو يتلوى عند طرف الحبل.

كان دور روزنبرغ الرابع. كان مقيّداً، وجُلب إلى قاعدة المشنقة، وسُئل عن اسمه. وبصوت هادئ أجاب، «روزنبرغ» يمسكه من ذراعه سرجنت في الجيش الأمريكي من كلّ جانب، صعد الثلاث عشرة درجة إلى المشنقة. وعندما سُئل إن كان يريد أن يقول كلمات أخيرة، بدت عيناه المستديرتان الغامقتان في حيرة، ثم رمق الجلاد بضع لحظات وهزّ رأسه بقوة. أما النازيون التسعة الآخرون، فقد قال كلّ منهم كلماته الأخيرة - فقد صاح ستريختر، «البلاشفة سيشنقونكم ذات يوم». أما روزنبرغ، فقد ذهب إلى حتفه بصمت، مثل أبي الهول.

وضعت جثامين غورينغ والرجال المشنوقين التسعة في توابيت وأُخذت لهم صور لإثبات موتهم. وتحت جنح الظلام، نُقلت الجثامين العشرة إلى داتشو، حيث أُشعلت الأفران للمرّة الأخيرة وأُحرق فيها صانعوها. ستّون باونداً من الرماد، كان كلّ ما تبقى من هؤلاء القادة النازيين، نُثرت فوق أحد الجداول وسرعان ما انجرفت إلى نهر إيزار الذي يتدفّق عبر ميونيخ حيث بدأت هذه القصّة الأكثر حزناً والأكثر ظلاماً.

حقيقة أم خيال؟ وضع الحقيقة في نصابها

حاولت أن أكتب رواية كان من الممكن أن تحدث. ظللت ملتصقاً قدر الإمكان بالأحداث التاريخية، واعتمدت كثيراً على خلفيتي المهنية كطبيب نفساني لأتخيّل العوالم الداخلية لأبطالي، بنتو سبينوزا وألفريد روزنبرغ. وقد اختلقت شخصيتين هما: فرانكو بنيتيز وفريدريش بفيستر، ليكونا بمثابة مدخل إلى نفسيّة أبطالي. وبالطبع، فإن جميع المشاهد التي ظهرا فيها، خيالية.

ربّما لأن سبينوزا اختار أن يظلّ مخفياً، فلا يُعرف عن حياته إلّا النزر اليسير. وتستند قصّة الزائرين اليهوديين، فرانكو وجاكوب، إلى قصة قصيرة وردت في السيرة الذاتية المبكرة لسبينوزا التي ذكرت أن شابين لم يُذكر اسمهما بادرا الحديث مع سبينوزا بهدف تشجيعه على البوح بأفكاره الهرطقية. وبعد فترة وجيزة، قطع سبينوزا علاقته بهما، فوشيا به إلى الحاخام مورتيرا والطائفة اليهودية. لا يُعرف شيء آخر عن هذين الشابين - وهي حالة غير مستحبة لأي روائي - ويشك بعض دارسي سبينوزا في مصداقية هذه القصة كلها. لكن بالرغم من ذلك، قد تكون قد حدثت. أما دويرت رودريغز الجشع الذي صوّرت بأنه عمّ الشابين الذي تقدّم بشكوى ضدّ سبينوزا، فهو شخصية حقيقية موجودة.

أما كلمات وأفكار سبينوزا التي وردت في مجادلاته ومناقشاته مع جاكوب وفرانكو، فهي مستمدّة إلى درجة كبيرة من كتابه «*رسالة في اللاهوت والسياسية*». وفي الحقيقة، فإني أستمدّ في الرواية

كلّها، الكثير من كلماته وعباراته من ذلك الكتاب ومن كتابه «الأخلاق» بالإضافة إلى مراسلاته. أما صورة سبينوزا بأنه يملك متجراً فهي صورة متخيّلة، ويُشكّ إن كان سبينوزا قد أدار مخزناً لتجارة التجزئة، علماً أنه كانت لدى والده، مايكل سبينوزا، شركة استيراد وتصدير ناجحة، وعندما بلغ سبينوزا سنّ الرشد، شهدت الشركة أوقاتاً عصيبة.

وكان معلّم سبينوزا، فرانسيسكوس فان دن إندن رجلاً جذّاباً، نشيطاً، حرّ التفكير انتقل لاحقاً إلى باريس وأعدمه لويس الرابع عشر بتهمة التخطيط لإسقاط الحكم الملكي. أما ابنته، كلارا ماريا، فيكاد يرد وصفها في كلّ السير الذاتية لسبينوزا بأنها فتاة في غاية الذكاء، جذابة، وتزوّجت ديرك كيركرينك، زميل سبينوزا في الصفّ الذي كان يدرس فيه في أكاديمية فان دن إندن.

ومن بين الحقائق القليلة المعروفة عن سبينوزا، فإن أكثر الحقائق المؤكدة هي حرمانه وطرده من الطائفة اليهودية، وقد استخدمتُ نصّ وثيقة *الحرم* الرسمية بحذافيره. ومن المرجح أن سبينوزا لم يتصل قط بأي يهودي بعد ذلك. وبالطبع، فإن صداقته مع اليهودي فرانكو متخيّلة تماماً. فقد تخيّلت فرانكو رجلاً يسبق زمانه، تجسيد مسبق لموردخاي كابلان، الرائد الذي ظهر في القرن العشرين ونادى بتحديث اليهودية وعلمنتها. والتزم شقيق سبينوزا وشقيقته بالحرم التزاماً تاماً وقطعا أي تواصل مع شقيقهما. وكما ذكرت سابقاً، فقد ظهرت شقيقته ريبيكا بعد وفاته بقليل وطالبت بالعقار الذي يسكنه سبينوزا. وهاجر غابرييل إلى إحدى الجزر في البحر الكاريبي ومات فيها بعد إصابته بالحمى الصفراء. وكان الحاخام مورتيرا شخصية مرموقة في صفوف الطائفة اليهودية في القرن السابع عشر، ولا تزال العديد من مواعظه موجودة حتى الآن.

ولا يكاد يُعرف شيء عن ردّة فعل سبينوزا العاطفية والانفعالية إزاء طرده ونبذه من طائفته ومجتمعه. وإن تصويري لردّة فعله خيالية محضة، لكني أرى أنها ردّة الفعل المحتملة التي يمكن أن تحدث بعد الانفصال الجذري عن الجميع والتي قد تكون قد انتابته. أما المدن والبيوت التي أقام فيها سبينوزا، وعمله في طحن وصقل العدسات، وعلاقته بالمجمعيين، وصداقته بسيمون دي فريس، ومطبوعاته التي لا تحمل اسماً، ومكتبته، وأخيراً، ظروف موته وجنازته - فهي كلّها صحيحة ومثبتة تاريخياً.

توجد حقيقة تاريخية أكبر في الجزء المتعلق بالقرن العشرين من الرواية. لكن فريدريش بفيستر شخصية خيالية بالكامل، وكلّ الأحاديث واللقاءات بينه وبين ألفريد روزنبرغ متخيّلة. لكن، من تصوري وفهمي لتركيب شخصية روزنبرغ وحالة العلاج بالتحليل النفسي في أوائل القرن العشرين، فقد تكون كلّ الأحاديث والتفاعلات التي جرت بين روزنبرغ وبفيستر قد حدثت. وفي جميع الأحوال، وكما قال أندريه جيد: «التاريخ قصة حدثت، والقصة تاريخ قد يكون قد حدث».

وكما أشرت في المقدّمة، يرد في الوثيقة (17b-PS) التي كتبها ضابط في فريق ERR الذي يرأسه روزنبرغ (شيمير) الذي صادر مكتبة سبينوزا، أن المكتبة ستساعد النازيين في إكتشاف «مشكلة سبينوزا». ولم أستطع أن أجد أيّ دليل آخر يربط بين روزنبرغ وسبينوزا. لكن من الممكن أن يكون ذلك قد حدث فعلاً: فقد كان روزنبرغ يعتبر نفسه فيلسوفاً، ولا شك في أنه كان يعرف أنّ الكثير من المفكّرين الألمان العظام يبجّلون سبينوزا. بالتالي فإن جميع الفقرات التي تربط سبينوزا وروزنبرغ خيالية (بما فيها الزيارتان التي قام بهما روزنبرغ إلى متحف سبينوزا في رنسبرخ). وفي جميع السبل

الأخرى، حاولت أن أنقل تفاصيل حياة روزنبرغ الرئيسية بدقّة. إذ نعرف من مذكراته (التي كتبها في السجن خلال محاكمات نورمبرغ) أنّه كان بالفعل «متحمساً جداً» وهو في السادسة عشرة من عمره، للكاتب المعادي للساميّة هيوستن ستيوارت تشامبرلن. وقد ألهمت هذه الحقيقة اللقاء المتخيّل بين المراهق روزنبرغ والمدير إبشتاين وهير شافر.

وتستند التفاصيل الواسعة عن حياة روزنبرغ اللاحقة إلى السجلات التاريخية: عائلته، تعليمه، زيجاته، تطلّعاته الفنية، تجربته في روسيا، ومحاولته للتطوع في الجيش الألماني، وهروبه من إستونيا إلى برلين ثمّ إلى ميونيخ، وتدربه على يد ديتريش إكارت، وتطوره كمحرّر، وعلاقته مع هتلر، ودوره في انقلاب ميونيخ، واجتماعه الثلاثي مع هتلر وهيوستن ستيوارت تشامبرلن، والمناصب النازية المختلفة، وكتاباته، وجائزته الوطنية، وتجربته في محاكمة نورمبرغ.

ولديّ ثقة في تقديمي لحياة روزنبرغ الداخلية أكبر من تقديمي لحياة سبينوزا لأنه تتوفر لديّ معلومات أكثر بكثير مستمدّة من خطابات روزنبرغ وكتاباته عن سيرته الذاتية، ومن ملاحظات الآخرين عنه. وفي الواقع، كان قد أُدخل إلى عيادة هوهينليتشين مرّتين لمدة ثلاثة أسابيع في عام ١٩٣٥ ولمدة ستة أسابيع في عام ١٩٣٦، لأسباب نفسية، في جزء منها على الأقل. وقد أوردت نص الرسالة التي بعث بها الطبيب النفساني الدكتور غيبارت إلى هتلر والتي يصف فيها المشاكل المتعلقة بشخصية روزنبرغ (ما عدا الفقرة النهائية المتخيّلة التي تتناول فريدريش بفيستر) بحذافيرها. وللمصادفة، فقد أُعدم الدكتور غيبارت شنقاً عام ١٩٤٨ كمجرم حرب بسبب التجارب الطبية التي كان يجريها على الأسرى في معسكرات الاعتقال. وقد

أوردت الرسالة التي أرسلها تشامبرلن إلى هتلر حرفياً، وأوردت جميع عناوين الصحف الرئيسية، والقرارات، والخطابات بدقة وإخلاص. أما محاولات فريدريش في علاج ألفريد روزنبرغ بالتحليل النفسي فهي تستند إلى الطريقة التي من الممكن أن أستخدمها شخصياً في معالجة شخص تشبه حالته حالة روزنبرغ.

وأخيراً، على الرغم من وجود امرأتين يهوديتين مختبئتين في السقيفة في متحف سبينوزا، فقد سمحتُ لنفسي فنياً أن أضعهما هناك خلال عملية مصادرة النازيين للمكتبة: أما في الحقيقة فقد جاءتا لتسكنا فيها بعد عدة أشهر.

هذا الكتاب

في رواية **مشكلة سبينوزا**، يمزج يالوم الواقع بالخيال ليحبك دراما نفسية - فلسفية رائعة. وتسير قصّة المفكر باروخ سبينوزا الذي عاش في القرن السابع عشر، والذي أدت فلسفته إلى نبذه وإقصائه من الطائفة اليهودية، جنباً إلى جنب مع قصّة صعود وسقوط المنظّر النازي، ألفريد روزنبرغ، الذي أمر فرقته بنهب محتويات مكتبة سبينوزا القديمة بهدف التوصل إلى حلّ «لمشكلة سبينوزا». وتتنقل الرواية على نحو بديع ومتماسك بين عصر أمستردام الذهبي وألمانيا النازية. ويبحث يالوم بعمق في الحياة الداخلية لهذين الرجلين المليئة بالغموض، في قصة تبحث في التأثير والقلق، وأصل الخير والشر، وفلسفة الحرية وطغيان الرعب.

إنها رواية جريئة، مكتوبة بلغة جميلة، مفعمة بأوصاف حيوية للأشخاص والأماكن. إنها مثال آخر عن قدرة طبيب ومحلل نفساني، بما يملكه من مخزون علمي ومعرفي، على التعبير عن أسرار لا يتم البوح عنها إلّا في عيادة الطبيب النفساني، وقد نسجها في سطور من ذهب، لا يستطيع أن يفعل بذلك إلّا قاصٌّ موهوب يتمتع بمعرفة عميقة مثل يالوم.

الغلاف : سكينة صلوَن

ISBN 978-9922605159
9 789922 605159

